ترجمان

بيار كونيسا

صنع العدو
أو كيف تقتل بضمير مرتاح

ترجمة: نبيل عجان



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

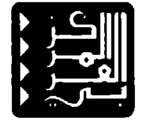
صنع العدو
أو كيف تقتل بضمير مرتاح

بيار كونيسا

ترجمة
نبيل عجان

مراجعة
جمال شحيّد
سعود المولى





الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

كونيسا، بيار

صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح/ بيار كونيسا؛ ترجمة نبيل عجان؛ مراجعة جمال شحيّد وسعود المولى.

318 ص. ؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-614-445-017-8

1. الحرب والمجتمع. 2. الحرب والسلام. 3. الحرب - فلسفة. 4. الإستراتيجية. 5. السياسة والحرب. أ. عجان، نبيل. ب. شحيّد، جمال. ج. المولى، سعود. د. العنوان. هـ. السلسلة.

303.66

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

La fabrication de l'ennemi
ou comment tuer avec sa conscience pour soi

by Pierre Conesa

عن دار النشر

Robert Laffont

الناشر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 - منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر
هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان
هاتف: 8 - 1991837 - 00961 فاكس: 1991839 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو 2015

المحتويات

الكتاب الثاني
وجوه العدو: محاولة تصنيف

الكتاب الثالث
تفكيك العدو

تمهيد

ميشال فييفيوركا

شق بيار كونيسا (Pierre Conesa) طريقه المهني بشكل رئيس في عالم الاستراتيجية العسكرية. وقد تعرفت إليه شخصيًا في التسعينيات، حين كان يشغل منصب أحد مديري مفوضية الشؤون الاستراتيجية (DAS) التابعة لوزارة الدفاع، وطلب إلي أن أفكر في الأشكال الجديدة التي يتخذها العنف في العالم(*). اجتمعت إليه بعد ذلك مرات عدة حين كان يشغل منصب المدير العام للشركة الأوروبية للذكاء الاستراتيجي (*Compagnie européenne d'intelligence stratégique*) وهو مكتب دراسات مهم. ويعني هذا أنه حين يتناول بيار كونيسا موضوع الحرب أو الدفاع، أو العنف والاستراتيجيا فهو يعرف عما يتحدث، إذ إنه ليس كاتبًا جاهلًا.

من هنا تنبع الصدمة المنقذة الناجمة عن قراءة هذا الكتاب الذي يفكك، وعلى أكثر من صعيد، ليس طرائق المقاربة التي يتم تبنيها عادة حين يتعلق الأمر بالحرب والسلم فحسب، بل أيضًا الأفكار التي يمكن أن تراودنا بخصوص مواقف عدة نعتقد أننا نسيطر على مداخلها ومخارجها فكريًا. ولن نتكلم على الاستراتيجية العسكرية بعد قراءة هذا الكتاب كما كنا نتكلم عليها قبله، وسننظر بصورة مختلفة إلى الأوضاع الملموسة والتاريخية المذكورة فيه.

(*) هذه الفكرة التي ناقشناها جماعيًا في حرم مختبر كاديس (CADIS) الذي كنت أديره، أفضت إلى كتاب «**نموذج جديد للعنف؟**» «*Un nouveau paradigme de la violence?*,»، الذي نشرته عام 1998 مجلة **ثقافات ونزاعات** (*Cultures et Conflits*) في عدد خاص 29-30، خريف - شتاء 1989.

مع كتاب مماثل، فإننا أبعد ما نكون عن كتاب موجز في الاستراتيجيا. وقد كان بإمكان بيار كونيسا أن يقدمه كتابًا موجزًا مضادًا حقيقيًا؛ إذ إن الأمر هنا يتعلق بقطيعة مع التحليل الاستراتيجي التقليدي، حتى التحليل المحسَّن منه، أخذًا في الاعتبار نهاية الحرب الباردة التي أعطت المعسكرين الكبيرين - أي الغرب والشرق - تعريفًا ملائمًا جدًا للعدو. وقبل جرد الاستدلالات العسكرية والدبلوماسية والجيوسياسية وإعدادها، يمكننا القول إن هنالك بالفعل عمليات أساسية لصنع العدو، كما يشرح لنا بيار كونيسا. ومن المحتمل أن يتحرّك العقل العسكري لإيجاد الأنماط التي تعدّ الأكثر قدرة على القضاء عليه أو إخضاعه، شرط أن يحدد هؤلاء الذين ينتجون ويؤثرون في الرأي العام (وسائل الإعلام، السلطة السياسية، المثقفون والزعماء الدينيون... إلخ) العدوَّ، ويُستدل عليه بصفته هذه فحسب. إذًا يقترح علينا بيار كونيسا تساؤلًا جديدًا، وسيقتصر منهجه المثمر على إعداد تصنيف لطرائق صنع العدو وتحليل الأساليب الرئيسة التي يمكن استخدامها لهذا الغرض.

يمكن القول إن هذه الطريقة في التفكير مدمرة بالنسبة إلى الأفكار المسبقة، لأنها تبين أن الحساب الاستراتيجي يستند دومًا إلى خرافات وإلى أيديولوجيات وأكاذيب متعمّدة نوعًا ما، وإلى معرفة معدومة للواقع ولحالة الفاعلين المعنيين. وتبعدنا هذه الطريقة من المفكرين الاستراتيجيين، بل حتى من هؤلاء الأكثر تأثيرًا مثل كارل فون كلاوزفيتز (Karl von Clausewitz). وتقترب أحيانًا من كارل شميت (Carl Schmitt) الحقوقي والفيلسوف الناري الذي يعتبر أن تعريف العدو هو وظيفة السياسي الأولى، حتى وإن كان بيار كونيسا يتميز عنهم بتأكيده أن تفكيك العدو يمثل أيضًا عملية سياسية. وتنكشف مع المؤلف المقاربات الملموسة التي يرتكز عليها العديد من القرارات الاستراتيجية، على نمط جان بودريار (Jean Baudrillard) الذي استعاد قولًا مشهورًا لكارل فون كلاوزفيتز، يقول فيه إن الحرب في العراق التي أرادها جورج بوش الابن (George W. Bush) كانت تشكل استمرارية لغياب السياسة عبر وسائل أخرى.

إن لدى بيار كونيسا طريقته الخاصة في تفكيك الفكر الكلاسيكي، حيث يضع في المقدمة، بطريقة منهجية، الأفكار والملاحظات والإثباتات الدقيقة

ويوضحها كل مرة بمثال أو ببعض الأمثلة الملموسة في بضعة أسطر، من دون الإحالة إلى مراجع فائضة عن الحاجة. وليس بحثه هذا أطروحة جامعية، لكنه ليس أقل دقة من الأطروحات. ويمكن أن يسمح لنفسه باستخدام طريقة عرض كهذه، لأنه يتملك الموضوع المعني كليًا في ما يخص كل تجربة، وبشكل مقتضب، وهو على معرفة تامة بالملف، بل يمكنه أن يقدم حججًا دامغة. وأنا لا أتفق معه دائمًا، بل إنني أرى أنه يغالي في بعض الأوقات، لكن في الإجمال تسحرني قوة منهجه التي يمكنها أن تبدو عند مؤلفين آخرين مماحِكة أو سطحية، في حين أن الأمر يتعلق بإيضاح صريح وجلي لمجموعة من النقاط التي تبني تفكيرًا متكاملًا معززًا بأمثلة يمكن لأي كان أن يتعمق في الاستعلام عنها بسهولة إذا أراد ذلك.

يمتلك بيار كونيسا قلمًا رشيقًا، وأيضًا لاذعًا و«مؤلمًا»؛ وهو لا يتساهل مع الغباء، والتزييف، والأيديولوجيا، والكسل الفكري أو الكذب ولا يقبل «الكيل بمكيالين»، ما يجعلنا نطبّق على الآخرين، أي الأعداء، أنماط فكر لا نقبلها لأنفسنا.

تجعلنا قراءة هذا الكتاب اللاذع نشارك باستمرار بيار كونيسا ابتهاجه، الذي يكشف لنا عشرات المرات في الصفحة الواحدة، بوضوح وبشكل حتمي، الدناءة الفكرية لدى هؤلاء الذين يسهمون بصنع الأعداء. وحين تتلاشى أول لحظة متعة أو تصبح وراءنا، نشعر بالقشعريرة ونبدأ بالتفكير في القضايا الكبرى في عالمنا المعاصر، متسائلين عن كل هذه الورطات القاتلة التي كان يمكن للبشرية تفاديها لو أنها امتلكت قدرًا أكبر من التأمل والتعقل وحس العدالة. والحقيقة أن الفكر الاستراتيجي مع بيار كونيسا وجد مثقفَه الناقد.

مقدمة المؤلف

يقول هنري ميشو[1] (Henri Michaux) بطريقة واضحة وضوح الشمس، إن تحديد الأعداء والأصدقاء والتحقق منهم يشكل آلية ضرورية قبل شن الحرب، وعند انتهاء النزاع يحتسب المتنازعون الحصيلة السلبية ذاتها: لقد كانت الحرب أسوأ الحلول لكن الناس خضعوا لها، مرة أخرى، ومن المنطقي أن نحاول فهم كيفية إنتاج العجرفة الحربية التي تدفع الناس إلى أن يقتل بعضهم بعضًا بطريقة شرعية.

ذلك أن الحرب هي، قبل كل شيء، ترخيص ممنوح شرعيًا لقتل أناس لا نعرفهم (أو أحيانًا نعرفهم حق المعرفة على غرار الحروب الأهلية) لكنهم يتحولون فجأة إلى طرائد يجب تعقبها والقضاء عليها. إن الحرب هي اللحظة «غير الطبيعية»؛ إذ يمكن معاقبة من يرفض قتل العدو بالموت، لذا يتعين علينا القيام بذلك عن طيب خاطر والاقتناع بما نفعل.

لا يهدف هذا الكتاب إلى تحديد طريقة مقبولة أو غير مقبولة للقتل، لكنه يرنو إلى تحليل كيفية نشوء علاقة العداوة، وكيف يُبنى المتخيَّل قبل الذهاب إلى الحرب. وقبل دراسة أشكال العنف، مهما كانت، فإن ما يهمنا هو الطريقة التي تجعل العنف شرعيًا ومقبولاً؛ إذ في الدول الديمقراطية يجب على الحرب أن تكون «ديمقراطية».

على مر التاريخ، تكثر أمثال صناعة العدو. فلقد عرفنا «الخطر الأصفر»، أي الاختراع العبقري لغيّوم الثاني (Guillaume II) بغية تبرير مشاركة ألمانيا في

(1) Henri Michaux, *Face aux verrous*, Collection Poésie/ Gallimard; n° 258 (Paris: Gallimard, 1992).

تقسيم الصين. وعرفنا «ألبيون الغدّارة»، وهو الوصف الذي أطلقته فرنسا على بريطانيا العظمى، متهمة إياها بأنها منعتها من الاستعمار بطريقة هادئة. وعرفنا «المؤامرة اليهودية - الماسونية» للبلوتوقراطيين (أي الأثرياء المتنفذين) التي ازدهرت في فترة ما بين الحربين العالميتين، والتي استخدمت لتبرير المحرقة النازية (الهولوكوست) وتجريد حملات الاعتقال قبل أن تعود إلى الظهور بصورة مشتتة. لكن هل اختفت تمامًا هذه الآلية التي أنتجت هذه الأساطير، والتي شرعنت الكثير من الحروب؟ يشكل خطاب الرئيس جورج بوش في 29 كانون الثاني/ يناير 2002 حول حال الاتحاد، والذي يشير بشكل أحادي إلى بلدان «محور الشر» الثلاث، مثالًا معاصرًا للإنتاج المصطنع للأعداء قدمته أقوى ديمقراطية في العالم. ولم يكن ممكنًا بالنسبة إلى أي دولة من الدول الثلاث المذكورة (إيران والعراق وكوريا الشمالية) أن يُشَك في تورطها باعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، لكن الرئيس بوش أعلن للشعب الأميركي، المصدوم نفسيًا من الإرهاب، قراره بمحاربة... انتشار أسلحة الدمار الشامل! وانقسمت أوروبا التي كانت دومًا متحدة ضد العدو السوفياتي إلى معسكرين متعارضين، فقد كانت «أوروبا العجوز» تعدّ صدام حسين مشكلة، لكنها كانت ترفض اعتبار طاغية بغداد مبررًا للحرب. أما «أوروبا الجديدة» فتبعت واشنطن وشاركت في الحملة العسكرية على «التهديد العراقي».

حين لفظ ألكسندر أرباتوف (Alexandre Arbatov)، المستشار الدبلوماسي لميخائيل غورباتشوف (Mikhaïl Gorbatchev)، جملته الشهيرة «سنقدم لكم أسوأ خدمة، سنحرمكم من العدو!»، فقد أثبت نظرية الإبطال التقني للقطاع الاستراتيجي الغربي، إذ لم يعد هناك وجود بعد الآن لتهديد قاتل! بل سلام حقيقي فحسب. بيد أن النزاعات والتلويحات بالحرب لم تنخفض عدديًا، بل ربما قلّت خطورتها بعض الشيء، حيث أصبحت إقليمية، وتبدو لنا أحيانًا مبهمة. لكن كيف يمكن شرح النزاع بين الإكوادور والبيرو عام 1997 حول منطقة غابة استوائية كثيفة غير مكتشفة؟ أو إقفال الحدود بين الجزائر والمغرب منذ 25 عامًا، على الرغم من إعلان اتحاد المغرب العربي هدفًا أساسيًا في البناء الإقليمي؟ أو احتفال بوليفيا بـ «يوم البحر» في ذكرى هزيمة حرب المحيط الهادئ عام 1833 والتذكير بالمطالبة بممر بحري؟

يجد الاحتراب جذوره في حوادث الواقع، لكنه كثيرًا ما يجدها كذلك في بنى أيديولوجية، وفي تهيؤات أو في أشياء مبهمة. وتضع هذه الدراسة فرضية أن العدو هو عبارة عن عملية بناء؛ فحين توصلنا العلاقة الاستراتيجية إلى الحرب، فإنها تؤلف مسارًا جدليًا يتضمن فعل الطرف الأول وصورته، وتؤثر في فعل الطرف الثاني وصورته.

وخلافًا لما نستطيع قراءته في كتب العلاقات الدولية، فإن الديمقراطية ليست حاملة للسلام بذاتها، وإلا لما قامت الاستعمارات الفرنسية والبريطانية قط، ولما وُجد الأميركيون في العراق، ولما استعمر الإسرائيليون الأراضي المحتلة. على العكس من ذلك، فإن الأنظمة الدكتاتورية ليست كلها داعية إلى الحرب. فنظام «ميانمار» (Myanmar) العسكري أو برتغال «سالازار» (Salazar) هما خير مثال على ذلك. ويسهل كثيرًا على الدكتاتورية، ببساطة، أن تكتسب عدوًا: سواء أكان داخليًا، كما الحال بالنسبة إلى الدكتاتورية العسكرية البيرمانية، أم خارجيًا، كما الحال بالنسبة إلى الجنرالات الأرجنتينيين الذين أعادوا إحياء المطلب المتعلق بجزر الفوكلاند البريطانية، أو خلط الاثنين معًا، كما الحال بالنسبة إلى النظام الهتلري الذي حدد عدوه، أي اليهود والأعراق البشرية الأدنى، والديمقراطيات وفرنسا والشيوعيين... إلخ، أو الستالينية التي نددت بالتروتسكيين والبوخارينيين والجواسيس وأعداء الاشتراكية والإمبرياليين... لكن ما الحال بالنسبة إلى الدول الديمقراطية؟

لنتابع التساؤل على النحو الآتي: تتشكل الصورة الدولية وتستمر عند الرأي العام وفقًا لأنماط يجب تشريحها: هكذا اكتسبت الهند، وهي قطعيًا أعظم ديمقراطية في العالم، لقب «بلد اللاعنف» مع المهاتما غاندي. غير أنها قادت ستة حروب خارجية (أربعًا ضد باكستان، وواحدة ضد الصين)، وتدخّلًا في سريلانكا، وقادت هجومًا عسكريًا كعملية شرطة داخلية على معبد أمريتسار الذهبي لتحطيم الحركة القومية للسيخ. يا له إذًا من تعريف غريب للاعنف! وعلى النقيض من ذلك، فإن الصين التي تُقَدَّم غالبًا على أنها بلد مهدِّد، تبدو وكأنها مشغولة، قبل كل شيء، باستقرارها الداخلي؛ فلم تتدخل منذ عام 1949 إلا في نزاعين خارجيين (كوريا والهند) وقامت بإعادة غزو استعماري (للتيبت).

لا تتيح الحوادث ذاتها، والصور ذاتها، والذكريات والمعارك والتواريخ ذاتها، الإدراكات ذاتها، وليس لها المعنى ذاته في كل مكان، فحقيقة الديمقراطية التي لدينا مجتزأة. ويشكل تأسيس دولة إسرائيل بالنسبة إلى يهود العالم كله نهاية اضطهاد طويل بلغ ذروته في الـ «Shoah»، أي الإبادة التي ارتكبها الأوروبيون، لكن ليس لها أي معنى في البلدان الإسلامية التي أمّنت بشكل واسع، وعلى مدى قرون عدة، الحماية والأمن لليهود الذين طردهم المسيحيون. ويُفسَّر انسحاب السوفيات من أفغانستان أنه انتصار للدول الديمقراطية. لكن بالنسبة إلى الإسلاميين، فإن ذلك يبرهن على تمكنهم من التغلب على أعظم جيش في العالم يحتل أرضًا إسلامية. وتسري هذه الملاحظة أيضًا على الأوروبيين. يشرح جاك دروز (Jacques Droz) في دراسة مثيرة جدًا للاهتمام[2] المصاعب التي يواجهها المؤرخون الفرنسيون والألمان في وضع كتاب تاريخي تعليمي مشترك حين يتعلق الأمر بتحديد أسباب الحرب العالمية الأولى. ويمكننا على هذا النحو أن نزيد الأمثلة لكي نوضح جيدًا أهمية المفردات والإدراكات المتبادلة في صنع العدو.

لماذا العدو؟ ما الدور الاجتماعي والسياسي الذي يؤديه في المجتمعات المعاصرة؟ هل يجب على الهوية أن تبنى بالضرورة ضد «الآخر»؟ يعتبر كارل شميت أن هذه هي وظيفة السياسي بذاتها. فالعدو إذًا هو الآخر، الشر، التهديد، ولا يمكن فصله عن الحياة كما المرض... وهو يقدم خدمات كثيرة، ويعمل مهدئًا، خصوصًا عبر المسؤولية التي يمثلها (الحقيقية أو المتخيلة) في قلقنا الجماعي. ويمكن لصناعة العدو أن ترسخ الأواصر الجمعية، ويمكنها أن تكون مخرجًا بالنسبة إلى سلطة تواجه مصاعب على الصعيد الداخلي. ويغيب العدو في الكتب التعليمية الأساسية للاستراتيجيا العسكرية. وتشغل الحرب، التي تقدم منذ البداية بوصفها معطى، التحليلات والأفكار. ويدرس المؤرخون استدلاليًا العوامل الموضوعية التي سببت الحروب، والتي لم يكن الناس واعين لها بالضرورة. لكن يجب أيضًا العمل على فهم كيف تنشأ تخيلات العدوان وتحديد العناصر الاجتماعية التي يتشكل منها الرأي العام.

---

(2) Jacques Droz, *Les causes de la premières guerre mondiale: Essai d'historiographie*, Points (Paris: Le Seuil, 1973), p. 187.

من يصنع العدو؟ منذ الثورة الفرنسية، لم يعد الملك هو الذي يقرر الحرب أو السلم بمفرده. إذًا، يستلزم نشوء القوميات والنزاعات العالمية في القرن العشرين موافقة الرأي العام، لكونه العامل الأساس للتعبئة الحربية. ويبقى تفسير الحروب، باعتباره لعبة تجار السلاح أو مصلحة الرأسمال الكبير، قاصرًا عن تغطية مجمل النزاعات الحالية. وتقتصر المهمة الرسمية لمؤسسات الفكر الاستراتيجي في البلدان الديمقراطية الكبرى التي يسميها الأنكلوسكسونيون «الاستراتيجيين» (strategists) على إنتاج تحليل إلى جانب خطاب حول السياق الدولي والتهديدات، وإعطاء شكل جديد للقوة العسكرية الضرورية لمواجهة هذه التهديدات، وأخيرًا شرعنة استخدام القوة إن لزم الأمر. ولقد أغرقتهم الحقبة التي أتت بعد نهاية الاتحاد السوفياتي في حالة من القلق الشديد. «إن من يحيا على محاربة عدوه، من مصلحته أن يدعه يعيش»، كما كتب فريدريش نيتشه (Friedrich Nietzsche) في كتابه **إنساني، كثير الإنسانية** (*Humain, trop humain*). وفي مواجهة التهديد بالبطالة التقنية، كما الحال بالنسبة إلى المؤسسات كلها، أنتج «الاستراتيجيون» خلال التسعينيات مفاهيم وأعداء بدت مصطنعة جدًا وظرفية، بعد أن تم تحليلها بالرجوع في الزمن.

يفترض صنع العدو مراحل شتى: أيديولوجيا استراتيجية محددة، خطابًا، صنّاع رأي ندعوهم المحدِّدين (marqueurs)، وأخيرًا آليات صعود نحو العنف. ونلاحظ أن «محددي العدو» الذين يجب إضافتهم إلى فئة محددي الهوية لعلماء المجتمع، هم متعددون ومختلفون بحسب أنواع النزاعات، وهم ليسوا المحللين الأكثر دقة للوضع، لكنهم الأكثر تأثيرًا. لقد كان وزن ديروليد (Déroulède) في فرنسا أهم من جوريس (Jaurès) في النزاع العالمي الأول. ولقد أقنع كيبلينغ (Kipling) وبيار لوتي (Pierre Loti) الرأي العام بثقافة الإمبريالية بشكل واسع. وأنتجت هوليوود كمية كبيرة من أفلام رعاة البقر حول غزو الغرب الأميركي التي عاشها المشاهدون لمدة طويلة باعتبارها ملحمة عظيمة مؤسّسة، فيما كان الأمر يتعلق بإبادة ممنهجة لقبائل الهنود الحمر. وفي مكان آخر كنا تكلمنا على «بروباغندا» الإبادة العرقية، لكننا في هذه الحال نتكلم هنا على نوع سينمائي.

إذا كان العدو عبارة عن بناء، فمن الممكن، إذًا، أن نضع تصنيفًا ونعرف الأنواع الكبيرة لحالات الحرب وسيرورة صناعتها.

«العدو القريب» هو الجار الذي نتج النزاع معه جراء خلاف حدودي، وهذا النزاع يتم تقليديًا بين طرفين. قضية النزاع هي قطعة أرض، والحرب هي نزع الملكية بعنف.

«الخصم العالمي» هو المنافس في خصومة قوتين تعطيان لنفسيهما نزعة عالمية، كما كانت الحال بالنسبة إلى الحرب الباردة، أو تنافس الإمبرياليات في سباق الاستعمار. الحرب هي مظهر قوة وعمل أرعن للسيطرة على خريطة ما.

«العدو الحميم» هو الحرب الأهلية، هو الآخر على أرضي، هو الاقتتال بين جيران كانوا يبدون حتى تلك اللحظة أنهم يعيشون في سلام. تبدأ الحرب عبر الكلمات ولا تعلن أبدًا ثم تنتهي بالقتل الاستباقي: أن نَقتُل قبل أن نُقتل! الحرب الأهلية هي تطهير فصامي.

«الهمجي»، هكذا يعتبر المحتَلُّ الشعبَ الذي يحتله، والذي يتكون من متخلفين لا يفهمون سوى القوة. أما العدو فهو الشعب الذي يعاني الاحتلال، وهو نوع من الأشخاص الذين يضعون أيديهم على مسكن شاغر ويُقبَل بوجودهم في المنزل. والقمع هو «إحلال السلام».

«العدو المحجوب»، قوة خفية من المفترض أنها تدير الشعوب كافة وتسيطر على مصيرها، وهي هاجس ناجم عن «نظرية المؤامرة». إنها أساس معاداة السامية، وأساس الانقلابات العسكرية في أميركا اللاتينية ضد «الشيوعيين». وهي مرض محصن ذاتيًا (بمعنى أنه ينتج أجسامًا مضادة موجهة ضد مكوناتها الذاتية)، أي إن الجسم يضر نفسه أكثر ممّا يفعل الفيروس فيه. والحرب هي ذُهان هذياني عنيف ينتج انبثاثًا بشكل منتظم.

«حرب الخير ضد الشر» لا تقتصر على النزاعات الدينية؛ إذ هي أيضًا حرب الأنظمة الشمولية الكبيرة العلمانية في القرن العشرين. كانت الأيديولوجيات قاتلة مثل الديانات. الآخر هو «الشر» بل حتى «الشيطان»، ويجب على الحرب

أن تؤدي إلى إبادته التامة على مستوى العالم، وأيضًا على مستوى الخونة والمتآمرين. الحرب هي عملية طرد للأرواح الشريرة.

«العدو التصوري» هو الوحيد على مقياس العنصر الأحادي الجانب، هو فعل إمبريالي للقوة العظمى، وهو وضع فريد عرفه العالم تحت رئاسة جورج بوش الابن. المسيطر ليس لديه عدو يجاريه، لا يمكنه سوى محاربة مفاهيم في صراع شامل. إنها «الحرب الشاملة ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب». الحرب هي وقاية.

«العدو الإعلامي» أخيرًا، وهو يشكل الحالة الأحدث في الفراغ الأيديولوجي والاستراتيجي لما بعد الحرب الباردة، والتي يجتاحها الإعلام؛ إذ تتفوق الصورة على النص. ولا يتحدد هذا التهديد غير الاستراتيجي عبر المؤسسات الاستراتيجية، بل يتحدد بصورة أساس عبر مثقفين إعلاميين، ومشتتين و/ أو أشخاص يعملون في المجال الإنساني. ويؤدي هذا التهديد إلى أعمال عسكرية من دون عدو، ومع إرسال القبعات الزرق، أي الجيش الثاني في العالم بعد جيش الولايات المتحدة، تبدو الحرب كأنها تمثيل نفساني في نظر الغرب.

ليس بين عناصر هذا التصنيف عنصر نقي بصورة تامة؛ إذ غالبًا ما تختلط الأنواع المختلفة في صراع واحد. وكل حالة من هذه الحالات تستجيب لخصائص استراتيجية معينة، وتبنى على خطاب معين مع محددات خاصة بها وإشارات يمكن التحقق منها.

إن كان العدو بُنية فمن الممكن تفكيكها.

إن أهم إبداع في عصرنا، هو على الأرجح المصالحة التاريخية بين فرنسا وألمانيا، بعد ثلاثة حروب مدمرة بين عدوين يوصفان بأنهما «وراثيان». ويبدو تكفير ألمانيا عن ذنبها فريدًا من نوعه (ربما لأن جريمتها فريدة)، ولم يقلدها اليابان قط ولا أي بلد آخر أثقلت ضميره المجازر الجماعية. ولم يُقلَّد قط هذا النموذج للمصالحة بين عدوين تقليديين، على الرغم من محاولات شتى! ولم يكن بناء الاتحاد الأوروبي الذي يتقدم عبر التفاوض، مع التخلي عن بعض

الصلاحيات الاستشارية، ممكنًا إلا بثمن مماثل. ويبقى ذلك أيضًا أمرًا فريدًا إلى حد بعيد. ويحاول الاتحاد الأوروبي بصعوبة، وهو كيان لا عدو له، أن يبني دفاعًا مشتركًا.

وفي ما يخص المصالحة بين أعداء موروثين، تضيء إشارات إيجابية أخرى في مكان آخر، مثل اقتراح لجنة مؤرخين مؤلفة من أرمن وأتراك للعمل على «مذبحة» عام 1915، أو بداية المصالحة البولونية - الروسية.

ولقد اختُبِرَت طرائق أخرى لتفكيك العدو: مثل التكفير عن الذنب، العفو، الاعتراف، الذاكرة المشتركة، العدالة... ولاقت كلها نجاحات مختلفة. منذ الثمانينيات، عند نهاية حقب الدكتاتوريات والحروب الأهلية، نشأت آليات تفكيك وطنية. ففي إسبانيا أو في بعض بلدان أميركا اللاتينية، فضلت قوانين العفو النسيان على العدالة والعقاب، من أجل تشجيع العودة إلى الديمقراطية، لكننا نتذكر العدالة عادةً عندما نتذكر المستفيدين من العفو العام. ففي جنوب أفريقيا، أقامت «لجنة الحقيقة والمصالحة» الصفح عبر الكلمة، وفضلت الذاكرة المشتركة على النسيان والاعتراف. فهل يتعلق الأمر هنا بتفكيك مستدام؟

أخيرًا، مع إنشاء العدالة الدولية، يتكفل العالم بمعاقبة مرتكبي الجرائم ضد الإنسانية أو الإبادة العرقية. وللمرة الأولى في تاريخ البشرية، تغير العدالة الدولية قواعد الخروج من النزاعات عبر الحلول محل الآليات التقليدية للثأر أو للانتقام. ولكن يجب ألا تبقى مقتصرة على ملاحقة مرتكبي المجازر المنحدرين من بلدان فقيرة أو دكتاتورية. فمن يحاكم من؟

هذا الكتاب هو دراسة كتبها مدرس متمرس، فهو إذًا كتاب تنظيرٍ غير مكتمل، كتاب تبسيطي وأمله الأكبر هو أن يستثير هذا النقاش والنقد.

الكتاب الأول

ما العدو؟

هل العدو ضرورة؟ لاحظ أحد أفضل المحللين الفرنسيين (الجنرال إيريك دو لا ميزونوف (Éric de La Maisonneuve)) بتهكم: «كان لدى العدو السوفياتي كل مزايا العدو «الجيد»: فهو صلب، ثابت، ومتماسك. كان يشبهنا عسكريًا، فهو مبني وفق الأنموذج الكلاوزفيتزي الأكثر نقاءً، مثير للقلق بالطبع لكنه معروف ويمكن توقع خطواته. إن غيابه يخرق تماسكنا ويجعل قوتنا غير مجدية»[1]. فالانكسار الذي نجم عن زوال الاتحاد السوفياتي أفقد أحد مفاتيح شرح الحروب جدواه: لقد استُخدمت ثنائية القطب فعليًا من أجل تحليل كل النزاعات تقريبًا خلال ما يقارب الخمسين سنة. وكانت الأزمات التي سادت منذ نهاية الشيوعية كلها محلية (يوغوسلافيا، الصومال، تيمور، رواندا، كونغو، هايتي، أفغانستان...) وتستحق النوابضُ التي تحركها تفسيراتٍ إقليمية. ولا يمكن لأي مثال شامل أن يعطي قراءة سهلة من دون كشف دقيق. لقد استعاد التاريخ والجغرافيا حقوقهما بعد التنويم المغناطيسي التطهيري للحرب الباردة. إذًا، يجب العودة إلى المنهجيات التقليدية في تحديد العدو في كل حالة من هذه الحالات.

لكن لنرَ قبل كل شيء ماذا يقول عن ذلك المنظرون، وعلماء السياسة، والحقوقيون، وعلماء المجتمع، والاستراتيجيون...

العدو موضوع سياسي

في **اللفياثان** (*Léviathan*)، وضع هوبز (Hobbes) مقارنة بين الحالة الفطرية (État de nature) قبل المجتمع البشري، والمجتمع البشري، حيث تشكل الحرب فيه النظام الطبيعي (Ordre naturel). ويفترض هوبز أن الناس يتصرفون بصورة

(1) Éric de La Maisonneuve, «Société de stratégie,» *Agir* (novembre 2002).

عنيفة، وأن التنظيم المشترك وحده يكبحهم. كما ينتقد النظرية الأرسطية التي تقول إن الإنسان كائن سياسي، فالإنسان قد يكون اجتماعيًا قسرًا، وليس بطبعه. والعدو بالنسبة إليه، إذًا، هو معطى طبيعي. وتلخص هذه النظرية سريعًا العبارة الشهيرة: «الإنسان ذئب للإنسان». ويبدو صنع العدو بنيويًا؛ إذ إن الحالة البدائية هي حالة «حرب الجميع ضد الجميع». ففي هذه الحالة، تقود غريزة البقاء الإنسان فحسب. الناس متساوون أصلًا ولديهم الحقوق ذاتها على الأشياء، والوسائل ذاتها للحصول عليها، بالدهاء أو بالعنف. ويكون كل شخص هو الحكم الوحيد على الطرائق التي يمكن استخدامها لبلوغ ذلك، ومن بين هذه الطرائق الحرب. يعمد الإنسان إلى المهاجمة قبل أن يكون عرضة للهجوم، وذلك بغية استباق الخطر. وليس العنف سوى استباق للخوف في مواجهة التهديد الحقيقي أو المفترض. ولا يتساءل هوبز عما يتعلق بعملية اختيار العدو طالما أن الحرب وضع طبيعي.

ينتقد روسو (Rousseau) في كتابه **حالة الحرب**[2] (*L'État de guerre*) «منهج هوبز الفظيع» الذي يجعل من الحرب النظام الطبيعي للمجتمع البشري. وعلى العكس، فإن عملية إنشاء الحالة الاجتماعية التي أنهت الحالة الطبيعية، بررت الحرب وجعلتها شبه دائمة. ويضع روسو نفسه، كونه ابن زمنه، في إطار العلاقات بين دولة وأخرى، ويتخذ حرب السنوات السبع مرجعًا له[3]. فالناس لا يكونون أعداء إلا في الوضع الظرفي للحروب بين الدول التي يشاركون فيها جنودًا وليس في الحالة البدائية!

تنطلق هذا النظريات المؤسِّسة الكبرى من فكرة مفترضة عن «الطبيعة البشرية» التي يمكن أن تكون طيبة أو شريرة. ويفترض استمرار الحروب، بأشكالها الأكثر تنوعًا، البحثَ في تصنيفات نظرية أخرى.

---

(2) Jean Jacques Rousseau, *l'État de guerre*, Babel (Arles, France); 409 (Actes Sud, 2000).

(3) تعتبر حرب السنوات السبع (1756-1763) أول النزاعات العالمية نوعًا ما. سببتها نزاعات بين مستعمرين إنكليز وفرنسيين في كندا. وزجت أوروبا كلها في الحرب. اتحدت فرنسا والنمسا اللتان كانتا تتحاربان منذ مئتي سنة في حين عقد فريدريك الثاني ملك بروسيا تحالفًا مع إنكلترا.

تتطرق الكتب التعليمية المؤسِّسة للاستراتيجيا، إلى الحرب وليس إلى العدو. ومهما بدا ذلك مذهلًا، فإن التفكير الاستراتيجي الكلاسيكي لا يُعنى كثيرًا بالعدو قبل الحرب. ويبدو أن الجميع يتبع ألبيريكو جنتيليس (Alberico Gentilis) الذي يعرّف الحرب في القرن السابع عشر في كتابه **قانون الحرب** (*De jure bellis*) بأنها نزاع «مسلح، عام وعادل». ونحن هنا لا نناقش موضوع العدو؛ إذ إن الحرب «عادلة»، وبالتالي لا يمكن تفاديها، بل نعيش اليوم في حقبة تاريخية من دون خطر استراتيجي جسيم، لكن ليس من دون حروب. فماذا في ذلك؟

يهتم الفكر العسكري بالطريقة التي تتيح ربح الحرب. وينطلق جاك أنطوان هيبوليت دو غيبير (Jacques Antoine Hippolyte de Guibert) في كتابه **دراسة عامة في التكتيك** (1770) (*Essai général de tactique*) من مسلّمة تقول إن الحرب معطى. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البروسي كلاوزفيتز (Clausewitz) والسويسري أنطوان هنري جوميني (Antoine Henri Jomini) اللذين اعتبرا أن موضوع أصل النزاعات هو موضوع ذو أهمية ضئيلة؛ إذ إن العدو المحدد هو عدو بنيوي، إنه نابليون. فضلًا عن ذلك، حارب هذان الاستراتيجيان الإمبراطور في صفوف الجيش الروسي، قبل عودة كل منهما إلى وطنه.

في القرن العشرين، كرس ليدل هارت (Liddell Hart) ذكاءه كله للطريقة الجيدة التي تتيح الانتصار في الحرب الكبرى، جراء تأثره الشديد بأهوال حرب الخنادق. أسس غاستون بوتول (Gaston Bouthoul) الذي روّعته الحرب العالمية الثانية، عام 1945 «علم الحرب» كمادة من مواد علم الاجتماع. وبوصفه ابنًا لعصره شهد حربين عالميتين، والحرب الباردة جزئيًا، فقد بدت حالة الحرب لبوتول حالة مستمرة في مجتمعات البشر، إذ إن صرخة «لن يتكرر ذلك!» (Jamais plus!) التي أُطلقت بين الحربين العالميتين لم تمنع نشوب الحروب. ويبني تحليله على ما يبدو له أنه الدوافع الحقيقية للعنف الحربي في الجسم الاجتماعي. ويسعى بوتول إلى تنسيق أسباب الحرب وفق نظام معين. وبتجاوزه الأسباب السياسية المباشرة الخاصة بكل نزاع، يحاول تقديم مقاربة

متعددة المجالات (pluridisciplinaire) للظاهرة، في كتابه **بحث في علم الحرب**[4] (*Traité de polémologie*)، حيث يهتم بالمحارب الذي يسميه الإنسان الساخط (Homo Furiosis). وفي رأيه، فإن ما يحشد ويعبئ للنزاع ليس الدول أو الأفراد بل القناعات والمعتقدات. وتنشأ الحرب على الأغلب من إرادات جماعية وقيم اجتماعية معترف بها وهي الامتيازات الاجتماعية والرمزية للمحارب الناتجة عن الحرب، «الشرط الحربي»، «الشعور بالتفوق»، تأليه الحرب، «معنى التاريخ»، أو ضبط النمو السكاني... وعلى خلاف المؤرخ الذي يفسر الحرب وفق دوافع خاصة، يريد بوتول أن يجد أسبابًا بنيوية لها. ويلاحظ أن أسباب النزاعات مرتبطة بسيطرة «الأهواء الحربية»؛ لأن المجابهة لن تحصل إلا إذا انخرطت فيها الشعوب المعنية. هنا أيضًا كانت مسؤولية النازية، وستكون الحال في ما بعد مسؤولية الشيوعية، في نشوب النزاعات، واضحتين. لكن تحليل بوتول في ما يتعلق بالدولة على وجه الخصوص، والمتمركز حول أوروبا، لا يتوقع حروب إنهاء الاستعمار، ولا الحروب التمردية، ولا الثورات ضد الظلم، ولا الحروب الأهلية.

أما الفكر الماركسي فهو يبسّط السيناريوهات كثيرًا، بوضعه مبدأ الحرب الأهلية الكونية، ويحدد البرجوازية عدوًا مطلقًا، أي «عدو الطبقة». ويظهر إنغلز (Engels) في كتابه **دور العنف في التاريخ** (*Le Rôle de la violence dans l'histoire*) (1888) الصفة الحتمية بل الضرورية للحرب حتى للبرجوازية بالنسبة إلى دكتاتورية البروليتاريا المهيمنة. ونجد مع لينين (Lénine) في كتابه **الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** (*l'Impérialisme, stade suprême du capitalisme*) (1916)، تفسيرًا بسيطًا وشاملًا (systémique) للحرب العالمية، أي المنافسات الإمبريالية العدائية بنيويًا، وهي الامتداد المسلح للمنافسة التجارية. وقد دفعت البرجوازيات الصناعية والمالية التي بررت الغزو الاستعماري، ببلادها إلى محاربة الخصم الأخطر. وكان يمكن أن تشن فرنسا هذه الحرب على إنكلترا لكنها كانت ضد ألمانيا! إنها الحرب التي يشرحها تجار السلاح. وكان من

---

(4) G. Bouthoul, *Traité de polémologie: Sociologie des guerres,* Bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1991).

الصعوبة بمكان بالنسبة إلى الشيوعيين أن يتخيلوا حروب إنهاء الاستعمار، والتعاطف مع العالم الثالث (le tiers-mondisme) ودول عدم الانحياز التي لا تدخل بسهولة ضمن معايير التحليل هذه. ولقد أربكهم أكثر من ذلك النزاعُ الصيني - السوفياتي، واحتلال فيتنام لكمبوديا، ثم حرب الحدود بين هانوي (Hanoi) وبيجين (Pékin). وكان لا يمكن لبلاد شيوعية أن تتحارب! لكن الاستراتيجي الشيوعي الكبير الأخير، تلميذ سون تسو (Sun Zu)، وهو ماو تسي تونغ[5] (Mao Tsé-Toung) غيّر علاقات الحرب، وعبّر عن اهتمامه بعدوه، لكن بصفته ماركسيًا متمرسًا. وأبرز، في سياق الثورة الصينية، تحالفًا أسطوريًا بين الطبقات الأربع الثورية ضد البرجوازية الصينية والمعسكر الإمبريالي الياباني والغربي. وحين أصبح ماو رئيس دولة، غيّر النموذج الدولي حيث غدا الاتحاد السوفياتي، الحليف المخلص للمعسكر الشيوعي والقوة المضادة للإمبريالية في البدايات، ومع النزاع الأيديولوجي ثم النزاع الحدودي (حوادث أوسوري (Oussouri) في عام 1967)، صار هو العدو الأساس المضاهي لواشنطن. حدث هذا قبل أن يصبح العدو الرئيس في أثناء الثورة الثقافية ويُندّد به كقوة مراجعة تحريفية (révisionniste)؛ ما اعتُبر خيانة عظمى في ما يتعلق بالنزاع الأيديولوجي. وأخيرًا وابتداءً من عام 1971، نَظَّرَ ماو إلى جبهة متحدة عالمية ضد الاتحاد السوفياتي وضد الرأسمالية، وقدّم تعريفًا لـ «نظرية العوالم الثلاثة»، حيث سيقف العالم الثالث بقيادة بيجين في وجه القوتين العظميين.

أعطى ريمون آرون (Raymond Aron)، المفتون بالخطر النووي الحتمي، السلم أهمية أكبر مما أعطى للحرب[6]، ذلك أن العدو الشيوعي لا يشكل معضلة في ما يتعلق بتحديده كعدو. لكنه لم يقع في فخ آلية العالم الثنائي القطب، مقترحًا أنموذجًا لجميع أشكال السلام، وفق القدرات التي تملكها القوى للتفاعل في ما بينها. وفي «سِلم التوازن» تكون القوى متساوية، وفي «سِلم الهيمنة» تسيطر دولة على الدول الأخرى، وفي «سِلم الإمبراطورية» تضع دولة قوية حدودًا للحكم الذاتي للأمم الخاضعة لها. و«سلم العجز» هو سلام

(5) Mao Tsé-Toung, *La guerre révolutionnaire* (Paris: Trident, 1989).

(6) R. Aron, *Paix et guerre entre les nations*, Pérennes (Paris: Calmann-Lévy, 2004).

الرعب أو الترويع المتبادل الناتج عن التهديد النووي. غير أنه يقبل أن يحل «سلام الرضى»، وهو مثالي، وينشأ فيه غياب الحرب من غياب المطالب. ومع ذلك فإن الاتحاد الأوروبي كان يُبنى تحت ناظريه، لكن كان يبدو أن فظاظة النزاع بين الشرق والغرب حرمته من الميزة الاستثنائية لمعاهدة روما.

لم يسعَ مفكرو الاستراتيجيا كثيرًا لمعرفة كيف يحدد مجتمع ما أعداءه، واكتفوا بأن يستعيدوا على نحو منتظم عبارة كلاوزفيتز التي أصبحت شهيرة: «الحرب ليست سوى مواصلة السياسة بوسائل أخرى». والحال أن العبارة صحيحة لكنها ذات حدين، هي صحيحة طالما نهتم بالنزاعات بين دول كانت بينها علاقات سياسية ودبلوماسية، لكن يتعذر تطبيقها على الحروب الأهلية، وعلى المجازر الكبرى، والأعمال الإرهابية، أو على النزاعات الدينية. ثانيًا، لا تدخل الحرب النووية ضمن هذا المنطق؛ إذ كما قال سخاروف (Sakharov) بمرارة: «ستكون الحرب النووية الحرارية شيئًا مختلفًا عن مواصلة بسيطة للسياسة بوسائل أخرى، ستكون وسيلة للانتحار الجماعي!».

لا يقدم التأمل الاستراتيجي الحالي أجوبة كثيرة. فالفكر العسكري يهتم بالملامح البنيوية والاستراتيجية للعدو، بعد أن يتم تحديد هذا الأخير. وهكذا فالموازين العسكرية (Military Balances)، وهي المراجع الدولية للتفكير الاستراتيجي التي يصدرها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن، تحصي حالة القوات المسلحة في العالم، التي تُفهم بوصفها مؤشر تهديد وتنافس كامنين، وفق كمية العتاد وقوة النظم العسكرية. وقد بلغت الميزانية الأميركية عام 2010، 708 مليارات دولار، أي ما يعادل تقريبًا ثلاثة أضعاف مجموع ميزانيات الصين، وروسيا، وكوبا، وكوريا الشمالية وإيران، بحسب وينسلو ويلر[7] (Winslow Wheeler). ويبقى العدو إذًا مضمرًا، وإلا لاعتُبرت القوة العظمى العسكرية الأميركية تهديدًا كونيًا، وهي المهيمنة بشكل واسع منذ عام 1991 وتمثل نصف الإنفاقات العسكرية على كوكبنا. غير أنها ليست كذلك، على كل حال، بالنسبة إلى معظم القراء الغربيين. أما بالنسبة إلى الآخرين، فنعتقد أننا نعرف الجواب...

---

(7) Winslow T. Wheeler, *The Wastrels of Defense: How Congress Sabotages U.S. Security* ([n. p.]: Naval Institutes Press, 2004).

تصف مؤلفات مراكز التفكير (think tanks) الأكثر شهرة، مثل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) الأميركي، والمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (ISS) البريطاني، والمعهد الفرنسي للعلاقات الدولية (IFRI)، الوضع الدولي تبعًا للتقديرات الأيديولوجية الآنية. وقد تم إعداد عدد مجلة رمسيس (*Ramsès*) للعام 2002، وهو مؤلف تخطيط استراتيجي سنوي للمستقبل يصدر عن IFRI، تم إعداده في أواسط 2001 قبل اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر، ولم يكرس أي مقالة حول الظاهرة الإسلامية. وكان للإرهاب أو لأفغانستان تأثيرات شبيهة «بالموضة»، حسبما قررنا أن نجعل من الأول تهديدًا أساسيًا، على الرغم من أنه ليس سوى وسيلة، ومن الثاني أسطورة، أو ملحمة أو تهديدًا...

العدو خيار، وليس معطى من المعطيات.

لقد أتت القطيعة الحقيقية من المدرسة الأميركية، أو بالأحرى الألمانية. يبين كارل شميت[8] (Carl Schmitt) «أن الملك السيد هو من يحسم الحالة الاستثنائية»[9]. وعليه فإن طبيعة السياسي بذاتها تنحو إلى التمييز بين الصديق والعدو: «يفترض أن نصل إلى السياسي، ونحاربه، ونعارضه، وندحضه». وتُحَدّد الجماعة مقارنة بما هو نقيضها. وعليه، تمثل الحرب العمل السياسي المثالي، فلكي يحقق المرء وجوده بالذات يجب، حسب شميت، أن يحدد عدوه ويحاربه. وتمثل الدولة الشكل الأكثر اكتمالًا للسياسي؛ لأنها وحدها تستطيع تحديد العدو وتسميته. وتفقد الدولة التي تعتمد سياسة سلمية صفتها ككيان سياسي. وفي رأي كارل شميت الذي ينتمي إلى جمهورية فايمار (Weimar)، كان الدستور الديمقراطي للرايخ الثاني، على غرار التوازن التام بين السلطات، مشلولًا كليًا. وكان يأمل أن يكون هنالك دعم للسلطة التنفيذية بهدف إعادة النظر في إملاءات فرساي (Diktat de Versailles)، وهو رأي شاركه فيه كل أبناء وطنه تقريبًا. ومنح دعمه لهتلر (Hitler) الذي كان أعلن هذه الأهداف.

---

(8) C. Schmitt, J. Freund and M. L. Steinhauser, *La notion de politique: Théorie du partisan*, Champs classique (Paris: Flammarion, 2009).

(9) C. Schmitt, *Théologie politique: 1922, 1969*, Bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, [s. d.]), p. 15.

وعليه، ترسخت مقاربة كارل شميت ومن أتى بعده في النظرية الألمانية للحق الذي يتصور الدولة. لكن أبعد من ضرورة تحديد العدو بالنسبة إلى السياسي، لا يتساءل شميت بوصفه رجلًا ينتمي إلى عصره، عن الآليات التي تسهم في اختيار العدو.

وبإعادة إحياء نظريات الحق الطبيعي والحرب العادلة، أعاد ليو شتراوس (Leo Strauss) إحياء الخصام بين القدماء والمحدثين. ويؤمن شتراوس بوجود قيم كونية وحقائق بدهية. وبدا، ربما من غير وجه حق، كأنه أحد مؤسسي ثوابت المحافظين الجدد[10]، لأن كريستول (Krystol) وولفوفيتز (Wolfowitz) استفادا من مقاربته الفلسفية، كما استفاد منها ملهمون آخرون لدبلوماسية جورج بوش الابن الذين ادّعوا تجسيد قيم كونية في العمل الدولي. ويستعيد هؤلاء تقليدًا أميركيًا للحق الطبيعي، وهو مزيج من التفاؤل والعمل. ولقد وجدوا مع ليو شتراوس مبررًا فلسفيًا وأخلاقيًا لمفهوم الحرب الاستباقية (guerre préemptive) على سبيل المثال، التي استخدمت بلؤم ضد العراق. وقادتهم القناعة بأنهم بلد القيم إلى تبرير القوة والسلطة. ووفقًا لكتابهم المقدس مشروع لقرن أميركي جديد (*PNAC*) (*Project for a New American Century*) الذي كتب منذ العام 1997 ويعرض المبدأ المزدوج القائل بأن ما هو صالح لأميركا فهو صالح للعالم أيضًا، وعليه يجب منع ظهور الخصم المتعادل (peer competitor). وتبرهن حملة الشجب العنيفة التي سببتها معارضة فرنسا وألمانيا وروسيا للحرب على العراق أن بعض مفكري واشنطن يعتبرون هذه البلدان، ومن بينهما حليفان، «أعداء»[11]. وهكذا تتداخل التسميات بين الخصم أو المنافس أو العدو..

إن كانت النظرية السياسية لا تقدم جوابًا محددًا عن آليات اختيار العدو، فلنرَ ما يقول القانون الدولي الذي يُمكن لانتهاكه أن يكون سببًا للحرب، وبالتالي بوسعه أن يحدد العدو.

---

(10) Voir l'article de Corinne Pelluchon dans la: Revue *Le Banquet*, no. 19 (2004).

(11) D. Frum and R. Perle, *An End to Evil*: *How to Win the War on Terror* (New York: Ballantine Books, 2004).

قانون الحرب
من الأفضل ارتداء بزة عسكرية

ظهر القانون الدولي مع ظهور العلاقات الدولية بين دول حديثة، وهي كيانات سياسية ذات سيادة وحدود معترف بها. وتقوم النزاعات تقليديًا حول الحدود أو حول وجود دولة ما. وعليه يطرح قانون الحرب مسألتين: التعريف القانوني للحرب، ووضع العدو.

تعرَّف الحرب بأنها نزاع بين دولتين تملكان جيوشًا نظامية. وتتحقق عبر فعل إرادي؛ أي إعلان الحرب الذي يسبق بدء الأعمال العدوانية. ومنذ ذلك الحين يندمج الجندي الذي يرتدي بزة عسكرية في نظام تسلسلي يعطي ويتلقى الأوامر، ويصبح جزائيًا غير مسؤول عن الأشخاص الذين يتسبب بقتلهم ضمن حدود قانون الحرب. وهكذا، يخضع عسكر المعسكرين، في آن، لاتفاقات جنيف لعام 1949 التي تحدد قواعد حماية الجنود وأسرى الحرب والتي تغطيهم، وبالتالي يكون وضعهم مضمونًا. لكن ليس لدى كل الحضارات القراءة ذاتها لوضع أسرى الحرب؛ فاليابانيون، وفق فلسفة بوشيدو (Bushido) التي تفرض على المحارب أن يموت بدلًا من الاستسلام، اعتبروا أن أسرى الحرب لديهم لا يستحقون الحياة، فتركوهم يموتون من الجوع ومن سوء المعاملة.

لكن، يرغم إعلان حالة الحرب الدولة المحاربة، على سبيل المثال، أن تعترف بصفة المحارب للمنتفضين الأعداء. إذًا؛ لتفادي حالة الحرب هناك العديد من تقنيات النأي بالنفس: نتكلم على «حوادث» (حرب الجزائر)، وعلى «إحلال السلام» (حروب اجتثاث الاستعمار) وعلى «إجراءات للشرطة»، وعلى «مكافحة الإرهاب» (أفغانستان)، وكذلك على «عمل استباقي» (action préemptive) (العراق). وهذه الأعمال الحربية موجهة لمجابهة «خطر» ما، والحيلولة دون «زعزعة الاستقرار»، و«تهديد السلام»، والدفاع عن مصالح ما، وتأمين حرية المرور، وحماية الرعايا... لكن هذه التقنيات تُفقد العدو هويته القانونية؛ إذ يصبح «ثائرًا»، و«إرهابيًا»، و«متمردًا»، و«متطرفًا»، و«مثيرًا للقلاقل»... وتضعه كل هذه الصفات في وضع الحد الأدنى للحقوق.

يشكل المدنيون في قانون الحرب، فئة خاصة (espèce générique) عليها أن تمنع نفسها من حمل السلاح. وفي الحالة المعاكسة لا نعرف جيدًا أين نصنف المحارب المسلح من دون بزة عسكرية، حيث يمكن أن يعامل كـ «مجرم» وأن يدان على أساس القانون الجزائي أو وفق تشريع محدَّد (législation spécifique). ويمكننا أن نبتكر فئة قانونيةً جديدةً، على غرار الأميركيين الذين ابتكروا فئة جديدة غير معروفة في القانون الدولي أسموها «المحارب غير الشرعي»، وذلك لتبرير السجن، والتعذيب، والسجن التعسفي. ويشبه الأمر هنا مراوغة قانونية ذكية، فواشنطن تشرح قائلة: «بما أن الحرب على الإرهاب ليست حربًا على دولة، فاتفاقات جنيف لا تطبق على هؤلاء الناس الذين تم اعتقالهم في الطرف الثاني من العالم، مع سلاح أو من دونه»، ولكن هذا ما كان ينبغي البرهان عليه. ولكن في جعبة القانون كثير من الحيل. ففي الدعوى على عمر خضر الذي اعتقل في أفغانستان وكان يبلغ الخامسة عشرة من عمره فقط ثم سُجن في غوانتانامو، بيَّن محامو الدفاع أنه يجب اعتبار خضر إما طفلًا جنديًا نظرًا إلى سنّه حين تم إلقاء القبض عليه، وبالتالي فهو، جزائيًا، غير مسؤول، أو محاربًا مسؤولًا عن أفعاله لا يمكن أن نلومه لأنه قتل جنديًا (أميركيًا)، وهذه حالة شائعة أثناء الحرب.

تحاول القوى الغربية، التي تريد أن تكون دول قانون، تطبيق القانون الدولي لتبرير الأضرار الجانبية في الحروب غير المتكافئة. فالعملية الإسرائيلية «الرصاص المصبوب» على غزة أسفرت عن 1400 قتيل فلسطيني، وفي المقابل قُتل 14 جنديًا من الجيش الإسرائيلي. ويفسر هذا إرادة إسرائيل لتعديل اتفاقات جنيف التي تفرق بين المدنيين والمحاربين، مع دعم من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكندا، ما قد يسمح بقتل المدنيين «بصورة أكثر شرعية». ولكن في هذه الحالة كيف نحكم على العمل الإرهابي؟

إن قانون الحرب هو حاليًا عمل أحادي الجانب قابل أو عصيٌّ على التطبيق، وفق قرار الدول المتحاربة. وتشكل دولة القانون مفهومًا للاستخدام الداخلي قطعًا أو للاستخدام الدعائي، حين نعالج مسائل استراتيجية بين أناس جديين! وإن كانت العدالة الجزائية الدولية توزع ورق اللعب بصورة مختلفة قليلًا منذ بضع سنوات، فقانون الحرب يمثل إلى الآن العدالة التي يطبقها

القوي على الضعيف، حيث يبقى جنود الطرف الأقوى محصنين، كما قررت ذلك الولايات المتحدة برفضها الموافقة على اتفاق إنشاء المحكمة الجزائية الدولية! فمنذ حرب العراق، وجب توسيع مدى هذه الحصانة لتشمل شركات الأمن الخاصة (حين تكون أميركية).

يبدو أن تعريف العدو هو تعريف اجتماعي أكثر منه حقوقي؛ لذا يجب على صناعته أن تجيب عن تحليل من هذا النوع.

العدو هو أنا آخر

يلبي العدو حاجة اجتماعية، وهو جزء من متخيل جمعي خاص بكل جماعة. إنه «أنا آخري» يجب أن نجعلها «غيرية» نُلوّنها بالأسود ونجعلها مُهَدِّدة لكي يبدو استخدام العنف شرعيًا.

الحاجة إلى الهوية: الآخر

في كتاب **وهم الهوية** (*L'Illusion identitaire*) يبرهن جان فرنسوا بايار[12] (Jean - François Bayard) أن الوقائع السياسية ليست موجودة كما هي لكنها موجودة كمواضيع تفسير وفق «محددات معرفية، وعاطفية، ورمزية» خاصة بكل مجتمع. ويشكل المجال السياسي «مسرحًا، حيث نرى، ليس أهمية أفعال الناس فحسب، بل صداها وطريقة فهمها، وإدراكها وتفسيرها». وتدخل عملية صناعة العدو تمامًا ضمن هذه الآلية.

يحلل رينيه جيرار (René Girard) في كتابه **العنف والمقدّس**[13] (*La Violence et le Sacré*) دور الأضحية في أوضاع الأزمات ليحرف اتجاه العنف الجماعي نحو شخص أو حيوان. وهكذا تحافظ الأضحية على وحدة الجماعة، حيث تصبح الضحية كبش الفداء. وتُختار هذه الضحية غالبًا بطريقة لا يمكن أن تشكل خطر الانتقام ضمن فئة: اليتيم، العجوز، الأرملة، الأسير. في إيران

---

(12) Jean François Bayard, *L'illusion identitaire* (Paris: Fayard, 1996), p. 177.

(13) René Girard, *La violence et le sacré* (Paris: Grasset, 1972).

الشيعية، فإن «الضحايا» هم البهائيون (Bahais) لأنهم وبسبب إيمانهم هم أيضًا بعودة الإمام الغائب، فهم منافسون مباشرون تصفهم الطبقة الحاكمة بالهراطقة.

يُعمل بالعدالة العامة، أكانت ذات طابع قانوني أم مؤسساتي، للخروج من الانتقامات القبلية التي تفرّق. ويمكن تصور العدو بأنه الشخص الذي سنعتبره آخر مهدِّدًا، ويمكن أن تحلِّل الحرب التي نستطيع أن نعلنها عليه شرعيًا كطقس ذبيحة يحافظ على وحدة الجماعة، بل بوسعه حتى أن يعيد بناءها إن كانت أمة أو معسكرًا أو كنيسة أو حلفًا أو جماعة إثنية. في كتابه **التخلص من كلاوزفيتز**[14] (*Achever Clausewitz*) يتخلص رينيه جيرار من مسألة اختيار العدو عبر حركة بهلوانية فكرية، ويتخلى عن تحليل كيف يتم اختيار العدو بأن يضع نفسه داخل الطقس الديني المسيحي. لكن الشعور بالعدائية، أي ما يسميه «الانفعال الحربي» (passion guerrière)، يتمكن من أن يفيض دائمًا عن «النية العدائية»، أي القرار المدروس للمحاربة. ويخلص جيرار إلى رؤية الحرب النووية كبرهان لصواب رؤى نهاية العالم التوراتية.

تتماهى كل جماعة عبر إشارات رمزية للانتماء: البزة العسكرية، خطاب الحماسة والتمايز، إشارات التعرف، الرموز، طقوس تلقين الأسرار (rites initiatiques). ويسمح اللباس الموحد مثلًا بتصنيف الإسلامويين وتمييزهم من غير المسلمين؛ إذ يرتدي التكفيريون البنطال الذي يغطي نصف الساق لكي لا يتسخوا بالنجاسة التي يخلّفها غير المسلمين (يبدو أن هذا الهمّ لا يعني النساء اللواتي عليهن وضع حجاب طويل متدلٍ على الأرض)، وهم ملتحون لأنهم يفترضون أن النبي محمد لم يكن يحلق ذقنه إطلاقًا، وينتعلون صنادل من جلد الجمل كما في زمن النبي. ونرى طقوسًا حربية أخرى عند جماعات الهوليغان التي تجتاح ملاعب كرة القدم(*)، أو عند شِلل مراهقي الضواحي (الوشم،

---

(14) R. Girard, *Achever Clausewitz: Entretiens avec Benoît Chantre* (Paris: Carnets Nord, 2007).

(*) خصوصًا في إنكلترا [المترجم].

طريقة تسريح الشعر، الملابس... إلخ). ويحتل كل فرد موضعًا معينًا ضمن تسلسل هرميّ يُدمجه في الجماعة. ويشرعن هذا البناء الهرمي الهيئات التي تضمن عدالة المعركة وعدم معاقبة الجندي. وتتعرف الجماعة إلى نفسها عبر موتاها في الحرب باستثناء فرق المساعدة. واستدلالًا بالضد، لا تذكر النصب التذكارية لقتلى الحرب في فترة الجزائر الفرنسية، أسماء الجنود المسلمين الذين فقدوا حياتهم في ساحة الحرب، وتستثني نصب الولايات المتحدة الجنود البورتوريكيين الذين جندوا وفقدوا حياتهم في فيتنام، كما هي الحال بالنسبة إلى معبد يازوكوني في اليابان الذي يضم الجنود ومجرمي الحرب الذين دانتهم محكمة طوكيو، وهذا تصرف تتميز به المجتمعات الإمبراطورية التي تتوفر على هوية قومية قوية.

على هذا النحو يُبرِّر العنف ضد العدو؛ إذ إنه يعيد بناء وحدة الجماعة و/ أو الهوية القومية. وتصبح الجماعة المعادية هي الكيان المُعَدّ ليضحَّى به. ويمكن لصناعة العدو أن توطد الأواصر ضمن الجماعة، مهما كان الخطر الحقيقي، كالهوس الثأري الذي يحمل حتى اليوم السلطة التنفيذية الأميركية على الاستنفار ضد كوبا.

يحتاج رجال السياسة اليونان إلى العدو التركي، كما الحال بالنسبة إلى الجزائريين الذين يحتاجون إلى العدو المغربي. ويشكل التنديد المتكرر في بعض الدول مكونًا للحياة السياسية: لن تتوحد باكستان التي تمزقها الحرب الأهلية بين المهاجرين والسنديين والبنجابيين إلا عبر العدائية ضد الهند. ويُعد التنديد بفرنسا سياسة مشروعة لفرق جبهة التحرير الوطنية التي لا تريد أن تتخلى عن السلطة في الجزائر.

ويصلح هذا التحليل حتى في الديمقراطيات التي سرعان ما تصبح ضحية الترويج (البروباغندا) الخاص بها. ويلاحظ جورج ف. كينان[15] (George F. Kennan) بذهن صاف، وهو مبتكر فكرة الاحتواء (containment) وهي نظرية

---

(15) George Kennan, *Russia and The West Under Lenin and Stalin* (United Kingdom: Little and Brown, 1961).

تهدف إلى صد الانتشار الشيوعي، قائلًا: «دعوني أؤكد لكم أنه ليس هناك ما هو أكثر تمركزًا على الذات من ديمقراطيةٍ ما في حالة حرب! فهي تميل في هذه الحال إلى أن تنسب إلى قضيتها قيمة مثالية تشوه رؤيتها للأشياء. ويصبح عدوها تجسيدًا للشر، فيما يكون معسكرها مركز الفضائل كلها». ولعلنا نتذكر حماسة البريطانيين حين اندلعت حرب المالوين، أو حماسة الجنود الأميركيين الذاهبين إلى أفغانستان. وفي بعض الأحيان يحدد الآخر هوية الجماعة بشكل زائف. وقد قدم تيودور هرتزل (Theodor Herzl) هذه الملاحظة في مؤتمر بال الصهيوني، إذ قال: «أعتقد أن الأمة هي مجموعة تاريخية من البشر تستمر بسبب عدو مشترك». ويستخلص أن «الشعب اليهودي ليس بحاجة أن يعرف نفسه؛ إذ إن المُعادين للسامية يتولون ذلك»[16].

مهدئ لحالات القلق الجماعي

يقول دوركهايم (Durkheim): «حين يعاني المجتمع، يشعر بالحاجة لأن يجد أحدًا يمكنه أن يعزو إليه ألمه، ويستطيع أن ينتقم لخيبات أمله». وفي كتاب حديث، يضع دومينيك مويسي (Dominique Moïsi) خارطة لما يُسميه «جغرافية سياسية للانفعال»، حيث تجري ملاحظة ثقافة الخوف التي تجتاح الغرب ويزدهر عليها سوق القلق. هل يجب أن نرى في إرث الخوف من النزاع النووي الحساسية المفرطة للمجتمعات المعاصرة حيال القلق الجماعي؟ إنها المجتمعات الأكثر أمانًا في تاريخ البشرية، وهي تخترع مع ذلك «مبدأ الحيطة» الذي يؤدي إلى إضفاء طابع المأساة والمبالغة في ما يتعلق بالخطر. وستكثر ذرى القلق الجماعي في المجالات الأكثر تنوعًا: خطأ معلوماتي في العام 2000، تهديد بلدان الجنوب، أمراض جنون البقر، أنفلونزا الطيور، فيروس الأنفلونزا (H1N1)، الإرهاب المفرط (hyperterrorisme)، انتشار الأسلحة النووية، الجريمة المنظمة، مرض نقص المناعة المكتسب (Sida)، الإسلاموية، القرصنة، فيروس معلوماتي لا يمكن تفاديه... ويدعو كل من هذه المخاوف، مهما كانت درجة

---

(16) Cité par M. Korinman, «Herzl ou l'élaboration d'un projet géopolitique,» *Hérodote*, no. 53 (1989).

خطورته، إلى التوضيح، والقلق، والمبالغة في تقدير الخطر، بل حتى إلى البحث عن المسؤوليات. إن سكان البلدان المتقدمة الذين تغلبوا على الجوع والأوبئة الكبيرة، والذين من المحتمل أن يموتوا في حادث سير أكثر منه في عملية إرهابية أو حرب نووية، تهتز مشاعرهم أمام هذه التنبؤات الاستراتيجية المأساوية، وينتظرون من السلطات العامة أن تحميهم من كل ما هو غير متوقع، وتحميهم حتى من القدر. ويرافق هذه الأزمات الطارئة قلق تنبؤي بنهاية العالم ذو تأثير مستمر، ويمكنه أن يغير موضوعه لكن ليس طبيعته. ومن ثم نحتاج إذًا إلى مهدئ.

كيف يبنى العدو في سياق مخاوف جماعية؟ لا تأتي الإجابة دائمًا من تحليلات باردة ورصينة، بل غالبًا من النتاج الأدبي الإعلامي، أو السينمائي العام. ويمثل القلق سوقًا، (لم تخطئ هوليوود في ذلك)، من اللاإنسانية الخائنة للخطر الأصفر (الدكتور فومانشو)، إلى السلطة المطلقة العنكبوتية للخطر الأحمر (أفلام الجاسوسية للحرب الباردة)، وفي الآونة الأخيرة الوجود الكلي المكّار والمهدد والقاسي للخطر الأخضر (الإرهابي الإسلاموي الذي زرع قنبلة في مسلسل 24 ساعة، مثلًا). وكان دور الشرير يؤديه لمدة طويلة في أفلام الغرب الأميركي رجل مكسيكي، هو عمومًا قاس وغير حليق الذقن، يسيل منه العرق ويضحك بقهقهة. وفي الأفلام الحربية، يتسم الجاسوس الألماني ثم السوفياتي بهدوء بارد مثل الرجال الآليين. وفي أفلام التشويق في التسعينيات، يستعيد دور الشرير الكولومبي مهرب المخدرات المهذب الذي يعنى بمظهره تمامًا، لكنه قاس بشكل لا يصدق، مع ابتسامة مقلقة. أخيرًا، ومنذ 2001، نتعرف إلى الشرق الأوسطي الذي لا يردعه شيء من خلال لكنته المضحكة التي ينشر بواسطتها خطابه المتعصب. والضحكة التهكمية التي ترافق الفعل الخبيث هي خصلة لدى الممثلين، إذ إننا نجدها لدى أغلبية الشخصيات الشريرة المذكورة سابقًا. وخلال بضعة أشهر، أصبحت القاعدة تهديدًا أسطوريًا، وتعادل أهميتها، إلى حد ما، أهمية الغزوات الكبرى، وما يسوّغ كل الشكوك، ويبرر نشر كل الوسائل البوليسية والعسكرية الغربية. فبينما لا تشكل المجموعة الإرهابية، في الحقيقة، تهديدًا استراتيجيًا، فإن ردة الفعل السياسية تشبه كثيرًا، كما قد يقول المحللون النفسيون، نبوءة تتحقق ذاتيًا! يولّد الخوف من عنف متضخم عنفًا أكبر، وهو يبرر العنف في المقابل!

لتعبير الخوف الجماعي وقع خاص في المحافل الاستراتيجية التي تفكر في الأمن الدولي. عندما نكتب أن «العالم يتحول»، وأنه «متغير ومتقلب» و«يعج بالمخاطر» و«التحديات»، وأننا نقلق من «النمو الاقتصادي في الصين» الموصوف كـ «صعود محتمل» كما كنا قلقين من «الثورة الثقافية»، كل هذا جزء من المفارقات التي يفيض بها تاريخ الجغرافية السياسية. وبعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لم تكن منصات التلفزيون متاحة إلا للخبراء الذين يعلنون عن أعمال إرهابية نووية أو كيماوية للأسابيع المقبلة. وعلى عكس ذلك، كانت وسائل الإعلام العربية تكرر، إلى ما لا نهاية، الخطاب القائل إن «الإسلام دين سلام»، وإن «المسلمين السيئين» هم الإرهابيون: كل واحد له أعداؤه.

كائن مختلف

يصف إيريك إيريكسون (Erik Erikson)، وهو محلل نفسي أميركي، الحرب بأنها ظاهرة «تفريق جنسي مزيّف بين البشر»، أي على شاكلة تلك البرهة التي يمكن فيها لمجموعة أن تعتبر أفراد مجموعة أخرى كأنها تنتمي إلى جنس آخر يجب صيده وتدميره من دون رادع. ونلاحظ غالبًا أنه حتى في الحروب الأكثر وحشية، يبرهن بعضهم عن تصرف شجاع لإنقاذ شخص عدو. وفي المقابل، لا يستحق الكيان العدو الشفقة. يذكر جاك سيملان[17] (Jacques Sémelin) واقعة عاشها ميكايل إغناتييف (Michael Ignatief): «في القبو الصربي المحصن سمعت جنود احتياط يقولون إنهم يكرهون تنفس الهواء ذاته الذي يتنفسه الكرواتيون، وإنهم يكرهون الوجود في الغرفة ذاتها معهم...». الآخر هو بشرية جماعية (humanité collective). وتقتل الحروب الحديثة 90 في المئة من المدنيين مقابل 10 في المئة من العسكريين. وهكذا أصبح العدو عبارة عن كلٍّ، صار في الإمكان أن تُقتَل شرعيًا ذراته المختلفة.

نلاحظ أن التمييز هو أولًا شفوي؛ إذ تحتوي اللغات كلها على عبارات

---

(17) Jacques Sémelin, *Purifier et détruire: Usages politiques des massacres et génocides*, la couleur des idées (Paris: Le Seuil, 2005).

هدفها الحط من قدر الآخر. فالبرابرة عند الإغريق هم الذين لا يتكلمون اللغة الإغريقية ويعبّرون بأصوات غير مفهومة. وفي جنوب أفريقيا الحالية فإن الماكوير (Makwere) هم الذين يتكلمون لغات غير مسموعة، والبوييلاخايا (Buyelakhaya) هم جماعة «عد إلى بلادك!»، غرباء أجانب على نحو ما كانت عليه جماعة «على غانا أن ترحل» (Ghana must go)، الذين طردوا من نيجيريا عام 1980. يجب على الآخر أن يُقصى من المفردات، فهو: ثوري، قاطع طرق، بربري، قاتل، عنيف، أعمى، إرهابي... ونادرًا ما يُسمى محاربًا أو عدوًّا. ويمكن للمثقفين أن يسهموا في ذلك. كتب سارتر (Sartre) في دوريته (*Les Temps modernes*) تشرين الأول/ أكتوبر إلى تشرين الثاني/ نوفمبر 1961: «المعادي للشيوعية هو كلب، لن أخرج من هنا، لن أخرج من هنا أبدًا! باسم المبادئ التي علَّمَتْني إياها، باسم الإنسانية و'الآداب القديمة (الإغريقية والرومانية)'، باسم الحرية، والمساواة، والأخوّة، كنت أضمر للبرجوازية كراهية لن تنتهي إلا مع نهاية حياتي».

يكون التمييز بعد ذلك ثقافيًا، ذلك أننا نعرف النظريات العنصرية الأوروبية المختلفة. وستطوّر اليابان أيضًا فكرًا قوميًا مهيمنًا محتدمًا تجاه الآسيويين الآخرين، وبخاصة تجاه الصينيين. منذ بدايات الثلاثينيات وضِع مبدأ التفوق العرقي الياباني بالارتكاز على نظرية كوكوتاي نو هونغي (Kokutai no Hongi) (مبادئ الأمة): يعيش الغربيون الماديون المنحطون في مجتمع فرداني ومادي، ولن تكون نتيجة توسّع هذا المجتمع سوى حرب بين «الروح والمادة». وقدّم الترويج (البروباغندا) المعروف بـ شوا (Showa) الآسيويين الآخرين كمنحطين وضعفاء لا يستطيعون حماية أنفسهم. وهكذا، بحسب نظرية هاكو إشيو (Hakko Ichiu، «العالم كله، تحت السقف ذاته»، على العرق الياباني، الأمة الوحيدة التي يقودها إله التينو (le Tennô)، أن يتكفل بمصير الآسيويين من خلال تأمين الحماية لهم تعويضًا عن إسهامهم بدعم جهده في الحرب ودعم توسعه. وتشكل مقاومته تلك جريمة بحق منطق الأشياء الذي فرضه السمو الإلهي (la transcendance divine) وبرهانًا عن سوء النية. وتبرر العنصرية اليابانية التي تدعمها ديانة شينتو (Shintô) الحرب، على غرار كثير من الحركات العنصرية الأخرى.

يستخدم علم المعاني الحربية مفردات مختلفة في وصف العمل ذاته بحسب المعسكر الذي قام بهذا العمل. فيجري افتراض أن العمل الإرهابي «الأعمى» هو، بطبيعته، أفظع من القصف الجوي «المحكم الأهداف». ولا نستعمل العبارات ذاتها للدلالة على الانتهاكات نفسها لحقوق الإنسان: خطف شخص ما ومنعه من إجراء أي اتصال مع عائلته، عدم إعطائه أسباب سجنه، ومنعه من أن يوكل محاميًا، وأن يحاكم من دون تحديد إطار زمني، وهذا ما يسمى في كولومبيا: احتجاز رهائن، وفي الشيشان اختطافًا، وفي إسرائيل اعتقالًا إداريًا، وفي غوانتانامو: الحرمان من الحقوق. بيد أن الأمر يتعلق في جميع الحالات باختطاف غير شرعي. في كتابه **حول الجزائر** (*De l'Algérie*) يلخص توكفيل (Tocqueville) جيدًا عنف الغزو: «برابرة في وجه برابرة، سيتميز الأتراك عنا دائمًا بكونهم برابرة مسلمين»، يجب أن ينظر إلى الآخر وكأنه يحمل تهديدًا محتملًا. ومن المثير للانتباه في هذا الصدد ملاحظة التوازي بين المواضيع المستخدمة لوصف الخطر الأصفر الذي كرّس له جاك دوكورنوا (Jacques Decornoy) كتابًا رائعًا[18]، وبين المفاهيم الأكثر تكرارًا لوصف صعود الإسلاموية. أولًا يجب الإشارة إلى أن المبدأ الجامع مفيد جدًا في الجغرافيا السياسية، الخطر «أصفر» ويمتد إلى الهند والسيام مرورًا بمنغوليا والتيبت (انظر بلاك ومورتيمر (Black et Mortimer: **سر سمك أبو سيف** (*Le Secret de l'Espadon*)). من المفترض أن الإسلاموية (الخطر الأخضر) ستغرق مجمل العالم العربي الإسلامي كانعكاس لمفهوم الأمة، أو جماعة المؤمنين. ويمكن للتهديد أن يغيّر صاحبه خلال مسيرته من دون تغيير الخطر. كانت الصين ترعب المستعمرين بحجم سكانها، ثم كانت اليابان ترعبهم بعد انتصار تسوشيما (Tsushima) على الروس، والحرب العالمية الثانية. أخيرًا استعادت صين ماو الشعلة بعد عام 1949، بقي المخطط الثقافي هو ذاته لكنه غيّر ركيزته. وفي كل مرة كان على البلد القائد أن يجر وراءه «حشودًا متعصبة، لا تكترث بالموت». أما بالنسبة إلى الإسلام، فشكلت الثورة الإيرانية صدمة الثمانينيات وبشّرت بالموجة القادمة. وستتولى الأمر جزائر الإسلامويين في التسعينيات، وأخيرًا قادت أفغانستان طالبان وراءها

(18) Jacques Decornoy, *Péril jaune, peur blanche* (Paris: Grasset, 1970).

حشودًا من المتعصبين وكانت طليعتهم المسلحة تتدرب في معسكراتها. لكن المملكة العربية السعودية هي التي ترسل إلى كل مكان دعاتها الوهابيين ومرشحيها للانتحار. ولكن يجب ألا نخلط الأمور، إذ يتعلق الأمر هنا بحليف...

يجب توجيه تنويه خاص جدًا إلى التوقعات السكانية التي تُستخدم غالبًا لشرح التهديد المستقبلي. فالاجتياح السكاني هو أداة تستعمل يوميًا لتفسير الصعود المحتمل لخطر ما. وقد ابتُكِرت تسمية «الخطر الأصفر» حين كانت الصين لا تعدّ سوى 400 مليون نسمة. واليوم، مع وجود 1.3 مليار نسمة، ما زلنا ننتظر أن تصب «فائضها السكاني». وغالبًا ما نذكر اليوم «المليار مسلم» وكأنهم كتلة متجانسة. ونجد هذه الحجة في العديد من البرامج السياسية التي تندد بالاجتياح، ليس في برامج حزب الجبهة الوطنية فحسب. وفي الأردن حيث يكثر اللاجئون الفلسطينيون، أرسلت القيادة العسكرية العليا إلى الملك عبد الله الثاني في الأول من أيار/ مايو 2010 المذكرة التالية: «نريد أن نحافظ على الهوية الوطنية الأردنية. بلغ عدد الفلسطينيين حتى الآن 4.5 مليون في بلد يبلغ مجموع عدد سكانه 6.2 مليون نسمة، والرقم مقلق حقًا». ويبرهن يوسف كرباج[19] من خلال أمثلة على سكان إيرلندا الشمالية وكوسوفو كيف أن التحقق من الأساطير المبنية انطلاقًا من التوقعات السكانية قد جرى بصورة غير كافية في ما بعد، أو حتى لم يكن هنالك أي تحقق. كان لبيار ديبروج (Pierre Desproges) ملاحظة فكاهية تلخص جيدًا بعض التشوهات الديموغرافية: «بالنسبة إلينا، هناك ستة مليارات أجنبي لكن بالنسبة إلى الصينيين ليس هنالك سوى خمسة مليارات. هذا هو الفارق البسيط!». فهل هم أكثر أم أقل قلقًا منا؟

تأتي التحليلات الثقافوية لتزيد من القلق. فالأصفر ماكر وفاسق وقاس، لا يحلم سوى بغزو الغرب. والعربي الذي تزينه لاإنسانية أسطورية، يستعمل السكين من دون حدود. الشيوعي يحمل السكين بين أسنانه (مما كان يصعّب عمل الترويج) والبرجوازي مع سيجاره الأبدي في فمه (قبل منع التدخين).... كان بن لادن الدكتور هو فومانشو (Fu Manchu) للإسلاموية..: هادئ،

---

(19) Youssef Courbage, «Utilisation politique de l'analyse démographique des minorités,» dans: Congrès de l'IUSSP, Salvador, Brésil, 18-24 août 2001, http://www.iussp.org/

قاس، ومتعصب، هدفه السلطة الكلية. ويولد كثير من هذه الأساطير في وقت يسيطر فيه الغربيون على العالم... ويعلن الخطر الأصفر عن اجتياح يذكّر بجنكيز خان، فيما «تسلخ» القوى الأوروبية الصين بعد حربين كان هدفهما إرغامها على شراء الأفيون[20] الذي تنتجه المستعمرات. وكذلك، صعدت أسهم الإسلاموية حقيقة لدى الرأي العام العربي بعد الخسارة المخزية في حرب الأيام الستة، مع الاحتلال الإسرائيلي واستعمار الأراضي المحتلة. ويرى هنتنغتون، وهو آخر نتاج النظريات الثقافوية، إلى الحضارة الإسلامية على أنها توسعية بالطبيعة، لكن يصعب على مراقب محايد أن يلاحظ ذلك، حين يتذكر فقط التدخلات المسلحة أو الحروب الدولية التي تديرها البلدان الغربية منذ عام 1945.

أخيرًا، نقول إن التهديد دولي لكنه داخلي أيضًا: عمل الخطر الأصفر على منع وصول المهاجرين الآسيويين إلى كاليفورنيا، بعد نهاية الأشغال في السكك الحديد، في بداية القرن العشرين. وفي أوروبا اليوم، قد تقف الإسلاموية وراء أعمال الشغب في الضواحي الفقيرة في المدن الكبرى، إن صدّقنا بعض التحليلات المرتبطة بأعمال العنف في تشرين الثاني/ نوفمبر 2008 في فرنسا. إن العدو المسؤول عن قلقنا هو الآخر! ويمتّن العنف الذي تتعرض له الجماعة تماسكَها. وقد كان الهدف الاستراتيجي من عمليات القصف المكثف على المدن الألمانية التي قررها الإنكليز خلال الحرب العالمية الثانية، والتي أسفرت عن عدد من الضحايا يفوق عدد ضحايا هيروشيما، إخضاع السكان. ويبدو أن القصف خصوصًا أدى إلى التحام السكان حول النظام النازي، إذ اعتبروا عمليات القصف التي قام بها الحلفاء «عنفًا أعمى». ونجد ردة الفعل ذاتها عند الباكستانيين الحاليين، فبحسب استطلاع حديث للرأي العام، يتمنى 65

(20) في حروب الأفيون، جابهت الصين التي كانت تمنع الأفيون على أراضيها بلدانًا غربية عديدة كانت تصنعه في مستعمراتها. وضعت الحرب الأولى من 1839 إلى 1842 في المواجهة الصين وبريطانيا العظمى. أما الثانية فكانت ضد فرنسا، والولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وروسيا من 1856 إلى 1860. وأرغمت بيجين على السماح بتجارة الأفيون وتوقيع الاتفاقات غير المنصفة. اغتنمت الفرصة بلدان غربية عديدة أخرى للضغط من أجل فتح الموانئ الصينية على التجارة.

في المئة من السكان انسحاب القوات العسكرية الأميركية، فيما يعتقد 25 في المئة فقط أن بلادهم ستعاني من عودة طالبان[21].

حيونة البربري

يعدّ «جعلَ العدو آخرَ» عملية ضرورية للخطاب الاستراتيجي..». إنهم يأتون حتى بين ذراعيكم ليذبحوا أبناءكم وزوجاتكم..». تحمل كلمات النشيد الوطني الفرنسي دلالات حربية خالصة: ففي زمن روجيه دو ليل (Rouget de Lisle) كان الآخر، البربري المستعد لفعل أي شيء، يذبح، واليوم قد يغتصب.

يرى العديد من «الخبراء» في اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر 2001 قطيعة استراتيجية. وهذا ليس صحيحًا تمامًا. فقد جرت أول عملية «بيولوجية إرهابية» ناجحة في دالس (Dalles) في الأوريغون (Oregon) عام 1984، حيث نشرت طائفة «راجنيشي» (Rajneeshee) باكتيريا السالمونيلا في طعام مطاعم مختلفة أصابت بالعدوى 751 شخصًا؛ وذلك بغية التأثير على نتائج انتخابات محلية، ولم يتخذ حينئذ أي إجراء أمني خاص تجاه طوائف الرؤيا الأخروية، بسبب حماية الحرية الدينية. لم نكن نعلم شيئًا عن تيموتي ماكفي (Timothy McVeigh)، وهو مريد ينتمي الى عقيدة تؤمن بتفوق العرق الأبيض، وهي طائفة دينية من اليمين المتطرف الأميركي التي تندد بـ «دكتاتورية السلطة الفيدرالية». وكان مسؤولًا عن أول عملية إرهابية واسعة النطاق على الأراضي الأميركية. ولقد دمرت قنبلة أوكلاهوما سيتي (Oklahoma City) أيضًا دار الحضانة التي تقع في المبنى الفيدرالي، مخلّفة 168 قتيلًا و680 جريحًا في نيسان/ إبريل 1998.

يتلخص الانهيار النفسي الذي طبع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وعلى نحو يفوق الحدث بحد ذاته، بالنظرة إلى الحدث والتغطية الإعلامية التي اهتمت به. وتدل الوثائق القليلة التي وجدت بين أوراق بن لادن على إرادته في وضع استراتيجيا توتر، وهذا عمل معتاد لدى الجماعات

(21) Pew Research Center, Numbers, Facts, and Trends Shaping your World, http:// pewresearch.org.

الإرهابية، بغية إرغام الآخر على الإفراط في ردة فعله، وتشتيت قوات الأمن وإرهاقها، والمحافظة على حالة تأهب قصوى، وخلق هاجس لدى السكان. ولا يمكن مناقشة حقيقة التهديد الإرهابي، فهي حقيقة عالمية لا يمكن التنبؤ بها، بيد أنها ليست استراتيجية. والحال أن أحدًا لم يفكر، دقيقة واحدة، أن عمليات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ستغرق الولايات المتحدة أو البلدان الأوروبية؛ إذ كان يجب أن تكون ردة الفعل أمنية وأن تبقى شأنًا تعنى به أجهزة الاستخبارات، لكنه جاء كما انتظره بن لادن. فبحث البيت الأبيض عن أعداء وأعلن حربًا «شاملة» على مستوى العالم، تحركه غطرسة (hubris) حربية حقيقية: حربان، ست وثمانون مجموعة إرهابية مسجلة على قائمة وزارة الخارجية الأميركية في عام 2002، ومئات الآلاف من القتلى. إنها دائرة العنف-القمع، مثل مجزرة سطيف في عام 1945 التي أدت إلى الثورة الجزائرية: قتلى أوروبيون، قمع عسكري عنيف ضد المواطنين الأصليين الذين يتحملون المسؤولية الجماعية.. ونعرف البقية.

تظهر إشارات خطورة الآخر في النطاق الديني والاجتماعي والثقافي كما في النطاق العسكري، إن كان في إيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت أو في آخر أيام يوغوسلافيا، بل حتى في قوالب دينية متماثلة، فالحقد يغذيه الزعماء الدينيون. ونرى أن خطابات إيان بيزلي (Ian Paisley)، الزعيم البروتستانتي ضد الكاثوليك الإيرلنديين، هي من نوعية خطابات الواعظين الوهابيين ذاتها ضد الشيعة، وفي الأحوال كلها، هي أعنف بكثير من خطابات جان ماري لوبان (Jean-Marie Le pen).

أخيرًا، فإن العدو هو خيار سياسي. فإيران أقل استخدامًا للطاقة النووية وأقل إرهابًا من باكستان التي هي قوة نووية ومقر العديد من المدارس الدينية التي يتخرج منها الإرهابيون الأكثر نشاطًا، لكن واشنطن اختارت من طرف واحد باكستان. وإيران هي أيضًا أقل إسلامية بكثير من المملكة العربية السعودية التي ترسل بواعظيها الوهابيين إلى الغرب وهي على الرغم من ذلك حليف.

بعد وضع هذا الإطار النزاعي، يجب الآن تحليل ما يؤدي في الديمقراطيات إلى تبرير استخدام القوة المسلحة.

الحرب العادلة: وسائل مقبولة، ضرورة قصوى، تفوق مضمون

«- ماذا نسمي ذلك، عندما يبزغ الفجر، مثل اليوم، وحيث كل شيء تالف وكل شيء مخرب، لكن مع ذلك يمكن تنفس الهواء، وحيث فقدنا كل شيء والمدينة تحترق، والأبرياء يقتل بعضهم بعضًا، في حين أن المذنبين يحتضرون في زاوية من الفجر الذي يبزغ؟

- لهذا اسم جميل جدًا، أيتها المرأة نارسيس، هذا يدعى الفجر».

جان جيرودو (Jean Giraudoux)

إليكترا (*Electre*)

المجد للحرب!

يحوي كوكبنا متحفًا حربيًا لكل بلد وقليلًا جدًا من متاحف السلام، وهي أقل جاذبية بطبيعتها. وتؤلَّه الحرب في المجتمعات المتعددة الآلهة التقليدية، المبررة لسلطة الطبقات التي تصف ذاتها بالأرستقراطية (الفروسية، الأبطال القدماء، النبلاء أو الساموراي...) ويقدس تأليه الحرب القتل الجماعي والغطرسة التي يفترض أن تجعل المحارب مختلفًا عما هو عليه في العادة. ويبرهن النصر على تفوق أضرحة المنتصرين العظماء كما يبرر تبني المهزومين له. ولا تبقى منه غير الرائحة النتنة في الشعارات الوطنية: ثقتنا بالله (In God we trust)، الله معنا (Got mit uns)، وأيضًا الله أكبر! ويبدو أن جورج بوش الابن مطلع تمامًا على الالتزام الإلهي؛ إذ يختم بهذه العبارات خطابًا موجهًا إلى القوات العسكرية، في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 2005: «كانت الحرية والترويع، العدالة والوحشية، دائمًا في حالة حرب، ونحن نعلم أنه بالنسبة إلى الله الأمر ليس سيان». بيد أن الله، أيًا كان، والذي تُطلب مساعدته غالبًا، لم يظهر بصورة واضحة منذ أن ابتدأ الناس بالقتال! ففي ليبيا اليوم(*)، يلجأ المتمردون والموالون للقذافي إلى الإله ذاته (يا لها من معضلة قاسية).

وتؤلَه الحرب أيضًا بأشكال علمانية في المجتمعات المعاصرة مهما كانت شرعيتها. وتكرر فرنسا في جاداتها وشوارعها الواسعة «الأسطرة الوردية»

(*) قبل سقوط النظام، ولكن الأمر يستمر بعد سقوطه [المراجع].

للجيش النابوليوني الجرار، على عكس الذكرى التي تركها الإمبراطور في باقي أوروبا. وتمثل المحافظة على الذكرى طقسًا، إن كانت الحرب مؤسِّسة لشيء ما (حرب التحرير في الجزائر)، أو تحريرية (الحرب ضد الفاشية)، أو تعيسة (حرب المحيط الهادئ بالنسبة إلى بوليفيا)، أو مجزرة (هزيمة ميدان الشحارير (le champ des Merles) لدى القومية الصربية)، أو مخزية (حرب فيتنام بالنسبة إلى الولايات المتحدة). ويسهم احتفال الذكرى ببناء التصورات الجماعية لهوية المجموعة. ويهدف ابتكار الجندي المجهول إلى تكريم ضحايا الحروب كلها التي تبرِز ذاكرة المجال العام. ولم تدشن السلطات قط نصب ضحايا حرب 1914 إلى 1918 الذي كان يحمل عبارة «اللعنة على الحرب!» إذ كانت تعتبر ذلك مساسًا بتضحية المحاربين.

وأبعد من العمليات العادية مثل الاستقبال الاحتفالي أو استعراض النصر اللذين يقامان للجنود المنتصرين، فلكل حضارة علاقتها الخاصة المختلفة بالحرب والعنف. ونلاحظ أن تعليم التاريخ الرسمي للمعركة هو أساس في رؤية العنف المسلح الخاص بكل مجتمع. ومن حسن الحظ أن تكون محطتا القطار أوسترليتز (Austerlitz) الفرنسية وواترلو (Waterloo) الإنكليزية غير متصلتين مباشرة. ويسهم التعليم بتقديم الهزائم كما الانتصارات، أو مآثر السلاح العظيمة. وهكذا فإن الانسحاب من روسيا الذي أنهاه نابليون في زحّافة تجرها ثلاثة أحصنة للعودة بسرعة إلى باريس، يشبه كثيرًا تخلي القائد العام عن جنوده. لكن معاناة الجنود وبطولة جنود التجسير بقيادة الجنرال إيبليه (Éblé) تحجب الصورة المخزية لهروب الإمبراطور. ووفق الطريقة التي يتم بها نشر الحكاية الملحمية الوطنية حول الانتصارات، لا تعود الحرب بعد ذلك تدميرًا بل ملحمة، وتمحى المسؤولية.

يختلف الأمر إن كانت البلاد خضعت لاحتلال قوات أجنبية أو لم تخضع، شهدت الدمار بالقصف على أراضيها ودك المدن أو رمي الرهائن بالرصاص أم لم تشهد، فتُعاش الحرب بوصفها حلًا مقبولًا إلى حد ما، خصوصًا إن جرت على أراضي الخصم. فألمانيا 1918 التي لم تعرف الخنادق ولا الدمار على أراضيها ولا المخابئ – لأن المناطق الداخلية كانت تعاني أيضًا من الحصار – لم تعتبر

أنها خسرت الحرب. ولم يبدُ الخطاب الهتلري بخصوص الثأر جراء ذلك إلا مقبولًا أكثر، في حين كانت فرنسا دالاديه (Daladier)، المتأثرة جدًا على أراضيها بنتائج أول نزاع عالمي، تتنفس الصعداء مع عودة رئيس المجلس الذي كان قد وقّع اتفاقات ميونخ.

ما عرفت الولايات المتحدة قط أهوال الحرب الأجنبية على أراضيها، ولا المدن التي سويت بالأرض، ولا بطاقات الحصص التموينية، ولا طوابير الانتظار أمام صنابير الماء. لقد عاشت الكتلة السكانية الحرب عبر علاقة سينمائية، فالبلد الذي عرف مليون ضحية (عسكرية) وعمليًا من دون أي ضحية مدنية في مختلف نزاعات القرن العشرين، لا يمكن أن تكون علاقته بالحرب مثل فيتنام التي شهدت 30 سنة من حرب التحرير، و4 ملايين ضحية مدنية وعسكرية، أو روسيا التي استنزفت جراء الحربين العالميتين. إذًا للولايات المتحدة استراتيجيات عسكرية بمقدار ما هي مدمرة عند العدو (قصف كثيف[22]، حرب كيماوية...)[23] فهي لا تحيل إلى أي ذكرى عاشها السكان، على خلاف الأوروبيين. هكذا حاول الأميركيون عبر الحرب الكلاسيكية التي قادوها عام 2002، بعد أن دمروا كل البنى التحتية العراقية، أن يبرهنوا للسكان المحليين الذين لم يعد لديهم لا ماء ولا كهرباء ولا شرطة ولا خدمات عامة، أنهم «محظوظون لأن لديهم الديمقراطية». والقسَم الذي يفترض أن يؤديه كل جندي أميركي يعكس جيدًا أخلاقيات المحارب الأميركي في العلاقة مع العنف الحربي: «أنا على أهبة (...) أن أتطوع ضد الخصم وأدمر أعداء الولايات المتحدة (...) أنا الوصي على الحرية وفن العيش الأميركي». يجب مقارنة هذه العقيدة الإيمانية التي أعيدت كتابتها عام 2003 تحت تأثير المحافظين الجدد، بعقيدة الجندي الفرنسي: «يحترم الجندي، وهو سيد القوة التي يملكها، الخصم ويحرص على إنقاذ السكان. يذعن للأوامر مع احترام

---

(22) خلال الحرب الأميركية تلقت بلدان الهند الصينية الثلاث، ثلاثة أضعاف عدد القنابل التي ألقيت على مجمل البلدان في أثناء الحرب العالمية الثانية.

(23) استخدام «العامل البرتقالي» الذي يهدف إلى تدمير الغابات التي تمر بها طريق هوشي منه. إن العامل البرتقالي الذي تصنعه شركة مونسانتو (Monsanto) هو الذي سبب كارثة سيفيسو (Seveso) في إيطاليا.

قوانين وعادات الحرب والاتفاقات الدولية (...) ينفتح على العالم والمجتمع ويحترم اختلافاتهما»[24]. وتتيح هذه المقارنة قياس طرق المقاربة المختلفة نظريًا وعمليًا في النزاعات القائمة. وتسعى الاستراتيجيا العسكرية الأميركية إلى تدمير بنى العدو ودعائمه بأي طريقة كانت، لإرغامه على السلم. كما تسعى القوى الأوروبية إلى حرمان الخصم من قاعدته الاجتماعية عبر استراتيجيات تدمج بين الأفعال المدنية والعسكرية. وتشكل الحروب الجارية في أفغانستان والعراق كوارث حقيقية عسكرية واجتماعية وثقافية لم نقدّر حتى الآن كل نتائجها.

يمكن تقويم الحرب أيضًا بأنها نوع من التطهير، وبأن الجيش انضباط. في الماضي كان يمكننا القول: «يحتاجون إلى حرب جيدة!». فالحرب التي تقدم كخلاص بعد هزيمة أو إذلال هي منهج يتشارك فيه العديد من الثقافات. ونعرف أزمة الضمير التكفيرية لهزيمة 1940 في فرنسا. وفي ألمانيا بعد هزيمة إينا (Iéna)، عادت القومية الفدائية عبر الروح الحربية البروسية، وجرت عمليات مشابهة في كل مكان تقريبًا. أما بالنسبة إلى الأميركيين فكانت سنة 1979 فظيعة اتسمت بسقوط حليفهم الموثوق شاه إيران واستلام الخميني السلطة، واحتجاز الرهائن في سفارتهم في طهران، والاجتياح السوفياتي لأفغانستان. وأدى ضعف رئاسة كارتر (Carter) العاجزة عن تحرير الرهائن بعد عملية عسكرية، إلى كارثة، ومن ثم إلى انقلاب صريح لعدد من المثقفين الذين كانوا ليبراليين إلى حد ما، فاتجهوا نحو تيار المحافظين الجدد مقتنعين بضرورة إعادة التسليح العسكري والأخلاقي للبلاد. وينتمي كثير من شخصيات المحافظين الجدد إلى الجيل الذي صدمته هزيمة فيتنام، وهم ينتقدون دبلوماسية حقوق الإنسان التي مارسها جيمي كارتر. وشخّص كريستول (Krystol)، وهو أحد رواد المحافظين الجدد، المسألة كما يلي: «المحافظ الجديد هو يساري عاد إلى الواقع». في الطرف الثاني من الكرة الأرضية، لاحظ الرأي العربي، بعد أن شعر بالمذلة جراء هزيمة حرب الأيام الستة، إخفاق الاشتراكية العربية، وبدأ بمناقشة العودة إلى القيم

(24) انظر المقال الرائع: J. C. Barry, «Vaincre l'ennemi ou le détruire? American Warrior,» *Inflexions civiles et militaires: Pouvoir dire* (septembre 2010).

الخاصة بالحضارة الإسلامية، بدفع من الإسلاميين. وبحسب بار زفي (Bar-Zvi)، وهو كولونيل متقاعد في الجيش الإسرائيلي، نرى العملية ذاتها تتحقق اليوم في إسرائيل، حيث يبرر بعض الخبراء ضرورة العنف بالإبادة التي مارسها النازيون على اليهود، ولكن أيضًا جراء هزيمتين: هزيمة مسعدا، ومعركة تل حي في بداية 1920، وهي مستعمرة يهودية صغيرة في الجليل تعرضت لهجوم قام به سكان عرب نجم عنه سقوط ستة قتلى يهود(25). على عكس ذلك، اعتبرت مصر أن نصف هزيمة حرب يوم كيبور عام 1973 تمثل خلاصًا، ومنذ ذلك الحين استطاعت التفكير في التفاوض مع الحكومة الإسرائيلية.

أخيرًا، لنقل كلمة عن الصورة التي يقدمها البلد عن ذاته. إن الأستراليين الذين ارتكبوا الجرائم ذاتها بحق أهل البلاد الأصليين (Aborigènes) كما فعل الأميركيون أو الإسبان تجاه الهنود الحمر، لم تكن لديهم الجرأة إطلاقًا على أن ينتجوا صور أبطال إيجابيين معززين برسالة كونية، على غرار دور جون واين (John Wayne) في البناء الوطني الأميركي. والحال هي ذاتها اليوم، حيث تصحح هوليوود الصورة مع شيء من المغالاة، وتساهم في استعادة الهزيمة الفيتنامية من خلال مرجعيات المديح لمحاربين قدماء ينتشرون في المسلسلات التلفزيونية. ويجب على الحرب، في هوليوود، ألا تكون لها رائحة الموت النتنة.

يرزح اليابانيون والألمان تحت ثقل مسؤوليتهم في اندلاع الحرب العالمية الثانية، لكن اليابانيين استطاعوا تفادي التكفير عن ذنبهم؛ إذ يغطي وضعهم كضحية وحيدة للقنبلة الذرية النقاش الداخلي حول مذابحهم. ويعود ذكر المراجعة التاريخية (révisionnisme) اليابانية من وقت إلى آخر، في كتب التاريخ المدرسية أو، على سبيل المثال، بمناسبة زيارة رئيس الوزراء ناكازوني ياسوهيرو (Nakasone Yasuhiro) في 15 آب/أغسطس 1983 لمعبد ياسوكوني (Yasukuni) الذي يجمع جثامين الجنود ومجرمي الحرب.

---

(25) Idith Zertal, *La nation et la mort: La Shoah dans le discours et la politique d'Israël*, La Découverte poche (Paris: La Découverte, 2008), et M. Bar-Zvi, *Eloge de la guerre après la Shoah*, Philosophie (Paris: Hermann, 2010).

إن للوضعين الاجتماعي والثقافي للجندي تأثيرهما الكبير في حساسية الرأي تجاه مخاطر الحرب. ولكن من الصعب أن نتخيل في أوروبا الصورة الرومنسية الكاملة التي تقدمها الأفلام الحربية الكثيرة التي تدعى «السلسلة B» عن المحارب الأرعن لكن ذي القلب الطيب، والفرداني الأهوج الذي يعارض رؤساءه وينتصر دومًا. وهذه الأسطورة تثير دهشتنا أكثر حين نعلم أن سيلفستر ستالون (Sylvester Stallone)، مبتكر دور رامبو السينمائي، حين كان في سن السَوق إلى الخدمة العسكرية، لم يشارك في حرب فيتنام. وهو يندم على ذلك من دون شك، إذ يقول هذه الجملة في فيلم رامبو 2 قبل الذهاب لتحرير السجناء الأميركيين المحتجزين في أقفاص فيتنامية للنمور: «هذه المرة سنذهب لنربح!»، فيقتل البطل بمفرده خمسة وسبعين عدوًا (تأكد المؤلف من العدد)، مقابل جرح طفيف في يده. هل يمكننا أن نتخيل فيلمًا فرنسيًا مماثلًا عن حرب الجزائر أو روسيًا عن حرب أفغانستان؟ لو حدث ذلك فسيوصف بأنه «فيلم يروّج للحرب».

الحرب العادلة

قدم الأميركيون غزو تكساس ضد المكسيكيين عام 1836 كتحرير، وأعادوا إليها فورًا الرق الذي منعه النظام الملكي الإسباني منذ زمن طويل.

في المجتمعات الغربية، ترمي شرعنة استخدام القوة إلى البرهان بأن «الحرب عادلة». ويدرس كارل شميت مواصفات الحرب في القرن العشرين في نصين مؤسسين: **نظرية النصير** (*La Théorie du partisan*) **(1963) وقانون الأرض** (*Le Nomos de la Terre*) **(1950)**. وتتيح له نهاية نوع معين من الحروب بين دول وجيوش نظامية أن يميز بين حق اللجوء إلى الحرب (jus ad bellum)، والحق خلال الحرب (jus in bello). وينتقد العقيدة المسيحية للمجموعة اللاهوتية (la somme théologique) لتوما الأكويني (Thomas d'Aquin) التي كانت سارية حتى القرن السادس عشر. وبحسب هذا اللاهوتي، لكي تكون هنالك قضية عادلة، «يجب على هؤلاء الذين نهاجمهم أن يكونوا قد استحقوا الهجوم عليهم بسبب خطيئة ما». يجب على الحرب أن تدار تحت سلطة الأمير وإلا

كانت «غير عادلة»، وأن تكون «نيتها مستقيمة»، أي تهدف إلى المصلحة العامة. ويبرهن كارل شميت أن «الحرب العادلة» تفسح المجال لحرب غير محدودة كونها ترتكز على عدل القضية، فهي لا تعترف بأي شرعية للعدو، على خلاف حروب حقبة النظام الملكي.

في الحرب العادلة، يحدد العدو نفسه عبر عدوانيته؛ إذ إن تعرضه للهجوم هو أمر حتمي. هذا ما كان قد بينه رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير (Tony Blair) مدعيًا أن صدام حسين يملك «صواريخ يمكن نشرها خلال أربع وخمسين دقيقة». عمومًا، يجب على القضية أن تكون عادلة، وهذا التصور هو أكثر ما يمكن أن يتطلب تفسيرًا. ويشكل هذا أيضًا خط دفاع طوني بلير أمام اللجنة البرلمانية شيلكو (Chilcot): «الذي تغيّر هو إدراكنا للخطر وتقويمنا للخطورة.... أدركنا (بعد هجوم 11 أيلول/ سبتمبر) أن هؤلاء المتعصبين كان بإمكانهم أن يقتلوا 30 ألف شخص لو كان بين أيديهم أسلحة دمار شامل (...) وانطلاقًا من هنا كان علينا أن نتحرك»[26]. ونحن نفهم الحجة التي استخلصها مفكرو المحافظين الجدد من كارل شميت وليو شتراوس بوضعهم مبدأ «الحرب الاستباقية» وأن الولايات المتحدة يمكنها أن تتخذ قرارًا أحاديًا حين تعتبر أن شروط «الحرب العادلة» متوافرة: المصلحة العامة، (ما يعني بالنسبة إليهم النظرة الأميركية لمصلحة العالم) والدولة المارقة (Rogue State)، أي دولة عدوانية بطبيعتها.

أخيرًا، هذا آخر شكل لخطاب يبرر العنف الحربي: ونعني بها العبارات التقنية المرتبطة بالأسلحة الحديثة المسماة «ذكية»، والمفهوم المستخدم كثيرًا في هذه السنوات الأخيرة «صفر ضحية». وتعلن الثورة في الشؤون العسكرية (RMA) التي أطلقها في التسعينيات (Office of Net Assessment) وهو مركز تفكير أميركي لأندي مارشال (Andy Marshall)، تعلن أن الأسلحة التكنولوجية الذكية يمكنها أن تبلغ أهدافها بدقة. وهكذا يصبح العنف قابلًا تمامًا للسيطرة، ويصبح معدل التأثيرات الجانبية، خصوصًا على المدنيين، متدنيًا لأقصى درجة. إضافة

---

(26) *Le Monde* (1er février 2010).

إلى ذلك، تضمن التكنولوجيا التي تتيح إطلاق النار من مسافة أمان، الحماية القصوى للجندي. وهكذا نصل إلى اعتبار القنبلة التي تزن 500 كيلو غرام، والتي ترميها طائرة على منزل يسكنه نظريًا «إرهابي»، وسيلة مناسبة لمكافحة الإرهاب، في غزة أو في المناطق القبلية في شمال باكستان. من المفترض أن تكون الأضرار الجانبية محدودة جدًا. لكن من الصعب التحقق من هذه النظرية على أرض الواقع: فوفق إحصاءات القتلى في العراق (Irak Body Count)، في عام 2007 أُحصي 20 قتيلًا عراقيًا مقابل أميركي واحد، ووفق The Lancet أحصي 200 قتيل مقابل واحد. ولا يمكن أن نتسرع في الحكم بخصوص عدم مهارة الطيارين أو المدفعيين...

عنف ضروري ومقبول

تشكّل الحرب المادة الأساس للتاريخ الوطني، على الرغم من المنع المبدئي الذي أعلنته عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة في هذا الشأن. وتغذي ذكرى الحرب الأساطير الجماعية لهوية الجماعة. وتسمح بكل عمليات إعادة التدوير لبناء شبكات أيديولوجية جديدة. ونلاحظ أن التاريخ منوط نوعًا ما بالتبرير في حال النصر، وبالتمثيل أو بالعذر في حال الهزيمة. ولا يمكن أن يعاقب من كان قد قَتل وفق الشكل الشرعي أي خلال الحرب: «اضربوهم إلى أن يموتوا! لن تعاقبوا يوم الحشر». هذا ما كان يقوله فون كلايست (Von Kleist) عن الفرنسيين، وهو جنرال ألماني عاصر الحربين. ويغسل الانتصار ذنوب الجنود الجلادين، وفي المجتمعات التقليدية، يجب على الضحايا المهزومين أن يغيّروا ثقافتهم أو دينهم.

يتطلب تشريع القوة مفردات التهديد التي تقدم خيارًا واسعًا من الاحتمالات. وهنا تفيد الحجة الثقافوية كثيرًا: كان الاتحاد السوفياتي إمبراطورية الشر. وفي عدد من التحليلات الحديثة يوصَف الإرهابي كمريض تختلف نظرته إلى الموت واحترام الحياة عن نظرتنا. وبما أنه لا يفهم سوى القوة فهو ماكر وعقائدي، يأكل لحم البشر، أو هو لوطي متمرد على الحضارة، ودماغه لا يشبه دماغ الرجل الأبيض! وتشكل العمليات الانتحارية بالنسبة إلى العديد

من المحللين ميزة للإسلام الراديكالي، في حين استخدم التاميل في سريلانكا (مسيحيون، بوذيون، أو إحيائيون)، ولمدة طويلة، هذا النمط الإرهابي أكثر من الفلسطينيين.

في علم المعاني الجديد ما بعد 1989، وهو أكثر اعتدالًا وأكثر ضبابية، تحل «المخاطر» محل «التهديدات»، و«التحديات» محل «النزاع شرق-غرب» و«مخاطر زعزعة الاستقرار» محل «تهديدات الانقلابات»، وتصبح «المصالح» و«مناطق النفوذ» مقبولة أكثر من النظريات الإمبريالية. لقد صار موضوع «حقوق الإنسان والدفاع عن الديمقراطية» أكثر تداولًا، لكن ضمن حدود المصالح الاستراتيجية، وحلت إجراءات «إقامة الاستقرار» محل المساعدة والعون للأنظمة الصديقة، فأصبحت حروب العصابات تدعى «الحروب غير المتناظرة (guerre asymétrique)». وجددت الحرب الشاملة ضد الإرهاب تبرير وسائل التعذيب، ونشر مكتب الاستشارات القانونية لدى وزارة العدل الأميركية لقوات الجيش مذكرة تعذيب (Torture Memo) في أول آب/ أغسطس 2002، والتي تعد تحفة من العار، حيث وضع فيها قانونيون كبار كل خبرتهم. ونلاحظ فيها بساطة التبرير القانوني للتعذيب الذي مورس في أبو غريب وفي باغرام وفي السجون السرية للاستخبارات الأميركية CIA حيث الحرب الشاملة ضد الإرهاب ليست حربًا ضد دولة، ولذا فإن اتفاقات جنيف لا تطبق على المساجين، لذلك يتم ابتكار تصنيف قانوني جديد لهم وهو: «المحاربون غير الشرعيين». ولعدم توافر الحماية القانونية تقدم لهم ضمانات. هذا هو موضوع المذكرة! ليس هنالك تعذيب إن لم نترك أثرًا، لا ذراعًا مكسورة على سبيل المثال! بل يتم تبرير ممارسات غير إنسانية وتشريعها باسم القول المأثور القديم: «حين نحارب برابرة نستعمل أساليب بربرية». وخلافًا للجنرال ماسو (Massu) الذي أخضع نفسه للتعذيب بالكهرباء (Gégène) لكي يستطيع الحكم على الألم الذي ينتج عن ذلك، لم يعتبر الرئيس بوش مفيدًا أن يجرب ليعرف إذا كانت الممارسات التي أصبحت شرعية هي غير إنسانية!

أخيرًا يشكل قرب حدوث التهديد، عمومًا، عاملًا يسمح باستخدام القوة. وتؤدي وسائل الإعلام دورًا أساسيًا لإقناع الرأي العام بتجسيد الشعور بقرب

الخطر وفوريته. كما تتيح عرض الحدث وأحيانًا تضخيمه لإبرازه. وأدت مجموعة **فوكس نيوز** (*Fox News*) دور المروج الديناميكي للحرب في العراق، من خلال شتم المعارضين (عنونت صحيفة **ذي سان** (*The Sun*) إحدى صفحاتها بـ «شيراك دودة»). وبيّنت دراسة إحصائية عن الحرب في العراق، أجريت على عينة من 3334 مشاهدًا لقنوات أميركية مختلفة، قام بها البرنامج حول تصرفات السياسة الدولية بين 2003 و2004، أن 80 في المئة من مشاهدي فوكس نيوز يؤمنون على الأقل بواحدة من الأفكار الأربع (الخاطئة) التالية: الصلة البدهية بين بغداد وبن لادن (67 في المئة لفوكس نيوز، و45 في المئة لـ ABC)؛ تورط العراق في العمليات التفجيرية في 11 أيلول/ سبتمبر؛ اكتشاف أسلحة دمار شامل في العراق؛ وأخيرًا الدعم الكوني للحرب في العراق. وكان الشعار الإعلاني لـ **فوكس نيوز** هو «نحن ننقل الوقائع، أنتم تقررون» (we report you decide).

تتيح الحيازة الحصرية على وسائل المعلومات في النهاية كل أنواع الأكاذيب. فقد أعلنت أجهزة الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية عن البرنامج النووي الإيراني، وكأنه وشيك للعام 1994 ثم لـ 1996 ثم 2000 ثم لـ 2006 والآن لـ 2011 أو 2012. فبماذا نصف هذا؟ في أثناء محاضرة ألقاها أمام مجلس العلاقات الخارجية (Council on Foreign Relations) في 23 كانون الثاني/ يناير 2003، قال بول ولفوفيتز (Paul Wolfowitz): «يشكل الرابط بين الشبكات الإرهابية والدول التي تملك أسلحة الإرهاب الشاملة تهديدًا بوقوع كارثة على مستويات أكبر بكثير من الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ولا تشكل أسلحة الإرهاب الشاملة والشبكات الإرهابية التي يرتبط بها العراق تهديدين متمايزين (...) فحرمان العراق من أسلحة الدمار الشامل الكيماوية والبيولوجية، وتفكيك برنامجه لتطوير الأسلحة النووية هو عنصر أساس للانتصار في الحرب على الإرهاب». وتَرِد الفكرة ذاتها لكن بطريقة أقل فظاظة، ومسموح بها أكثر من الناحية القانونية، في قرار الكونغرس في 11 تشرين الأول/ أكتوبر 2002 حول استخدام القوة ضد العراق: «باعتبار الخطر في أن يستخدم العراق أسلحته (أسلحة الدمار الشامل) لشن هجوم مفاجئ على الولايات المتحدة أو على قواتها المسلحة، أو يمد بها إرهابيين دوليين ليقوموا بهذا الهجوم، والأضرار الفادحة التي قد تنتج عن ذلك بالنسبة إلى الولايات المتحدة

ومواطنيها، كل ذلك يتضافر لتبرير إقدام الولايات المتحدة الدفاع عن نفسها..»، إنها أمثلة رائعة لأكاذيب مبنية على معلومات مفترضة.

إذًا، تشكّل صناعة العدو كآخَر مهددٍ فعلًا سياسيًا كما برهن عن ذلك كارل شميت. لكن كيف تجري عملية التحديد هذه؟ في رأينا تَجمع معاهدَ مختصة، وتعدّ خطابًا استراتيجيًا، وتُجهّز نقاط نشر للآراء التي نسميها «محددات الأعداء»، وأخيرًا يشرّع العنف المسلح. هذا هو موضوع الفصل التالي. وكمثال، لنستعدْ عرض شريط موضوع شهير، عن الخطر الأصفر.

الخطر الأصفر: قيمة مضمونة

هذه العبارة التي نحتت في خضم الفورة الاستعمارية الأوروبية، كانت قد نُسبت إلى غيوم الثاني (Guillaume II) الذي يقال إنه ابتكرها في أثناء محاولة «توحيد» الأمم الغربية التي تملك مستعمرات في آسيا لمجابهة خطر الصعود القوي لقدرات الصين واليابان. ولقد أطلق هذا المصطلح بعد وقت قصير من حربي الأفيون (1839-1842 ثم 1856-1860) اللتين شنتهما فرنسا وإنكلترا لفتح السوق الصينية على المخدرات التي تنتجها مستعمراتهما. بيد أن التعبير سبق أن دخل في الثقافة الشعبية عبر مؤلفات مختلفة لروائيين وكتاب وعسكريين وجغرافيين ودبلوماسيين، مقترنًا مع الاستعارة الحشراتية لـ «وكر النمل» الآسيوي وتحليلات أنثروبولوجية تؤكد إما الوضع الدماغي البدائي، أو الرضوخ الفطري، أو وحشية شعوب العرق الأصفر، وفيه يمكن أن يمتزج بلا تمييز الصينيون، والمغول، أو الهندوسيون، بحسب الحاجة. وفي كتابه خطر أصفر، خوف أبيض[27] (*Péril jaune, peur blanche*) يظهر جاك دوكورنوا (Jacques Decornoy) أن «الخطر الأصفر» هو ابتكار «للبيض الإمبرياليين والاستعماريين» و«يندرج في استمرار أسطرة البرابرة، التي يتشارك معها بالتعبير الغربي عن الخوف من الانحطاط». ويصيب القلق الأمم الأوروبية المذعورة من الديموغرافيا الصينية: «400 مليون نسمة، 30 مليون رجل مسلح». ويُخشى أن يتحد اليابانيون مع الصينيين، ويحذّثونهم ويجعلونهم

(27) Decornoy, *Péril jaune, peur blanche*.

«مواطنين»، فيصبحون بذلك أول قوة في العالم. ويقدم كتاب تعليمي فرنسي لطلاب دار المعلمين في نهاية القرن التاسع عشر، الخطر الأصفر كردة فعل مقلقة تجاه الاستعمار: «إن اجتياح الأجانب للصين ليس سوى الشكل الأكثر خطورة لمسألة الشرق الأقصى. وتحتوي الصين على أروع مخزون للناس في العالم، وهذا المخزون ليس غير فاعل بل ينشط: ويشكل هذا النشاط الخطرَ الأصفر». منذ أن هزم اليابانيون الصينيين، وهم أقل منهم عددًا بعشر مرات، غيّر المتشائمون موقفهم فجأة، فلا خوف من الخطر الأصفر بشكله العسكري بعد الآن.

وعلى العكس من ذلك، ومع انهزام روسيا في تسوشيما أمام الأسطول الياباني في عام 1905، ولد الخطر الياباني، وغطت الصحف اليومية الواسعة الانتشار في هذه الحقبة النزاع. ويتحدث لويس أوبير (Louis Aubert) في صحيفة *Le Siècle* في 8 شباط/ فبراير 1904 عن هجوم اليابان «المباغت» على روسيا: «اليابان، شعب طفل. الآن أصبح لديه ألعابه الضخمة (المدرعات)، هو ليس عقلانيًا بالقدر الكافي، وليس كبيرًا بالقدر الكافي لكي لا يجرّبها. يريد أن يعرف كيف يمكن استخدامها». وفي 10 شباط/ فبراير: «كان للغطرسة وللميل للحرب دور ما في سلوك اليابان. ولن نتوانى عن أن نصوّر اليابانيين كمُخلّين بالنظام العام وبالسلام، وبأنهم بالتأكيد برابرة وبقوا كذلك على الرغم من كل ما أخذوه من أوروبا المتحضرة».

بعد ذلك بوقت طويل، حتى الجنرال ديغول استسلم لمتعة الخطر الأصفر في خطاب برازافيل (Brazzaville) عام 1945: «إليكم لماذا سنشكل هذه الجماعة الفرنسية الأفريقية (...) لأن الكل يعلم أن هنالك مخاطر كبيرة كامنة في العالم، وتهديدات تتربص بأفريقيا (...) يوجد في آسيا خصوصًا كتل بشرية كبيرة تحاول أن تمتد لعدم توافر وسائل كافية للعيش لديها».

إن التفسير الأحدث للخطر الأصفر هو تفسير المحافظين الجدد الأميركيين الذين يستنكرون النمو الاقتصادي للصين ومجهودها الحربي. فقد انفعل بول ولفوفيتز في أثناء زيارته للصين في 2005 جراء الإنفاق العسكري لهذا البلد الذي يقارب 90 مليار دولار، فيما كانت الميزانية الأميركية تقارب 700 مليار دولار. وفي تقريره السنوي العام في 25 أيار/ مايو 2007 عبّر

البنتاغون عن قلقه جراء الصعود القوي للجيش الصيني مركزًا على ثلاثة قطاعات: مجموعة الصواريخ ذات المدى البعيد، أسطولها من الغواصات النووية القادرة على إطلاق صواريخ JL2 والتي يصل مداها إلى 8000 كلم، وأخيرًا قدرتها الفضائية. ويسعى هذا التقرير إلى دعم المجهود الدفاعي الأميركي، أي مساندة نظرية الخبراء، وخصوصًا الجمهوريين منهم، الذين لا يكفّون عن تنبيه الكونغرس والرأي الأميركيين بأن بيجين، على المدى الطويل، هي العدو الاستراتيجي الحقيقي الوحيد للولايات المتحدة. وبحسب هذا التقرير أيضًا، لا تخفي الصين هدفها الأخير وهو أن يكون تحت إمرتها قوات مسلحة مؤتمتة قادرة على أن تربح حروب القرن الحادي والعشرين. وسيكون طموح بيجين أن تتصدى لقوى العدو التي تدعم «استقلال تايوان، وأن تحتويها». وهذه طريقة غير مباشرة للإشارة إلى الولايات المتحدة. قد تكون العقيدة الصينية ليست بعيدة عن استراتيجية «استباقية»، أي إنها تخطط «لأخذ المبادرة عبر ضربات هجومية» و«تدمير قدرات العدو قبل استخدامها». وبهذا تسعى بيجين إلى المحافظة على منفذها إلى موارد وأسواق ضرورية لنموها الاقتصادي، وتأمين حضور وتأثير إقليميين، يمكناها من «خلق توازن والدخول في منافسة قوى أخرى، من بينها الولايات المتحدة، واليابان، والهند، في مناطق بعيدة عن حدود الصين»، هذا ما يلاحظه أيضًا البنتاغون.

أخيرًا يوجّه اللوم إلى بيجين بأنها تمارس سياسة المحافظين الجدد الأميركيين. وبصفتنا أوروبيين هل علينا أن نعتبر، على غرار جورج بوش الابن، أن التوسع الصيني يشكل خطرًا أم على العكس يجب على الدبلوماسية أن تساعد بيجين على الاندماج في الائتلاف الدولي، كما يعتقد باراك أوباما (Barack Obama) اليوم على ما يبدو؟ عندما ستظهر سفينة حربية في الخليج العربي - الفارسي «لتأمين طرق الإمداد البترولي المتوجهة إلى آسيا»، كما نفعل نحن، هل يجب أن نرى في ذلك خطرًا كما يقول المحافظون الجدد الأميركيون، أو إسهامًا في الأمن الدولي؟ شاركت بيجين بثماني عشرة عملية مع الأمم المتحدة للحفاظ على السلام. نعم الصين هي دولة ديكتاتورية حتمًا، لكن هل هي إمبريالية؟ يجب التأكد من ذلك.

«محدّدو» العدو

في عام 1992 استُنفر العالم للذهاب إلى إنقاذ الصومال من براثن أمراء الحرب، وكانت عملية الأمم المتحدة للصومال (ONUSOM) تضم قوات أتت من ست عشرة دولة. واليوم، لا تزال الأزمة مستمرة لكن الصومال لا يستحق أكثر من مؤتمر دولي. ترى كيف تتشكل الرؤية العامة لأزمة ما وتبرر إرسال الجنود؟ من هم صانعو الرأي؟ هل يجب اعتبار المثقفين، حتى الرديئين منهم لكن المقروئين والمنتشرين أكثر من غيرهم، شاهدين على العصر وقادرين على إسماع أصواتهم، مهما كانت خبرتهم حول الموضوع الذي تتم معالجته، أو على العكس أصحاب الرؤى الذين ثبت في ما بعد أنهم كانوا مصيبين؟ هل نختار ديروليد (Déroulède) أم جوريس (Jaurès) لفهم أجواء صيف 1914؟ أم سارتر (Sartre) أم آرون (Aron) حول الشيوعية؟ هل يجب أن نعتبر محدِّدي العدو هم محررو الأخبار الذين حافظوا على أسطرة الخطر الأصفر، أو هؤلاء الذين انتقدوه؟ مثلًا فيليب سولرز (Philippe Sollers) أم سيمون ليز (Simon Leys) حول الثورة الثقافية الصينية؟ بالتأكيد كان تأثير الأشخاص الذين تمسكوا بأسطرة الخطر الأصفر أكبر على الرأي. سنسمي إذًا «محددي العدو» على غرار «محددي الهوية»، الكيانات العامة أو الخاصة، المؤسسات أو الأفراد الذين يسهمون باسم المصلحة العامة بتحديد العدو للرأي العام. الحرب ليست شأن حاكم ما بحاجة إلى المجد، بل أصبحت شأن الجميع. ولذا فإن تهيئة العقول لاختيار العدو ينتج أيضًا عن آلية سوسيولوجية تؤسس للموافقة الجماعية.

ولفهم حالة رأي محرّض للحرب، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أولًا المؤسسات العامة المختصة، أي النظام المركّب الذي تختلط فيه المنظمات العسكرية والبوليسية، كالاستخبارات والمنظمات الإدارية ومراكز التفكير. لكن يجب أيضًا دراسة «محددي الأعداء» الذين يُعنون خصوصًا بتحليل العلاقات بين الجماعة والآخر: وهم المثقفون، ووسائل الإعلام، والصحافيون، والمدرّسون، والجامعيون المثقفون، والجغرافيون، والمستكشفون....

لنلقِ نظرة أولًا على العناصر التي تشكل فئة ما يسميه الأميركيون (الاستراتيجيين)، ووظيفتهم الرسمية تقديم خبرتهم لتحديد تهديد ما، وشرح أزمة ما، وبناء خطاب ما، بل حتى تحديد العدو.

مراكز التفكير الاستراتيجية

«من المؤكد أنه تم اكتشاف أميركا قبل كولومبوس (Colomb)، لكن تم الحفاظ على السر جيدًا». هذه الجملة لأوسكار وايلد (Oscar Wilde) تعبّر بطريقة فكاهية عن العيب الذي ولد مع السيطرة العسكرية الأوروبية على الكرة الأرضية التي بدأت في القرن الثامن عشر: أي عدم معرفة كيفية التفكير مثل الآخر. ومع الإمبراطوريات الاستعمارية الكبيرة، والتنافسات العالمية، ولدت في الأوساط الجامعية والثقافية أولى الجمعيات الجغرافية، والأقسام الجامعية، والمعارض الغرائبية، وأولى النظريات الكبرى الجيوسياسية، على أساس عرقي لتبرير الإمبريالية الأوروبية وتوجيهها. وتظهر أماكن التأملات الاستراتيجية هذه، وهي أخلاف مراكز التفكير الاستراتيجية خارج النطاق الإداري. وتزودت الدول الحديثة بأجهزة استخبارات، بمناسبة النزاعين العالميين، أولًا باستخبارات عسكرية لكشف أسرار العدو القريب، ومن ثم نمت الاستخبارات السياسية - العسكرية الشاملة. وتتشكل آلية إنتاج العدو اليوم من مزج هاتين المجموعتين العامة والخاصة اللتين تعملان عمومًا بتمويل عام.

لقد اتخذت مؤسسات التفكير الاستراتيجي التي تعمل لمصلحة وزارات الدفاع، أهمية لا سابق لها خلال الحرب الباردة في الديمقراطيات الغربية. وكان لها ثلاث علل لوجودها: أولًا توصيف تهديد ما، وفهم آلياته، وإذا أمكن تحديد صاحب التهديد. ثم تبرير نظام الدفاع وشكل الجيوش من خلال وضع تسلسل للمخاطر، وأخيرًا جعل استخدام القوة شرعيًا. وقد ولدت مراكز التفكير تاريخيًا في الولايات المتحدة حيث صار عددها 1500 تقريبًا. وهي أسست شبكة أيديولوجية قوية ومهيمنة، وفق تقرير السياسة الخارجية عام 2008[28] بخصوص 5465 معهدًا يعمل في 169 بلدًا. ونلاحظ أن عدد هذه المؤسسات في نمو مستمر منذ سقوط الجدار. ففي أميركا وحدها، 58 في المئة من مراكز التفكير التي تمت معاينتها أنشئت في السنوات الخمس والعشرين الماضية. وتستمر الولايات

---

(28) في العالم: السياسة الخارجية تصنيف مراكز التفكير: http://www.foreignpolicy.com.

المتحدة أكثر بخمسة أضعاف في الأفكار: 561.1 مليون دولار استثمرت في أول عشرة مراكز تفكير أميركية، مقابل 112.2 مليون دولار في أوروبا. وقد سبق لديكسون[29] (Dickson) أن تكلم في عام 1971 على «مجمع عسكري - ثقافي». ويستخدم أشهر المعاهد الأميركية (RAND Corporation) ما يقارب ألفًا وخمسمئة شخص ويوجد تحت تصرفه خمسة مكاتب في الولايات المتحدة وأربعة خارجها[30]. وتتفوق عليه مؤسسات أقل شهرة لكن أغنى منه بكثير مثل Aerospace (800 مليون دولار) أو MITRE (1.3 مليار دولار) الملحقة بهذا الجيش أو ذاك، أو بمؤسسات الدفاع، ومهمتها تبرير الميزانيات التي تطلب من الكونغرس.

يؤدي RAND أو مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) دورًا له مكانته على المستوى الدولي. ولا يوجد ما يُماثله عند الديمقراطيات الأخرى. فمراكزهم الرئيسية تعيش على الأقل جزئيًا، بفضل المساعدة العامة: ولا يضم مركز التحليل والتوقع في وزارة الخارجية الفرنسية، الذي أصبح منذ زمن قريب مديرية التوقع، سوى عشرين شخصًا خصص لهم مليون يورو كميزانية دراسات للعام 2009. أما لجنة الشؤون الاستراتيجية في وزارة الدفاع (أكثر من مئة شخص مع ميزانية دراسات تبلغ أربعة ملايين يورو تقريبًا)، فتؤمّن بقاء وسطٍ من الخبراء الجامعيين طليعتهم الرائدة مؤسسة الأبحاث الاستراتيجية (ثلاثون باحثًا تقريبًا وميزانية من خمسة ملايين يورو). يضم SIPRI، في السويد خمسين باحثًا، وIISS في بريطانيا العظمى أربعين باحثًا بـ 8 ملايين جنيه استرليني. وتُعد هذه المؤسسات برمتها أقزامًا مقارنة بالمراكز الأميركية التي تجذب أفضل الخبراء الأجانب. وفي سوق الأفكار، لا تزال السيطرة الأميركية هي القوية خصوصًا خلال الحرب الباردة؛ إذ كان سيناريو النزاع والمجابهة الرئيسية مع الاتحاد السوفياتي، لا يزال فعالًا: تعتبر معاهد بلاد ما وراء الأطلسي معبرًا ضروريًا بالنسبة إلى كل وظيفة أكاديمية. وعليه، لا تزال النقاشات الاستراتيجية

---

(29) Paul Dickson, *Think Tanks* (New York: Atheneum, 1971), p.133.

(30) استخلصت هذه المعطيات من رسالة دكتوراه: Jean Loup Samaan, «Contribution à une sociologie de l'expertise militaire: La RAND Corporation dans le champ américain des études stratégiques depuis 1989,» Paris, 2008, thèse non publiée.

الغربية اليوم بمجملها، تصدر عن الحلقات (cercles) الأميركية ويعيد معالجتها الآخرون. ولنتذكر نجاح مقالة صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington) ثم كتابه **صدام الحضارات** (*Le Choc des civilisations*) الذي ترجم إلى 35 لغة، وطبعت منه عشرات ملايين النسخ، وكان موضوع نقاشات عدة في كل أنحاء العالم! ليس مهمًا أن نكون على وفاق أو على خلاف معه، طالما أن شروط النقاش قد حددت سلفًا.

وفق دراسة مجلة **السياسة الخارجية** المذكورة سابقًا، لا تحتوي قائمة أفضل عشرة مراكز تفكير أميركية في مجال السياسة الدولية والأمن، على أي مركز غير غربي، وهذا لا يمكنه إلا أن يستوقف المراقب. إذًا لا يوجد أي بلد على الكرة الأرضية ينتج تحليلًا مقبولًا حول المسائل الدبلوماسية أو الأمنية؟ ولن يكون لدى العالم المُتَصَيّن (نسبة إلى الصين) وهو في ذروة النمو الاقتصادي، أو العالم الروسي، أي إنتاج جيد وأي تعبير عن الحاجة إلى الأمن أمام الغرب؟ ماذا نقول إذًا عن معهد سنغافورة للشؤون الدولية المحترم جدًا في كل جنوب شرق آسيا؟ نرى هنا جليًا الحكم القيمي الذي تحدده عبارة «أفضل مراكز التفكير».

كيف يأخذ هذا النظام في الحسبان تحليلات «الآخرين»؟ تستهلك السوق الأميركية القليل من الترجمات الأجنبية. وتمثل الترجمات في كل المجالات أقل من 3 في المئة من إنتاج الكتب، ومنها 0.8 من الكتب الفرنسية، وهي الأكثر ترجمة وتأتي قبل الإسبانية. والحال أن السوق الأميركية، مع 172.000 عنوان جديد صدر في 2005 ليست ذات طلب كبير لـ «عرض إضافي (أجنبي)»[31]. لا يملك التفكير الاستراتيجي (réflexion stratégique) الغربي، الأميركي والأوروبي أيضًا، القدرة الكافية على فهم مذاهب مختلفة وأحيانًا ناشزة. ففي دراسة **السياسة الخارجية** يظهر مفهوم الـ Hubs، أي النقاط العقدية الجغرافية، حيث يتركز التفكير. وهي في أوروبا بروكسل وبرلين ولندن. وفي الشرق الأوسط تل أبيب واسطنبول. أما المركزان الضخمان،

(31) Daniel Cohen et Thierry Verdier, *La mondialisation immatérielle*, Les rapports du Conseil d'analyse économique (Paris: Documentation française, 2008), p. 219. http://www.cae.gouv.fr/IMG.

وهما مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية والبحوث (ECCSR) في أبو ظبي، ومركز بحوث الخليج في دبي فلا يأتي ذكرهما سوى مرة واحدة. تأتي دراسة السياسة الخارجية على صورة المسبَقات الأيديولوجية التي تضع وجهًا لوجه تفكير الأوروبيين، الناطقين بالإنكليزية خصوصًا، وبقية العالم.

في الأنظمة التسلطية، يحصر الزعيم والحزب الأوحد المسائل الاستراتيجية بين بعض الأيدي (وأحيانًا يد واحدة) ما يجعل النقاش الداخلي مستحيلًا. ويتم التهميش السريع للمثقفين الذين يريدون أن يكرسوا أنفسهم لهذه المواضيع، فيهاجرون غالبًا. وعليه يُغلق النقاش ويُحصر في حلقات صغيرة نتاجها يكون تكرارًا للخطابات الرسمية. وهكذا لا يفضي التنافس بين المغرب والجزائر إلى أي منشورات علمية جدية، فالرقابة تفقر المكتبات. وفي العالم العربي نرى أن التفكير الاستراتيجي تجاه إسرائيل هو بلون واحد: كان الملك الحسن الثاني، حين يتكلم على الأنظمة العربية المشغولة كليًا بقمع معارضيها، شارحًا أنه يجب تفادي الانقسام من أجل مقاومة العدو الصهيوني، كان يقول بتهكم: «نبذ إسرائيل هو المنشط الجنسي الأقوى لدى المسلمين». ونرى أن التفكير شبه معدوم حول المشكلات الداخلية مثل صعود الراديكالية الدينية والجهاديين. ويقود العسكريون وحدهم (الجزائريون خصوصًا) تفكيرًا جديًا؛ إذ إن جزءًا من المهمات الموكلة إليهم يقضي بالدفاع عن النظام.

نحن إذًا أمام عالمين لا يفهمان بعضهما، الغربي لأنه يفكر كأداة قوة ولا يأخذ بعين الاعتبار قضايا الآخر، والعربي لأنه حتى الآن كرر غالبًا ما يقوله الحاكم المحلي. ونحن نترقب باهتمام التداعيات الاستراتيجية للربيع العربي.

يشكل نشر الأفكار رهانًا ضخمًا. ففي الديمقراطيات، يطلب من الاستراتيجيين، وهم تلاميذ النقاش، تحضير خطاب عام، رسمي أو شبه رسمي: «الأوراق البيضاء» في مجلة **الدفاع الاستراتيجي** في العام 1998، والفصل الجديد في مجلة **الدفاع الاستراتيجي** في العام 2002، و**استراتيجية الأمن القومي** (تشرين الأول/أكتوبر 2010) في بريطانيا العظمى، «عبر استراتيجية كبرى من أجل عالم غير مضمون: تجديد شراكة ما وراء الأطلسي»، في الولايات المتحدة، «الكتاب الأبيض حول الدفاع» في فرنسا عام 1994 ثم عام 2008.

كل هذه الأعمال هي في متناول العموم، ويجد فيها المقررون السياسيون وباقي المختصين، تحليلاتهم. ويجب ملاحظة الإنتاج الضخم للدراسات حول الإرهاب التي أبصرت النور فورًا بعد 11 أيلول/ سبتمبر. وأنتج مركز التفكير للأبحاث والنمو (RAND) في 2002 و2003 بطلب من السلطات المختلفة، أكثر من مئة تقرير. وانتشر عدد كبير من السيناريوهات الكارثية بطلب من السلطات. ومنح مكتب الأمن الداخلي (DHS) الذي أسِّس بعد 11 أيلول/ سبتمبر فريقًا من الباحثين في بركلي (NFS) ميزانيةً تبلغ 5.46 مليون دولار، لإنشاء نموذج إنترنت سليم في إطار «حرب اتصالات أثيرية (cyberguerre)».

يقدم النظام الأميركي مثالًا نادرًا على النقاش الديمقراطي والعام حول مواضيع استراتيجية أساسية. ونرى أن المسامية(*) كاملة تمامًا بين مراكز التفكير، والنظام السياسي وعالم الدفاع. وينجح الخبراء في مهنتهم في هذا العالم أو ذاك، وفق الحظوظ الانتخابية، ويقدمون المستشارين لأصحاب القرار السياسي، ويؤدون دور الوسيط في العلاقة مع العالم الخارجي، كما تفعل دواوين الوزارات في فرنسا. وقد أطلق عليهم نيل شيهان (Neil Sheehan)، الصحافي في نيويورك تايمز، اسم «خبراء حل المشكلات»[32] في زمن روبير ماك نامارا (Robert McNamarra) و«فريق الخبراء» (brain Trust) المؤلف من أفضل العقول المتخرجين من أرقى الجامعات ومعاهد التفكير الاستراتيجي. ودفع هؤلاء الخبراء في نظرية الألعاب (théorie des jeux) وتحليل النظم، ومعهم الاختصاصيون بالشؤون السوفياتية المتنوعون... إلخ. دفعوا بشكل مباشر إلى دخول الجيش إلى فيتنام، نتيجة تبريرات وتعليلات خاطئة، مع التيقن من الانتصار. كما دفعهم الشعور باستحالة الهزيمة إلى التخطيط لحملة القصف الاستراتيجي على سدود دلتا النهر الأحمر، بغية التسبب بفيضانات يمكنها أن تحصد أرواح مئات الآلاف من الضحايا. ولقطع ممر هوشي مينه (Hô Chi Minh) الذي يؤمن عبره تموين المسلحين في فيتنام الجنوبي عن طريق الغابات، خططوا لآخر حرب كيماوية تشنها ديمقراطية حديثة. وصبت الطائرات قاذفة القنابل B52 نحو 150 ألف لتر من «المواد الكيماوية المبيدة للحشرات» البالغة الخطورة (تصنف ضمن فئة Seveso اليوم).

(*) المسامية: مجموع الفراغات في جسم صلب والتي تملؤها سوائل أو غازات [المراجع].

(32) «The Pentagon Papers,» *The New York Times* (1971).

تقليعة أميركية ثقافية: علم المستقبل (la futurologie)

أعطت «السنوات الثلاثون المجيدة بعد الحرب» الشعور بإمكان التنبؤ بالمستقبل، على أساس الثقة بالنموذج الاقتصادي والتكنولوجي. ويرتكز علم المستقبل، في بداية نشأته، على سلسلة من الطرق المحددة مثل التعميم الخطي المرتكز على الإحصاءات، والتحليل الوظيفي، والترميز على الحاسوب، وتشبيكات التحليل الصائب واستخدام السيناريوهات. وخلال فترة وجيزة، رأينا أن التخطيط للمستقبل أصبح «علمًا»، وأن علماء المستقبل تحولوا إلى قادة فكر. وفي عام 1972، حمل كتاب هرمان كان (Herman Kahn): **(العام 2000)** عنوانًا ثانويًا **توراة السنوات الثلاثين المقبلة**، وهذا الكتاب مستوحى من أعمال معهد هودسن (Hudson Institute)، وأكاديمية الفنون والعلوم. وكان من المفترض، عام 2000، أن يبلغ الناتج المحلي الصافي لدى نصف بلدان العالم الثالث 10.000 دولار لكل فرد، وفي عام 2050، سيتمتع سكان الكوكب العشرون مليارًا بدخل فردي يبلغ 20.000 دولار. وأكد هرمان كان أنه ستكون هنالك أسلحة تولّد حركات مد، وأننا سنستثمر المعادن التي سنجلبها من القمر، وأننا سنغير لون بشرتنا كما يحلو لنا، وأننا سنلجأ إلى «تحفيز إلكتروني للذة». أما صور الخيال العلمي للإنسان على سطح القمر، والحياة في أقمار صناعية أو تحت المحيطات، والمنصات الشخصية الطائرة، فستعود كما لو أنها توقعات قديمة. كنا موعودين بالحصول على نشرة جوية أكيدة مئة في المئة منذ 1975.

أعلن ألفين توفلر (Alvin Toffler) في كتابه **الموجة الثالثة** (*la Troisième Vague*) عن نهاية صراع الطبقات، أو صراع الأمم. وتختلف الموجة الثالثة، وهي نوع من «الثورة العالمية» أو «قفزة كمية في التاريخ»، عن الموجة الثانية، أي موجة الصناعة. وقد تطلبت الثورة الصناعية الفائقة، «أيديولوجيا فائقة، أبعد من الرأسمالية والشيوعية»، ومجالًا نفسيًا (psycho-sphère) متكيفًا مع المجال التقني (techno-sphère) الجديد... ولم تكن فرنسا بعيدة عن ذلك. يشرح كتاب **التحدي الأميركي** (*le Défi américain*) لجان جاك سيرفان شرايبر (Jean-Jacques Servan Schreiber) عام 1967 أنه بعد جيل، يمكن أن تتفوق على فرنسا، كل من ألمانيا الشرقية وبولندا أو أستراليا، التي أضحت مجتمعات ما بعد صناعية فعلًا. وعلى العكس، برهن تقرير معهد هدسون عام 1972 المعنون **جولة تحليق فوق فرنسا** (*Survol de la France*)،

والذي أنجز بطلب من DATAR، وهي لجنة وزارية مشتركة لتنظيم الأراضي وجاذبية المناطق، أنه إذا لم يكن هنالك تأخير غير متوقع، ستصبح البلاد عام 1985 قوة صناعية تتفوق بكثير على ألمانيا الفدرالية ولن تكون هنالك بطالة. وكان «مجتمع الرفاهية» ينتظر المواطن الغربي. وأصبح التخطيط للمستقبل في الولايات المتحدة خلال ثلاثين عامًا تقريبًا ممارسة تَدعي أنها علمية، وهيمن المنطق ذاته في الاتحاد السوفياتي باسم «المادية العلمية». أسس علم المستقبل على تحليل التطورات التقنية، وكان يتجاهل التطورات السياسية، كسقوط الشيوعية وعودة الإسلام اللذين كانا مستبعدين من الحقل الفكري. ولا يتعلق الأمر بالسخرية من التطلع المستقبلي، وهي ممارسة صعبة دائمًا تغير البيئة بمجرد التعبير عن ذاتها، بل بإظهار التأثير المذهل لوسائل الإعلام وللزعماء بخصوص ما كان يبدو جديًّا لأنه أميركي. يلاحظ كارل بوبر (Karl Popper) في كتابيه بؤس التاريخانية (*Misère de l'historicisme*) والمجتمع المنفتح وأعداؤه (*La Société ouverte et ses ennemis*)، أن علم المستقبل مطابق للتاريخانية التي عانت منها المجتمعات الحديثة. وينتقد هذه النظرية المتعلقة بجميع العلوم الاجتماعية التي تجعل من التنبؤ التاريخي الهدف الرئيس لهذه العلوم، والتي تُعلِّم أنه يمكن بلوغ هذا الهدف إذا اكتشفنا الإيقاعات أو الأسباب، والقوانين أو الميول العامة التي ترتكز عليها التطويرات التاريخية. ونلاحظ أن كل هذه النظريات التي ترتكز على «مجرى تاريخ» مزعوم، كالماركسية التي ترجع كل شيء إلى صراع الطبقات، هي غير فعالة وأدت إلى الأنظمة الشمولية في القرن العشرين. يعتقد بوبر أن المعرفة تتقدم وفق التجربة والخطأ ووفق تخمينات متتالية، كي نستطيع فهم تأثير هذا الإجراء أو ذاك وتصحيح نتائجه الحتمية. ومنذ ذاك الحين تكيف علم المستقبل (مع الواقع).

أجهزة الاستخبارات

تشكل أجهزة الاستخبارات، وشهرتها أقل من شهرة مراكز التفكير، لاعبين أحدث في عملية تحديد العدو، وهي لم تُدرج في المشهد الإداري قبل الحرب العالمية الثانية. وقد ألغي عام 1945 مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) الذي أنشأه الأميركيون عام 1941 لمقاومة ألمانيا النازية، ولن يعود إلى الحياة،

تحت شكل الـ CIA إلا في العام 1947. ولدت وكالة الاستخبارات CIA إبان نزاعات القرن العشرين، وكانت وظيفتها في الأصل دفاعية، موجهة نحو البلدان المجاورة لتحضير المجابهة العسكرية. وتطورت مع الحرب الباردة، انطلاقًا من جغرافيا سياسية مستقرة إلى حد ما: الاتحاد السوفياتي، والبلدان التابعة له، ومناطق المواجهات شرق - غرب. وكانت تجمع معلومات الحرب - وهي علة وجود هذه الأجهزة - في العاصمة الخصم، حيث يوجد العسكريون والسفارات والسلطات. ولتكديس معطيات محددة حول المعدات والقوات، والبنى التحتية للخصم، استثمرت القوى العظمى في تكنولوجيات، تتيح تجنب مصاعب التجنيد البشري: كل أنواع المراقبة بالأقمار الصناعية، والتشفير، واعتراض الاتصالات السلكية واللاسلكية، والتنصت... وشكّل ذلك مواجهة مع أسرار الدولة. والاستخبارات تهمل المعرفة السياسية الشاملة التي تقع بالأحرى على عاتق الدبلوماسيين. وبما أن عالم الاستخبارات هو عالم أسرار، فإنه فرض على ذاته قواعد أمنية ما لبثت أن نسفت وأضعفت تجنيد الموظفين. وأصبحت الأنظمة اليوم تعاني من البدانة: 75 مليار دولار، أي أكثر من الناتج القومي الصافي (PIB) للعراق أو لقطر، و200.000 شخص موزعين على الوكالات الأميركية الأربع عشرة. وتستخدم شبكة التنصت إيشلون (Echelon) التي تجمع بين كندا ونيوزيلندا والمملكة المتحدة، ووكالة الأمن القومي (NSA) الأميركية حوالى 47.000 موظف. وليس لدى فرنسا كما اليابان «سوى» ستة أجهزة استخبارات أو شرطة مختصة. وتتطلب هذه التجزئة بالضرورة آليات تنسيق من الصعب تشغيلها دائمًا بين أجهزة متنافسة تزاول عبادة السر، وأحيانًا بصورة مفرطة (مجلس الأمن الوطني في الولايات المتحدة، منسق المعلومات في فرنسا)[33].

كانت فلسفة الأجهزة إبان الحرب الباردة مزدوجة: «أعداء أعدائنا هم

(33) يقدر «التقرير النهائي للجنة الوطنية حول الاعتداءات الإرهابية على الولايات المتحدة» الفرصَ الضائعة بعشر لأعمال متسقة بين الشرطة والاستخبارات لمنع اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، انظر: Pierre Conesa, «Renseignement de crise et crise du renseignement,» *Agir*, no. 25 (Mars 2006).

أصدقاؤنا»، وهذا المبدأ يتميز بتبسيط التحليل. إن المعلومات التي يقدّمها المنشقون وأحزاب المعارضة عن الديكتاتوريات العدوة، تمتلك أهمية كبيرة: أحمد شلبي عن العراق للاستخبارات الأميركية CIA، مسعود رجوي وزوجته عن إيران، وهما الزعيمان - القائدان الفكريان لمجاهدي خلق اللذان تعاونا مع فرنسا إبان الثمانينيات. ويؤهَّل أيضًا «مناضلون من أجل الحرية» للنضال ضد السوفيات أو الحركات اليسارية: بن لادن أو قلب الدين حكمتيار اللذان جندا في أفغانستان لمقاومة الاتحاد السوفياتي، حزب الله التركي للتصدي لحزب الـ PKK الكردي، والعسكريون في أميركا الجنوبية لتحضير انقلابات في السبعينيات... عرفت الأجهزة مجدها في الخمسينيات والستينيات من خلال تنظيمها انقلاباتٍ واغتيالات أو عمليات تحريض. ويقدر أن وكالة الاستخبارات الأميركية CIA لوحدها سببت خمسين انقلابًا تقريبًا في العالم، مع بعض النجاح، وأسهمت هكذا في إعادة إحياء نظرية المؤامرة التي سنتكلم عليها لاحقًا. ولأجهزة الاستخبارات دور أساس في التخطيط للمستقبل وتحديد العدو، وتعطي بذلك مظهرًا جديًّا يرتكز على السر الذي يحجب المسلمات الأيديولوجية. ولا يستثني التركيز على العدو المحدد أن نصنع نحن بأنفسنا أعداءً. وقد كان من المعتاد أن يقال في الاستخبارات العامة الفرنسية DGSE، إبان قضية سفينة راينبو واريور (Rainbow Warrior): «يشبه حزب الخضر البطيخ: إنهم خضر من الخارج وحمر من الداخل!» وهذا تحليل مذاقي شهي (حين نتفحصه بعد ثلاثين عامًا) أدى إلى العملية المثيرة للسخرية، التي دمرت سفينة حزب البيئة في مرفأ بلد حليف.

بعد زوال الاتحاد السوفياتي، تتساءل هذه الآلات الضخمة عن مستقبلها. وقد ابتُكرت «الحرب الاقتصادية العالمية»، وتم توجيه شبكة إيشلون ضد رجال أعمال البلدان الحليفة، بعد أن رفعت رتبتهم إلى صف «المنافسين الأعداء». ولكن عند تحليل الدناءة المتصلة بممارساتهم، اكتشفت هذه الشبكة أيضًا الممارسات المفسدة لرجال أعمالها، بل حتى لرجال سياستها، ثم أتى الانتقاص من أهمية بعض الأزمات مثل أفغانستان، وسُرّح الخبراء المعنيون. وأتاحت بدايات الإنترنت النفاذ إلى العديد من المعلومات كان من الصعب

الوصول إليها حتى ذلك الحين. وخلاصة القول: كانت الأجهزة الأمنية وخصوصًا الأميركية، متعطلة لا بل حائرة، قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

عمومًا، لأجهزة الاستخبارات في الديمقراطيات مصلحة جلية، إذ تتيح التنويه من دون أن تكون مرغمة على التفسير أو التبرير، وتعطي امتياز المعرفة، وبالتالي امتياز الكذب الأكيد. وهكذا؛ فإن خطاب كولين باول (Colin Powell) في 5 شباط/ فبراير 2003 على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي يهدف إلى تبرير الحرب ضد العراق بعرض قارورات صغيرة تحتوي على مواد في غاية الخطورة (ماذا كانت تحتوي في الحقيقة؟)، أو تقرير بتلر (Butler) المزيف الذي قدّمه رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، شارحًا أن صدّام يملك صواريخ طويلة المدى يمكن نشرها خلال 45 دقيقة، كان كلاهما «يعتمد على معلومات سرية» (والسبب واضح!). كان تقرير بتلر نسخة عن تقرير حرّره متمرن بناء على معطيات صحف مصنفة كمعلومات استخبارية.

إن تقرير لجنة الكونغرس الأميركي حول 11 أيلول/ سبتمبر، الذي نشر عام 2004، هو الذي سدّد الضربة القاضية لهذا العالم الذي يعاني من أزمة عميقة. وكانت الصحوة صعبة: «فالمعلومات مزيفة (...) ومبالغ فيها (...) وليست مؤكدة (...). وتأتي أغلبية المشكلات من ثقافة متهاوية، ومن ضعف إدارة وكالة الاستخبارات الـ CIA». هذا ما يستخلصه التقرير. وقد أعطى الأدب الروائي المكرّس لأجهزة الاستخبارات جسدًا لميثولوجيا المعرفة الكلية والقوة المطلقة للأجهزة التي، وللأسف، كذّبتها الوقائع بشكل واسع. ونلاحظ أن أخطاء الـ KGB التي سببت الاجتياح السوفياتي لأفغانستان، وأخطاء الـ CIA بشأن التهديد الإسلاموي متماثلة إلى حد ما[34]، مع أن بعض المسؤولين السياسيين المهمين برزوا بفضل ذلك (بوش الأب، وأندروبوف (Andropov)، وبوتين (Poutine)). في الواقع، كانت الأجهزة الأمنية تواجه منذ نهاية الحرب

---

(34) Robert Baer, *La chute de la CIA: Les mémoires d'un guerrier de l'ombre sur les fronts de l'islamisme* (Paris: Gallimard, 2003), p. 392, et R. Clarke, *Contre tous les ennemis: Au cœur de la guerre américaine contre le terrorisme* (Paris: Albin Michel, 2004), p. 363.

الباردة، مصاعب مختلفة للتأقلم مع السياق الجيوسياسي الجديد. لكن كان الجمهور العريض وهوليوود يجهلان ذلك. ويمكن القول إن الإرهابي هو أيضًا رجل ظل، وهذا ما يعطي أجهزة الاستخبارات من جديد علة وجودها(35).

تنشر بعض أجهزة الاستخبارات تقارير تخطيطية للمستقبل. وتشكل تقارير الـ CIA(36) التي يقدم لها في فرنسا حكواتي لامع من نوع نوسترادادموس (Nostradamus) حديث، هو ألكسندر آدلر (Alexandre Adler)، أمثلة مثيرة للاهتمام عن خطط للمستقبل غير قابلة للاستعمال.

وتنشر كثير من الدول أو المنظمات الدولية صفحات بيضًا، أو كتبًا بيضًا، أو تأملات رسمية(37) حول الوضع الاستراتيجي العالمي. ولم يعد لأحد أعداء، وفق عشرات الوثائق التي تم الاطلاع عليها. ويبقى فحسب التوافق حول بعض التصورات مثل انتشار الأسلحة، المجاعة في العالم، مشكلات المياه، الأراضي الصالحة للزراعة، التنمية المستدامة أو الإرهاب. أما العدو فلم يعد له وجود. ومع ذلك فالاحتمال ضعيف بأن يعلن هذا التوافق عن عالم بلا حرب. فلنتابع التحقيق.

أجهزة الاستخبارات تخترع تهديدًا

تتزايد بصورة مطردة، صعوبة التمييز بين المعلومة والخبر، بين الزبائن والمنتجين، بين الخاص والعام، بين الحلفاء والمنافسين. بالنسبة إلى دان باتلر (Dan Butler)، المكلف بالتطوير الاستراتيجي في مكتب مدير الاستخبارات

---

(35) «Top Secret America,» *The Washington Post* (18 juillet 2010).

(36) A. Adler, *Rapport de la CIA: Comment sera le monde en 2020?* (Paris: Robert Laffont, 2005), p. 268, et A. Adler, *Le Nouveau Rapport de la CIA: Comment sera le monde en 2025*? (Paris: Robert Laffont, 2009), p. 298.

(37) Etats-Unis: *Dernière Quadriennal Defence Review (QDR)*, en février 2010; Grande-Bretagne: *Green Paper* de février 2010, en vue de la *Strategic Defence Review* de novembre 2010; Canada et Australie; France: *Livre blanc sur la défense et la sécurité nationale* de 2008; Allemagne: *Livre blanc 2006 sur la politique de sécurité*; Russie: *Stratégie de sécurité nationale*, mai 2009, *Nouvelle Doctrine russe de défense*, février 2010; Chine: *Sixième Livre blanc sur la défense nationale*, janvier 2009.

القومية: «يجب أن تدرك أننا لا نملك الأجوبة كلها ولا الخبراء جميعهم، إذًا، علينا الانفتاح على الخبرة الخارجية، والانتقال من جماعة المعلومة (la communauté du renseignement) إلى المعلومات التي تقدمها الجماعة (renseignement par la communauté)». ويمثل مصدر الاستخبارات المفتوح (Open Source Intelligence) (OSINT) نظامًا يقلب ممارسة المعلومات. وقد لاحظت جماعة المعلومة متأخرةً أن عليها البدء بذلك والتخلي عن ثقافة السر، وعن الذهنية والطرق الموروثة من الحرب الباردة، وعن الفصل والعزل والحرب بين الأجهزة لمصلحة المشاركة بالمعلومات والممارسات التضامنية وإدارة المعرفة.

انتشر آخر عرض قامت به الكتيبة 304 للاستخبارات العسكرية في الجيش الأميركي واستعاده اتحاد العلماء الأميركيين[38] حول الاستخدام الممكن لتكنولوجيات الاتصال المتحركة (GPS, Skype, Twitter, mashups cartographiques) أو أيضًا خلفيات الشاشات) الذي قد يلجأ إليه إرهابيو القاعدة؛ ودار هذا العرض حول عالم التدوين (la blogosphère) ووسائل الإعلام على الإنترنت. «وماذا لو استخدم الإرهابيون وسائط الاتصال ذاتها كأي شخص عادي؟» يشير التقرير إلى أنه في ما يتخطى مجرد التهديد الإرهابي، فقد صار «تويتر (Twitter) أداة نشاط اجتماعي بالنسبة إلى اشتراكيين، ومجموعات حقوق الإنسان، وشيوعيين، ونباتيين، وفوضويين، وجماعات دينية، وملحدين، ومناضلين وسياسيين وقراصنة السياسة الناشطين على الإنترنت (hacktivistes) وآخرين». وترتكز دراسة الاستخبارات العسكرية، التي ذكرها اتحاد العلماء، حصرًا، على مصادر علنية، يمكن النفاذ إليها على شبكة إنترنت، أعدها شخص يصف معرفته باللغة العربية بالبدائية، استخدم أداة الترجمة على غوغل.

إذًا، يبقى الوجه الأكثر إثارة للاهتمام في هذه الدراسة هو الإشارة إلى أداة جديدة (Twitter) وليس إلى التحليل، حيث استخدم إرهابيو الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر سكاكين ولم يوجه الاتهام إلى صانعيها. وفي غياب الأعداء يمكن دائمًا شيطنة الوسيلة (الإعلامية).

---

(38) Federation of American Scientists: http://www.fas.org/irp/eprint/mobile.pdf

الاستراتيجيون غير الرسميين: الميثولوجيون

«أحب أفلام الحرب ذات النهاية السعيدة».

جان ماري غوريو (Jean-Marie Gourio)

أخبار قصيرة من البار

هل تعرف المجتمعات الحديثة لحظات من الغطرسة الجماعية؛ أي كما الهياج الحربي عند الإغريق، أي لحظة من الجنون لا يكون الرجل فيها بحالته الطبيعية؟ مع الثورة الفرنسية، ونشأة القوميات، والنزاعات العالمية في القرن العشرين، أصبح الحصول على تأييد الرأي العام عاملًا أساسيًا للتعبئة من أجل الحرب. وسيعطي لاعبون اجتماعيون وسياسيون ثباتًا لهذه المشاعر الجماعية، حين يتوجهون إلى الرأي العام، وذلك من خلال كتاباتهم أو خطاباتهم والميثولوجيات التي سيبتكرونها. وعلى غرار محددي الهويات، يسهم محددو العدو في وضع تعريف لهوية المجموعة. وهؤلاء يمكن أن يكونوا أشخاصًا أو مجموعات ينسبون إلى أنفسهم الهوية الجماعية، جاعلين من خيارهم خيار الجماعة. إنه بناء أسطوري يمكن أن يدعى أحيانًا ترويجًا (بروباغندا)، وأحيانًا قومية فحسب، أو شوفينية، وأحيانًا أخرى أيديولوجيا... يختلط فيه الواقع مع المتخيَّل وفق صيغ مركبة ومختلفة. وهم هنا يعيدون تدوير مواضيع تاريخية قديمة ويصنعون منها ميثولوجيا جديدة. ويمكن أن يتم استقبال الخطاب وفق الآلام التي عانوا منها، وبحسب المصلحة العليا للبلد أو هوية المجموعة المهددة. يكتب بول فاليري (Paul Valéry) قائلًا: «التاريخ هو المنتج الأكثر خطورة من بين ما حضّرته كيمياء العقل (...)، يبعث على الحلم ويُسكر (...)، يولد ذكريات وهمية (...)، ويحافظ على الجروح القديمة (...)، يقود إلى هذيان العظمة أو إلى هذيان الاضطهاد»[39]. وتقدم الأزمة اليوغوسلافية مثالًا على العملية السوسيولوجية المطروحة هنا: مثقفون قدماء منشقون، سلطات دينية، محاربون قدماء، زعماء سياسيون، عائلات... كل منهم قدم إسهامه في خطاب صناعة العدو، للوصول إلى الحرب الأهلية.

إن مبدعي الأساطير المدنيين هم أولًا المؤرخون والجغرافيون الذين

---

(39) Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel*, NRF (Paris: Gallimard, 1945), p. 43.

يصفون هوية تاريخية مجملة وقليلة وقوامها أن التناقض على خريطة تبرز قيمة هذه الهوية. وابتكر المؤرخون[40] مفردات عدو «وراثي»، «تقليدي» أو «من زمن الأسلاف»، واخترعوا «حقوقًا تاريخية»، كأن التاريخ لا يغير المعطيات باستمرار. وهم يسهمون أيضًا في أسطرة الرجال الكبار، والجنرالات المنتصرين، والثوار، والملوك أو الرؤساء، وهم نوع من أنصاف الآلهة التراجيديين. في أميركا اللاتينية، نلاحظ أن صور الثائر[41] هي جزء من المسرحة الفنية للثورة ضد البؤس. فقد مات زاباتا (Zapata) في المكسيك، وتشي غيفارا (Che Guevara) في بوليفيا، في العمر شبه المسيحاني نفسه أي 39 عامًا. ويمحو الهوس الفرنسي باستعادة أقوال نابليون (Napoléon) أثر حملة مصر التي كانت محفوفة بالمخاطر، أو حملة روسيا الكارثية. كما تميل وزارة الخارجية الفرنسية كثيرًا إلى أن تصنّف الشعوب بين محبي فرنسا وكارهيها، وكأن النظام المرجعي هذا يكفي لتقسيم العالم وتفسير التصرفات.

فكّر جغرافيو ومستكشفو القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكذلك جماعة الجغرافية السياسية التقليدية[42]، كثيرًا حول الحدود «الطبيعية»، واكتشاف أراض «مجهولة» (بالنسبة إليهم)» و«مناطق نفوذ»، و«مناطق دفاع أمامية». في الأدب، عمّم الصحافيون والكتّاب السياسيون مواضيع المتوحشين الطيبين أو آكلي لحوم البشر الشريرين، ومهمة جلب الحضارة، مع بيار بونوا (Pierre Benoit)، أو بيار لوتي (Pierre Loti) أو روديارد كيبلينغ (Rudyard Kipling)، وفي التصوير الفني مع أوائل المستشرقين، وفي أدب الأطفال مع تان تان في الكونغو أو طرزان. ويعمل الأيديولوجيون الدينيون بالطريقة ذاتها عبر تجميل وحدة أسطورية، أو عصر ذهبي، اللذين

---

(40) Marc Ferro, *Comment on raconte l'histoire aux enfants à travers le monde*, Petite Bibliothèque Payot (Paris: Payot, 2004).

(41) تحتاج صورة البطل لحامل: في تيغوسيغالبا (Tegucigalpa) يوجد تمثال لمورازان (Morazan) بطل وحدة أميركا الوسطى وهو في الحقيقة تمثال للماريشال ناي استطاع الوفد الغواتيمالي إلى باريس الحصول عليه من «سوق البرغوت (سوق الأغراض المستعملة أو القديمة [المترجم])» بعد أن صرف أعضاء الوفد الميزانية في حفلات العاصمة الفرنسية. ليس بالأمر المهم فللبطل حامله.

(42) انظر كتاب لاكوست الراهن دائمًا: Yves Lacoste, *La géographie, ça sert d'abord à faire la guerre (1976)*, Fondations (Paris: La Découverte, 1985).

يعارض الكفار العودة إليهما. والحقيقة أن الإسلاموية الحالية ليست سوى جزءًا من التجديد الأصولي الذي يطال الأديان كلها، خصوصًا التوحيدية (ومادته الأولى هي أساس عدم التسامح الحديث).

ويمكن للمثقفين أن يعطوا صدقية لأساطير «علمية» من أجل ترسيخ نظريات عنصرية أو أيديولوجية أو، ببساطة، جيوسياسية. كتبت الأكاديمية الصربية للعلوم في مذكرتها عام 1986 بيان إحياء صربيا الكبرى. وصرّحت السيدة بلافسيك (Plavsic) قائدة صرب البوسنة، إبان محاكمتها أمام محكمة لاهاي: «إن صرب البوسنة (...) قد طوروا الحس بالمصلحة الوطنية إلى أقصى حد، ما يسمح لهم بأن يعرفوا متى تكون الأمة عرضة للخطر (....). أنا عالمة بيولوجيا وأعرف ذلك...»[43]، ويكرر المثقفون «المعزوفة الغنائية الوطنية» للدفاع عن القيم والتعبئة القومية[44]، ورفض سياسة التهدئة، واستنكار ذهنية ميونخ. وقد اختص اليسار بشجب «الفاشية» «والإبادة العرقية» لوصف أي مجزرة، وهذا لا يمكن إلا أن يلعب لمصلحة عقلية مستعدة أن تتغاضى عن كل شكل من أشكال المجازر وجرائم الحرب طالما الأمر لا يتعلق بالإبادة الجماعية، بحسب ما استنتجته حنة أرندت[45] (Hannah Arendt). ويقدم الجامعي الإسرائيلي شلومو ساند (Schlomo Sand) التحليل الأكمل الذي صدر مؤخرًا، حول عملية بناء هوية أسطورية تمزج بين «أجزاء من الذاكرة اليهودية والمسيحية، وعلى أساسها اخترع متخيّل اليهودية والمسيحية الخصب تسلسلاً نَسَبيًا مستمرًا». في كتابه **اختراع الشعب اليهودي**[46] (*Comment le peuple juif fut inventé*) يبرهن الكاتب في الحالة الخاصة لإسرائيل، كيف

---

(43) Cité par: Sémelin, *Purifier et détruire: Usages politiques des massacres et génocides*, p. 55.

(44) أدى أناتول فرانس (Anatole France) الذي استنفره الترويج القومي لحشد الجماهير، دورًا في فيلم صامت كان يفترض فيه أن يلقي خطابًا وطنيًا حماسيًا. وفي أحد الأيام انفجر شخص أبكم يقرأ الشفاه، بالضحك في أثناء عرض الفيلم: كان أناتول فرانس يقرأ عن ظهر قلب قصة الغراب والثعلب للافونتين.

(45) Hannah Arendt, *Du mensonge à la violence: Essais de politique contemporaine*, Agora (Paris: Pocket, 2002), p.44.

(46) Schlomo Sand, *Comment le peuple juif fut inventé: De la Bible au sionisme*, Champs (Paris: Flammarion, 2010), p. 47.

تحولت الأسطورة الإثنية إلى مُتَخَيل مدني. وقد حُلِّلَت العقائد القومية الأوروبية بشكل جيد إلى حد ما، وخصوصًا بعد النزاعات التي مزقت القارة، لكننا نفتقر إلى دراسات مماثلة حول العديد من الهويات القومية.

كان الصحافيون، خصوصًا في زمن الصحافة المكتوبة، يسبغون بعدًا ملحميًا على كل مغامرة غرائبية، يشجعهم على ذلك أصحاب صحف يقودون استراتيجية نشر تؤدي الحرب فيها دورًا تجاريًا. في عام 1898، حاول وليام هيرست (William Hearst) وهو على رأس *New York Journal* أن يتفوق على منافسه الرئيس، القطب المحلي جوزيف بوليتزر (Joseph Pulitzer)؛ إذ رأى في حرب استقلال كوبا ضد إسبانيا، الفرصة لقلب الاتجاه، من خلال اطلاع القراء الأميركيين على وحشية المستَعمِرين. شن هيرست في مقالاته هجومًا تلو هجوم على إسبانيا وعلى جمود الدبلوماسية الأميركية. وكانت صحفه تباع أكثر فأكثر في حين كان صحافيوه يتذمرون من أن لا شيء يحصل في كوبا. وقد أجابهم هيرست بهذه العبارة التي أصبحت شهيرة: «زودوني بالصور، أزودكم بالحرب!»، وبالفعل زودهم بالحرب وانتصر على منافسه! واليوم نشاهد الوضع ذاته مع القطب روبرت مردوخ (Rupert Murdoch) الذي يضغط بكل وزن مجموعته الصحفية، والذي حرضت قناته، فوكس نيوز، على الحرب ضد العراق كي يستفيد أكثر. وفي أثناء مؤتمر صحفي، لم يتوان تيد ترنر (Ted Turner)، نائب مدير مجموعة AOL Time Warner وCNN، عن الوشاية بروبرت مردوخ قائلًا: «إنه محرض على الحروب! لقد ساند وشجع الحرب على العراق».

مع القلق الذي أعقب الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ظهر جيل تلقائي من الخبراء في الإرهاب، ومن رؤساء المراصد أو المراكز، لكنهم دائمًا «دوليون»، و«خبراء في المعلومات (spécialistes en renseignement)». كان ينبغي دائمًا الوعد بقلق زائد وبأسرار تُكشف بكمية كبيرة للنفاذ إلى وسائل الإعلام. ويشكل خطر الاعتداءات بالوسائل الكيماوية أو النووية أو الجرثومية، التي أصبحت تهديدًا يعتبر وشيكًا، يشكل موضوعًا يرفع نسبة المبيعات. وكان يجب على منصة تلفزيون جيد في تلك الحقبة أن تنتج القلق.

اهتمت السينما كثيرًا بسوق القلق، حيث استخدمت البلدان كافة

«الفن السابع»، ولكن يبقى الأميركيون، من دون منازع، الأقوى في الترويج (البروباغندا) السينمائي[47]. وبدا كثير من الإنتاجات الهوليوودية تنبؤيًا أو استباقيًا بعد الاعتداءات على مركز التجارة العالمي، ويسرد فيلم **البرج الجحيمي** (*la Tour infernale*) (1974) قصة حريق في برج. وفي **فخ من الكريستال** (*Piège de cristal*)، الذي عرض سنة 1988، تحتجز مجموعة مؤلفة من 12 إرهابيًا موظفي إحدى كبرى الشركات كرهائن. ولكن بروس ويليس (Bruce Willis) ينتصر عليهم بمفرده. ويظهر الإسلاميون لأول مرة في 1998 في فيلم **حظر التجول** (*Couvre-Feu*)، وتدفعنا بعض الحوارات في هذا الفيلم إلى التفكير: يصيح أحد مستشاري الرئيس متعجبًا: «يا سادة يجب عليكم النظر في أطالسكم! كان الشيخ المسؤول عن الاعتداءات حليفنا وانقلب علينا. لكن يجب تفهمهم: ساعدناهم ثم تخلينا عنهم!»، ويعالج فيلم **إنذار** (*Alerte*) عام 1995 الإرهاب البيولوجي. أما العدوان الدولي الذي اختلقه المستشارون في العلاقات العامة (*spin doctors*) فهو موضوع فيلم **رجال ذوو نفوذ** (*Des hommes d'influence*) (1997)؛ وفيه يقنع مستشار في الاتصالات رئيس الولايات المتحدة، خلال حملته الانتخابية، أن يستثير تدخلًا حربيًا ضد... ألبانيا (كانت كوسوفو غير معروفة كثيرًا في ذلك الحين). وجفّ الفيض فجأة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، واختارت الاستديوهات أن تلغي عرض بعض أفلام الكوارث، مثل **نزيف الأنف** (*Nose bleed*)، وفيه تحاك مؤامرة تهدف لتدمير مركز التجارة العالمي، وخلال التصوير طُمست الإشارات المتعلقة بالإرهاب، والطائرات التي تنفجر، والمباني التي تنهار. فأين تنتهي الأسطرة، وأين يبدأ الواقع؟

أخيرًا، يكتسب رجال السياسة أهمية خاصة، وهم المؤتمنون على الشرف الوطني، والرافضون أن يبقوا مكتوفي الأيدي في وجه «التحريض». في يوغوسلافيا السابقة، نشر زعماء الولايات المتشظية، كارادزيتش (Karadzic)، وتودجمان (Tudjman)، وعزت بيغوفيتش (Izetbegović) خطابًا وجهه كل منهم إلى جماعاته، وتناول فيه التمايز العرقي والتحرر من القمع والمذلة. «لا أحد

---

(47) Jean Michel Valantin, *Hollywood, le Pentagone et Washington: Les trois acteurs d'une stratégie globale*, Frontières (Paris: Autrement, 2003).

لديه الحق بإذلال هذه الأمة!»، هذا ما صرحه ميلوسوفيتش في خطابه للذكرى المئوية السادسة لمعركة حقل الشحارير، في حين كان للصرب مكان مميز في يوغوسلافيا تيتو (Tito). وكان هذا قبل بداية الحرب والمجزرة النهائية.

إضافة إلى المنتجين المثقفين، يجب أن يكون هناك خطاب يبدو علميًا بقدر الإمكان، وإلا لكان الأمر عبارة عن بروباغندا! كما يلاحظ بارتولوميه بن نصار (Bartholomé Benassar) في كتابه عن حرب إسبانيا(48): «لا شيء يثير الهلع لدى المؤرخ أكثر من القدرة على الأذى المعزز بتزويرات يحميها نفوذ سلطة فكرية أو روحية. تقدم لنا حرب إسبانيا حالتين مدرسيتين. في معسكر (أتباع فرانكو)، «حملة للدفاع عن الحضارة المسيحية»، مع جنود أشداء من المسلمين والنازيين، وتلجأ أحيانًا إلى خدمات جلادين (...). وفي المعسكر الآخر (الجمهوريون)، حيث التعصب ذاته، وتمجيد وطن الاشتراكية و«روما الجديدة» من جهة أناس يلجؤون إلى التشهير، والتعذيب، والاغتيال للتخلص من الذين يعرفون الحقيقة وقد يكشفونها».

نوابض الخطاب: كل شيء استراتيجي! كل شيء مجازفة! المعيار المزدوج!

يُظهر الرأي العام اهتمامًا كبيرًا بالمسائل الجيوسياسية، لكنه لا يقدّر دائمًا كيف أن الكلام الاستراتيجي على الديمقراطيات الكبرى (من دون أن نذكر الديكتاتوريات)، هو قبل كل شيء خطاب له كلماته وأساطيره وفصامه النفسي (شيزوفرينيا). إنها ميثولوجيا بالمعنى الذي يحدّده راؤول جيرارديه(49) (Raoul Girardet): «نظام معتقدات متماسك وتام»، ويرتكز على قواعد أيديولوجية، وتركيبة قاطعة، ونسبية ثقافية تشرعن المعيار المزدوج، حيث لا يوجد وجه للمقارنة بين الآخر وبيننا بتاتًا، مثل الأطباء الذين يشخصون الأمراض: «اعملوا ما أقول وليس ما أفعل». والهدف هو دائمًا تعبير عن القوة من خلال تحليلات تتمحور حول إحساس بالتهديد أو بالخطر، وبتصورات دولية تفتقر إلى المساواة ويشوبها الغموض، لكنها تضع حدودًا وقيودًا على الآخرين.

---

(48) Bartholomé Benassar, *La guerre d'Espagne et ses lendemains*, Tempus (Paris: Perrin, 2006).

(49) Raoul Girardet, *Mythes et mythologies politiques*, Points (Paris: Le Seuil, 1990).

التحليل الاستراتيجي هو بناء يهدف دومًا إلى إعطاء عقلانية لقوة بلد ما، أي قدرة هذا البلد على فرض إرادته على الآخرين. ويبيّن هذا القصد فصامًا: فهو يريد الإسهام في الأمن الدولي بوضعه على الآخرين شروطًا غير قابلة للتفاوض، وتتعلق بأمن البلد. ويبحث الفكر الاستراتيجي عن الطرق والوسائل لفرض وجهات نظره، من دون السعي إلى فهم ما يكوّن خصوصية الآخر. ويشكل اجتياح قوات الحلف الأطلسي لأفغانستان مثالًا واضحًا على الخطأ الاستراتيجي؛ لأن هذا الاجتياح يسلم بأن مسألة طالبان يمكنها أن تحل بطرق عسكرية. ويدل هذا على عدم معرفة المزاج الأفغاني جيدًا (طالبان أو غير طالبان). وفي الخطاب الاستراتيجي يبدو أن مجرد الأخذ بالحسبان مصالح أمن الآخر، مهما كان حجم هذه المصالح وقوتها، له أثر مباشر وضمني وهو نزع وضع «القوة» المطالب به.

لا يمكن أن يكون هنالك تفكير استراتيجي في عصر العولمة لا يأخذ بعين الاعتبار الرؤى المتبادلة، والحالة ليست كذلك إطلاقًا في أماكن التفكير في البلدان التي تصف حالها بأنها قوى ديمقراطية. ويورد الكتاب الأبيض الفرنسي حول الدفاع، والصادر عام 1994، «إنجاز إسقاط على الأرض لقوى عسكرية من أجل الإسهام في الأمن الدولي»، كوظيفة استراتيجية، أسوة بنظراء فرنسا في البلدان الغربية الكبرى. ونجد هذا التكليف المعطى ذاتيًا في الوثائق العامة لديمقراطيات أخرى. ولكن، في ضوء التدخلات الغربية في العراق وأفغانستان أو في ليبيا اليوم، هل يمكن أن نظن، في بقية البلدان، بأن دعم الديمقراطية يبرر هذه الحروب، وبالتالي هذه القدرات العسكرية الغربية؟ إذًا، يشكل التحليل الدولي غربالًا للفصل بين البلدان الصديقة والبلدان العدوة. فباكستان، مثلًا هي بلد يملك الأسلحة النووية ويصدر حصته من الإرهابيين والجهاديين، والأقليات الدينية هي دائمًا عرضة للهجمات فيه. لكن، قرر الغربيون ألا يصنفوه ضمن دول «محور الشر»، فمن يستطيع أن يصدق ذلك بجدية؟

كانت الانتخابات الإيرانية في 2009 مزورة، وعليه فالإدانة الدولية طبيعية! لكن لماذا السكوت عن بلدان كمصر، حيث كان الأمر يتعلق بتوريث عائلي يقوم به مبارك لمصلحة ابنه؟ لقد برهن المصريون مؤخرًا على سخافة هذا النهج.

هكذا، كلما كانت الدولة قوية تفوقت شروط أمنها على شروط أمن الآخرين. إنه مبدأ نظرية مونرو (Monroe) الذي أعلن وصاية واشنطن على أميركا اللاتينية، وهي النظير الأميركي لـ «نظرية السيادة المحدودة» التي أعلنها ليونيد بريجينيف (Leonid Brejnev) كي يفرض الطاعة على الدول التابعة لموسكو. ولنقرأ هذا الكلام المحمول على ديباجة غنائية وقد أطلقه الرئيس الأميركي تافت عام 1912: «اليوم الذي سيحدد فيه امتداد أراضينا ليس ببعيد، ثلاثة أعلام تعلوها نجوم في ثلاث نقاط متساوية البعد من بعضها: الأولى في القطب الشمالي، والثانية في قناة باناما، والثالثة في القطب الجنوبي... بحكم تفوق عرقنا». والوثيقة الاستراتيجية البريطانية في عام 2004 التي كان عنوانها «منح الأمن في عالم متغير» هي في حد ذاتها مثال حديث للغة مزدوجة تصدر عن بلد كان يستعد لغزو العراق.

كل شيء استراتيجي!

يبتغي الخطاب أن يكون علميًا. إن المواضيع القابلة للعب مثل «رقعة الشطرنج الكبيرة»، «اللعبة الكبيرة»، «نظرية أحجار الدومينو»، «لاعب الشطرنج ضد لاعب الغو» هي أساسية للبرهنة على العقلانية الباردة للخصم، وإصراره. وهذا الأمر أساس كي يبرهنوا إلى أي حد هو العدو مكيافيلي وخطر. هكذا يقال إن صدام حسين كان لاعب شطرنج، وحافظ الأسد، الرئيس السوري، لاعب غو، الأمر الذي لا يؤكده أي شريك في اللعب لأي من هذين الدكتاتورين. والجيوسياسة التي شُيطنت لزمن طويل بسبب تجاوزات النازية، «أصبحت على الموضة ثانية». وعلى غرار ما كانت الحال في السبعينيات، كان كل شيء سياسيًا، وفي الثمانينيات كان كل شيء جنسيًا، واليوم كل شيء هو جيوسياسي[50]. فـ«الشطحات» الجيوسياسية مثل «قوس الأزمات»، «المزلاج»، «المحور» (لهندسة غير إقليدية) الذي يصل بين عواصم الأعداء، و«الفنلندنة» (كان هذا التصور يوحي بتبعية فنلندا لموسكو، ولا يزال الفنلنديون يستنكرون هذا وسيظلون يستنكرونه)، و«النزول نحو البحار الدافئة»، و«المخاطر» أو

(50) إلى اليوم يوجد أكثر من مئة وخمسين عنوانًا متوفرًا بالفرنسية يتضمن مصطلح «جيوسياسي» ومن بينها جيوسياسة منطقة نيفر (*Nièvre*)...

«المصالح»، تُموضع الخطاب ضمن بُعد كوكبي. ووفق المعلقين الفطنين، فإنه لا يوجد على سطح الأرض أي مكان من دون أهمية استراتيجية أو لا ينتمي إلى منطقة نفوذ. ويمكن تفسير كل أزمة حتى لو كانت محلية، من خلال وضع البلد الاستراتيجي. هكذا كان يُبرَّر في المحافل الرسمية الدعم غير المشروط الذي قدمته فرنسا للرئيس الرواندي هابياريمانا (Habyarimana) إلى أن وقعت الإبادة العرقية عام 1994، تصديًا للطموحات الأنكلوسكسونية. بيد أن اختفاء هذا الرجل الذي انتزع بوحشية من أحضان قادتنا مع جنونه الخاص بالإبادة الجماعية، لم يزعزع وضع فرنسا الاستراتيجي في أفريقيا. فاستقبلت باريس المعترفة بالجميل أرملته، وهي مسؤولة شخصيًا عن تنظيم الإنترهاموي (Interhamwe)، وهي ميليشيات الإبادة الجماعية، ومُنحت تعويضًا صغيرًا يبلغ 200.000 فرنك اقتطع من صندوق بعثة التعاون العسكري لتسهيل تجهيز مسكنها في باريس. ويتعلق الأمر بالفعل بمصالح ولكن ليس باستراتيجيا.

يمكن لعدو ظرفي أن يخفي عدوًّا تقليديا. ففي أثناء حرب فيتنام، ألم يكن الخمير الحمر يخشون الفيتناميين أكثر من الأميركيين الذين كانوا يحاربونهم؟ وهؤلاء بعد هزيمتهم، ورحيلهم المخزي من سايغون، بقوا يفضلون الخمير وأيديهم الملطخة بدماء الإبادة الجماعية؛ لأنهم كانوا يجابهون النظام الموالي للفيتناميين الذي استلم الحكم عام 1979. وبقي الخمير الحمر، لبضع سنين، الممثلين الرسميين في الأمم المتحدة مع دعم الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن لكمبوديا، هذا البلد الذي استنزفوه. وكان الجميع في تلك الحقبة يعلم بمجازرهم.

كل شيء مخاطرة، أو تهديد أو تحد!

ترتكز الخطابات على موضوعين في ما يتعلق بالمجال الاستراتيجي: تعريف خطر ذي صدقية والقطيعات. إن المقدرة على نشر القلق والإعلان عن انقلاب مهم في الحياة الدولية يسهمان كثيرًا في نجاح الكتاب الذي يعلن عن ذلك، حتى وإن لم يسهما في صدقية التوقعات. وإذا كان هذا الكتاب صادرًا عن خبير أو مركز تفكير أميركي، تؤمن له تغطية إعلامية. وقد تنبأت دراسات

أميركية منذ الستينيات بأنه سيكون في عام 2000 أكثر من 25 بلدًا نوويًا على كوكبنا، ونحن اليوم وصلنا بصعوبة إلى الرقم 9، إضافة إلى بعض بلدان العتبة، (أي التي نعتقد أنها ستكون قادرة على صناعة القنبلة لكنها لم تقم بذلك). ولقد تخلت بعض البلدان التي أعلن أنها تشكل تهديدًا، عن برنامجها النووي. وتعج المكتبات بدراسات حول «الاتحاد السوفياتي في عام 2050»، ودراسات مستقبلية كارثية حول انهيار الغرب وتجريده من سلاحه الأخلاقي والمادي. وهذه مسألة مهنية...

يضخم الخطاب التحولات والتغيرات وكأنه وُجد، في لحظة من تاريخ البشرية، وضع ساكن تمامًا. وهكذا يمكننا أن نقرأ في تحليلات استراتيجية حديثة عبارات مثل «يفتتح عدم اليقين، والهوائية، تاريخ القرن الحادي والعشرين، معلنًا عن أنواع عدة من القطيعات والمفاجآت»[51]. ويجب أن نعتقد بأنه كان هناك، في فترة من تاريخ البشرية، استقرار استراتيجي مطلق، ونوع من «العصر الذهبي»، كما يذكر كتاب **الأشغال والأيام** لهيزيود.

في المقابل، يجب أن تكون اللهجة إيجابية في ما يتعلق بالتقديرات الاقتصادية، إذا أردنا النفاذ إلى وسائل الإعلام. ولقد سبق الأزمة المالية الحالية العديد من التحليلات الاقتصادية المتفائلة[52].

تكثر العبارات الجاهزة في الكتب الاستراتيجية: «سنة كل المخاطر»، العدو «لا يخفي نواياه بإعادة بسط هيمنته على مجمل منطقة نفوذه» (لماذا هو غبي لدرجة إعلانه عن ذلك؟)، وبرنامجه العسكري دائمًا «طموح»، ويعدّ «حروبًا عدائية مستقبلية» (يمكننا توقعها مسبقًا)، ويفتعل «تهديدات في كل مكان»، فيما يحاول العالم - بين القطيعة والاستمرارية - «حماية مبادئه». تتيح اللهجة التنبؤية عناوين مثيرة: شهدتُ احتضار العالم القديم، شهدتُ عالمًا مليئًا بالشك.... وتستهلك الجيوسياسة كثيرًا من المفاهيم التجميعية الحديثة مثل العالم ثالثية (tiers-mondisme)، النيوكولونيالية (الاستعمارية الجديدة)، الإرهاب

(51) Nicolas Bavarez, *Nouveau monde, vieille France*, Tempus (Paris: Perrin, 2006).

(52) انظر الموقع: www.huyghe.fr.

المفرط، المجتمع ما بعد الصناعي، العولمة... وهي مفاهيم تُبسِّط التعقيد وتبهج القارئ. ويشكل توصيف المسألة وجهًا أساسيًّا للتحليل الاستراتيجي. وكثيرًا ما نتكلم على المسألة الفلسطينية بينما الأمر يتعلق بمسألة الاستيطان الإسرائيلي، أو عن مسألة السود في الولايات المتحدة، في حين كانت المسألة في البدء مسألة البيض، وعن مسألة وضع المرأة في البلدان الإسلامية، فيما يتعلق الأمر طبعًا بمسألة تصرف الرجال. وفي المواضيع الاستراتيجية، كانت مهارة السوفيات في الثمانينيات، على سبيل المثال، تتكلم على موضوع صواريخ بيرشينغ (Pershing) في ألمانيا لتعبئة الرأي العام والتسبب بتظاهرات واستنكارات، بينما كان الأمر يتعلق بالرد على وضع صواريخ SS20 السوفياتية. ومثلما قال الرئيس ميتران (Mitterrand) أمام البرلمان الألماني: «الصواريخ في الشرق والمتظاهرون في الغرب!».

ولكي يجعل المعلقون كلامهم أكثر إثارة، لا يتوانون عن رؤية «طموحات سرية» و«مخططات خفية» و«مصالح موضوعية»... تستبعد مبدئيًّا الجهل، أو بالأحرى غباء الإنسان في التفسيرات. ولا يوجد مكان للغباء أو للاعقلانية لدى الطاغية الذي فقد منذ عقود عادة أن يعارضه أحد، ولا مكان للجهل الذي لا حدود له عند بعض أصحاب القرار في الديمقراطيات الكبرى[53]! ألكسندر آدلر (Alexandre Adler)، هو بطل فك الرموز في أعمال أجهزة الاستخبارات في هذا المجال، ويعتبَر «زبلون» (Zébulon) الحياة الدولية، إذ يقفز من أزمة إلى أخرى، وهو محرر أخبار في صحيفة **الفيغارو**، يذكر بانتظام الأمن الوطني، ليتأكد بذلك من أنه لن يكون عرضة للمناقضة... ولن تعارضه إلا الحقائق بذاتها[54]. لحسن الحظ، هذه المقالات معقدة ومتناقضة بما يكفي كي تترك القارئ متأثرًا ومرتابًا في آن.

---

(53) كان هذا التفسير الأوضح لأغلبية القرارات السياسية الدولية للرئيس بوش الذي لم يخرج من الولايات المتحدة مطلقًا قبل انتخابه، إلا إلى المكسيك.

(54) انظر بخاصة: Alexandre Adler, «Et si la guerre d'Irak n'avait pas lieu,» *Le Figaro* (8-9 mars 2003),

حيث يذكر الكاتب تردد واشنطن في الاعتماد على «مصادر» أميركية.

صنع العدو: روسيا بوتين

يضطر الصحافي روبيرتو سافيانو (Roberto Saviano) مؤلف كتاب عامورة (*Gomorra*) الذي تهدده المافيا camorra بالموت، أن يعيش في الخفاء، لكن لا يخطر ببال أحد اتهام الحكومة الإيطالية. وفي المقابل، يُنسب بصورة واضحة إلى الكرملين، اغتيال صحافيين روس مثل آنا بوليتكوفسكايا (Anna Politkovskaïa) أو عاملين في المجال الإنساني مثل نتاليا إيستيموروفا (Natalia Estemirova)، التي قتلت في 15 تموز/يوليو 2009 في الشيشان. ويسلّط الضوء بحق على ماضي ضابط سابق (بسيط) في الـKGB هو فلاديمير بوتين (Vladimir Poutine)، ولكن يُتناسى الرئيس بوش الأب الذي كان مديرًا لوكالة الاستخبارات الأميركية CIA.. ويمكن أن يُعين في فرنسا، مدير سابق لمكتب رئيس الوزراء على رأس مؤسسة غاز فرنسا، لكن العلاقات بين إدارة غازبروم والكرملين هي التي تكون مثار قلق. وقد ناشدت هيلاري كليتون التي أتت بعد دونالد رامسفيلد، موسكو بأن تحترم حقوق الإنسان، لكن بقدر ما نعلم، تعتقل واشنطن، منذ عشر سنوات، سجناء في غوانتانامو وتحرمهم من حقوقهم الدنيا! وفيما تكون ردة الفعل قوية تجاه اجتياح القوات الروسية لأراضي جورجيا السيادية وتفرض مهلة زمنية للانسحاب، يُعبّر عن التمني بشكل مهذب بأن تتوقف إسرائيل عن الاستيطان في الأراضي الفلسطينية. وتصل الأمور إلى درجة لوم روسيا لكونها تريد أن تُدفع لها قيمة الغاز المرسل إلى أوكرانيا وفق قيمة السوق، وليس وفق تعرفة تفاضلية لأنابيب غاز الصداقة السابقة. ولقد سبق أن نوه كلود مانديل (Claude Mandil) في تقريره «أمن الطاقة والاتحاد الأوروبي» في 21 نيسان/أبريل 2009 الموجه الى رئيس الوزراء، بأن هنالك بعض التناقض حين نشيطن روسيا في ما يتعلق بالأزمة الأوكرانية، وفي الوقت ذاته نسعى لجعلها شريكًا طبيعيًا في أمن الطاقة للاتحاد الأوروبي.

كان الفصام دومًا جزءًا من الجيوسياسة، وهو نوع من اللباس «العقلاني» لعلاقات القوة الدولية. وفي حالة روسيا والولايات المتحدة، نبلغ حدًا من الهذيانات (المعكوسة). ولا يتعلق الأمر بمنح شهادة ديمقراطية للنظام القائم في الكرملين، الذي لا يزال عليه بذل كثير من الجهد، خصوصًا في ما يتعلق بالشيشان

وحماية الصحافيين. بل قد يكون النقد أكثر إيجابية، وحتمًا أكثر فعالية، لو كان يستعمل المقارنة باعتدال. هل على النقد أن يكون مطلقًا بسبب أن العديد من محرري الأخبار المعنيين بالقضايا الدولية كان لديهم ماض شيوعي، وأن ذلك بقي وصمة لا تزول؟ هل لأن فرنسا عرفت مع عشر سنوات من التأخر، موجة المحافظين الجدد، التي كانت لها مع كوندوليزا رايس (Condie Rice) الأولوية الاستراتيجية (قبل اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر) في دحر الاتحاد السوفياتي السابق؟ هل لأن أوروبا السياسية، التي تبنى تحت نواظرنا ليس لديها عدو، وتجهد لوضع سياسة دفاع؟ أما الصين: فقد أدت دور العدو البديل تحت إدارة بوش، لكن الرئيس أوباما يعمل على تطبيع العلاقات مع بيجين. لم يعد في الإمكان الاعتماد على أحد[55].

ازدواجية المعايير!

يتسم خطاب القوة بالفصام: فهو يعبّر عن أحكام متمايزة بالنسبة إلى أفعال القوى أو أفعال حلفائها، مقارنة بأفعال «أعدائها». كان ديغول يبرر حيازة فرنسا للسلاح النووي بشرحه أن هذا السلاح يشكل توازنًا للقوى، يمنع بلدًا كبيرًا من أن يملي إرادته على بلد صغير. وذكّر أن فرنسا لا تريد أن تتعرض من جديد للاجتياح، وترفض توقيع معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، بالتوافق مع الهند. يمكن لهذا الخطاب أن يُطبق على البلدان كلها التي عاشت الاستعمار في الصميم، فكيف تتم إدانة انتشار الأسلحة النووية لدى الأمم الأخرى اليوم؟ من خلال المنع، ببساطة.

يشيد الخطاب الاستراتيجي بنظام قيم من المفروض أن يتيح تطبيقه حسن اشتغال الحياة الدولية. وهكذا كانت الشيوعية «جنة العمال (حيث كان الإضراب ممنوعًا) وقوة السلام والأمان»، وتبقى فرنسا، القوة الاستعمارية الثانية في التاريخ، على الرغم من كل شيء، «بلد حقوق الإنسان»، والرئيس ويلسون (Wilson) وخلفاؤه الذين دافعوا عن حق الشعوب بتقرير مصيرها ضد فرنسا وبريطانيا العظمى، إبان معاهدة فرساي ثم في أثناء إزالة الاستعمار، كانوا

(55) مقتطف من مقالة للمؤلف نشرتها صحيفة ليبيراسيون، كانون الثاني/ يناير 2010.

يطبقون نظرية مونرو على أميركا اللاتينية. وأخيرًا شعرت النمسا بالاغتياظ حين كشف الماضي النازي لرئيسها، كورت فالدهايم (Kurt Waldheim)، هذا الماضي الذي يبدو أنه كان أُخفي بعناية حتى ذلك الحين.

يشكل «الكيل بمكيالين» القاعدة الأيديولوجية للخطاب الاستراتيجي. فالبلد ذاته الذي يطالب بتحرير المستعمرات، يستمر ببسط قبضته على غزواته الخاصة. بدورها، تطالب الحكومات الإسبانية المختلفة بإعادة جبل طارق من بريطانيا العظمى، لكنها ترفض مناقشة التخلي عن بريزيديس (الأراضي المحصورة في سبتة (Ceuta)، ومليلة (Mellila)) مع السلطات المغربية. وتجد الديمقراطيات الغربية نفسها ترفض الاعتراف لغزة بحكومة حماس، الآتية نتيجة انتخابات راقبها مراقبون غربيون، لأن هذه الحكومة لا تريد القبول بوجود إسرائيل. لكن في الوقت ذاته تحافظ هذه الحكومات على علاقات طبيعية مع حكومة تل أبيب الحالية، التي تواصل الاستيطان وتضم بين صفوفها وزيرًا عنصريًّا، هو السيد ليبرمان (Lieberman)، الذي يمكن لأقواله أن تُدان في فرنسا وفق قانون 1972 الذي يناهض العنصرية. يجب إذًا أن نستنتج من ذلك أن الانتخابات الوحيدة القانونية هي التي تنتج أنظمة موالية للغرب. ولذلك لم يكن الرئيس مبارك أو الرئيس بن علي ينظمان انتخابات؛ لأنها من الممكن أن تأتي بالإخوان المسلمين إلى سدة الحكم. وأتى الربيع العربي الذي لم يعبر سوى عن مطالب ديمقراطية، ليبرهن على عدم صحة هذه الفرضية.

إن تجريد المُحاوِر من الأهلية هو ممارسة مفروضة عندما نريد تحديد «عدو ما». «لا يمكننا أن نتقاتل مع الولايات المتحدة إلا إذا كانت لدينا أسلحة نووية». هذه الكلمات التي تبرر انتشار الأسلحة النووية ليست لـ كيم جونغ إيل (Kim Jong Il) ولا للرئيس الإيراني أحمدي نجاد، بل لرئيس أركان الجيش الهندي وهو يتناقش مع ليس أسبين (Les Aspin)، أي مع مسؤول أميركي كبير. وتشكل هذه الجملة الرزينة جدًا التحليل العسكري البارد لمسؤول في أكبر ديمقراطية في العالم، وهي لم تثر حنق خبراء الشؤون النووية المعتادين. فهل هناك إذًا طريقتان للحكم على انتشار الأسلحة النووية؟

يفترض أن الديمقراطيات هي في طبيعتها «حاملة للسلام»، وهذا المنطق المُعلن لا يتوافق مع التحليل. فكل من فرنسا وبريطانيا العظمى حاربتا عسكريًا ضد إزالة الاستعمار. واستعادت الولايات المتحدة مجهودها للدفاع تحت إدارة كلينتون عام 1994، في وقت لم يكن يتحداها أي تهديد. وأصابها القلق بعد بضع سنوات جراء مجهود الدفاع الصيني الذي لم يكن يمثل سوى سدس مجهودها. ولم تحصل إسرائيل على إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 1947 إلا بعد هجوم إرهابي على فندق الملك داود، مقر الأركان البريطاني، والذي أوقع 96 ضحية. وتجد حكومة تل أبيب نفسها في وضع يشبه وضع السلطات الجزائرية التي حصلت على استقلال البلاد عبر اعتداءات إرهابية، والتي تستنكر الممارسات الإرهابية التي يقوم بها خصومها الحاليون.

«يولّد الفقر الحرب». هذا إعلان آخر، لكن لم يتم التحقق من صحته إلا نادرًا منذ الحرب العالمية الثانية. وتشكل حالة (هايتي) التي يهتم بها العالم اليوم، مثالًا محزنًا على هذا. لقد سببت الأمم الغنية نزاعات مسماة نزاعات «قوة»، أو انقلابات أكثر مما سببته الأمم الفقيرة، وغالبًا للسيطرة على الموارد، كما هي الحال في العراق.

«قد يكون التقدم الاقتصادي عامل سلام». الأمر على العكس من ذلك تمامًا، فغالبًا ما يكون إثبات القوة المرتبطة بالنمو الاقتصادي هو ما يغير النظام الدولي، وبالتالي يقلق القوى القائمة. فالنمو الاقتصادي الوليد في ألمانيا في عهد الإمبراطور فيلهلم هو الذي هدد فرنسا وبريطانيا العظمى، وما لبث أن أطلق أول شرارة للحرب العالمية الأولى. وتشكل القوة الاقتصادية الصينية اليوم إنذارًا للولايات المتحدة.

لطالما استخدمت جيوسياسة الكارثة «نظرية الدومينو» التي تؤكد أن سقوط حكم معين سيؤدي بصورة ميكانيكية إلى سقوط الدول المجاورة له. وقد أُعلِن عن ذلك أصلًا بخصوص الشرق الأقصى، لكنها لم تُثبَت في أي مكان وبقيت تمرينًا مفروضًا. ومن جهتها، فإن ليسلي هـ. غيلب (Leslie H. Gelb) الصحافية

في نيويورك تايمز، والتي سئمت، على الأغلب، من سماع الملحميات المأساوية ذاتها تتكرر دومًا عن النزاعات، كانت تقول: «إنه لعالم مليء بالدومينو».

الخطر الاستراتيجي في التسعينيات؟ البطالة التقنية

وضعت عبارة أرباتوف (Arbatov) «سنقدّم لكم أسوأ خدمة، سنحرمكم من العدو!» شبكة الإنتاج الاستراتيجي في مواجهة خطر البطالة التقنية. وتركت نهاية الشيوعية الجيوش التقليدية الغربية من دون عدو على مستواها، ما خلق معضلة كبيرة. وسنجد بعض الحجج المناسبة للدفاع عن الميزانية: «لا تخفض الحراسة!»، «من المبكر جدًا تخزين أرباح السلم»... لكن الحماسة فترت؛ إذ أربكت أقلمة الأزمات حسابات الاستراتيجيين الذين كانوا يبحثون عن أنموذج كوكبي بديل. وسرّحت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA خبراءها المختصين في أفغانستان التي آلت إلى النسيان. واستخدم المختصون بالشؤون السوفياتية من جديد الأدوات ذاتها لتحليل روسيا يلتسن (Eltsine) وبوتين أو السلطات الجديدة لدول آسيا الوسطى، واستمرت خلية أفريقيا في قصر الإليزيه بالتلويح بـ «الورقة الأفريقية» للتباهي بوضع فرنسا العالمي... إذًا كانت لآلية الإنتاج الاستراتيجي ردة الفعل ذاتها لكل بنية تعرّض توازنها للاختلال نتيجة وضع جديد: أن تثبت ضرورتها وأن تُنتج «عدوًا». وأظهر النظام الفكري الأميركي كل قوته في البحث عن أنموذج عالمي جديد.

بعد تحرير الكويت، آمن كثيرون بـ «النظام العالمي الجديد، حقبة الحق في خدمة السلام»: وكان لجيوش الديمقراطيات الكبيرة أن تتدخل تحت سلطة الأمم المتحدة لفرض احترام القانون الدولي وتحرير الكويت (لا لتحرير الأراضي المحتلة). ثم أُطلقت فكرة «التهديد القادم من الجنوب» للحلول محل «التهديد القادم من الشرق»، مع الأمل أن تتيح إعادة توجيه جغرافية بسيطة، المحافظة على إطار استراتيجي ووسائل مماثلة. ولكن، بما أن الجنوب متنوع جدًا، فقد حدد بسرعة في نطاق العالم العربي. ثم جرت محاولة إطلاق «الحرب الاقتصادية العالمية»، لكن لم يشغل ذلك سوى جزء من وسائل الاستخبارات لا وسائل الدفاع! وبُدئ السعي إلى «عسكرة» التعامل مع الجريمة المنظمة أو الإرهاب، كما

في المخطط الأميركي «كولومبيا» الذي يهدف إلى مكافحة تهريب المخدرات. ولجأ التفكير الإستراتيجي الأميركي أيضًا إلى تنبؤات دراماتيكية، من المهم التذكير بها بعد مرور ثلاثين عامًا. فأبعد من **صدام الحضارات** المذكور سابقًا، أراد بعض الخبراء أن يجدوا صلة بين العولمة وانعدام الاستقرار: فبالنسبة إلى توماس بارنيت[56] (Thomas Barnett) «وجِدَ حل لكل المسائل الكبرى (....)»؛ حيث تنطلق كل التهديدات من العالم «غير المتصل بالعولمة»، أي الأرض البربرية الجديدة (terra barbaris). كان بارنيت يرسم خريطة للقواعد المستقبلية المتقدمة الأميركية على سطح كوكبنا القادرة على صد هذا «التهديد». ولم تتناول هذه النظرة لحدود جديدة حالة المملكة العربية السعودية، وهي بلد حليف ومدمج كليًا في العولمة، مع أنه مُصَدِّر كبير للإرهابيين. وأمام ملاحظة الفشل في الشرق الأوسط، بقي «التهديد الصيني» الذي كان موضوع تقرير تخويفي من جديد، أنجزه البنتاغون في أيلول/ سبتمبر 2010، أي في الوقت الذي تم فيه إقرار ميزانية الدفاع في الكونغرس.

خلال سنوات قليلة، وبغياب العدو، تخلى الإنتاج الاستراتيجي عن تفكير، ذي صدقية ضعيفة، حول التهديد، لاستبداله بتفكير حول القدرات العسكرية. وقد رُفع المجهود الدفاعي الأميركي عام 1994 تحت إدارة كلينتون، في حين لم يكن هنالك أي تهديد مثبت يبرر ذلك. وبغياب الأعداء، تم الإصرار على الإمكانات العسكرية، وذلك بالانزلاق نحو «تمائمية تكنولوجية (fétichisme)» حقيقية. وأُطلِقت برامج مثل Joint Strike Fighter (وهي طائرة قتالية من الجيل السادس، تعد البرنامج الأبهظ في تاريخ البنتاغون، والذي تجاوز المخصصات بـ 40 في المئة)، وبرنامج (TSAT) (Transformation Satellite Program) الذي تم التخلي عنه حاليًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القمر الصناعي للاتصالات بالليزر.

عرفت التمائمية التكنولوجية حدها في اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر التي لم يكشفها أي نظام تقني استخباراتي، إذ مر الإرهابيون فوق الرادارات والكاشفات الأخرى، وهم مسلحون بشفرات (cutters)، على متن

---

(56) Thomas Barnett, *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty First Century* (New York: G. P. Putnam's Sons, 2004).

طائرات للخطوط الداخلية الأميركية. وكان لمشروع الدفاع المضاد للصواريخ أهمية خاصة. فلقد أعلن عنه جورج بوش الابن، ودعمته الأغلبية العظمى من البلدان الأوروبية، وخصوصًا بريطانيا العظمى، لكن تبين أنه مكلف للغاية ومثير للشك جدًا من الناحية التقنية. وبما أنه سبب خللًا استراتيجيًا بين بلدان تملك السلاح النووي، فقد انتقدته روسيا وفرنسا بحدة. وفي 17 أيلول/ سبتمبر 2010، تخلى الرئيس أوباما عن نظام الدفاع المضاد للصواريخ (antimissile) ورحبت الحكومات الأوروبية بهذا القرار الأميركي، كما كانت قد رحبت بالقرار السابق. ونلاحظ إذًا أن مادحي دبلوماسيي جورج بوش الابن أصبحوا مادحي الغفلة الدبلوماسية لدى باراك أوباما، مع أن أوباما انتقد سلفه بشدة. فهل من الممكن أن تكون هنالك نمطية خاصة بواشنطن على غرار النمطية الشيوعية الخاصة بموسكو، كما قيل في زمن آخر؟

حلف شمال الأطلسي، الناتو، الذي بقي حيًا بعد زوال حلف وارسو، هو اليوم التحالف العسكري الوحيد على وجه البسيطة. ويبدو بالنسبة إلى الكثيرين غير الغربيين، وكأنه حرس مسلح للبلدان الغنية، خصوصًا أن اليابان وأستراليا تناقشان ترشحًا محتملًا للانخراط فيه. ويتساءل بعض دول البحر الأبيض المتوسط، على أي حال، لماذا ترغب البلدان الأوروبية في خلق «أوروبا دفاعية» إضافة إلى حلف شمال الأطلسي، معتقدة أنها ستوجَّه حصرًا ضدها. أصبح الناتو رسميًا من دون عدو منذ زوال الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو، وقد عرّف العام الماضي، تصوّره الاستراتيجي الجديد، فيما كان جنوده متورطين في أفغانستان، (أي «خارج المنطقة» كما كان يقال في زمن النقد الديغولي)، في حرب لا يعرف كيف يخوضها. وبرهن حلف شمال الأطلسي للغرب ضرورته العسكرية مع التدخل في ليبيا. لكن هل هذا سبب كاف، خصوصًا بالنسبة إلى باقي العالم؟

لم تشكل السنوات العشرون الأخيرة التي تميزت بأنها من دون عدو، عقدين من دون حروب، إذ إن الأميركيين المركّزين على دحر القوة السوفياتية السابقة، دعموا ثورات الألوان في أوكرانيا، وفي جورجيا، وفي قرغيزستان لكنهم لم يروا صعود الإسلاموية. أما تكرار الحرب السابقة فهي عادة قديمة لدى البلد

المنتصر. ولم تعد خريطة العالم مكان الخصومة الكبرى التي تُغرز عليها أسهم ملونة، وتحددها أعلام صغيرة تشير إلى تقدم بلد ما، وتقهقر بلد آخر. وكانت أزمات السنوات العشرين الأخيرة، التي تخلصت من بهرجة الحرب الباردة، محلية من دون رهان عالمي، وتستحق النوابض التي تغذيها تفسيرات داخلية. فمخازن الأسلحة التي خلفتها الحرب الباردة تستفيد منها النزاعات من دون مساعدة خارجية. ويُمارَس القتل من الآن فصاعدًا بالكلاشنيكوف أو بالساطور. ولا يمكن لأي أنموذج شامل تقديم قراءة سهلة للأزمات، ما يقوض عددًا من مبادئ الخطابات الاستراتيجية للقوى حول استقرار العالم. وحتى الموجات الإرهابية فإنها تتمفصل في سياقات إقليمية محددة، علمًا أنها شأن من اختصاص الشرطة أكثر من كونها من اختصاص الجيش. في هذه الجغرافيا الجديدة وغير المجدية للعالم(57)، لم تعد الأزمات تتساوى؛ إذ تتقدم دوافع السياسة الداخلية في الديمقراطيات الكبيرة على التحليلات الاستراتيجية الشاملة. فأي أزمة حاليًّا تستحق موت جندي غربي؟ البوسنة نعم، لكن ليس الإبادة في رواندا (حيث وجد الجيش الفرنسي نفسه وحيدًا)، ولا الأزمة في الكونغو، وهي النزاع الأكثر دموية منذ الحرب العالمية الثانية!

كيف نستطيع إذًا شرح هذه الحروب التي لا تزال تلوث كوكبنا؟

---

(57) Conesa, «Une géographie du monde inutile,» *Le Monde diplomatique* (mars 2001).

الكتاب الثاني

وجوه العدو

محاولة تصنيف

لم يتلاشَ التقيح الحربي منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، ووجدت الأزمات والنزاعات نوابضها التقليدية التي كان يخفيها التحليل الثنائي القطب. ويستعيد التاريخ والجغرافيا حقوقهما بعد التنويم المغناطيسي الأيديولوجي للنزاع بين الشرق والغرب. وبعد عام 1991 بقيت آليات إعادة إنتاج العدو وصناعته في العديد من البلدان (الديمقراطية أو غير الديمقراطية): لنحاول إذًا أن نضع تصنيفًا للأعداء. إن أي أنموذج من النماذج التي ذُكِرت هنا ليس نقيًّا تمامًا، فالعدو هو غالبًا مزيج من أصناف عدة، وهو مهجن من مكونات عدة تفسر طول أمد التنافس القاتل. ولكل نوع من النزاعات قواعده.

العدو القريب: نزاعات الحدود

تعدّ مسألة الشجار الحدودي الحالة الأكثر تقليدية وانتشارًا. وقد نتجت عنها نزاعات ثنائية: الهند - باكستان، باكستان - أفغانستان، الهند - الصين، اليونان - تركيا، ليبيا - تشاد، الجزائر - المغرب، بريطانيا العظمى - الأرجنتين (المالوين)، البيرو - الإكوادور، بوليفيا - التشيلي، كولومبيا - فنزويلا، العراق - إيران، إسرائيل - سوريا، أرمينيا - أذربيجان، كمبوديا - فيتنام، إسبانيا - المغرب (Présides)، مولدافيا - روسيا (Transnistrie)، روسيا - جورجيا، اليابان - روسيا (Kouriles)، الهند - الصين، مصر - السودان... وهذه القائمة ليست كاملة.

يشكل ترسيم الحدود وتجسيدها ظاهرة جديدة تقدمت بشكل مختلف بحسب القارة. ويقدر ميشال فوشيه (Michel Foucher) في كتابه **جبهات وحدود**[1]

(1) Michel Foucher, *Fronts et frontières*: *Un tour du monde géopolitique* (Paris: Fayard, 1991), et M. Foucher, *L'obsession des frontières* (Paris: Perrin, 2007).

(*Fronts et frontières*) بـ 252.000 كلم الحدود التي تقسم كوكبنا، ويلاحظ أن أكثر من 60 في المئة منها قد رسمتها قوات خارجية بالنسبة إلى البلدان المعنية. أي إن ما يشكل 2 في المئة فقط من حدود العالم في عام 1991 كانت نتيجة استفتاءات، ما يظهر كيف أن الحرب كانت الظاهرة الأساس لتحديد الحدود. ومن جهة أخرى ظهر أكثر من 90.000 كلم من الحدود الجديدة منذ عام 1991، و24.000 كلم كانت موضوع اتفاقات دولية. فهل يمكن للخلافات الحدودية أن تشكل في المستقبل أسبابًا للحروب؟

حين عرّف فوشيه الحدود على أنها «بنية مكانية بداهية ذات شكل خطي وظيفتها الفصل الجيوسياسي وتحديد نقاط استدلال في المجالات الثلاثة، أي الواقع، والرمزي والمتخيل، فقد استبعد كل الحجج الإمبراطورية، شبه الجغرافية الموروثة من القرنين التاسع عشر والعشرين، حول «الحدود الطبيعية»، و«الحدود الحقيقية»، و«الحدود التاريخية». كما أنه جعل التصورات المختلفة لتقاسم العالم التي كانت فعالة في الجيوسياسة التقليدية نسبية، مثل «البلقنة»، و«الطوق الصحي»، و«الدولة الحاجزة»، و«دائرة النفوذ»، و«مناطق الدفاع الأمامية».

بدأ ترسيم الحدود فعلًا في القرن الثامن عشر في أوروبا، وامتد خصوصًا عبر التوسع الإمبراطوري على باقي الكوكب. ونتج عن هذا الغزو الاستعماري اتفاقات كبرى حول تقاسم العالم (برلين، فرساي، بوتسدام، يالطا...). وولدت هكذا على زوايا الطاولات ترسيمات مستقيمة الخطوط للمناطق التي لا يعرفها الغربيون جيدًا (أفريقيا، الشرق الأوسط...) واختفت أو خُلِقت أو نُقِلت دول أخرى. ويدعم معتقد Doxa القانون الدولي سلطة الدولة وسيادتها ضمن حدودها، لكن الحركات النضالية لإزالة الاستعمار والثورات الانفصالية أدت إلى القبول بمبدأ «حق الشعوب بالتحكم بمصيرها»، المسجل في أول مادة من ميثاق الأمم المتحدة، وخصوصًا في القرار 1514 للجمعية العامة حول استقلال الشعوب المستَعمَرة. وعليه يبدو أن ترسيم الحدود هو موضوع ملزم بين مبدأين متناقضين يمكن أن تتمخض عنهما نزاعات بسهولة. ومنذ ذلك الحين، أصبح الترسيم المطلوب تعبيرًا عن نظرية سوسيولوجية وتاريخية بخصوص العلاقة

مع الأرض. وهكذا تنص المادة الثانية من الدستور الكمبودي لعام 1993، القلقة من الهجوم الفيتنامي، على أن: «سلامة الأراضي (..) مصونة كليًّا ضمن حدودها المعينة على الخرائط بمقياس 1/ 100.000 والتي وضعت بين1933 و1953»[2]. ويعدّ هذا الإسناد الاستثنائي الترجمة الخرائطية لتصوّرين يتعلقان بالقومية: تصوّر الخمير الذي يقول بأن الأراضي هي حيث يسكن الخمير (المتموضعون على الخريطة)، ما يتناقض مع القومية الفلاحية الفيتنامية التي تتقدم وفق منطق الجبهة الرائدة.

الآلية الأيديولوجية للحرب الحدودية

إن المدارس الرسمية التي تُدَّرِس قومية دينية هي متورطة بشكل واسع في ذاكرة النزاعات، حيث ترفع تواريخ أو أماكن إلى مرتبة الرموز، فقد جرى تحضير الطلاب الفرنسيين للحرب من خلال صورة بسمارك (Bismarck) المنتصر في قاعة المرايا عام 1871، ومن خلال القماش الحريري الأسود على خرائط الألزاس واللورين. والخرائط السورية لا تزال تشتمل إلى اليوم على ميناء اللاذقية الذي فقدته لصالح تركيا(*). ولا تزال بوليفيا، وهي بلد محصور منذ أن فقدت ساحلها إبان حرب المحيط الهادئ عام 1883، تحتفل بـ «يوم البحر» في 23 آذار/ مارس للمطالبة بمنفذ على المحيط الهادئ، لكن التشيلي تصر على رفض طلبها. وباسم معركة حقل الشحارير التي انتصر فيها العثمانيون في 15 حزيران/ يونيو 1389، لا يزال القوميون الصرب يطالبون بكوسوفو.

يمثل المؤرخون والجغرافيون، والمنظمات القومية، والمحاربون القدماء الذين بقوا على قيد الحياة، بعد النزاعات السابقة، وأحيانًا شتات السكان المطرودين أو الذين فصلوا عن الوطن الأم، الأنصارَ الأكثر حماسة للنزاعات المستندة إلى خطابات ذات أساس أسطوري. ويضفي الأدب بعدًا ملحميًّا على الموضوع، فيما يقع على عاتق الجغرافيين واجب خطر، وهو لفت الأنظار إلى أن الخرائط تبرهن على مشروعية مطلب بلادهم. هكذا قام «النزاع البائس» بين البيرو والإكوادور في كانون الثاني/ يناير 1995 على منطقة غابة بكر كانت

---

(2) Foucher, *L'obsession des frontières*.

(*) ملاحظة: خطأ من الكاتب والمقصود الإسكندرون [المراجع].

مجهولة حين اعتُمِد ترسيم الحدود من خلال «بروتوكول السلام والصداقة والحدود» الذي وقِّع في ريو في 29 كانون الثاني/يناير 1942. ومنذ ذاك التاريخ، رفضت الحكومات الإكوادورية كلها هذا البروتوكول، وفي المدارس لا تأخذ الخرائط الرسمية في الاعتبار بتاتًا البترَ الذي حصل عام 1942. ويساوي عدد قتلى حرب 1995 بالملاريا نظيره من القتلى بالرصاص، لكن هذه الحرب أفضت في النهاية إلى اتفاق.

لا ريب في أن العدو هو «موروث» بشكل يجعله يتجذر في الماضي ويشكل عنصرًا من عناصر بناء الهوية. وليس من المهم جدًا أن يكون البلد بذاته مقسمًا جراء تصدعات داخلية مثل باكستان أو السودان، بل تأتي صلابة المجموعة البشرية من حدة خطاب المعاداة للآخر. وهكذا يبدو أن باكستان الممزقة بحرب أهلية، يومية تقريبًا، لا تجد وحدتها إلا في مواجهة الهند حول مسألة كشمير. وكذلك يستخدم السياسيون اليونانيون ويفرطون في استخدام التهديد التركي للحصول على الصدقية في السياسة الداخلية. ويحتجون بمناسبة تحليق الطيران الحربي التركي فوق بحر إيجه - وهو محور عبور - والذي يعتبرونه بحرًا داخليًا. وينصبون أحدث أسلحتهم فوق الجزر المشتركة في الساحل التركي. أما في الجزائر، فلا يتعلم التلاميذ شيئًا عن المغرب، وكأنها غير موجودة بكل بساطة.

وتتقدس الحرب من خلال رواية تاريخ المعارك التي نجدها في كل الخطابات القومية. ويُرفع الأبطال المحاربون إلى مقام الأساطير. وتؤدي الملحمة العسكرية النابليونية في الوعي القومي الفرنسي، دور غزو الغرب البعيد (Far West) وأفلام رعاة البقر في الشعور القومي الأميركي، أو الحرب الوطنية الكبرى التي خاضها الروس ضد نابليون الذي هُزم وللمرة الأولى على يد الماريشال كوتوسوف (Koutousov).

ويرتكز خطاب العدوان على قومية ذات نزعات متنوعة يمكنها أن تكون مثيرة للقلق (اليونان)، أو مهووسة بالانتقام (بوليفيا)، أو حنينية (إسبانيا والقلاع (les présides)، روسيا والاتحاد السوفياتي)، أو معبّرة عن شعور الضحية

(صربيا)، أو صوفية (إسرائيل الكبرى)، أو شعبوية (هنغاريا ومعاهدة تريانون)، أو إمبريالية (سيطرة الصين على التيبت)، أو أسطورية (القدس بالنسبة إلى الأديان التوحيدية). ويشكل الكشف عن موارد المواد الأولية العجائبية، الحدودية والمخفية، محاولة لتقديم قاعدة مادية للمنافسة. وفي قمة الخلاف بين ليبيا والتشاد حول شريط أوزو (Aouzou)، ذُكر حينذاك اليورانيوم... ولم يُكتَشف قط. وتجعلنا تفاهة بعض الخلافات الحدودية حول حصى ناشفة وأماكن غير مسكونة، نحلم: كان المغرب وإسبانيا على وشك أن يتحاربا عام 2002 من أجل جزيرة برسيل (Persil) الصغيرة، وهي عبارة عن كتلة صخرية تعيش عليها طيور زمج الماء وتبعد 100 متر عن الشواطئ المغربية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان وتركيا، من أجل جزيرة إيميا الصغيرة عام 1995، بسبب سفينة شحن تركية جانحة حاولت فرقاطة تركية مساعدتها، فبدأت الأساطيل الحربية للبلدين بالدوران العدائي في المياه.

تظهر وراء النزاعات الحدودية بسرعة فكرة الوحدة الإثنية، ويشكل سكان الحدود المتداخلة من الجهتين قاعدة لطلبات ضم الأراضي إلى الوطن الأم. ويمكن للمعاملة المفروضة عليهم أو الكلام، ببساطة، على هذه المعاملة أن تؤجج العداوة. ولا تزال أحزاب اليمين المتطرف مثل جوبيك (Jobbik) في هنغاريا اليوم، تتكلم على «المعاناة الهنغارية» التي نتجت عن تشتت الأقليات في الدول المحيطة المختلفة منذ معاهدة تريانون (1920). وفي رومانيا وسلوفاكيا أيضًا تحافظ الأقليات على ذكرى الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية. وتعلن نظريات التضامن الثقافي كلها، التي ولدت في حقبة القوميات، إبان القرنين التاسع عشر والعشرين كمبدأ لترسيم الحدود: جمع السكان من ذوي الثقافة الواحدة في دولة موحدة، على غرار الوحدة التركية، والوحدة الجرمانية، والوحدة السلافية، والوحدة العربية، والوحدة الطورانية، والوحدة الصومالية، والوحدة الآسيوية – التي يسميها الغربيون أحيانًا الوحدة المغولية - في بداية القرن... وعاشت هذه النظريات المختلفة في مشاريع إمبريالية مثل ألمانيا الكبرى، وصربيا الكبرى، ولا تزال حية في تصورات حالية مثل سوريا الكبرى، وهنغاريا الكبرى أو ألبانيا الكبرى. وقد فشلت دائمًا كل اتحادات الدول التي

وجدت على هذه الأسس، كالجمهورية العربية المتحدة، وتشيكوسلوفاكيا، والوحدة بين ليبيا وتونس[3]، ويوغوسلافيا، وكولومبيا الكبرى البوليفارية، وسينيغامبيا... ونحن نتكلم عليها اليوم أقل من ذي قبل.

ويمر تبرير استعمال العنف عبر فكرة الانتقام، أو الأخذ بالثأر، إلا في بعض الحالات الاستثنائية جدًا، تدعمها حجج أسطورية، مثل الأرض المقدسة، أو المجازر الماضية (مجازر كيوس (Chios) بالنسبة إلى اليونان)، ومطارح الذاكرة، فـ «كل أرض يوجد فيها صربي مدفون هي أرض صربية»، وفق الميثولوجيا القومية لميلوسوفيتش. أما بالنسبة إلى الخمير، فإن «الأرض الخميرية هي كل أرض يعيش عليها خمير». ومن النادر أن يحاول الخطاب التاريخي المدرَّس التمييز بين الأمور في ما يتعلق بمسؤولية النزاعات الماضية. إنه يساعد، على العكس من ذلك، في الاعتقاد بأن اللجوء الى القوة أمر محتم. حتى الأعمال الهجومية الأولى لهتلر مثل احتلال رينانيا، قُدِّمَت كثأر من مذلة إملاءات فرساي (Diktat de Versailles). لذلك كان من غير الوارد أن يعاد النظر في معاهدة بريست - ليتوفسك (Brest-Litovsk) الموقعة مع روسيا القيصرية التي بترت من هذا البلد مساحة تساوي مساحة فرنسا وبريطانيا العظمى معًا، كما تساوي ربع سكانه. ولعل الثأرية تصلح على الصعيد السياسي كما على صعيد أهداف مناصري التسلط العسكري، بحثًا عن سبب للحرب (*casus belli*). ويرفع التذكير المتواصل بالنزاعات، «الثأر» إلى مرتبة الإرادة اللافتة والباردة والمنهجية للحفاظ على العداوة تجاه الآخر في ذهن المواطنين. وبعد أن تبدأ الأعمال العدوانية، يؤدي الجو الناتج عن ذلك إلى تعبئة ضخمة للجيوش وللمجهود الحربي.

يولّد القرب الجغرافي الشعور بالتهديد. ويحدد العسكر المرغمون على أن يبقوا مستنفرين، تصورات عملانية موجهة تمامًا ضد الجار (الخط الأزرق في الفوج (Vosges))، تسليح جزر بحر إيجة بالنسبة إلى اليونان، مفهوم الدفاع

---

(3) عندما أعلنت الوحدة بين البلدين، صعد العقيد القذافي على جرافة أمام كاميرات التلفزيون الرسمي الليبي، وهو كما نعرفه لا يبخل بالتأثيرات الإعلامية إذ دمر لافتات موظفي الجمارك الليبيين بنفسه لكي يبين أن الوحدة بين البلدين فعلية. ومنذ ذلك اليوم استضاف موظفو الجمارك التونسيون زملاءهم الليبيين.

التشيلي ضد بوليفيا والأرجنتين). وعندما تنفجر الأزمات، يدفع العسكر باتجاه إطلاق العمليات العدوانية للحصول على مزية الهجوم على مسارح عمليات محدودة جغرافيًا بطبيعتها (حرب 1914، حرب الأيام الستة). وتؤدي صحف الفضائح دورًا ناريًّا، لأن اللهجة الوطنية المتطرفة تزيد من رقم مبيع الصحف، كما فعلت مجموعة صحف مردوخ في بريطانيا العظمى إبان حرب المالوين، وحرب العراق.

إن من يسرع الأزمات هم على وجه الخصوص: العسكريون ورجال السياسة المفتقرون للشرعية؛ فكل فئة تشد بلحية الفئة الثانية، باسم الدفاع عن الأرض المقدسة أو المصلحة العليا للبلد. ولا يولي باقي السكان المبعدين غالبًا عن سلطة القرار، والمشغولين بمسائل يومية، أهمية كبيرة للأمر، إلا في أوقات استعار الأزمات القومية. وقد حشدت «المسيرة الخضراء» التي أطلقها الحسن الثاني عام 1975، بهدف ضم أراضي الصحراء الغربية، التي تخلت عنها مدريد، 350.000 متطوع مدني يحمل كل منهم قرآنًا وعلمًا. ويفترض أن الوسائل اللوجستية لاستعراض قوة كهذه قد أمنتها سلطات البلد التي كان يمكن أن تكون لديها أولويات أخرى. ويُغذى التوتر السياسي حول الخلاف الثنائي بشكل مصطنع، خصوصًا إذا علمنا أن الحدود الجزائرية المغربية مغلقة منذ أكثر من 25 سنة.

يمكن لأسباب اندلاع الحروب أن تكون داخلية، أكثر منها دولية. فالهجوم الذي شنه العسكر الأرجنتيني على جزر المالوين عام 1982، وإعلان «كولونيلات» اليونان الأحادي الجانب ضم قبرص (Enosis) عام 1973، أو الحرب الهندية الباكستانية في كارجيل (Kargill) عام 1999 المسماة حرب الجليد، وكانت على علو 5000 متر مع درجات أدنى من الصفر، هي أمثلة معاصرة على ذلك.

أما الحدود الجيدة فهي الحدود المقبولة من الجارين ومن المجتمع الدولي. وهذا النوع من النزاعات قليل الانتشار، ويمكن أن يحل إن وجدت سلطة إقليمية لتسوية النزاعات.

حدة مسألة الحدود

أفريقيا

تمثل أفريقيا قارة الحدود المفروضة التي رسمها المستعمرون، وبالأساس، البريطانيون والفرنسيون، وفق مبادئ مناطق النفوذ. وقد رُسم الجزء الأساس من الحدود الحالية في أقل من 25 سنة. وتؤكد الدول الأفريقية على احترام مبدأ *uti possidetis*، أي عدم المساس بالحدود الموروثة من الاستعمار، كما هو منصوص عليه في قرار منظمة الوحدة الأفريقية العام 1964، وفي صك الاتحاد الأفريقي العام 2000. وفي تلك الحقبة، عبّرت دولتان عضوان فقط عن تحفظاتهما هما المغرب والصومال. وفي الواقع، لم تُعدَّل الحدود إلا قليلًا جدًا (السودان، الصحراء الغربية، أريتريا، وأرض الصومال اليوم). ولدى أفريقيا 80.700 كلم من الحدود الدولية، لكن نسبة صغيرة منها مجسدة على أرض الواقع. وتعاني دول عديدة من مصاعب كبيرة لبسط سلطتها على أراضيها، خصوصًا على المناطق النائية التي تقع على أراض من الصعب بلوغها (جبال، صحارى، أدغال). إن الحدود الأفريقية هي عبارة عن مناطق ذات نفوذية كبيرة، ما يسمح بنشاطات عبر حدودية أكثر من الفصل المحكم بين شعوب متجاورة. وبالنسبة إلى بعض السكان الذين يعيشون على الحدود بين البلدان، ليس من النافع حتى التفكير في منطق حدود الدول، لأن الإدارة غائبة تقريبًا، كما الحال في شرق تشاد. وبالنسبة إلى جماعات الرحل، من غير الوارد إلغاء الحدود أو التعبير عن طلبات متعلقة بهوية تتجاوز الحدود، لكن المهم هو الاستمرار في الحياة طالما أن الوجود الرمزي للحدود لا يغير الممارسات والعادات اليومية.

وعلى الرغم من استمرار النقاش حول الحدود الأفريقية، إلا أنها وكما يشير ميشال فوشيه إلى ذلك بحق، لا تُرفَض بالطريقة ذاتها في أجزاء القارة كلها؛ وإن حصل ذلك، فيكون بالارتكاز على القانون الاستعماري لا على فصل الجماعات الموجودة على الحدود. وتشكل حدود جنوب الصحراء الكبرى (أفريقيا السوداء) مشكلة، لأنها تشمل سكانًا ليس لديهم مصلحة كبيرة في العيش معًا، فنيجيريا لوحدها، تعد أكثر من مئتين وخمسين تجمعًا عرقيًا، ونزاعاتها داخلية أكثر منها دولية. ونلاحظ أن سلطة الدولة هي «طاولة

دوارة» بين مختلف المكونات العرقية للبلد، بحسب تعبير جان فرنسوا بايار (Jean-François Bayard). وقد عانى ثلثا البلدان الأفريقية من انقلابات عسكرية منذ استقلالها، في حين كانت النزاعات الحدودية استثنائية وأخذت بالأحرى شكل حروب أهلية، أو إبعادات جماعية (توغو - نيجيريا، المغرب - الجزائر، رواندا، السنغال - موريتانيا).

أما الشخص «الغريب» فهو مفهوم يستعمل لإقصاء معارض سياسي، على غرار كلمة «العاجية»[4] التي كانت أساس الأزمة الخطرة في ساحل العاج، أو يستعمل لتمييز مكون عرقي. وقدمت بعض الأنظمة قبائلَ التوتسي في بلدان البحيرات الكبرى «كغرباء»: شعب نيلي (من نهر النيل) أتى ليغزو السكان المحليين من أصل بانتو، والمور في السنغال هم في الوقت ذاته تجمع بقالين/ مُعيرين وعرق، مستهدف تمامًا إبان الأزمات الغذائية الكبرى. وتمثل أفريقيا القارة التي لديها أكبر عدد من اللاجئين بحسب المفوضية العليا للاجئين (HCR). وهؤلاء تحركهم إرادة العودة إلى أراضي أجدادهم (مهما كانت شرعية مقاربتهم)، ويشكلون عوامل لإعادة توليد الأزمات، مثلما رأينا في رواندا أو اليوم في الكونغو (زائير سابقًا). ويتم نشر الجيوش، المعدة لحماية النظام أكثر منه لحماية البلد، حول العواصم وليس على الحدود.

وعلى الرغم من التصريح الذي غالبًا ما يقدمه القادة والمثقفون الأفارقة حول «اصطناعية» الحدود، والتقطيع الذي قام به المستعمرون للمجتمعات الموجودة سابقًا، فإن الحركات التحريرية الوحدوية قليلة في هذه القارة. وقد فشلت الأربع والعشرون محاولة انفصالية التي قامت بين 1946 و1998 كلها تقريبًا[5]. إن إعادة رسم خريطة أفريقيا وفق الفصل العرقي، حيث تعد القارة حوالى سبعمئة عرق يتكلمون ألفًا ومئتي لغة، يمكنها أن تؤجج النزاعات بدلًا من تهدئتها. فمثلًا، رفضت سوازيلاند عرضًا من جنوب أفريقيا عام 1982

(4) يهدف تصور العاجية إلى تحديد جنسية مواطني ساحل العاج، وهو بلد مؤلف من أكثر من خمسين جماعة عرقية. وظهر هذا المفهوم من جديد عام 1994 مع الرئيس كونان بيدييه (Konan Bédié) لإزاحة خصمه الأساس واتارا (Oattara) المتهم بأنه أجنبي.

(5) Foucher, Ibid., p. 59.

يمنحها السيادة على أراضي كانغواني، حيث يقيم أكثر من مليون سوازي. وتعد جنوب الصحراء الكبرى (أفريقيا السوداء) القارة التي لديها أكثر الدعاوى القضائية التي تجري تسويتها قانونيًا أمام محكمة العدل الدولية، مثل المنازعة القضائية بين نيجيريا والكامرون، أو أمام محكمة التحكيم للنظر في شبه جزيرة باكاسي. وعلى الرغم من الحروب الأهلية العديدة، لم تتعرض القارة لـ «البلقنة» التي أُعلن عنها كثيرًا، وتغيرت حدودها أقل بكثير من حدود أوروبا وآسيا خلال الفترة ذاتها.

وفي المقابل، تشكل عرقنة (ethnicisation) القوى السياسية، واستراتيجيات النهب لدى النخب، والاهتمامات الاقتصادية الأجنبية الجديدة بمناطق ذات إمكانات كبيرة في الموارد، تشكل آلية حربية متجددة، مثل الحروب الأهلية في ليبيريا، وفي سيراليون، أو في الكونغو. ويُستغل الانتماء العرقي لتقديم مصالح أخرى (اقتصادية، واستراتيجية، وسياسية، وعسكرية) لمجموعة خاصة. ويشكل تأكيد أنغولا على حق «الملاحقة الجيولوجية» للحرب في جمهورية الكونغو الديمقراطية، سابقةً مقلقة. وتبقى الأسرة الدولية ناشطة في وجه هذا النوع من اللاعبين، لكنها تصطدم بمقاومات من جميع الأنواع، سياسية واقتصادية أيضًا. ويقدم شلل الأمم المتحدة، بعد تقرير الإبراهيمي[6] الذي حدد بدقة لاعبين محليين ودوليين كانوا قد استفادوا من أزمة الكونغو، مثالًا دراماتيكيًا على ذلك.

ويقدر ميشال فوشيه أن 16 في المئة (13000 كلم) تقريبًا من حدود القارة تشكل موضوع نزاع، وبشكل أساس في المغرب العربي، وأحيانًا من دون أي أساس (مثلًا نزاع الجزائر حول الصحراء الغربية)، أو على أساس مطالب استعمارية أصلًا (مثال شريط أوزو لليبيا اعتمادًا على خرائط إيطاليا الفاشية). وينفق المغرب نصف ميزانية الدفاع لضبط حدود الصحراء الغربية. هكذا ولد الاتحاد المغاربي العربي ميتًا. وكانت دبلوماسية العقيد القذافي المحبة للثأر، والتي رفضت منهجيًا الحدود المعتمدة عند إزالة الاستعمار، أكثر إجرائية منها عسكرية. علمًا أن ليبيا هي الدولة الأفريقية التي مثلت أكبر عدد من المرات

(6) Drop, *Réseau francophone de recherche sur les opérations de paix*, www.Operationspaix.net/ Rapport-Brahimi.

أمام محكمة العدل الدولية لتسوية خلافات إقليمية وبحرية مع تونس، ولتسوية خلافات إقليمية مع الجزائر ونيجيريا وتشاد حول شريط أوزو. وبعد ضم المئة ألف كلم2 من أوزو بين 1972 و1987، مسببة بذلك حربًا مع جارتها، تخلت عن مطالبها بعد تسوية محكمة العدل الدولية لمصلحة نجامينا عام 1994.

أميركا اللاتينية

تشكل أميركا اللاتينية منطقة «الحدود الحية»[7]. وقد تولدت من إنهاء الاستعمار في القرن التاسع عشر بلدان منسوخة عن النيابات الملكية القديمة، حيث بقيت البوليفارية راسخة كأسطورة موحدة قارية. وبما أن الإعمار قد بدأ انطلاقًا من المدن الساحلية باتجاه الداخل والجبهات الرائدة، وتقدمت بالأخص في مناطق الغابات البكر مثل الأمازون، أو في عدد من المناطق الجبلية، فقد بقيت التحديدات الحدودية نظرية لمدة طويلة. على سبيل المثال تراجعت حدود الباراغواي مع البرازيل لمسافة 100 كلم خلال العقود الأخيرة. ويمكن أن يكون هناك شيء مماثل يحدث في غويانا الفرنسية أو في بوليفيا في المقاطعة الحدودية سانتا كروز، حيث تزرع حوالى المئتي عائلة من المزارعين البرازيليين تقريبًا 350.000 هكتار من الصويا التي تشكل 35 في المئة من الإنتاج البوليفي. وكانت هذه المنطقة مهدًا للانقلابات، مثل انقلاب الجنرال هوغو بانزر (Hugo Banzer) عام 1971 الذي نفذه بدعم علني من الدكتاتورية العسكرية البرازيلية.

تأسست التحديدات الحدودية على معطيات من الحقبة الإسبانية وأعطت دورًا خاصًا للمحامين، ولدكاترة الحقوق، ولملاكي الأراضي الزراعية الكبيرة الذين أدّوا دورًا رائدًا في مجال السياسة. ويتولى العسكريون مهمة حماية الأرض المقدسة، إذ إن 20 في المئة فقط من التخطيط الحدودي قد يكون في الأصل من الحقبة الاستعمارية، والباقي قد تغير بسبب الحروب أو التبادل بين الجنوب أميركيين أنفسهم. ولا يزال الأثر الذي تركته بعض نزاعات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين العنيفة بشكل خاص، راسخًا في الهويات القومية: مثل حرب الباراغواي (1864-1870)، وحرب المحيط الهادئ (1879-1884) أو حرب الشاكو (1932-1935).

---

(7) Jean Paul Charnay, «Les Amériques dans leurs géopolitismes,» ISC, 2005, www.Stratisc.org.

وأفسحت الستينيات المجال لسباق حقيقي للحدود، بدءًا من 1964 في البرازيل ثم في الأرجنتين وتشيلي بدءًا من 1973. وكانت هيئات الأركان العامة تريد تبرير دكتاتوريتها عبر رؤية مصير وطني «ظاهر»، يعطي البلد أهمية أكبر من واقعها. وأبعد من «أمن الدولة»، كانت هذه الأركان ترسم إسقاطًا قاريًا وبحريًا عبر استنباط تصور «الحدود الحية»، مبررة بهذا الطموح الجيوسياسي كل أشكال التقشف الاقتصادي، والقيود الداخلية، والمساس بالحريات. وفي البرازيل قسم الجنرال كولبيري دو كوتو إي سيلفا[8] (Golbery do Couto e Silva) معتمدًا نظرية «الحدود الحية»، المخروط الجنوبي إلى خمس مناطق جيوسياسية تحت سيطرة بلاده. وكان الأميرال هرناني غولار فورتونا (Hernani Goulart Fortuna)، قائد المدرسة الحربية العليا يؤكد أنه حتى لو لم يكن لدى البرازيل خلاف حدودي، فإن «هناك مشكلات على الحدود» غير المسيطر عليها، والمفتوحة على تهريب المخدرات، وعلى عمليات رجال العصابات، وتهريب الأسلحة التي «تتدفق من البلدان المجاورة».

وفي الأرجنتين، رفض بيرون (Peron) «الحدود الأيديولوجية» لتبرير تعاونه مع الاتحاد السوفياتي، وطور فكرة «حدود داخلية» تهدف إلى جمع الناس وفكرة «أرجنتين كبرى» انطلاقًا من الهضبة القارية في بحر الأرجنتين التي تتضمن جزر المالوين. ويجب على الأرجنتين «الجزيرية»، «الدائرية» التي تصدّر المواد الغذائية أن يستعاض عنها برؤية «شبه جزيرية»، و«مثلثية»، و«قارية»، و«منفتحة على الأطلسي والأنتاركتيك».

رسم العسكر التشيليون «بحرًا لتشيلي» يمتد من حدود البيرو وجزيرة باك في المحيط الهادئ، إلى أرض غراهام في الجنوب وجزر السندويش وجورجيا الجنوبية في الأطلسي. ومنذ عام 1978، ذكر بينوشيه (Pinochet) «الحدود العضوية» نحو الأنتاركتيك وشمل في نظريته المتعلقة بالأمن القومي، السياسة السلطوية للتجانس الاجتماعي.

(8) *Géopolitica do Brasil.Conjuntura Politica Nacional o Poder Executivo*, José Olympio, Rio de Janeiro, 1981.

في عام 1995، قدم النزاع بين البيرو والإكوادور على 78 كلم حدودية برهانًا حديثًا على حيوية النزاعات الحدودية الثانوية التي يحرك نوابضَ الحرب باتجاهها العسكريون، ورجالات السياسة، والمحافظون على الذاكرة الجمعية، والشركات الأجنبية، بل حتى المثقفون أحيانًا. ويشكل وجود منظمة الدول الأميركية (OEA) عاملًا مخفضًا للنزاعات.

ونذكر مثالًا يمكنه أن يوضح ذهنية عسكر هذه القارة: كانت القوات البرية التشيلية ترغب عام 1999 في أن تحصل على أربعمئة دبابة حديثة، أي أكثر من عدد الدبابات التي تملكها فرنسا، وذلك في بلد يبلغ طوله 3000 كلم من الشمال إلى الجنوب، وعرضه الأقصى 200 كلم[9]. لماذا؟ لأن الأركان العامة كانت تفكر عام 2000 في تكرار سيناريو «حرب المحيط الهادئ» (1836-1839) ثم في «حرب السالبيتر» (1879-1884) التي تجابهت خلالها تشيلي من جهة، والبيرو وبوليفيا من جهة أخرى. وانتهى هذا النزاع الذي سببه إلغاء الامتياز الذي منحته بوليفيا لشركة تشيلية، بانتصار تشيلي. وفقدت بوليفيا منفذها إلى البحر، ومنذ ذلك الحين تطلب لا باز (La Paz) من الحكومة التشيلية حقها في منفذ مدني على المحيط الهادئ، وهو الطلب الذي ترفضه باستمرار سانتياغو خشية من مطلب إقليمي مفترض. والنتيجة المستهجنة لهذا الخلاف الذي لم يجد تسوية له، والذي يعود إلى مئة وخمسين سنة، أن بوليفيا التي تنتج الغاز والبترول، ترفض في دستورها تصدير منتجاتها عبر تشيلي التي تحول دون منفذ لها على البحر. وتستورد تشيلي التي تفتقر لموارد الطاقة، البترول من فنزويلا، فيما اختارت بوليفيا مد خط أنابيب للنفط عبر الأرجنتين باتجاه المحيط الأطلسي، وأغلقت على نفسها الأسواق الآسيوية. ويبيّن هذا المثال المثير للسخرية، إن لم يكن مأساويًا، خصوصية المجتمع العسكري في بلد من بلدان أميركا اللاتينية عرف الدكتاتورية.

وفي هذه القارة أيضًا فشلت محاولات الاتحاد (الاتحاد البيروفي البوليفي أو الأقاليم المتحدة في أميركا الوسطى). ويمكن أن تتحول التلويحات الشفهية

(9) استخدم الجيش التشيلي الدبابات الحربية لمرة واحدة وحيدة في 11 أيلول/ سبتمبر 1973 عندما هاجم قصر المونيدا (la Moneda) وقتل الرئيس الليندي (Allende).

بين الرئيسين الكولومبي والفنزويلي، في الأخبار الراهنة، إلى اشتباكات تبقى على أي حال محدودة.

آسيا

آسيا هي أرض التعديلات الحدودية: فمنذ 1945، جرى أكثر من 53 ترسيمًا سلميًا أو عنيفًا لحدود جديدة.

كان الشرق الأدنى والأوسط موضوع تقطيعات حدودية مستقيمة رسمها الغربيون (اتفاقات سايكس - بيكو). ولا يزال الحلم القديم بوحدة البلدان العربية يؤجج التنافسات.

وتميزت النظرية التي عبّر عنها في القرن التاسع عشر عرب مسيحيون، بعلمانيتها، وترسخت في فكرة النهضة العربية، ودعمتها النخب فأعطت الحياة لـ «الاشتراكية العربية» التي اعتبرها «الخبراء الاستراتيجيون» لمدة طويلة، معادية للغرب.

في الشرق الأوسط، يتمثل نابضا النزاع بالرغبة في تزعم العالم العربي وغياب التجانس الاجتماعي، والعرقي، والديني في بعض الدول التي يحكمها دكتاتوريون يجعلون من الطموح الإقليمي موضوعًا مكررًا للسياسة الداخلية (العراق، سورية، ليبيا...). وتكثر النزاعات الحدودية وتستغلها على نطاق واسع السلطات القائمة، وهي كلها استبدادية وتجييشية إلى حد ما. ويحيط بالسكان العرب الأصليين حقيقتان جيوسياسيتان وحيدتان في الشرق الأوسط، هما الأمتان التركية والإيرانية.

فشلت مشاريع الوحدة الكثيرة التي أطلقها جمال عبد الناصر أو العقيد القذافي. وماتت الوحدة العربية، وفي الوقت ذاته ماتت الاشتراكية العربية، حين وقعت الهزيمة الخاطفة في حرب الأيام الستة. ونددت الإسلاموية الحديثة بالطابع المسكوني للوحدة العربية، وطرحت وحدة أخرى على أساس ديني، واضعة تعريفًا للحدود الجديدة للجماعة العربية المسلمة؛ أي الأمة. لكن هذه الأمة تحتضر الآن في الحرب الأهلية التي تسبب مواجهة حالية بين

الشيعة والسنة في العراق، وفي باكستان ولبنان. بدورها، أشاعت تركيا الفتاة أو الحركة الطورانية، الوحدة التركية أو وحدة القبائل التركية التي كانت تهدف إلى توحيد مختلف الشعوب التركية وجمعها في دولة واحدة، غير أن مصطفى كمال رفضها. وعُبِّر عن محاولةٍ لبعث الوحدة التركية عند استقلال دول آسيا الوسطى، لكن من دون نتائج مقنعة.

وفي شبه الجزيرة العربية، أصبحت قبائل البدو الرحل ثرية فجأة بفضل الاقتصاد البترولي. وهو أمر فرض ترسيم حدود، لم يتم الاتفاق عليها، لكنها لم تثر الحروب بشكل كبير. وتشتري الأنظمة الأسلحة لكي تحصل على حماية البائعين الذين لا يريدون، هم أنفسهم، أن يشنوا حربًا لهذا السبب. وحده التدخل بنية الهيمنة من مستبد محلي صغير يخلط القواعد البترولية، يمكنه أن يؤدي إلى تدخل للدعم (كمثال على ذلك، غزو صدام حسين للكويت).

وتمثل المنطقة، وهي غير مستقرة إلى حد كبير بسبب التصرفات الغربية، موضوع آخر مشروع توسعي، هو المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير، وهو مشروع إمبريالي، إضافة إلى مشروع إسرائيل الكبرى، وهو مشروع أساسه ديني وعنصري، ويرتكز على استعمار قسري للأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967. ورافق هذا الاحتلال الذي تغاضت عنه البلدان الغربية، جدار سيضم في مخططه النهائي حوالى أربعين أرضًا محصورة، وتقريبًا ثلاثمئة وتسعين ألف فلسطيني، ويفصل ماديًّا كل قطع الأرض الواقعة في الضفة الغربية، ويخلق بذلك الشروط التقنية لإقصاء عرقي وحرب طويلة المدى، يتحمل الغربيون مسؤوليتها كليًّا.

أراد المحافظون الجدد الأميركيون، مع مشروع الشرق الأوسط الكبير، أن يجعلوا من الترسيم الجديد للحدود حلًّا لمسائل الشرق الأوسط، وهم ورثة دبلوماسيي الاستعمار الفرنسي - البريطاني، الذين تركوا خلفهم جزءًا كبيرًا من المشكلات الحالية في المنطقة. وخلقت الغزوات الأميركية للعراق، و«الحلف أطلسية» لأفغانستان، الظروف لزعزعة استقرار استراتيجي ذي أهمية كبيرة (الشعور المعادي للغرب، الراديكالية الدينية، الحرب بين السنة والشيعة، كردستان شبه مستقل، زعزعة استقرار باكستان...) ستستمر آثارها العالمية لزمن طويل.

وتصطدم المطالب التحررية لـ 30 مليون كردي بالتصلب السياسي في تركيا وسورية والعراق وإيران. وسيبقى الأكراد رعايا يستغلّهم أصحاب القرار بحسب الحاجة، وهم بؤرة لأزمة دائمة!

يشكل موضوع الحدود مسألة دائمة في هذه المنطقة، حيث يحافظ الغربيون على عاداتهم في إظهار القوة.

يتسم الشرق الأقصى بوجود كيانات دول قديمة: الصين، فيتنام، كمبوديا، الهند، اليابان، كوريا، وروسيا على الحدود الشمالية. وعليه، تمثل الحدود في الشرق الأقصى تقليدًا تاريخيًا، وكذلك الشتات. ويتكرر هنا التذكير بالنزاعات على الحدود التقليدية، أو ضم الأراضي، والاستناد إلى حكايات قديمة ومتناقضة. ولم يلجأ أي مؤتمر دولي إلى القيام بترسيم حدود مصطنعة، وفي المقابل لم يقم أي نظام إقليمي بوضع مبدأ مؤسس (مثلما فعلت منظمة الاتحاد الأفريقي على سبيل المثال) أو أتاح تسوية للنزاعات الحدودية؛ لأن من شأن ذلك أن يفسح مكانًا لتطبيق «نظرية الدومينو» التي يعشقها الخبراء الاستراتيجيون، والتي بررت التدخلات الأميركية في المنطقة إبان الحرب الباردة.

تضع الصين نفسها مركزًا للمنطقة، لكن صعودها السلمي (*Heping jueiqui*) بحسب تعبير دنغ كسياو بينغ (Deng Xiao Ping) يفترض تسوية غير عسكرية للخلافات الحدودية، وهذا ما تفعله حاليًا. ولا تزال هنالك مشكلات قائمة مع الهند، على جبال عالية باردة، يكسوها الجليد ومساحتها 38.000 كلم^2، حيث غزتها الصين عام 1962، وعلى (الأرونال براديش)، وهي دولة في الهمالايا تطالب بها الصين؛ لأن فيها الدير الذي ولد فيه سادس دالاي لاما (Dalaï Lama)، وهذا نوع من الإسقاط الخارجي للمسألة التيبتية. وأخيرًا، يطالب النظام الشيوعي، الذي يتبجح بأنه أنهى النظام الإمبراطوري، بالتيبت، وهي من فتوحات الإمبراطورية كونها خاضعة لسيادتها الإقطاعية القديمة. إن الطموحات الصينية هي طموحات بحرية أكثر منها قارية، ومن هنا تكمن الأهمية المتزايدة للبحرية. أما المطالبة القديمة بتايوان فهي ليست أكثر من تمرين أسلوبي، تبدو اصطناعيته من حيث إن السكان المحليين لم يكونوا صينيين. فقد ولدت هذه

المسألة نتيجة الاحتلالُ الكثيف عام 1947 «من طرف الكوادر الشيوعيين» الفارين من الكيومينتانغ. إن لفيتنام تاريخًا طويلًا من المقاومة ضد المد الصيني، ولها أيضًا علاقة قوة غازية مع محيطها الإقليمي، وخصوصًا الكمبودي. أما النزاع الأكثر خطورة في المنطقة فهو نزاع بحري، ويتعلق الأمر بالاحتلال الصيني لجزر باراسيل وسبارتلي التي تطالب بها بلدان ساحلية عدة. أخيرًا، يؤوي الشرق الأقصى الحالة الوحيدة حاليًا لنظام عسكري ديكتاتوري، أي كوريا الشمالية، ويحتاج النظام إلى فزاعة التهديد الحربي لتبرير التقشف الذي يفرضه على شعبه.

يشكل وضع الهند مفارقة، فهو البلد الرسمي لـ «اللاعنف» منذ المهاتما غاندي (Mahatma Gandhi)، والبلد المتورط في أكبر عدد من النزاعات وضم الأراضي منذ الاستقلال؛ إذ يشكل تشدد الهند إزاء مسألة كشمير التي منحها سير سيريل رادكليف (Sir Cyril Radcliffe) جزئيًا لنيودلهي، عند التقاسم الذي جرى عام 1947، سببًا مستمرًا للأزمة. لكن البلد يحتفظ بوضعه، في التفكير الاستراتيجي، كقوة غير عنفية، من دون طموح عام استراتيجي ظاهر، ما عدا ريبة كبيرة تجاه الصين وباكستان. وتتمتع باكستان بوحدة سياسية لا تعمل إلا عند النزاعات مع جارتها الكبرى (الهند).

ورثت روسيا من الحقبتين القيصرية والشيوعية تصورًا للحدود المزدوجة، فمن المفترض بالدول المحصنة أن تحمي قلب البلد من الاجتياحات. ويشكل الشتات الروسي الموزع في دول الاتحاد السوفياتي القديمة بعد 1991 حجة جديدة للتدخل، تذكّر بنظريات الوحدة السلافية التي تروج لها الأوساط القومية الروسية. وتقوم النظرية التي طوّرها الفيلسوف الروسي ن. ي. دانيلفسكي (N. I. Danilevski) (1822-1885) على الهوية المشتركة التي تتشارك فيها الكيانات السلافية المختلفة: الروس، والبولونيون، والتشيكيون، والسلوفاكيون، والسلوفينيون، والكرواتيون، والصربيون، والمونتينيغريون، والمقدونيون، والبلغار، والبيلاروسيون، والأوكرانيون، والروتينيون. وكان ينادي بوحدتهم السياسية برعاية الروس. وكان هذا التصور بمنزلة قاعدة أيديولوجية لتشكيل يوغوسلافيا عام 1918، وللتدخلات القيصرية في البلقان، واستخدمه الاتحاد السوفياتي قبل الحرب وبعدها. ونجد بعض الأوجه عن ذلك في الدعم

الروسي لصربيا إبان الأزمة اليوغوسلافية. ونحن نجد نزعة الوحدة السلافية في تحليلات لألكسندر سولجينيتسين (Alexandre Soljenitsyne)، مع أنه عدو شرس للنظام الشيوعي، الذي كان يرغب في أن تضم روسيا الأوبلاستس، الناطقين بالروسية في شمال كازاخستان. وتعرضت روسيا مباشرة لتعديل الحدود السوفياتية الذي قبلته سلميًا، وأصبحت الحدود الداخلية للإتحاد السوفياتي التي رسمها مفوض القوميات جوزيف ستالين على أساس التقسيم والتسميات العرقية المصطنعة، حدودًا دولية منذ أن تفتت الاتحاد السوفياتي إلى 17 دولة. وبحسب ميشال فوشيه، وَلَّد تفتت الاتحاد السوفياتي ربما ثمانين موضوع خلاف حدودي عام 1991، لكن هذه الخلافات لم تسبب سوى نزاع واحد مع جورجيا عام 2009. وستثير الحدود في آسيا الوسطى، مسألة مزدوجة في المستقبل: أولًا مسألة صعوبة التعايش الإثني مثلما نلاحظ ذلك في قرغيزستان التي تطرد السكان الأوزبيك. ومن جهة أخرى، بما أن التوسع الاستعماري الروسي هو استمرارية جغرافية - على خلاف توسع فرنسا وبريطانيا العظمى - ينظر الروس إلى عملية إنهاء الاستعمار وكأنها تجريد من ملكية الأراضي. وعليه، ستستمر موسكو إذًا في اعتبار أمان حدودها الجنوبية شأنًا داخليًا لا دوليًا. فمنطقة الشيشان بالنسبة إلى روسيا هي، إلى حد ما، مثل إيرلندا الشمالية بالنسبة لبريطانيا العظمى.

وقد اتضح أن انفتاح الحدود داخل الاتحاد الأوروبي هو ركيزة فعالة لتسوية الخلافات الحدودية في أوروبا. وكما كتب روبير شومان (Robert Schuman) في كتابه **من أجل أوروبا**، «ولدت الحدود السياسية من تطور تاريخي، وعرقي محترم، ومن جهد طويل مبذول في سبيل الوحدة الوطنية، فلا يمكننا أن نمحوها. في أزمان أخرى، كان يمكننا أن ننقل مكانها، عبر غزوات عنيفة أو بواسطة زيجات مثمرة. اليوم يكفي التقليل من قيمتها». اعترفت ألمانيا بحدود منطقة Oder-Neisse لإتاحة دخول بولندا، ورفضت مطالب جمعيات ألمان السوديت الذين طردوا في عام 1945 بالتعويض لهم من طرف تشيكوسلوفاكيا. وتخلت هنغاريا عن مطالب محتملة بشأن الأقليات الحدودية، ولم تنجح أي محاولة كانَ طموحُها وأهميتُها مثل طموح الاتحاد الأوروبي وأهميته في مكان آخر على

كوكبنا (لنذكر على أي حال مبادرات اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية، والاتحاد المغاربي العربي أو مجلس التعاون الخليجي).

يستخلص ميشال فوشيه قائلًا: «ليس هنالك مشكلة حدود، هنالك مشكلات علاقات فحسب بين دول وشعوب حول الحدود». ولا تهدف الحروب الحدودية - وهي حروب محدودة - إلى إزالة الآخر، بل لكسب أراض حجمها أحيانًا حجم قطعة أرض صغيرة. وتشكلت دول عن طريق العنف خلال القرن العشرين في مئة وخمس عشرة حالة في بداية القرن، وفي ثلاث حالات فقط في الثلاثين سنة الأخيرة. وفي المقابل، ترسم حركة تشييد الجدران والأسيجة حدودًا جديدة شرعية أو غير شرعية، والتي يبلغ طولها أكثر من 18.000 كلم في ثماني مناطق من العالم (كوريا، الهند - باكستان، قبرص، إيرلندا الشمالية، الصحراء الغربية، والجدار الذي يحيط بسبتة ومليلة في المغرب، والجدار المغربي في الصحراء الغربية، وجدار الحدود الجنوبية في الولايات المتحدة، والجدار الفاصل بين المملكة العربية السعودية واليمن، وبين الكويت والعراق، والجدار الإسرائيلي في الأراضي المحتلة، ومنذ زمن قريب بين اليونان وتركيا)، وتعبّر هذه الجدران عن استحالة العيش المشترك، أو التجاور.

تجعلنا إشكالية الموارد النادرة (المياه، الطاقة، الأراضي) نفكر في أننا لن ننتهي من تقسيم المِلكيات في كوكبنا في السنوات المقبلة. لكن لا شيء مكتوب! وثمة بصيص أمل صغير يكمن في أن الجزء المهم من الخلافات الحدودية يخص من الآن فصاعدًا، مناطق بحرية (مناطق اقتصادية حصرية، موارد بترولية تحت البحر، مناطق لصيد السمك)، شكلت 30 في المئة منها فقط موضوع اتفاقات. أما الطبيعة المائية لهذه الخلافات فتفرغ من محتواها العاطفي حججُ «الأرض المقدسة»، ومقابر الأجداد (إلا إذا كان الأمر يتعلق بأجسام بحارة رميت في البحر). لكنها تتيح للعبقرية المبتكرة والحربية عند الإنسان أن تمتد نحو آفاق جديدة، كما بيّن ذلك مؤخرًا الروس الذين غرسوا علمهم تحت القمة الجليدية، في إحدى مناطق القطب الشمالي المُتنازع عليها.

من الغباء أن يكون لديك عدو مصطنع
الحالة اليونانية

لا تكفي القومية الأليمة لليونان، بعد الحرب العالمية الأولى وحدها، كي تشرح موقفها الدفاعي الحالي.

يجب التذكير بميزات القومية اليونانية، إذ كانت «الفكرة الكبرى»، وهي نوع من الوحدة الهيلينية التي انتشرت منذ القرن التاسع عشر، تهدف إلى جمع اليونانيين كلهم، من الناطقين باللغة اليونانية، والمسيحيين الأرثوذكس كذلك، تحت سلطة دولة من الممكن أن تكون عاصمتها القسطنطينية. وبقيت الفكرة راسخة في القرن العشرين، وسرعان ما أصبحت حجة لسياسة داخلية يستغلها السياسيون كلهم، في كل لحظة. إبان النزاع العالمي الأول، لم تشارك اليونان في الحرب إلا عام 1918، كي تتأكد من هوية التحالف الذي يمكنه أن يتيح لها كسب الأراضي، وهي قطفت ثمار ذلك من خلال اتفاقية سيفر التي منحتها الساحل الغربي من تركيا. وأرادت أثينا أن تمتد ممتلكاتها نحو الداخل فأطلقت جيوشها حتى أنقره. وأخيرًا هزمها مصطفى كمال وكانت تلك هي «الكارثة الكبرى»، حيث اضطر 1.2 مليون يوناني من الأناضول و700.000 تركي من اليونان أن يهاجروا بهذا الاتجاه أو ذاك، وهو الأمر الذي أسهم في تغذية استمرار النزاع.

ولا تزال اليونان تريد عبر دبلوماسيتها أن تجعل من بحر إيجة بحرًا داخليًا، على خرائطها الرسمية، على الرغم من مبادئ القانون البحري.

ويسهم بقاء هذه القومية المتغطرسة في شرح الدور المتطرف الذي يقوم به الجيش في هذا البلد الذي كان آخر بلد غربي عرف الدكتاتورية العسكرية من 1967 إلى 1974. ويمثل إعلان الـ Enosis أي ضم قبرص المستقلة (حيث كانت تعيش جماعة تركية كبيرة العدد) بقرار أحادي الجانب إلى اليونان، آخر فصل دبلوماسي لنظام الكولونيلات عام 1974. وأدى ذلك إلى الاجتياح التركي الذي كان الهدف منه حماية الأقليات المسلمة على سطح الجزيرة. وقد أصبحت هذه المسألة أوروبية منذ عام 2004، بعد انضمام قبرص

إلى الاتحاد الأوروبي. واستمرت المدارس الرسمية اليونانية بنشر أيديولوجيا قومية مقلقة، فحسب استطلاع أنجز عام 2009، يظن 77 في المئة من اليونانيين أن تركيا تمثل التهديد الرئيس. وكان لا يزال لدى اليونان عام 2005 أهم برنامج لشراء معدات عسكرية، من بلدان حلف شمال الأطلسي، في حين لم يكن لديها أي صناعة دفاعية: 2.8 في المئة من الناتج المحلي PIB، مع الحدود القصوى بـ 6 في المئة مقابل 1.7 وسطيًا في دول الحلف الأطلسي. وكان الجيش يمثل 2.9 في المئة من العاملين مقابل 1.1 في المئة في باقي دول الاتحاد الأوروبي. وتستمر اليونان في اعتبار تركيا مصدر تهديدٍ لها، على الرغم من أنهما تنتميان كلتاهما إلى الحلف الأطلسي. وكانت عقود التسليح لفترة طويلة إحدى الوسائل الأساسية لتمويل الأحزاب السياسية. فهل يجب أن نرى هنا سبب الإجماع بين مختلف الحكومات على البرامج العسكرية؟ الواقع أنه لم يبق إلا الأمل في أن يصبح رجال السياسة اليونانيون جديين، فالأزمة الاقتصادية دعتهم إلى الحكمة.

حرب الشاكو الكارثية (1932-1935)

جرت الحرب بين العامين 1932 و1935، حيث واجهت فيها بوليفيا الباراغواي، وتسببت بموت ربع المحاربين المتطوعين، وكانت الحرب الأكثر وحشية في الأزمنة كلها. ونجد جذور هذا النزاع، على غرار كثير من حروب أميركا اللاتينية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، في عدم دقة الحدود والاختصاصات الموروثة عن المحافظات الاستعمارية الإسبانية، لكن أيضًا في غياب التوطن الفعلي على قطع واسعة من الأراضي.

أدى النزاع الكبير الأول الذي نشب بين 1865 و 1870 حول صحراء غران شاكو إلى المواجهة بين الباراغواي وائتلاف مشكَّل من الأوروغواي والأرجنتين والبرازيل (التحالف الثلاثي) والذي أسفر عن هزيمة نكراء للباراغواي، فضمنت الأرجنتين لنفسها السيطرة على الشاكو. وقد استفادت بوليفيا من هذه الهزيمة فاعتبرت أن الـ غران شاكو بوريال (Gran Chaco

(Boréal) ينتمي إلى دائرة نفوذها. لكن لن يستقر في المكان أي استيطان، نظرًا لوعورة المنطقة، وللظروف المناخية التي لا تطاق، وغياب أي بنية تحتية.

في عام 1884 أظهرت بوليفيا التي كانت قد فقدت، بعد حرب المحيط الهادئ، كل معبر على المحيط الهادئ لمصلحة التشيلي، ترددها حيال وضع نهر الباراغواي لتأمين منفذ إلى الأطلسي، ما جعل الباراغواي تعتبر ذلك استفزازًا.

بدأت الباراغواي بوضع مستعمرات عسكرية في شاكو منذ 1921، وعملت بوليفيا الشيء ذاته بإقامتها خطًّا من القلاع الصغيرة، وهي كناية عن أكواخ صغيرة يعلوها سقف من القش ويحيط بها خندق. وعلى أساس شائعات تقول إنه اكتُشِف نفط في هذه المنطقة، أعلن هذان البلدان المدقعان في الفقر الحرب على بعضهما. وحصلت بوليفيا على دعم شركة النفط الأميركية (ستاندارد أويل) وشركات بريطانية، وكانت شركة شل تدعم الباراغواي. بدأت شرارة الحرب في حزيران 1932 في البحيرة الشاطئية بيتيانتوا، وهي موقع ماء دمر الباراغوايون فيه قلعة صغيرة بوليفية. وكانت الحرب كارثة إنسانية، وإضافة إلى المئة ألف ضحية من المحاربين (وهو رقم متفائل)، يُقدر أنه كان هنالك عدد مماثل من القتلى أو حتى أكثر في أثناء الحرب وما بعدها بسبب الملاريا، واختفاء مجموعات كاملة من الجنود تاهوا في أرض صحراوية جافة تنتشر فيها المستنقعات النتنة. واستطاعت لجنة دولية مؤلفة من كولومبيا وكوبا والمكسيك والأوروغواي والولايات المتحدة، أن تعيد الوضع السابق إلى ما كان عليه، فيما وجهت عصبة الأمم تنبيهًا إلى الباراغواي كمعتد. وبدأ التفاوض على وقف إطلاق النار في 12 حزيران/يونيو 1935، ولم توضع الأحرف الأولى على معاهدة السلام سوى في عام 1938، ولم توقع فعليًا إلا بعد أربع وسبعين سنة.

حمّل العسكر البوليفيون، كما الحال غالبًا، المدنيين مسؤولية عدم الانتصار وحرضوا على الانقلاب عام 1943. وما زال الشاكو فارغًا من النفط كما كانت الحال عليه.

المنافس الكوكبي

«أيها الأبيض استعد حِملك الثقيل،
مكافأتك هزيلة،
لوم الذي يريد هديتك،
كراهية هؤلاء الذين تراقبهم.
جمهور التمتمة الجنائزية
الذي ترشده نحو النور،
لماذا تمحو ظلامنا
وتهبنا الحرية؟»

روديارد كيبلينغ (Rudyard Kipling)
حمل الرجل الأبيض (1899) (*Le Fardeau de l'homme blanc*)
مقتطف

يفكر المتنافسون الراغبون في السيطرة على الكوكب، كما كانت فرنسا وبريطانيا العظمى في بداية القرن، والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة، وربما غدًا الولايات المتحدة والصين، يفكرون على مقياس الخريطة المسطحة. وتُرَسِّخ الآليات الأيديولوجية ذاتها منطقها الحربي: أي الشعور بالقدر الظاهر الذي يبرر وضعها القوي، والرؤية الشمولية لطموحاتها التي تؤدي أحيانًا إلى اقتسام العالم، والحروب بالوكالة، ولكن أيضًا النزاعات العالمية.

في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، أدى المكتشفون والعسكريون وجمعيات الجغرافيين والجيوسياسيين دورًا تاريخيًا مركزيًا في الرؤية الكوكبية للمنافسة. وكان الأمر يتعلق حينذاك باستكشاف العالم المجهول (بالنسبة إلى البيض)، وشرح تفوق الحضارة الغربية وتبرير الاستعمار. وكان التنافس في الماضي سباقًا جغرافيًا؛ إذ كانت الإرساليات المتنافسة تكاد أحيانًا تتسبب باندلاع الحروب، كما حصل في فاشودا (Fachoda) في 18 أيلول/ سبتمبر 1898 بين الفرنسيين والبريطانيين، في ما كان يسمى في تلك الحقبة «السبق إلى أفريقيا». وسبّب «تراجع» الكولونيل مارشان (Marchand)، وفق

تعليمات من السلطات الفرنسية، أزمة سياسية داخلية سقطت خلالها الحكومة التي اتهمت بعنف بـ «خيانة» «شرف البلاد» وبالاستهزاء بها.

الإمبريالية الغربية

يشكل عمومًا تأكيد قومية مقدر لها السيطرةُ العالمية، القاعدةَ الأيديولوجية لنظام الإمبريالية. ويُدَرس اليوم في كتب التاريخ «القدر الظاهر» للولايات المتحدة، والإمبريالية الفيكتورية الحاملة «عبء الرجل الأبيض» لكيبلينغ، والتبجح بالدفاع عن حقوق الإنسان و«رسالة الحضارة» لفرنسا جول فيري (Jules Ferry)، وريثة الثورة، وذلك للمضي في استعمار الكوكب. وابتكر الاتحاد السوفياتي حكاية أكثر عصرية عن الإمبريالية: وهي «الأممية البروليتارية» و«وطن العمال»، وكانت موسكو منارة لهما، فيما كانت الأممية الثالثة بوتقتها. ولقد ساهمت صين ماو كثيرًا في الترويج عبر اللافتات الدعائية لـ «الصداقة بين الشعوب»، وهي طريقة لاستنكار تسلطية موسكو التي كانت تدير الأحزاب على حساب الشعوب. إن هذه الأيديولوجيات معروفة كلها ومن غير الضروري العودة إليها مطولًا إلا للتذكير بأنها مستمرة في تأسيس جزء كبير من تفكير الاستراتيجيين حول الأمن الدولي. وتهدف كلها لتبرير مفهوم «القوة»، حيث طورت كل واحدة منها فكرتها عن القوة لتأمين طموحاتها وعرقلة تقدم الآخر. وعليه، يعدّ البعد الأيديولوجي للإمبريالية أساسيًّا. وكان وزير المستعمرات البريطانية جوزيف تشامبرلاين (Joseph Chamberlain) يحب أن يقول: «تعلموا التفكير إمبرياليًّا!».

وَلَّد الإيمان الإمبريالي جيوسياسة القرن التاسع عشر، جيوسياسة النظريات الإمبريالية الكبرى «العلمية» والاستعمار. وفي هذه الداروينية الجيوسياسية، تتماثل القوة مع أراض، ومرافئ وموارد. يصف فريدريش راتزل (Friedrich Ratzel) أبو الجيوسياسة الألمانية، وهو عالم طبيعة انتقل إلى الجغرافيا، يصف الدولة ككائن حي: «تخضع الدولة للتأثيرات ذاتها التي تخضع لها كل حياة. وتحدد أسسُ انتشار الناس على الأرض امتدادَ دولهم (...). ويجب ألا تصور الحدود إلا تعبيرًا عن حركة عضوية ولاعضوية». كما أنه يتوجب أن يتيح انتشار

الشعوب استرداد مناطق من بلدان أقل نشاطًا. هذه الرؤية تشرعن كل عمليات ضم الأراضي.

وصقل كارل هوسهوفر (Karl Haushofer) (1869-1946) فكرة «الفضاء الحيوي»، الذي تنبأ بتقسيم العالم إلى أربع مناطق: منطقة الوحدة الأوروبية، التي تغطي أفريقيا والشرق الأوسط وتسيطر عليها ألمانيا، ومنطقة رابطة الدول الأميركية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، ومنطقة الوحدة الروسية التي تضم آسيا الوسطى، وآسيا الجنوبية التي تسيطر عليها روسيا، ويضيف إليها منطقة الوحدة الآسيوية التي تسيطر عليها اليابان، حليف ألمانيا، وتشمل الشرق الأقصى (الصين)، وجنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ الشمالي، وذلك لصد التطويق الأنكلوسكسوني. وستطبق هذه الرؤية في ظل الرايخ الثالث الذي اعتبر أن على «الشعوب الكبرى» أن تقتسم الكوكب تبعًا للتحالفات القائمة، ووفق تراتبية أساسها عنصري.

كانت المدرسة الإنكليزية للأميرال ماك كيندر (MacKinder) (1861-1947) تصر على القوة البحرية (Sea power). تتشكل الكرة الأرضية من بحار ومحيطات تغطي نحو 9/ 12 من الكوكب. وتسيطر بريطانيا العظمى على الجزيرة العالمية التي يسميها ماك كيندر الأرض المركزية أو الحيوية Heartland وكذلك الجزر الكبيرة المحيطة أو Outlyings Islands (مثل أستراليا)، وهي أقل استراتيجية. وتشكل Heartland المحور الجغرافي الحقيقي للعالم الذي يمتد من سهل أوروبا الوسطى إلى سيبيريا الغربية باتجاه البحر المتوسط للشرق الأوسط وآسيا الجنوبية. وبحسب ماك كيندر، فقد كان على الإمبراطورية البريطانية المهيمنة على البحار أن تعمل على إيجاد موقع لها على هذه الأرض، من خلال السيطرة على وسائل النقل، وخصوصًا السكك الحديدية، وذلك من أجل أن تبقى قوة عالمية عظمى.

اهتمت المدرسة الأميركية مع الأميرال ماهان (Mahan) (1840-1914) أكثر بالتطورات التكنولوجية للحضارات، وإن أصرت أيضًا على القوة البحرية. وتنظر القيادات العسكرية الأميركية العليا التي تقتسم حتى اليوم الكوكب، دائمًا إلى الأرض من البحر. وتشكل سياسة الصد أساس الاستراتيجية الأميركية ضد الأوروبيين في أميركا اللاتينية، ومن ثم بعد ذلك ضد الاتحاد السوفياتي، وغدًا

ضد الصين. وقد نتج عن عرض عقيدة مونرو التحديد الدقيق لمساحة جغرافية محظورة على الإمبرياليات الأخرى. «نعتبر أن كل محاولة من أوروبا تهدف إلى بسط نظامها على أي قسم كان، من نصف الكرة الأرضية هذه (الأميركتين) ستكون خطرة بالنسبة إلى سلامنا وأمننا». هذا ما أعلنه بوضوح في خطاب له سنة 1823. ثم تركت نظرية الاحتواء (containment) المكان لنظرية الصد (roll back)؛ فكان المد الروسي في التسعينيات الذي دفع الولايات المتحدة، تحت غطاء المنظمات غير الحكومية، إلى الدفاع عن حقوق الإنسان، لتمويل عدد من الأحزاب السياسية إبان الثورات الملونة في جورجيا وأوكرانيا، وقرغيزستان... وأكدت المدرسة الأميركية كثيرًا أيضًا على البعد الثقافي للقوة. وبقي منها حتى الآن عناصر في النقاشات بين القوة القاسية (hard power) (الوسائل العسكرية) والقوة الناعمة (soft power) (تأثير الثقافة، والترويج للإسراع بالأمور). وتتمثل النسخة الحداثية لهذا التقسيم الجغرافي الثقافي الإمبريالي للكوكب بكتاب **صدام الحضارات** لصموئيل هنتنغتون.

الترويج أداة غزو

يعطي وضع القوة أهمية خاصة جدًا للترويج، وسيطلق عليه لاحقًا اسمًا أنكلوسكسونيًا (وهذا أنبل) هو القوة الناعمة. يحمل كل خصم رسالة حضارية ينقلها الساسة والمثقفون والفنانون الذين يتباهون بتفوق نظام قيمهم ويجسدون التهديد. وفي إطار اتفاقات بلوم بايرنز (Blum-Byrnes) عام 1946 التي هدفت إلى منح قرض أميركي لفرنسا التي يعاد بناؤها (قبل مخطط مارشال)، فرضت واشنطن فتح السوق الوطنية للمنتجات الهوليوودية. وكانت تلك حقبة وصلت فيها مجموعة Readers'Digest الكاملة[10] إلى مكتبات جامعات أميركا الجنوبية، وامتلأت فيها المكتبات الشيوعية بكتب ثمنها منخفض عن دار منشورات الشعب (Editions du peuple) لتصبح كتب ماركس وإنغلز في متناول جميع الفئات. وقدمت المسلسلات الأميركية التي كانت تبثها التلفزيونات الناشئة

(10) Germán Rama, «Educacion y movilidad social en Colombia,» ECO, décembre 1969, cité dans: Eduardo Galeano, *Les veines ouvertes de l'Amérique latine: Une contre-histoire*, Terre humaine (Paris: Pocket, 2001).

صورة عائلة من العرق الأبيض التي تمتلك طفلين وتقيم في منزل خاص، لا يتسكع بالقرب منه أي زنجي. وكان لدى السينما السوفياتية والـ prop agit (أي تقنية نشر الأفكار الثورية بشكل قريب من العمل المباشر)، أيضًا ساعة مجدها، لكن المجيء بعد أيزنشتاين (Eisenstein) لا يسهل الأمور. وإضافة إلى ذلك، افتقر ستاخانوف (Stakhanov) البطل الاشتراكي إلى حس الدعابة. أما الصين الشيوعية فلا تمتلك اللباقة، حيث تتصدر شوارعَ المدن لافتاتٌ دعائية كبيرة لحشود يمتزج فيها الرجال والنساء من كل الأعراق، مع ضحكة دعائية، يسيرون بخطى فخورة، والصدر منفوخ، كأنهم مستعدون للخروج من الملصق. وعلى الخلفية، وجه ماو النضر، تحيط به هالة من النور وهو يعتني بلطف بصغاره. في الواقع تنفجر عنصرية المجتمع الصيني بانتظام في المدن الجامعية، بشكل «بوغروم» (مطاردة) ضد الطلاب الأفارقة.

ويتزيّا الآخر، الذي يجب عليه أن يكون عدوًّا جديرًا، بصفات تدل على قوته المهدِّدة ونواياه الشريرة: إنكلترا بالنسبة إلى الفرنسيين هي «ألبيون» الغدارة (الاسم القديم لإنكلترا). بعد فاشودا (Fachoda) (الأزمة الدبلوماسية بين فرنسا وبريطانيا حول فاشودا في جنوب السودان 1898)، وبعد أزمة المغرب عام 1911 أصبحت ألمانيا «الغول». والترويج للحرب الباردة لا يتردد في استخدام الكاريكاتير: يعيش الشيوعي القاعدي وشعره أشعث مع سكين بين أسنانه، والرأسمالي لديه مشكلة بدانة وإدمان على التبغ.

وعلينا أن نخص هنا بالتنويه «رفاق الدرب»، أي المثقفين والصحافيين والفنانين الذين لا يعيشون في البلاد، ويمدحون بشكل أعمى قيم معسكر ما. وقد جعل الاتحاد السوفياتي السابق من ذلك اختصاصه، فراح العديد من المثقفين أو الفنانين ينظرون إلى «جنة الاشتراكية» ويتخذون مواقف محرجة للضمير فعلًا، فيما فضلّ بعضهم السكوت عنها[11]. وتتعامل الولايات المتحدة بمهارة أكثر مع شخصيات مثل جان كو (Jean Cau) الذي يُقدَّم بصفته المثقف المناقض لسارتر، أو ريمون كارتييه[12] (Raymond Cartier) الذي لا يرى في

---

(11) Fred Kupferman, *Au pays des Soviets: Le voyage français en Russie 1917-1939*, Archives (Paris: Gallimard, 1979).

(12) طالب ريمون كارتييه (Raymond Cartier) بالجنسية الأميركية التي رفضت له؛ إذ إنه مفيد أكثر كمروج propagandiste فرنسي الجنسية.

مؤلفاته العديدة التي تهدف إلى «شرح» الولايات المتحدة، أي مشكلة تتعلق بالسود في شوارع المدن الأميركية. وفي الوقت ذاته، يكتب بوريس فيان (Boris Vian)، موسيقي الجاز، باسم مستعار، مؤلفًا قويًا حول الوضع البائس للأقلية السوداء[13]. ويصب خطاب المثقفين حول معاداة الإمبريالية في هفوات آثمة، على غرار صحيفة **لوموند** التي حللت جيدًا حرب الاستقلال الجزائرية وشجبت الحرب الأميركية على فيتنام، لكنها أخطأت كليًا في ما يتعلق بالخمير الحمر الذين بسبب محاربتهم الإمبريالية الأميركية، لا يمكن أن يكونوا سوى محاربين من أجل الحرية. ففي عام 1974 عنونت الصحيفة «علم المقاومة يرفرف فوق بنوم بين! (Phnom Penh)»، وفي الحقيقة كانت المجزرة قد بدأت.

وابتُكر للحرب الأهلية اللبنانية مفهوم «الإسلامية - التقدمية»، باستنساخ معيار التقدمية/ الرجعية العزيز على مثقفي حي سان جرمان في باريس، لتحليل الوضع اللبناني. وبعد فترة زمنية ومع العودة بضع سنوات إلى الوراء، نظن أنفسنا أننا كنا نحلم. وفي لحظة أخرى من الهذيان الأيديولوجي، ينغمس عدد لا بأس به من المثقفين، الذين عادوا من زيارات منظمة إلى صين الثورة الثقافية (ولكن في باريس)، في ملذات «فكر ماو تسي تونغ» المتسمة بالعناية الإلهية، مثل بوذي التقى بالدالاي لاما. وقد تبقى لدى قادة المعجزة الاقتصادية في بيجين اليوم، الشعور الجديد بأن الصين أنموذج، وعند المثقفين الماويين القدامى الذين اقتنعوا بحسنات السوق، بعض الاقتباسات وكثير من ضيق الخلق، مثل حال عشيق يشعر بالخيانة. وتشكل دعوى القدح التي رفعها فيكتور كرافتشينكو[14] (Victor Kravtchenko) عام 1949 على مجلة (*Lettres Françaises*) التي كانت قد أصدرت كتاب **اخترت الحرية** (*J'ai choisi la liberte*)، مثالًا مثيرًا للاهتمام عن تعبئة المثقفين ضد شهود عيان، أي تقديم النظرية النقية لدحض الوقائع.

مثّل الوجه الآخر لهذا الدور الجديد الذي يؤديه الفنانون، الحملات المختلفة المنددة بتأثيرهم المؤذي، على غرار حملة جدانوف (Jdanov) في

(13) Boris Vian, *J'irai cracher sur vos tombes*, Le livre de poche (Paris: LGF, 2008).

(14) Victor Kravetchenko, *J'ai choisi la liberté: La vie publique et privée d'un haut fonctionnaire soviétique* (Paris: Self, 1947).

الاتحاد السوفياتي، وحملة المئة زهرة في الصين، ومحاكم ماكارثي (MacCarthy) في الولايات المتحدة.

خطوط تقسيم العالم

وَلَّدت النظريات الإمبريالية الكبرى المبررة تقسيم الكوكب إلى أمكنة خضوع مختلفة، مفاهيم لا تزال تسهم في بناء الفكر الاستراتيجي: مستعمرات، محميات، مناطق نفوذ، دول حاجزة (Etats tampon)، مناطق محصنة (glacis)، دول حليفة، خاضعة أو تابعة، فنلندنة (finlandisation) (مصطلح يتميز بإثارة حنق الفنلنديين). وتعكس هذه المصطلحات كلها تصورًا شبه صريح عن «السيادة المحدودة» للبلدان التابعة، سواء عبّر عنها بريجنيف تجاه بلدان حلف وارسو، أو الرئيس الأميركي مونرو تجاه دول أميركا اللاتينية، أو ديغول بالنسبة إلى المستعمرات الأفريقية القديمة... ويتعلق الأمر هنا بالإسهام في «أمن» الكوكب.

لألعاب توازن القوى قداسها الاحتفالي، أي المؤتمرات الدولية لتقسيم العالم، على غرار مؤتمر برلين في نهاية القرن التاسع عشر، لتقاسم أفريقيا بين بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا، وتشكيل دول حاجزة مثل الكونغو، وكانت ملكية خاصة لملك البلجيكيين (الذي سيُلزّمها لشركة خاصة ثم سيتنازل عنها للدولة البلجيكية)، وأفغانستان أو سيام. وسينكب المعنيون على تمارين رسم جماعي عبر ترسيم الحدود. وستقسم اتفاقات سايكس - بيكو عام 1916 الشرق الأوسط بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. وستعيد معاهدات فرساي ومؤتمرات بوتسدام ويالطا رسم أوروبا. وسيحدد الأقوياء بالقلم الأحمر مستقبل شعوب بأكملها؛ سيزيحون أو يحرفون حدودًا، ويخلقون بلدانًا هجينة، تاركين المشكلات للمستقبل، حين ينسحب هذا الخصم أو ذاك من التنافس. وتشكّل الأمم المتحدة نقطة الأوج لعملية تقسيم القوى، ومجلس الأمن فيها مبني على حق الفيتو الذي يتمتع به أعضاؤه الخمسة الدائمون، أي الحق لهذه الدول بشن الحرب ومنع الأمم المتحدة من التدخل.

ونلاحظ هنا ازدواجية التحليل الاستراتيجي؛ إذ تُحلَّل الأزمات كلها عبر موشور ثنائي، ودائمًا ليس بحسب المصلحة الخاصة بالجهات الفاعلة المحلية. وتُستخدم الأزمات كأمكنة تنافس عسكري لتفادي المواجهة المباشرة (فاشودا، المغرب عام 1911 بين فرنسا وألمانيا، كوريا عام 1953، فيتنام بين 1962و1975، أنغولا وموزمبيق عام 1980، وأفغانستان عام 1979). وبما أن الصراع جغرافي، فستكون إذًا قراءة الأزمات، ومهما كانت، دائمًا قراءة تشمل الكوكب كله. وكانت تحليلات الاستراتيجيين في تلك الأزمنة تتنافس على البداهيات الجيوسياسية، مثل «يناط مستقبل العالم بـ...»، «العدوان الإمبريالي على المعسكر الاشتراكي»، «النظام الدمية»، «الاندفاع باتجاه البحار الدافئة». إن تسلسل التحليلات الجيوسياسية هو تتابع ميكانيكي، بحيث يصبح كل مكان ناء على سطح الكوكب «مزلاجًا»، و«موضعًا استراتيجيًا مهمًا»، و«مرحلة من مراحل المسيرة نحو...». وهكذا فالفرولينا (Frolinat) وهي حركة البدو الرحل التوبو (toubous) في تشاد، الذين يعيشون على غزوات المناطق الجنوبية من البلد، وصفت نفسها بـ «حركة العمال والفلاحين التشاديين»، وهما فئتان نادرتان في هذا البلد، لتبرير المساعدة السوفياتية والليبية.

في مراكز التفكير، يتقدم خبراء العدو الرئيس المختصون في الشؤون السوفياتية أو المختصون في الشؤون الصينية، على المختصين في الأزمات الإقليمية. ولكنهم يفهمون ذلك بشكل خاطئ؛ إذ إن كل شيء يمر عبر التحليل الثنائي، وبذلك فإن دبلوماسية الهند، القريبة من موسكو مع أنها ديمقراطية برلمانية، تفهمها واشنطن بشكل خاطئ، إذ بالنسبة إليها يجب على كل الديمقراطيات أن تتحالف مع (السيدة) أميركا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى موسكو في ما يتعلق بالخط التيتوي في يوغوسلافيا. وبمناسبة الاجتياح السوفياتي لأفغانستان، تناولت النقاشات بين المختصين في الشؤون السوفياتية قوة المجمع العسكري - الاقتصادي السوفياتي، انطلاقًا من أعمال كورنيليوس كاستورياديس (Cornelius Castoriadis)، وخلصت بالتالي إلى سرعة انتصار الجيش الأحمر. وكان بينيغسين (Bennigsen) المختص في القوقاز وفي آسيا الوسطى، هو الوحيد الذي تنبأ بفشل الغزو. كوندوليزا رايس، وزيرة خارجية

الرئيس بوش وهي جامعية مختصة بالاتحاد السوفياتي، حين وصلت إلى الحكم عام 2000 دعمت سياسة الصد ضد روسيا، لكنها لم تكن تعرف أي شيء عن التيار الإسلامي. ولو أنها فهمت أن الانسحاب السوفياتي من أفغانستان كان أيضًا انتصارًا للمحاربين الإسلاميين الذين يمكنهم أن يتبجحوا بأنهم دحروا أقوى جيش في العالم، لكانت تنبأت بالحجة التي كان سيستخلصها المدعو بن لادن من ذلك(15).

إن التصورات العسكرية والاستراتيجية هي دائمًا بشكل رسمي أشكال دفاع متقدمة: كان الإنكليز يظهرون بوضوح، في القرن التاسع عشر، سياستهم المسماة «السياسة المندفعة إلى الأمام» (التوسع الاحترازي) التي تبرر برأيهم تشكيل دول حاجزة في وجه هجمات إمبريالية أخرى: أفغانستان في وجه الهجمة الروسية في آسيا الوسطى، سيام في وجه الهجمة الفرنسية في الشرق الأقصى، الكونغو البلجيكية في وجه الوجود الفرنسي والألماني في أفريقيا الوسطى. وقد انفصلت موانئ الرسو عن الإمبراطوريات على غرار هونغ كونغ، وسنغافورة، وجبل طارق... وإبان الحرب الباردة، انتشرت القواعد المتقدمة للتشكيلات العسكرية الأميركية والروسية على الكوكب، وأخضعت لوصايتها دائرة نفوذ كل من القوتين.

يتيح تشكيل أنظمة تحالف كبرى (التفاهم الثلاثي ضد التحالف الثلاثي، الحلف الأطلسي الشمالي ضد حلف وارسو، حلف بغداد، معاهدة الأمن بين أستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة الأميركية (Anzus)...) تنظيم الكوكب لتحضير الحرب. وإذا كانت قُبلت الخطوط العريضة لتقاسم العالم، فإن النزاعات تندلع في المناطق ذات الوضع غير المحدد، عبر حروب بالوكالة. ومن شأن كل واحد أن يجعل أبطاله أو خدمه يتواجهون لكي لا يتعرض للنزاع الأكبر (الأزمات الأفريقية، فيتنام ضد كمبوديا، الكوبيون في أنغولا وموزمبيق). لكن عندما يفلت النظام من الرقابة، تكون الحرب العالمية.

ومهمة المنافسة الأيديولوجية أن تتيح البرهان على أن بلادًا جديدة تصبح حليفة «بإرادتها». وبوسع الانقلابات التي ينظمها العسكر أو الاستخبارات

---

(15) Gilles Kepel et Jean Pierre Milelli, *Al -Qaïda dans le texte: Ecrits d'Oussama Ben Laden, Abdallah Azzam, Ayman al-Zawahiri et Abou Moussab al-Zarqawi*, Quadrige, Essai, débats (Paris: PUF, 2008).

أن توصل إلى سدة الحكم زعيمًا سياسيًا محليًا يأتي ليقدم ولاءه. ويعدّ هذا الأمر أفضل على مستوى الترويج، كما حدث في «انقلاب براغ» عام 1948 الذي أتى بالشيوعيين إلى سدة الحكم. وقام غوتوالد (Gottwald)، الأمين العام للحزب الشيوعي التشيكي، بتصريح علني لذيذ للتحضير للانقلاب: «(يجب) على شعب العمال أن يتأهب أمام ردة فعل محتملة». كما أقدمت وكالة الاستخبارات الأميركية CIA على الإطاحة برئيس الوزراء الإيراني مصدق، وهو قومي انتخب ديمقراطيًا، وكان قد قام بتأميم النفط للتو، لاستبداله بالشاه، ما سمح عرضيًا بإعادة توزيع الحقول النفطية لمصلحة الشركات الأميركية، وعلى حساب البريطانيين. وأعلن بابراك كارمال (Babrak Karmal) الذي وضعته موسكو في كابول، نظام «العمال والفلاحين» (حرفيًا) في أفغانستان. ويمكننا أن نرى في ممر بعض الكليات الحربية الأميركية «درب الدكتاتوريين»، ممثلين بصور الدفعات التي استقبلت دكتاتوريي الانقلابات العسكرية في السبعينيات والثمانينيات في أميركا اللاتينية. وقد جرى سيناريو «الانقلاب العفوي» أكثر من سبعين مرة، بمبادرة من قوة أو أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي عام 1951 صرح الرئيس الغواتيمالي أريفالو (Arevalo) في خطاب وداعه، أنه نجا خلال فترة رئاسته من اثنتين وثلاثين مؤامرة عسكرية، وأغلبها كانت تحظى بمساعدة الأميركيين.

اعتذر الرئيس جونسون تقريبًا في 28 نيسان/ إبريل 1965 لتبرير التدخل الأميركي في سان دومانغ[16] ضد الرئيس المنتخب خوان بوش (Juan Bosch)، حيث قال: «لم أعط الأمر بالتدخل في الجمهورية الدومينيكية من دون اشمئزاز»، مكررًا بذلك الكلمات التي قالها تيودور روزفلت قبل ذلك بتسعة وخمسين عامًا: «بأكبر قدر ممكن من الاشمئزاز، رأيت نفسي مرغمًا على أن أقوم بالخطوة الأولى للتدخل في هذه الجزيرة». وخلاصة القول: هي الإمبريالية على الرغم من كل شيء! إذ يأتي كل تدخل «من أجل إنقاذ الديمقراطية»، مثلما كان التدخل السوفياتي في براغ عام 1968 من أجل «إنقاذ الاشتراكية».

---

(16) نتج عن ذلك أكثر من 4000 قتيل، أي أكثر من عدد ضحايا اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

وتتيح القراءة الاستراتيجية الثنائية كل أشكال الحرية في التعامل السياسي، حيث لم يمنع العدو الطبقي وسياسة الاتحاد السوفياتي الدولية، من توقيع الاتفاقية الألمانية السوفياتية عام 1939، أو من الاعتراف بالدكتاتوريات العسكرية في أميركا الجنوبية. وقد دعمت الديمقراطيات أخطر الانقلابات وأسوأ الأنظمة على كوكبنا، وأولها النظام السعودي، وهو حتمًا أكثر إسلامية من إيران الخميني. فالحليف المطيع هو «الطيّب» مهما كان نظامه، وحليف العدو هو «الشرير»، أما التصنيف فيتغير في حال انقلاب التحالف. وهكذا كان سياد باري (Syiad Barre)، الدكتاتور الصومالي الذي سعى دائمًا وراء المال، حليفًا لواشنطن من وقت لآخر، وفي أوقات أخرى حليفًا لموسكو، وفق المصاعب التي يواجهها أو وفق احتياجاته. ولبناء سد أسوان، توجه عبد الناصر أولًا للمساعدة الأميركية التي رُفِضت له؛ لأنه كان يوصف في الأوساط الاستراتيجية بـ «موسيليني النيل». وعلى الرغم من أنه حصل على مساعدة موسكو، لكن ذلك لم يردعه عن وضع الشيوعيين المصريين في السجن. وكانت الدبلوماسية الفرنسية في رواندا التي تدعم دكتاتورية هابياريمانا، تهدف إلى تقويض وجود البلدان الناطقة بالإنكليزية. وبالفعل لم يكن بول كاغامي (Paul Kagamé)، وهو ابن لاجئ يعيش في أوغندا، المستعمرة الإنكليزية السابقة، يتكلم الفرنسية. وبحسب المفكرين العسكريين الرسميين في باريس، كان من البداهي أن يتلقى دعمًا من لندن أو واشنطن، إنها إعادة لفاشودا.

وعليه، تمثل أدوات التحليل أساسًا للمعايير المستخدمة في الغرب، فقد كان صدام حسين على التوالي هو «الزعيم الحداثي العربي، المدافع عن العلمانية»، قبل أن يصبح رئيس الجمهورية الدكتاتوري لأحد بلدان «محور الشر». وفي عام 1954 كان المفكرون الأميركيون الذين يؤيدون التدخل يصفون نغو دين دييم (Ngô Dinh Diêm)، رئيس الدولة الكاثوليكي في فيتنام الجنوبية البوذية، بأنه «تـشرشل (Churchill) جنوب شرق آسيا»...إلخ، وصورة «رئيس الجمهورية الحداثي» وهو كذلك فقط لأنه مناصر للغرب، تحطمت فجأة مع الإطاحة ببن علي وحسني مبارك. والسؤال هنا: كم هو عدد الرؤساء الآخرين الذين يجب الإطاحة بهم؟

السباق إلى التسلح

يأخذ التنافس بسرعة بعدًا عسكريًا، من خلال السباق إلى التسلح. وفي نهاية القرن التاسع عشر، شكلت قوات المشاة البحرية، وهي أدوات كبيرة موجودة على كوكبنا، الرموز العسكرية للقوة (سياسة «الزوارق المسلحة»)، وكانت خرائط الإمبراطوريات تُرسم أولًا انطلاقًا من موانئ الرسو. إنه زمن «هيبة البزة العسكرية» وتقليعة البذلة البحرية للأطفال. ثم أتى الطيران ليحل محل البحرية. وأسهمت العروض العسكرية الكبيرة على الساحة الحمراء والترويج للتسلط العسكري الهوليوودي في القرن العشرين ببناء التوافق الشعبي. ويفكر الجميع في الاستقرار انطلاقًا من التفوق العسكري، مثل ازدواجية المعايير البريطانية التي كانت تفرض حدودًا لأساطيل الدول المنافسة. وعند سقوط الاتحاد السوفياتي، في أثناء البيريسترويكا، اضطر القادة الروس إلى الاعتراف بأنهم كانوا يجهلون عدد الرؤوس النووية التي يملكونها بالتحديد. في العالم الشيوعي، في موسكو كما في بيجين، كان التفكير الاستراتيجي تابعًا لأكاديمية العلوم. وكانت تلك الحقبة تعطي الأولوية للمهندسين والخبراء. ودفعت العلموية (scientisme) ذاتها في واشنطن والت روستو (Walt Rosto) الخبير بالتخلف، الذي أصبح مستشارًا للرئيس جونسون في الأمن القومي، إلى القيام بعمليات قصف المنشآت الصناعية في فيتنام الشمالية. وجزم أن البلد سيستسلم جراء موجات الـ B52 لكي يحمي صناعته الناشئة. وكان لدى روستو تحليلات نظرية حصرًا من دون أي قاعدة خبرة حول فيتنام بحد ذاتها، حيث لا توجد صناعات. وأضفى العلماء والمهندسون العسكريون الذين كانوا يشاركون في السباق إلى التسلح، لمسة تحليل تكنولوجي. ورأى مهندس أميركي عبقري أن القنابل العنقودية[17] التي ألقيت على الفيتناميين كان يشوبها عيب أساس وهو أن الكرات الفولاذية التي كانت تدخل عميقًا في اللحم يمكن اكتشاف مكانها بالأشعة السينية، وبالتالي يمكن استخراجها جراحيًا. فاقترح استبدالها بكرات

---

(17) تنفجر القنابل العنقودية (التي تسمى أيضاً الانشطارية) حين تلمس الأرض وتقذف كثيرًا من الكريات الصغيرة الفولاذية التي تهدف إلى جرح أو إلى قتل الناس، وتطالب المنظمات الإنسانية بمنعها التام.

من البلاستيك، بالفعالية ذاتها، لكنها غير قابلة لأي عمل جراحي. ويكلف المعاق المجتمع أكثر من الميت.

يتيح شرح الخطر التقني للتهديد إطلاق برامج جديدة تؤمّن التفوق العسكري. ويعطي السباق إلى التسلح، الذي يتسم به هذا التنافس على مستوى العالم، مكانًا يزداد أهمية للمجمع العسكري - الصناعي، وهو التقاء سوسيولوجي يختلط فيه العسكريون الذين يهتمون بالحصول على أفضل معدات، والصناعيون المهتمون بالحصول على تمويل أبحاث جديدة من خلال المساعدات العامة، والمهندسون المختصون بالسلاح والذين يختبرون باستمرار تكنولوجيات جديدة. ومنذ الحرب العالمية الأولى استعر التنافس بين كروب (Krupp) (صانع المدافع الألماني) وشنايدر (Schneider) (الصانع الفرنسي). وكثرت برامج السلاح الضخمة وغير المجدية. كما كثرت المدرعات الكبيرة في بداية القرن العشرين والتي قليلًا ما استخدمت. ولم تطلق البارجة الفرنسية ريشوليو (Richelieu) أي ضربة مدفع قبل أن ترسل إلى المكسر. وفيما بعد، كان مدى الصاروخ التكتيكي ذي الرأس النووي بلوتون 150 كلم فقط، وكان متمركزًا على أرضه لضمان نجاتها في حال اجتياح سوفياتي. ولا يمكن أن يسقط إلا.... في ألمانيا إذًا. وذكر الرئيس أيزنهاور (Eisenhower) في خطبته في 17 حزيران/ يونيو 1961 الوزن المفرط للمجمع العسكري - الصناعي. لكن السباق إلى التسلح استمر ليصبح أكثر تقنية وتكلفة، وتركز التجسس على التقدم الذي يحرزه الخصم في هذا المجال.

هكذا؛ فإن المحددين كثيرون؛ إذ إن جزءًا كبيرًا من القوى الاقتصادية والاجتماعية مبنية على ميزانيات الدفاع والحرب المحتمة. وكان كورنيليوس كاستورياديس الشهير بتحليلاته للمجمع العسكري - الصناعي السوفياتي يؤكد أن سيطرة الحزب (أي الاستخبارات) على الدولة (ومن ضمنها الجيش) قد تحولت إلى سيطرة المجتمع العسكري على المجتمع المدني. وكان هنالك في الحقيقة، على الأرجح، مجتمعان روسيان: المجال العسكري السري، والمجال المدني الذي لم يكن يستفيد بتاتًا. وكانت هذه الطريقة الوحيدة لتوضيح النقص الروسي على مستوى الاقتصاد المدني، والتفوق الروسي المفترض على مستوى

السلاح؛ وقد كتب كاستورياديس[18]: «على نقيض خروتشوف الذي كان يشاطر الأميركيين الأفكار المنحطة والرجعية حول استحالة «ربح» حرب نووية، تعلن الاستراتيجية الجديدة صراحة أن مهمة الجيش هي «شن حرب نووية وربحها» وعليها أن تحضّره هو والبلاد لهذا الهدف. وهي بذلك تطابق ما يمكن أن نسميه الأساس والمشروع الوجودي لجيش ما: خوض الحرب والانتصار فيها، إذ إن جيشًا من دون أفق حرب ونصر هو مثل الكاهن الذي لا يؤمن ببعث الأموات. هذه هي حال الجيش الأميركي». في الواقع، اكتشفنا مع الاجتياح السوفياتي لأفغانستان، القصور المذهل الذي كان يعاني منه الجيش الأحمر.

وبما أن الحرب هي دائمًا وشيكة، فالتنديد بالانهزامية و«فقدان المعنويات» هي لازمة مكررة، حيث تشكل حالة عدم التحضير للجيش، وضعف المعدات مواضيع تتكرر بمناسبة التخفيضات في الميزانية؛ وتمثل استقالة رؤساء الأركان أحيانًا التجسيد المر لهذا الوضع. خلاصة القول، أي الحرب المقبلة ستكون خاسرة، إلا في حالات استثنائية. في أثناء الحرب الباردة كان السلاح النووي يرغم الجميع على الاحتراز، ولحسن الحظ أن الحروب شنت على مسارح ثانوية (كوريا، فيتنام، إندونيسيا، ماليزيا، أنغولا، موزمبيق...). وفي أوروبا وقف الحلفان وجهًا لوجه مع الاستعداد لفعل أي شيء، لمدة ستين سنة. واستلهم بوزاتي (Buzzati) من ذلك روايته **صحراء التتر** (*Le Désert des Tartares*).

يمكن اللجوء أيضًا الى أخذ المساعدة من الجريمة المنظمة بصورة عرضية لكن بتكتم أكبر. وهكذا فإنه حين استلم كاسترو (Castro) مقاليد الحكم في كوبا، كانت الجزيرة عبارة عن صالة للعب القمار، وقاعة لتدخين الأفيون والماخور الرسمي لأميركا. وبحسب رينيه دومون (René Dumont)، كان يوجد هناك مومسات أكثر من العمال عام 1958[19]. خلاصة القول، كانت المصالح الأميركية التي تضررت حين منع الـ barbudos أي الملتحون، الذين استلموا الحكم، القمار والمخدرات والدعارة، وهي مصالح المافيا ذاتها. وعرف كينيدي (Kennedy) جيدًا كيف يدافع عن ذلك بدعمه الإنزال الفاشل في خليج

---

(18) Cornelius Castoriadis, *Devant la guerre* (Paris: Fayard, 1982), volume I: *Les réalités*, p. 275.

(19) René Dumont, *Cuba, socialisme et développement* (Paris: [s. n.], 1964).

الخنازير. واشتكى ورثة ماير لانسكي (Meyer Lansky) الذي كان زعيم هافانا من دون منازع، في الخمسينيات تحت حكم باتيستا (Batista)، أنهم غُبنوا ولم يرثوا سوى 57.000 دولار[20]. واقتصر الأمر في فرنسا على طلب مساعدة الجريمة المنظمة لقمع إضرابات عمال الموانئ في مارسيليا الذين كانوا يعارضون إبحار الجنود نحو الهند الصينية. وكانت هذه بداية تهريب القروش ثم القناة الفرنسية (French Connection) وتصدير أفيون جنوب شرق آسيا باتجاه الولايات المتحدة في السبعينيات.

في هذا العالم الثنائي الرأس، شُيطنت بسرعة الدبلوماسيات المنشقة، مثل دبلوماسية الجنرال ديغول، وتيتو، أو جمال عبد الناصر، وذلك باستخدام الوسائل المناسبة[21]. وكان تطور الصين الماوية، أو سياسة استقلال فنلندا، مثالين على التطور المبهم في سياق الثنائية القطبية. واعتُبر مؤتمر باندونغ (Bandoeng) الذي حدد ولادة دول عدم الانحياز، مناورة شيوعية، كما اعتُبر وصول عبد الناصر إلى سدة الحكم، وتأميم قناة السويس ثورة ضد معسكر الحرية... وماذا نقول، أيضًا، عن الصفات التي نُعِت بها نيلسون مانديلا (Nelson Mandela) والتي أعلنتها على الملصقات رابطة الطلاب البريطانيين، المقربة من الحزب المحافظ: «اشنقوا نيلسون مانديلا وكل إرهابيي المجلس الوطني الأفريقي (ANC)! إنهم جزّارون»...؟

والحالة الأكثر إثارة للضحك، إن لم تكن مأساويةً، هي على الأرجح حالة النضال من أجل تحرير إريتريا، وهي مستعمرة إيطالية منذ 1890 فتحتها القوى البريطانية عام 1941 وأدارتها لندن حتى عام 1952. وعهدت الأمم المتحدة في ذلك التاريخ إدارة البلاد إلى إثيوبيا، وهذا نوع من التوسعية مسموح به، وفقًا للممارسات المتبعة في هيئة الأمم في تلك الحقبة. واستمر النضال من أجل الاستقلال ضد أديس أبابا ثلاثين عامًا، من 1961 لغاية 1991. وكانت كوادر

---

(20) T. J. English, *Nocturne à la Havane* (Paris: La Table Ronde, 2010).

(21) يمثل كتاب كانت له شهرته رمزًا لهذا الأمر، إذ يصف كتاب توباز (Topaze) لمؤلفه ليون أوريس (Léon Uris) الجنرال لاكروا (Lacroix) أي ديغول (De Gaulle)، كرجل يعاني من قصر نظر شديد لكنه أنيق لدرجة أنه لا يريد أن يضع نظارات، فكان يقرأ له وثائقه مساعد له كان في الحقيقة عميلًا سوفياتيًا.

الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا تتلقى تدريبها في جامعة لومومبا في موسكو. لكن عندما استلم الضباط الحمر مقاليد الحكم في أديس أبابا، غيّر الاتحاد السوفياتي تحالفه وفضّل إثيوبيا. وتخلت موسكو، وطن المظلومين، عن طلابها القدامى، فذهبوا إلى واشنطن بحثًا عن المساعدة... إلخ ولم يعد بالإمكان الاعتماد على أحد.

وفي ما يخص أميركا اللاتينية، وهي حالة مأساوية أخرى لقارة خاضعة لـ «استغلال تحرري»، تعدّ الأبيات الأولى لقصيدة بابلو نيرودا (Pablo Neruda) بعنوان «شركة الفواكه المتحدة»، خيرًا من أي تحليل:

«حين نفخ في الصور
وكان كل شيء جاهزًا على الأرض
قسّم يهوه العالم
بين شركة كوكاكولا وأناكوندا،
وفورد موتورز
وآخرين،
وخَصصت لنفسها شركة الفواكه، شركة الفواكه المتحدة، أفضل أرض،
الشاطئ المركزي في بلدي،
أرض الأميركتين العذبة.
وأعاد يهوه تسمية هذه الأراضي
وسماها
'جمهوريات الموز'».

بابلو نيرودا
النشيد العام (1950) (*Canto General*)

يمكن استخدام النظام الثنائي الذي حللناه آنفًا لفهم التنافس المستقبلي بين بيجين وواشنطن، حيث إن المؤشرات موجودة سلفًا. سيولد عدم الاستقرار الحقيقي من الفترة الانتقالية التي ستطالب خلالها الصين بمكانها، رافضة الأحادية الأميركية. ومن مصلحة الأوروبيين، خلافًا للاستراتيجيين المحافظين الجدد، أن يسهلوا هذا الانتقال سلميًا بدلًا من شيطنته.

جيوسياسة الملكة فيكتوريا

كان الرئيس البوليفي ماريانو ميلغاريخو (Mariano Melgarejo) رقيبًا سابقًا، وصل إلى سدة الحكم بانقلاب سُمّي golpiste [انقلابي]. في عام 1870، اغتاظ من السفير الإنكليزي الذي رفض توقيع معاهدة في لا باز (La Paz)، فدهنه بالشوكولا، وجعله يجوب المدينة مجزّمًا على ظهر بغل ثم طرده من البلد.

وحينما وصل خبر هذه الحادثة إلى لندن، قررت الملكة فيكتوريا (Victoria) وهي في ذروة قوتها، أن لا تسكت على الإهانة؛ فأعطت الأمر بإرسال زورق مسلح إلى لا باز.

وعندما لفت انتباهها رئيس الوزراء غلادستون (Gladstone) أن لا باز تبعد 500 كلم عن البحر وهي على ارتفاع يبلغ 4000م عن سطح البحر، طلبت الملكة خريطة جغرافية، وبعد أن اكتشفت موقع البلد، محت البلد بجرة قلم وأعلنت: «بوليفيا لا وجود لها».

وهكذا، حتى نهاية حكمها اختفى هذا البلد من الخرائط البريطانية.

لماذا لا تنجح المفاوضات مع إيران؟

تكثر في وسائل الإعلام في الغرب الدعوات إلى ديبلوماسية قمعية، بل حتى إلى الحرب ضد البرنامج النووي الإيراني[22]، كما لو أن تعداد التهديدات الذي قام به جورج بوش في خطبته الشهيرة في 29 كانون الثاني/ يناير 2002 حول «محاور الشر» قد حدّد بصورة نهائية المشهد الاستراتيجي.

باسم الحرب ضد الإرهاب، يحدد بوش البلدان المفترض أنها «تمارس انتشار الأسلحة النووية»، ويقيم بذلك علاقة مصطنعة بين التهديدين؛ فيكون الانتشار صنيعة بلدان محور الشر وحدها: العراق، إيران، وكوريا الشمالية. ومنذ ذلك الحين، يصير من المسموح به أن ينظر إلى الهند وباكستان وإسرائيل كـ «بلدان ناضلة لانتشار الأسلحة النووية». فـ «الانتشار» ليس

(22) Thérèse Delpech, *L'Iran, la bombe et la démission des nations*, CERI-Autrement (Paris: Autrement, 2006), et A. Jahanchahi, *Vaincre le troisième totalitarisme*, Coup de gueule (Paris: Ramsay, 2001).

شرًّا بحد ذاته، لكن يأخذ قيمته من التعريف الأحادي الجانب الذي تقدمه واشنطن. وفي الحقيقة، وقّعت بلدان محور الشر الثلاثة اتفاقية عدم انتشار الأسلحة النووية.

بحسب تعبير شيرين عبادي، المحامية الإيرانية الحائزة على جائزة نوبل للسلام، فإن إيران الإسلامية هي «متلازمة» فرانكنشتاين، أي ذلك الوحش الذي خلقه الغربيون خلال الستين سنة الماضية. ولنذكّر ببعض الوقائع: في عام 1953، فتح الانقلاب الذي نظمته وكالة الاستخبارات الأميركية CIA ضد نظام مصدق المنتخب لمنعه من تأميم البترول، وهذا ما قام به نظام رضا شاه بعد عشرين عامًا، فتح الباب لخمسة وعشرين عامًا من الدكتاتورية. وحصل الشاه على كل الأسلحة الفائقة التطور من الغربيين، وكان مواليًا للغرب، ويؤدي دور الشرطي في الخليج، ولديه جهاز شرطة سياسية فعال (السافاك) الذي يستطيع اغتيال معارضين في الخارج، مثل حراس الثورة اليوم، وتدخّل في مسقط وعُمان ليحمي الملكية الصغيرة الإقطاعية. وساعده الأوروبيون حتى لتطوير طاقة نووية يمكن أن تتحول إلى نووي عسكري بمساعدة البرنامج الفرنسي (Eurodif). لكن نظام الخميني أوقف هذا البرنامج في بداية الثورة، إذ كان يعتبر أن لدى الجمهورية الإسلامية أولويات أخرى، وليس لديها أي احتياج لطاقة من هذا النوع. واستمرت فرنسا بتسديد المال الذي دفعه الشاه لمدة تتجاوز العشر سنوات، مع رفض شرعية النظام الذي تمخضت عنه الثورة[23].

بعد ثورة 1979 تعرضت إيران فورًا إلى العدوان الذي شنه العراق، بدعم من كل البلدان الغربية التي رفضت مساعدة البلد المعتدى عليه، وفرضت عليه الحظر، منتهكة بذلك أحكام الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة كليًّا. في المقابل، أمدت المعتدي العراقي بكل المعدات الممكنة. ولم يحرك الغربيون ساكنًا عندما استخدم صدام حسين الأسلحة الكيماوية للمرة الأولى، لدحر هجوم الباسيج (قوات التعبئة الشعبية المؤلفة من الطلاب) عام 1982 في شبه جزيرة الفاو، في حين أُسعِف بعض الجرحى الإيرانيين في فرنسا. وتثقل الذاكرة الجمعية الإيرانية بالخمسمئة ألف ضحية

(23) «أخفقوا!» هذه هي التعليمة التي أعطاها رئيس الوزراء الفرنسي للدبلوماسيين الذين ذهبوا للتفاوض حول تسديد دين يوروديف (Eurodif) لطهران (حوار مباشر أجراه المؤلف مع أحد المفاوضين الفرنسيين).

إيرانية التي خلفها النزاع، كما الحال عند الفرنسيين بالنسبة إلى ثقل المحاربين القدماء في حرب 1914-1918.

وفي موضوع الإرهاب، تختلف أيضًا تحليلات نظام طهران عن تحليلات الغربيين. وبما أن الحكومة كانت قد تكبدت الاعتداءات التي نظمها مجاهدو خلق، مثل العملية التي قتلت نصف الحكومة عام 1981، فقد قالت بأنها لا تفهم لماذا يوجه الغربيون اللوم لها بخصوص اعتداءات باريس، فيما منحت فرنسا اللجوء السياسي لهذه الحركة التي كانت قد تبنت علنًا اعتداءات طهران.

بعد تحرير الكويت عام 1991، أتاحت عمليات التفتيش الدولية اكتشاف تقدم نظام صدام حسين في البرامج النووية والبكتيرية والكيماوية، الذي كان قد تلقى مساعدة كبيرة من هؤلاء الغربيين ذاتهم: النووي من فرنسا، بدايات الأسلحة الكيماوية من الولايات المتحدة الأميركية... وقد ساعدت الصدمة الناتجة عن اكتشاف كل هذه البرامج طهران حتمًا بأن تقتنع بعدم وجود أي ضمان دولي لديه الصلابة الكافية لتأمين السلام في البلاد واستقلالها. واستأنف البرنامج النووي الإيراني في ذلك الحين هؤلاء الذين نطلق عليهم اليوم اسم «المعتدلين»، أي رفسنجاني وشركاؤه.

أي حاكم تعرض لمثل هذه القصة يستطيع أن يمنع إيران من التفكير في السلاح النووي؟ بالتأكيد ليس فرنسا التي بررت بالطريقة ذاتها النووي الخاص بها. ومهما كان النظام الإسلامي غير مقبول، فلإيران أسباب وجيهة كي لا تعهد بأمنها للضمانات الغربية الدولية التي يقدمها وزراء خارجية مختلفون، مثل الفرنسي دوست بلازي (Douste- Blazy) الذي لم يكن يعرف القصة على ما يبدو. ولا تحترم إيران القانون الدولي بالتأكيد! فهي تطبق منطق القوة الذي يبرهن لها الآخرون كل يوم أنه المنطق الوحيد الساري. وهي ليست الوحيدة إذًا! وسنلاحظ عرضًا مفاده أن الاجتياح الأميركي للعراق جرى بانتهاك تام لميثاق الأمم المتحدة.

إن كان هنالك دول يمكن أن تُعَقّل أحمدي نجاد فهي بالتأكيد ليست الدول الغربية. وحينما حاول الرئيس البرازيلي لولا (Lula) ورئيس وزراء تركيا أردوغان (Erdogan) التوسط، كان على سلطات الدول الغربية المسؤولة عن أخطاء كثيرة، أن تتحلى بكرامة الالتزام بالصمت.

العدو الحميم: الحروب الأهلية

«أنا الحرب الأهلية. مللت من رؤية هؤلاء المغفلين يتبادلون النظرات على خطين متواجهين، وكأن الأمر يتعلق بحروبهم الوطنية الغبية. أنا لست حرب الأدغال والحقول، أنا حرب الميدان الموحِش، حرب السجون والشوارع، حرب الجار على الجار، حرب الخصم على الخصم، حرب الصديق على الصديق، أنا الحرب الأهلية، أنا الحرب الصالحة التي نعرف فيها لماذا نقتل ومن نقتل: الذئب يأكل الحمل، ولكن لا يكرهه، في حين أن الذئب يكره الذئب. أصلحُ وأنشّط الشعب من جديد، هنالك شعوب اندثرت في حرب وطنية، ولكن لا توجد شعوب اندثرت في حرب أهلية».

هنري دو مونتيرلان (Henry de Montherlant)
الحرب الأهلية (1965) (*La Guerre civile*)

في الحرب الأهلية، يكون العدو حميمًا. وستكون آلية التمييز العدواني فيها، والتي ستبرر العنف، أشد، وأساسية أكثر مما هي عليه في النزاعات الأخرى. ويصبح العنف سلسلة متصلة تبدأ بالسلام، حيث الحرب ما هي إلى ذروته، وهي تستمر أحيانًا بعد النزاع من خلال القمع الذي تمارسه الجهة المنتصرة. ولا تميز هذه الحرب التي تُشَن من دون إعلان مسبق، بين خط الجبهة والصف الخلفي، وتكون المجازر عبارة عن ردات فعل استباقية معممة. والعلامات الهوياتية الفارقة في الحروب الأهلية هي: العائلاتُ والمثقفون والمؤسسات الدينية أكثر من الجيوش أو الاستراتيجيين. وهنا تستمر ذكريات المجازر السابقة، مثل نار تحت التراب العضوي في الأعماق والذي ينفجر بعد عملية بلورة بطيئة. وتؤدي الأزمة السياسية دور العنصر الذي يشعل الفتيل.

إذًا، تمثل الحرب الأهلية تطهيرًا فصاميًّا، عبر توكيدها هوية إقصائية لجزء من الجسم الاجتماعي ضد أي جزء آخر، والهدف هو إقصاؤه جغرافيًّا أو جسديًا. «على نقيض الفكرة الشائعة، نحن لا نجد أفضل الأعداء وفق الاختلاف ولكن وفق الشبه والقرب»، كما كتب ميشال هاستينغ (Michel Hastings) في **متخيل النزاعات بين الجماعات** (*L'Imaginaire des conflits communautaires*).

الحرب الأهلية هي بالفعل، نزاع بين الـ «هم» في مواجهة الـ «نحن» في فضاء مغلق، مع العلم أن الفريقين متشابهان.

يندرج علم نفس الحروب الأهلية في الزمن الطويل لتاريخ مشترك يشبه التكرار الطويل لثورات وعمليات قمع، ومجازر، ومجاعات، وعمليات طرد، وعمليات تمييز متبادلة. فالحرب الأهلية هي أولًا حرب اجتماعية، ذلك أن الإبادة الجماعية عام 1994 في رواندا قد سبقتها مجازر الأعوام 1959، 1963، 1972، و1973، وبدرجة أخف 1992، و1993، وكانت تؤدي كل مرة إلى عملية طرد للناس وتوزيع جديد للأراضي. وتركت حكومة الملكة فيكتوريا البريطانية، الأكثر ثراءً في العالم في تلك الحقبة، السكان المحليين في إيرلندا عرضة لـ «المجاعة الكبرى» التي سببها مرض البطاطس، من دون أن تحرك ساكنًا. إنه نوع من الـ Holodomor قبل أوانه (أي الإبادة من طريق المجاعة). وبين عامي 1848 و1851، قضت المجاعة على 500.000 إلى مليون ضحية، وأدت إلى نزوح مليوني شخص تقريبًا نحو أميركا. ولذا نفهم لماذا ساعد شعب الشتات الإيرلندي الأميركي جيش التحرير الإيرلندي كثيرًا.

لم تُقْدم يوغوسلافيا تيتو على أقل من ذلك. ففي عام 1945 بعد المذابح بين الأوستاشيين الكرواتيين (Oustachis Croates) والتشيتنيكيين الصربيين (Ttchetniks Serbes)، إبان الحرب العالمية الثانية، طلب تيتو أن يسلم له اللاجئون في النمسا. وأرغم الحلفاءُ 12.000 إلى 15.000 سلوفيني ومنهم أعضاء في الميليشيا القديمة، و7000 صربي، و150.000 إلى 200.000 كرواتي ومن بينهم 40.000 أوستاشي أن يجتازوا الحدود مرة أخرى في الاتجاه المعاكس. وخلال أربعة أيام من السير القسري، والذي يحمل هذا الاسم الجميل «المسيرة البيضاء» توفي نحو 120.000 شخص من الإرهاق أو أعدموا. وتجسدت أول سنة من الحكم الشيوعي بموت 700.000 شخص من بينهم 260.000 عبر عملية إعدام سريعة. ومُسحت بعض قرى كوسوفو التي كان يسيطر عليها المسلحون المناصرون لألبانيا الكبرى (القريبون من الألمان) وذُبِح سكانها.

لقد عاشت الجزائر أيضًا الظروف التي تسبق حربًا أهلية، وقسوة حرب الاستقلال، والمجازر بين الحركيين والمجاهدين، ومختلف عمليات التضليل التي قام بها الجيش الفرنسي، والتي أدت إلى عمليات تطهير دموية، فقُتل 150.000 حركي وعائلاتهم الذين تخلى عنهم الجيش الفرنسي وذُبِحوا كخونة، عند الاستقلال، هذا إضافة إلى مظالم سياسة التعاونية الاشتراكية (collectivisation socialiste) والتمدين العشوائي من دون صكوك ملكية، والذي أعقبته عمليات طرد، والى النقص في المساكن و«الصلاحيات الإدارية» وفساد النخب... كل ذلك جعل من هذه الدولة بلدًا غنيًا سكانه فقراء. وكان الشباب المحروم من الحياة الجنسية جراء القمع الأخلاقي، ومن الثقافة جراء فشل النظام التعليمي، ومن الزواج بسبب النقص في المساكن، ومن العمل بسبب البطالة الدائمة، ومن السياسة بسبب جبهة التحرير الوطنية التي استحوذت على السلطة، كان يتألف من عاطلين عن العمل يسمون «الحيطيين» (أي باللهجة الجزائرية حرفيًا الذين يسندون الحيطان، وهذا تعبير فكاهي للإشارة إلى الشباب العاطلين عن العمل). وكانت هذه الحالة هي الحضن للثورة الاجتماعية التي اندلعت عام 1988، ولمناضلي الإسلاموية ثم للحرب الأهلية.

نلاحظ الميزات ذاتها للعنف الاجتماعي في الحروب الأهلية في أميركا الجنوبية، ومن المحتمل أن تكون حرب الألف يوم (1899 إلى 1902) ثم (*la violencia*) الكولومبية (1946-1957) قد أسفرت عن 100.000 إلى 300.000 قتيل على هيئة ثورات فلاحين، واغتيالات نقابيين، ومذابح ميليشيات كبار المالكين....

يروي الناجون من هذه المجازر كلها لأولادهم ما حصل لهم، وهم رجال ونساء المستقبل الذين يقع على عاتقهم من الناحية الأخلاقية الانتقام من قتلة الأجداد. وهذه الذاكرة الخفية للمجازر تحفظها محددات الهوية المتمثلة بالوسط العائلي، وبالمحاربين القدماء، وبالكنائس، مهما كانت الأيديولوجيا الموحِّدة لدى النظام. وكانت «التيتوية» قد فرضت، لمدة أكثر من أربعين سنة، الفكرة اليوغوسلافية التي تكونت في أثناء مقاومة الاحتلال الألماني. بيد أن الهويات الصربية والكرواتية والسلوفينية استمرت في الوجود. وتبرهن

سرعة تذكر صور التشيتنيكيين والأوستاشيين أن الذكرى كانت راسخة، وليس بالضرورة بحسب مجموعة الصور التي نشرها النظام.

ونجد استمرار الحميمية أيضًا في المدرسة. ففي إيرلندا الشمالية ثمة 90 في المئة من الأطفال لا يزالون يذهبون إلى مدارس دينية غير مختلطة مذهبيًّا.

التعريف الرسمي للهوية الوطنية هدّأ وخلق ظروف الأزمة في آن، فالتيتوية [نسبة إلى تيتو] اليوغوسلافية التي صُنّعت في أثناء المقاومة أسست النظام الجديد على الأيديولوجيا الشيوعية، وعلى التقسيم إلى دول يفترض فيها أن تأخذ في الحسبان الهويات الوطنية مع كبح القومية الصربية. وشكلت رابطة الشيوعيين اليوغوسلافيين، والشرطة السياسية، اللحمة القسرية للبلد. لكن لم ينجح الأمر. وشكّل ظهور «السكان المسلمين» (مع التشديد على كلمة مسلمين) في إحصاءات السكان اليوغوسلافية بهدف تحديد سكان لا يعتبرون صربًا ولا كرواتيين، أحد المؤشرات لبداية النزاع الإثني الديني الذي سينفجر في ما بعد. وكانت الجزائر تُعَرَّف عند استقلالها كدولة عربية، في حين كانت حصة البربر، من كل الفئات على الأرجح، تشكّل الأكثرية فيها. واختار لبنان أن يميز بين الهويات الدينية والقبلية على أساس ديموغرافي جامد. فالإحصاءات السكانية المنتظمة للسكان المتأرجحة دومًا بين الاعتراف بهويات مختلفة و«وسم» السكان المنتمين للأقلية، أصبحت سببًا لنزاعات محتملة، إلى أن اتخِذ القرار بإيقاف الإحصاءات، أي بكسر ميزان الحرارة...

وعليه، فإذا كانت الهوية الوطنية صعبة التأسيس، فإن مجموع الهويات المختلفة يتعايش بصورة سيئة. ففي إسبانيا عادت دعوات الحكم الذاتي الكاتالاني والباسكي إلى الحياة قبل الحرب الأهلية. وكان التمييز في رواندا بين الهوتو والتوتسي موجودًا قبل الاستعمار البلجيكي، وسيستمر طويلًا في وثائق الهوية. وقد وضع الغزو الذي قام به كرومويل (Cromwell) في القرن السابع عشر، الفرق بين الكاثوليك الإيرلنديين من جهة والبروتستانت الإنكليز والبرسبيتيريين (الكنيسة المشيخية) الاسكوتلانديين من جهة أخرى. أما الكرواتيون الكاثوليك والصربيون الأرثوذكس المنقسمون منذ الفصل بين الإمبراطورية الرومانية

الغربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومن ثم الانشقاق عام 1054، والحدود بين الإمبراطورية النمساوية الهنغارية والإمبراطورية العثمانية، فينتمون إلى الديانة ذاتها ويتكلمون اللغة ذاتها مكتوبة بأبجدية مختلفة، على الرغم من أنهم لم يجتمعوا إلا عند أول مملكة للصرب والكرواتيين التي أنشئت عام 1919. ولم يمنعهم ذلك من ذبح بعضهم بخفّة في نهاية القرن العشرين.

إن دور الميثولوجيين مهم في توليد الأزمة، فقد أدى المثقفون، بل حتى أحيانًا المثقفون المنشقون عن النظام القديم، والسلطات الدينية، وآخرون، دورًا أساسيًا في مسيرة الفصل والدعوة إلى العنف. وها هو التاريخ يُكتب من جديد أولًا عبر موشور إثني أو اجتماعي، يكتبه مثقفون يعيدون إلى الحاضر الحالي أساطير ماضية. وهكذا، فإن وضع الضحية التي يصف بها القوميون المتطرفون صربيًا، تعود على الأرجح إلى القرن السادس عشر[24]. ويرجح أن يكون الكاتب الصربي دوبريكا كوزيك (Dobrica Cosic)، المنشق القديم عن حكم تيتو، وملهم مذكرة أكاديمية العلوم، هو مؤلف الجملة الشهيرة: «ربح الصرب الحروب دومًا وخسروا السلام». كما كُتب في رواندا منذ عام 1957 بيان الباهوتو، وهو نص يتسم بعنصرية وقحة لتبرير المجازر (انظر النص المؤطر لاحقًا). ودارت حرب إسبانيا التي قام بها الفرانكيون تحت راية «الحملة الصليبية والاستعادة»، وكأنه بعد طرد العرب واليهود كان يجب طرد العمال والفقراء.

الآخر المبيد العرقي

يظهر الاتهام بارتكاب الإبادة الجماعية سريعًا في الخطاب الفصامي المتعلق بخلق العدو. وقد استخدمته الكنيسة الأرثوذكسية الصربية للمرة الأولى عام 1987 لذكر ظروف حياة أبناء الدين ذاته في كوسوفو. ولا يتردد ميلوسوفيتش الذي كان يتكلم على الشعب الصربي وكأنه «شعب سماوي»، وتودجمان الذي كان يصف العرق الكرواتي بأنه «الأقدم والأنقى نبلًا في أوروبا»، في التحدث عن الإبادة الجسدية، والسياسية، والقانونية لشعبهما.

(24) Diane Masson, *L'utilisation de la guerre dans la construction des systèmes politiques en Serbie et en Croatie: 1989-1995* (Paris: L'Harmattan, 2002), p.106.

وهكذا كان زعماء الحرب الأهلية الآتية، يمرون فوق رؤوس كوادر البلد التي كانت ما تزال تيتوية.

تبلور الأماكن الفكرية للسلطة (الأكاديميات، الجامعات، والتلفزيون العام) ووسائل الإعلام التي ستبث يوميًا خطاب الحقد، تبلور الأيديولوجيات. فمثلًا كانت إذاعة «Mille collines» في رواندا تتكلم على التوتسيين وكأنهم «صراصير» أو «بنات وردان»، وكانت الصحف الوطنية اليوغوسلافية تتبادل التهم بين الأوستاشيين والتشيتنيكيين. وأشاعت وسائل الإعلام الخوف من اقتراب العدو، فكان يشار إلى صرب كرواتيا وكأنهم مواطنو «دولة أخرى»، وبالتالي أعداء للدولة الكرواتية الجديدة. وتعود أسطرة «انتحار العرق»[25] للظهور خارج الواقع. وتشعر فئات الناس المختلفة بالتهديد من الأقليات التي لديها نسبة ولادات عالية، فالصرب، وهم أقلية في كوسوفو، قلقون من نسبة الولادة عند الكوسوفار. كما توقف لبنان عن إحصاء سكانه منذ عام 1960 لكي لا يبرز الظاهرة المسلمة، حيث أصبح المسلمون أكثرية، ما يستدعي إعادة النظر في التوازن الدستوري.

يمكن تحميل مسؤولية الحرب لمؤامرة دولية، ومن البداهي أن يكون الجمهوريون الإسبان في الحرب الأهلية «حمرًا» في نظر الموالين لفرانكو. وبنيت حملة انتخاب ميلوسوفيتش في بلغراد عام 1992 حول موضوع: «لا تخوض صربيا حربًا، بل المجتمع الدولي هو الذي يهاجمها من خلال فرض عقوبات عليها!» وكان يريد أن يثبت بأن المجتمع الدولي يدعم السلوفيين والكرواتيين ويعترف باستقلالهم! واتخذ النزاع، إذًا، اسم «حرب الدفاع عن الوطن» في صربيا، كما في كرواتيا. ويقول تودجمان رئيس كرواتيا المستقلة، في عدد جريدة **الفيغارو** المؤرخ في 18 كانون الثاني/ يناير 1993: «دافَع الكرواتيون (...) خصوصًا عن المناطق الكرواتية في البوسنة والهرسك. واليوم يشعرون أنهم مهددون بتطلعات المسلمين لتأسيس دولة إسلامية (...). يوجد في صفوفهم متطوعون مجاهدون من بعض البلدان مثل باكستان أو

(25) Paul Schor, *Compter et classer: Histoire des recensements américains*, Ecole des hautes études en sciences sociales (Paris: Ramsay, 2009).

إيران. ويعتمد الرئيس عزت بيغوفيتش (زعيم البوسنيين) على دعم البلدان الإسلامية»، وكأنه يجعل موضوع المؤامرة الدولية يسير «على الموضة» بإعطائه وجه الإسلاموية المهدِّد.

نلاحظ أن السلطات الدينية متورطة بصورة مباشرة في تفتيت المجتمع من خلال دورها كمحددات للهوية. ففي إسبانيا، شرعنت الرسالة الرعوية لأسقف سالامانك بلا إي دانيال (Pla Y. Daniel) في 30 أيلول/ سبتمبر 1936 مصطلح «الحملة الصليبية» الذي استعمله فرانكو، ثم أضافت السلطات الكنسية الكاثوليكية طبقة في رسالتها الموجهة إلى العالم الكاثوليكي، متهمة الجمهوريين بـ «المساس بحق الله». ومنذ 1982 بعد وفاة تيتو بمدة وجيزة، نشرت الكنيسة الأرثوذكسية الصربية «نداء لحماية صرب كوسوفو وأماكنهم المقدسة»، ثم في نهاية الثمانينيات، ناقشت موضوع العفو عن الجرائم التي اقترفها الأوستاشيون الكرواتيون خلال الحرب العالمية الثانية، أي قبل ذلك بأربعين سنة. ولقد دعمت السلطات الكنسية الكاثوليكية الأوستاشيين، وبذلك كانت العودة إلى العداوة بين فرعين من فروع المسيحية.

أسهمت المواقف الدينية المتخذة، بشكل غير مباشر أيضًا، بجعل الأزمة تزداد سوءًا، فالسلطات الدينية تهدف بمعارضتها إجراءات تحديد النسل خصوصًا، إلى زيادة حجم رعيتها، حتى حين يصب ذلك في إعادة إحياء الأزمة كما في رواندا (سبعة أطفال لكل امرأة وسطيًا في التسعينيات). وتدفع إلى التمييز، حتى حين تكون متأتية من العائلة الدينية ذاتها: الكاثوليك ضد الأرثوذكس في يوغوسلافيا ورواندا. الكاثوليك الموالون للبابا ضد البروتستانت في إيرلندا الشمالية، الشيعة ضد السنة في العراق وفي باكستان، ومؤخرًا قمع المملكة العربية السعودية الوهابية للشيعة الثائرين في البحرين... وقد استنكرت الكنيسة الأرثوذكسية الصربية مختلف خطط السلام، ومن بينها خطة دايتون (Dayton)، حيث إن مواضيع الوعظ الدينية (التي يمكن نقلها إلى كل مكان) نددت بالمؤامرة الدولية التي يحوكها «كارهو الصرب»، و«كارهو الإسلام»، و«المعادون للسامية»، وبتخدير المجتمع الحديث، تلك المؤامرة التي لا يمكن أن تكبحها إلا العودة إلى التقليد الديني. وهذا الموضوع يتكرر عند الإسلاميين الذين يرفضون عجز الاشتراكية العربية ويدينون «حداثتها».

يحمل حشد الشتات المؤلف من ذرية الضحايا الذين فروا من المجازر السابقة، ذكرى سيرة الشهداء، ويحرك الرأي العام الأجنبي، ويرسل المال كما فعل الشتات الإيرلندي في الولايات المتحدة على سبيل المثال. ويمكن للشتات أيضًا أن يقدم مساعدة عسكرية ومالية مهمة كما في شرق الكونغو، إلى حيث لجأت ميليشيات الإنترهاموي التي قامت بالإبادة الجماعية الرواندية. وحث الشتات على الحرب وعلى الانفصال منذ ظهور التصدعات الأولى، كما حثت جمعيات كرواتيي ألمانيا والولايات المتحدة على العمل على الاعتراف باستقلال كرواتيا عام 1991. إن دور جماعات الشتات السياسي قوي؛ إذ إن هذه الجماعات تقيم تحت أنظمة ديمقراطية.

أما «الآخر» فزائد ويجب أن يلغى من الفضاء الجغرافي المشترك. وتؤدي «الأرض» دورًا أساسيًا في التصلب التدريجي للعداءات، حيث تتجذر الحرب الأهلية الإسبانية، على غرار أكثر الحروب الأهلية في أميركا الجنوبية، في الإصلاحات الزراعية التي لم تحدث البتة: نظام إقطاعي زراعي (latifundiaire) تعيش منه ارستقراطية من طبقة النبلاء أو البرجوازيين، ومستوى حياتهم استثنائي بالنسبة إلى سكان الأرياف البائسين. وفي رواندا، تؤدي كل مجزرة ناجزة إلى إعادة توزيع الأراضي الزراعية، فيحتل المنتصرون الأرض ويطردون منها المهزومين. هكذا تولد شروط الحرب المقبلة، فيذكر المطرودون، ليس من دون حق، أن الأراضي المتنازع عليها هي أراضي أسلافهم. وقد وضع ميلوسوفيتش مبدأ يقول: «صربيا هي كل أرض دفن فيها صربيون». ونجد هذا الموضوع في بلجيكا بشكل تحديد المقاطعات المحيطة ببروكسل، المدينة الناطقة بالفرنسية. وفي يوغوسلافيا سوّى تيتو المسألة بإقامة فدرالية الدول المؤسِّسة. لكن مباشرة بعد رحيله، أنكر القوميون المتطرفون (ultranationalistes) من كل جانب وجود البوسنة، الدولة الحاجزة. وطالب بها تودجمان تحت عنوان «الكرواتية» مستعيدًا بذلك الفكرة التي أعلن عنها أنتي بافليك (Ante Pavelic) في أثناء الحرب العالمية الثانية، كما أعلن عنها ميلوسوفيتش بعنوان القومية الصربية. وتشكل مدينة القدس ملخصًا عن الحروب الأهلية المتعلقة بالمكان. تحيط الأحياء اليهودية بالأحياء العربية، وتحث السلطات أبناء الدين ذاته من الأميركيين على الحصول على مساكن أحيانًا لم تسكن كثيرًا، لتغيير المعطى

الديموغرافي للمدينة، فيما يتقاتل الكهنة الأرمن مع المطارنة الأرثوذكس في باحة كنيسة القيامة من أجل شمعدان غُيِّر مكانه، وتفرق الشرطة الإسرائيلية بينهم.

يتخذ النبذ التمييزي للآخر أشكالًا ظاهرة للعيان. والدليل على ذلك هو الفصل الجغرافي أو الإداري بين الجماعات المختلفة. ونلاحظ الأمر ذاته في الأمكنة المعزولة (الغيتو) المخصصة للكاثوليك في مدن إيرلندا الشمالية. ففي لندنديري أو بلفاست، تحتل الأحياء الفقيرة المناطق المنخفضة، وتنتشر فيها مساكنٌ إيجاراتها معتدلة يقطنها كاثوليكيون. وتكرِّم تضحيات الأبطال الرسومات الجدارية التي تمجد جيش تحرير إيرلندا، وتفصل الأسلاك الشائكة المدينة العليا عن السفلى. وتمر الأثننة (ethnicisation) الزاحفة أولًا عبر ثورة رموز مثل أسماء الشوارع، واختيار العلم الإقليمي، و«تنقية» اللغة الإقليمية... ولا ريب أن إبراز الهوية هو تصرف استفزازي عن عمد، كما في إيرلندا حيث تعبر المسيرات البرتقالية (بروتستانتية) الأحياء الكاثوليكية مع دعم من الشرطة الإنكليزية. وفي بلجيكا اليوم، يسري رمز السكن wooncode ومبدأ «Streek Wonen in Eige» (أي كل يسكن في منطقته) الذي يسمح برفض السكن لشخص لا يتكلم لغة الفلامنكيين، بهدف الفصل الفيزيائي بين الجماعات. ويظهر الإقصاء في كاتالونيا عبر رفض التكلم باللغة الكاستيلية، أيًا كان المخاطب. وفي عام 2009، تعرض فريق من المدرسين في التعليم الحكومي لمنطقة الباسك الى رفض تمديد عقودهم بحجة أنهم (أنهن) لم ينجحوا في اختبارات «المستوى اللغوي». إنه التمييز العرقي ببرودة الذي يستمر في الحياة اليومية. «إنهم أناس يشعرون بسرعة أنهم مضطهدون ويهجمون عليكم عند أي شك بتكدير محتمل»، هذا ما تلاحظه كريستين هميريشتس (Kristien Hemmerechts)، الكاتبة الفلامنكية حين تتكلم على القوميين وعلى الجماعة التي تنتمي إليها.

تعمل المرحلة الثانية على مقارنة وضعية الإثنيات المختلفة وتتولد عنها مطالب متفاوتة. وقد صرح ميلوسوفيتش قائلًا في 16 كانون الثاني/يناير 1991[26]: «سيعيش الشعب الصربي في دولة واحدة، وكل شعب يرغب في العيش مع الشعب الصربي بالتساوي مرحب به». ويكفي أن نستبدل الصربي

---

(26) Masson, Ibid., p. 90 et 104.

بالكردي أو بالفلامنكي أو الإسرائيلي لنجد أنفسنا في بلدان الشرق الأدنى، في بلجيكا أو في إسرائيل الحالية. وتطرح هذه المسلّمة فورًا مسألة الأقليات الذين يعيشون خارج الأراضي القومية، مثل الناطقين بالفرنسية في بلجيكا الفلامنكية، وصرب كراجينا الكرواتيين، وكرواتيي صربيا، وهنغاريي رومانيا الذين يشكلون أول هدف لأعمال العنف عندما يطغى العنف على الأزمة...

وتعاني الآلية السياسية من الانقباض منذ بعض الوقت. فالأرستقراطية التقليدية من ملاكي الأراضي تكبح أي تطور، وهكذا فإن عائلات إقطاعية كبيرة من باكستان أو من أميركا الجنوبية، تتناقل السلطة بصورة عائلية كأنها ملَكية لتجنب كل إصلاح يمكنه تهديد سيادتها. وفي أميركا اللاتينية وفي إسبانيا، ينظم الوجهاء المحليون حصرًا الحياة السياسية بين حزبين، ويحولون العملية الانتخابية إلى ممارسة غير مجدية. وتطبع التدخلات العسكرية من اليمين أو من اليسار الحياة السياسية في أميركا الجنوبية. وفي أفريقيا السوداء التي تقع في جنوب الصحراء الكبرى، ينظم الكثير من النخب القبلية ممارسة الحكم حول قبيلته، مستثنيًا كل القبائل الأخرى، ويسعى إلى الحصول على أقصى حد من المنافع بأسرع وقت ممكن، ويستغيث بفرنسا حين تلوح الحرب الأهلية. وهكذا تستمر باريس منذ أربعين سنة في «حل الأزمة التشادية».

تشكل الأزمة السياسية العامل المسبب للحرب الأهلية. ففي يوغوسلافيا ما بعد تيتو، شلّ الانحلال التدريجي للفدرالية بالكامل سير بلد يعاني من أزمة اقتصادية عميقة. وكانت الدكتاتورية تقلص الهويات بالقوة، والعملية الديمقراطية تُحرّرها. وأثارت الدمقرطة النزاعات من خلال تحويل الرعايا السابقين إلى مواطنين يطالبون بـ «حقوقهم». وقد تجسدت أزمة الأحزاب السياسية الاتحادية بحركات ثقافية أو حركات تتعلق بالهوية مثل «الربيع الكرواتي» في 1971، و«الربيع القبيلي» (في الجزائر)... إلخ وأشعل تفكك الإمبراطورية السوفياتية في الدول المحيطة بها، في المناطق الحدودية، من جديد حروبًا أهلية كانت كامنة كما هو الوضع حاليًّا في قرغيزستان، حيث يطالب كل مكون من مكونات المجتمع بحقوقه ومنها حقه الحصري على ما يعتبره «أرضه». وتتقدم

المسائل الإثنية بشتى صفاتها الدينية أو اللغوية، على المسائل الاجتماعية أو الطبقية. وتضع الأحزاب السياسية الجديدة والجمعيات لنفسها هدفًا مؤسسًا وهو رفاهية جماعتها على حساب الآخرين. وفي يوغوسلافيا في التسعينيات، أصبحت البنى الفدرالية مكانًا لبلورة الهوية كلما طرحت مسألة إطلاق الحريات السياسية. وثارت أسئلة حول ما هي الأحزاب التي سيسمح بها؟ أهي إثنية أم وطنية؟ ونشأت أنواع مختلفة من الأحزاب: أحزاب مختلطة تجمع ما هبّ ودبّ وليس لها برنـامج، سوى التنديد بـ «الدكتاتورية» وهذا من علامات الشعبوية والعنصرية (مثلًا: ميلوسوفيتش أو جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر)، وكذلك أحزاب تاريخية تولد من جديد وتقول إنها متأتية من نزاعات قديمة مثل حزب جوديب (Joddipp) في هنغاريا، ووريث حزب الأميرال هورثي (Horthy) وجماعة الصلبان السهمية، وأحيانًا أيضًا الأحزاب البيئية المناطقية، مثل جبهة التحرير الوطنية لكورسيكا (FLNC) في كورسيكا، وعصبة الشمال في لومبارديا...

ويبالغ الزعماء التقليديون الذين يُعترَض عليهم من خلال هذه التطورات السياسية في المسألة الإثنية كما الأمر في لبنان، حيث تمتلك الطبقة السياسية الوراثية سلطتها من استمرار الانقسامات الإثنية. وحين توجد أقلية ثالثة تحاول عملية الأثننة دمجها. وهكذا في 25 آذار/مارس 1991 التقى تودجمان، الزعيم الكرواتي، وميلوسوفيتش الزعيم الصربي ليتقاسما البوسنة. وفشل النقاش لأن المسلمين البوسنيين بالنسبة إلى الأول هم كرواتيون اعتنقوا الإسلام، وبالنسبة إلى الثاني هم صربيون اعتنقوا الإسلام. واستولى على المواضيع الإثنية جيل سياسي جديد، يبحث عن الشرعية وعن صلة مباشرة مع «الشعب»، وغيّر الخطاب. وهكذا أدى لوران غباغبو (Laurent Ghagho)، وإلى أقصى حد، لعبة الانتماء لساحل العاج، في حين أدين عزت بيغوفيتش بسبب كتابه مذكرة إسلامية. ويبالَغ في تقدير المحددات التي يمكنها تمييز جماعة وطنية عن جيرانها (المعايير الدينية، والجسدية، واللغوية، والإشارات الرمزية، والإعلام)، فتتحول الهوية إلى أسطرة. وتخلق ذكرى مناسبة ما، اللحظة الرمزية الخاصة بالهوية. في عام 1989 أتاحت الذكرى الستمئة لمعركة كوسوفو بولي (Kossovo Polje)، التي انتهت فيها مملكة صربيا بعدما هزمها الجيش العثماني، لميلوسوفيتش الوصول إلى الرأي العام الصربي، من خلال ذكره وضع الأقلية

الصربية لكوسوفو، وتقديم الكوسوفار كأخلاف للغزاة العثمانيين. وشارك، على الأرجح، في الرحلة لهذه المناسبة سبعة آلاف عضو من الشتات الصربي. وقد أعلن ميلوسوفيتش عندئذ عن برنامجه: «لا أحد لديه الحق باضطهاد هذا الشعب (الصربي)!». وفي مناطق كرواتيا الصربية، أقيم الاحتفال أيضًا بالذكرى، لكن في المقابل أثار هذا الاحتفال ازدراء السلطات الوطنية الكرواتية.

عبادة العنف

حتى في أوقات السلام، تصبح التظاهرات العامة العنيفة نوعًا من طقوس العبور (الانتساب لعالم البالغين) بالنسبة إلى الشباب الذين نشأوا على تقديس الذكرى، والقمع الزائف. ويُبلور بعض الحوادث الاستبدالية مرحلة ما قبل الحرب كمعارك بين مشجعين، أي كنوع من تسوية حسابات رمزية حول مباريات كرة قدم بين فريقين صربي وكرواتي. ويؤدي تورط الشباب التدريجي الذي يزداد قوة، عبر شبكة دعم «المقاتلين»، وتأمين المخابئ وحمل «الحقائب»، يؤدي بالتدريج إلى الفعل العنفي. وفي منطقة الباسك، أصبح العنف أو الكال بوروكا (Kale Borroka) (العنف المديني الذي هاجم كوى المصارف، وخرب مرافق المدينة الخاصة بالاستخدام العام، وهي ملك الدولة، وحطم واجهات المخازن، وأحرق حاويات النفايات...) الذي تمارسه الجماعات الراديكالية المقربة من ETA طقسًا للمقاتلين (etarras) الشباب. وبحسب دراسة قدمت في تشرين الثاني/ نوفمبر 2009 حول «نقل القيم إلى القاصرين»[27]، والتي أجراها الوسيط إينيغو لاماركا (Inigo Lamarca) على عينة من 1829 طفلًا تراوح أعمارهم بين اثنتي عشرة وست عشرة سنة، تبيّن أن 30 في المئة منهم يرفضون إدانة الإرهاب، و15 في المئة يجدونه مبررًا، ورأى 12 في المئة أن أعمال منظمة بلاد الباسك والحرية (ETA) جيدة لبلاد الباسك. ويشير التقرير إلى أن العائلة هي التي تنشر هذه الثقافة وغالبًا الأم أكثر من الأب. فمنذ أكثر من أربعين سنة نتج عن الظاهرة الإرهابية المرتبطة بمواقف قومية متطرفة للـ ETA أكثر من 1000 قتيل، و7000 جريح، والعديد من الأضرار المادية ومعاناة شديدة لدى

---

(27) www.elcorreo.com

السكان، في حين تتمتع المنطقة باستقلالها الذاتي، بشرطتها الخاصة وبلغتها، وهي من أكثر المناطق ثراءً في إسبانيا.

تحوّل العنف الاجتماعي شيئًا فشيئًا إلى عنف حربي، وتفتت احتكار الدولة لقوة السلطة المركزية وحلت محله الميليشيات، ورفض الجميع الدولة المركزية، وانحل الجيش الوطني اليوغوسلافي بعد استقلال سلوفينيا. وفي لبنان، جعلت التظاهرات، عند وفاة جمال عبد الناصر عام 1971، الناس يدركون وجود عدد كبير من الأسلحة بين أيدي الناس، وبدأ المسيحيون ينتظمون في ميليشيات مسلحة من أجل حرب لم تبدأ إلا بعد ذلك بسنتين(*). ويقدر جورج قرم أن في لبنان، حتى قبل الحرب الأهلية، كانت الميليشيات المختلفة تعبئ تقريبًا 10.000 شخص (0.3 في المئة من السكان)، في حين لم يكن تعداد الجيش اللبناني يتعدى الخمسة آلاف رجل. وتدّعي الميليشيات أنها تتكفل بحماية الفئة التي تنتمي إليها. وهكذا فقد وجهت ميليشيا أركان (Arkan)، وهو من أسوأ زعماء الحرب الصرب، نداء يقول: «صربيو كرواتيا يطلبون النجدة!» وهذا هو المؤشر الأكثر دلالة للسير باتجاه العنف. ومنذ ذلك الحين ستميل استراتيجية الجميع إلى التطهير العرقي من خلال التحريم، أو الخوف، أو المجزرة «الاستباقية». وتماهت البروليتاريا الدنيا مع هذا الخطاب الشعبوي ضد عدو قريب، وتشكلت قوة الضرب عند هذه الميليشيات ذات الأسماء البراقة: نمور أركان، العقارب الصربية، الـ interahamwe (أي «الموجودون معًا») في رواندا، ميليشيات «Muerte a los secuestradores» (الموت للمختطفين) التابعة لزعماء تجار المخدرات والمجموعات شبه العسكرية في كولومبيا ومجموعات الماي ماي (Mai Mai) في الكونغو أو فرسان الجنجويد في السودان... حتى الجيش نفسه الذي مزقته التطورات السياسية تحوّل إلى ميليشيات.

تمثل مذابح التطهير العرقي عنفًا استباقيًا لتحرير «لأرض» التي تجسد الهوية. وقد صرح أحد العسكريين البيض لشرح قتل السود إبان حكم الأبارتهايد[28] أمام لجنة جنوب أفريقيا للمصالحة: «لم نستلذ مطلقًا بفعلنا

(*) توفي عبد الناصر في أيلول 1970 والحرب الأهلية اللبنانية بدأت عام 1975 [المراجع].

(28) Desmond M. Tutu, *Il n'y a pas d'avenir sans pardon*, Spiritualités vivantes (Paris: Albin Michel, 2000), p. 129.

هذا، لم تكن لدينا أي رغبة في القيام بذلك، لكن كان يجب منعهم من قتل النساء والأطفال الأبرياء». فالعنف هو قبل كل شيء واقعة جيرة عبر قتل الجار، ويلي ذلك تهجير السكان. وتشتد الحرب الشاملة من دون أي تصريح رسمي. ويصبح القتل قاعدة سلوك؛ فقد صرح مفوض سياسي خلال الحرب الإسبانية[29]: «ماذا يمكن أن نفعل بضابط فاشي حسب اعتقادك؟ على أي حال لا وجود للسجناء في الحروب الأهلية».

تندلع الحرب جراء حادث قتل حقيقي أو مفترض. فقد بدأت مذبحة المور (Maures) في السنغال، وسط داكار عام 1989 جراء إشاعات مفادها تعرّض قسّين سنغاليين إلى تشويهات جسدية وبتر أعضائهما في منطقة النهر le Fleuve. وتهدف المذابح، أكانت في غيرنيكا أو في فيكوفار إلى إرهاب الخصم لإخضاعه أو إرغامه على الرحيل. وقد أعلن البلاغ الخاص رقم 1 للجنرال مولا (Mola) في 25 أيار/مايو 1936 والموجه لفرق فرانكو: «يجب على العمل أن يتسم بالعنف المفرط لإخضاع عدو قوي ومنظم جيدًا في أسرع وقت ممكن». وتدعم ذكرى المذابح الماضية، إضافة إلى موضوعة «انتحار العرق»، الخطاب حول ضرورة «حسم الأمر»، وتشرعن المذبحة لصد خطر انتصار العدو الداخلي، سواء أكان نصرًا عسكريًا (على غرار حزب الجبهة الوطنية الرواندية توتسي في رواندا)، أو ديموغرافيًا (نسبة الولادة عند الكاثوليك الإيرلنديين أو الكوسوفار)، أو دينيًا (المسلمون في لبنان)، أو عرقيًا (الأوزبك في قرغيزستان). ويستبق جميع المعنيين الأمور في نوع من التنبؤ يعطي قيمة ذاتية، كما يقول الأطباء النفسيون، إذ تدفعهم الريبة بأن العدو يريد ارتكاب المجازر في حال انتصاره. ويتكبد العدو الأضرار إلى أن يقبل، ليس بهزيمته فحسب، بل حتى بعدم وجوده ضمن حدود البلد. وتهدف عمليات الاغتصاب وقتل الأطفال إلى قتل «الآخر» عبر الأمهات والذرية (رواندا، يوغوسلافيا، الكونغو، سيراليون، ليبيريا، البوسنة)، وإلى منع أي مصالحة مستقبلية. ويمكن للتطهير العرقي أن يكون باردًا مثل الذي مارسه الكوسوفار على الصربيين في الثمانينيات، أو وحشيًا كحال الفلسطينيين الذين طردهم المستوطنون

---

(29) Cité dans: B. Benassar, *La guerre d'Espagne et ses lendemains*, Tempus (Paris: Perrin, 2006), p. 109.

الإسرائيليون، أو كما طرد الصربُ الكوسوفارَ في أثناء خطة «حدوة الحصان» في التسعينيات. وعندما لا يكون إنشاء مناطق نقية عرقيًا ممكنًا، يتجدد النزاع بصورة منتظمة بحسب خاصيات البلد السكانية والاقتصادية (مثلًا: رواندا، القوقاز، قرغيزستان).

ويصبح «الخونة»، أي الذين لا يريدون قبول منطق المجابهة والمجازر، أيضًا هدفًا لعمليات العنف، حيث أطلق عليهم في رواندا اسم ibihindugemb (أي «المخلوقات من دون ذيل أو رأس»). ويتم إقصاء المعتدلين سلميًا في كرواتيا وصربيا، ويقتلون في رواندا، ويبعدون عن العالم السياسي في لبنان فور بداية عمليات العنف. وفي إسبانيا ابتُكِر موضوع «الطابور الخامس» خلال الحرب الأهلية للتكلم على الدعم الذي حصل عليه، على الأرجح، جيش فرانكو في مدريد المحاصرة. وكان النظام يلجأ للتوقيف والقتل من باب الحيطة! وكان كل تقدم عسكري يسرّع في قتل الخونة، والمحتكرين، ومستمعي الإذاعات المناوئة، و«الجواسيس»، ومروجي الأخبار الكاذبة، والمضاربين، والانهزاميين... (القائمة غير كاملة)، ويفترض أن كل هؤلاء يتعاونون مع الخصم.

ليست الحرب الأهلية بحرب، إذ لا تُعلَن أبدًا، وتنكرها الكلمات. كما في الجزائر، حيث يدور الحديث عن «السنين السوداء» لذكرى الحرب على الإسلاميين. وقد صرح ميلوسوفيتش في صربيا عام 1992 أيضًا، أن «صربيا ليست في حالة حرب»[30]. وفي عام 2009 شهدت باكستان عمليات انتحارية أكثر من العراق أو أفغانستان، وعرفت نظامًا عسكريًا لعدد من السنوات تجاوز سنوات النظام المدني، لكنها لم تكن ممزقة «رسميًا» جراء نزاع داخلي. ويمتد العنف بعد النصر عبر القمع: «انتبهوا يا إسبان! السلم ليس درعًا مريحًة وهو جبان أمام التاريخ (...). وإسبانيا مستعدة دائمًا للحرب في وجه كل أعدائها في الداخل والخارج»، هذا ما أعلنته إذاعة مدريد في 2 نيسان/ إبريل 1939[31]. وتشكل مرحلة القمع تصحيحًا استئصاليًا. ففي إسبانيا، من أصل 430 أستاذًا جامعيًا، حافظ فقط 160 منهم على مناصبهم، وأعدِم 6000 معلم وسجن

---

(30) Masson, *L'utilisation de la guerre dans la construction des systèmes politiques en Serbie et en Croatie: 1989-1995*.

(31) Guy Hermet, *la guerre d'Espagne*, Points Histoire (Paris: Le Seuil, 1989).

7000. وكتب المدير العام للسجون في كانون الثاني/ يناير 1941[32]: «لن يمنح الأشخاص الذين لم يتعلموا مبادئ ديننا البداهية أي تخفيض على عقوبتهم». ونُفذ آخر حكم بالإعدام له صلة بالحرب الأهلية عام 1974 في إسبانيا، أي بعد أربعة وثلاثين عامًا على انتهاء الحرب.

تمس الحروب الأهلية اليوم أنواعًا كثيرة من الفضاءات الجيوسياسية، منها أولًا المناطق الموجودة على التخوم: كالمناطق الحدودية لإمبراطوريات متأزمة، وهي مناطق جبلية من الصعب النفاذ إليها، واستخدمت كملاذ لشعوب متنوعة المشارب كانت تتكفل هي نفسها بأمنها الخاص. والإمبراطوريات التي كانت تضبط فيها بالقوة السلم الأهلي فقدت تدريجيًا مكانتها. ويمكننا تحديد العديد منها: البلقان، القوقاز، جبل لبنان، أفغانستان، وآسيا الوسطى السوفياتية والصينية سابقًا، وأفريقيا البحيرات الكبرى... ويمكن للعديد من دول آسيا الوسطى التي رسم حدودها مفوّض الدولة للقوميات جوزيف ستالين مع الهمّ الوحيد بأن يتحكم بها، يمكنها أن تشتعل بوحشية، مثل قرغيزستان اليوم.

وتعيش مناطق أفريقيا الساحلية حيث قسّم الاستعمار دولًا تضم سكانًا بدوًا من مهربي العبيد، وممالك قديمة تعيش من النخاسة، ومجموعات من السكان تشكل خزان عبيد حررهم الاستعمار، تعيش من الحروب الأهلية المستمرة. فمنذ أربعين سنة تزعم فرنسا تسوية أزمة التشاد، وفي السودان توجد هبّات منتظمة من المجازر بين الأديان التي تضع في المواجهة الشمال والجنوب. وتشكل مالي ونيجيريا اليوم المناطق المفضلة لدى القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي (AQMI)؛ لأن ليس هنالك دولة لديها شرعية حقيقية. فالحروب الأهلية هي أيضًا مستترة في بلدان هوياتها الوطنية غير محددة، وتحتك الأديان والأعراق في مناطقها كما في نيجيريا أو في ساحل العاج. ولم تتخط ليبيريا وسيراليون، وهما دولتان أسستا بصورة مصطنعة لإعادة العبيد السود من أميركا إليهما، القطيعةَ التي أدخلها الوافدون الجدد الذين استغلوا السكان الأصليين. وينحدر تشارلز تايلر (Charles Taylor)، زعيم حرب ليبيريا، من أصول أميركية. وكانت الحروب الأهلية التي اندلعت في هذين البلدين فتاكة بصورة خاصة:

---

(32) Cité par: Hermet, Ibid., p. 302.

200.000 قتيل تقريبًا بالنسبة إلى سكان تعدادهم 3.5 مليون نسمة في ليبيريا، ومن 150 ألفًا إلى 200.000 قتيل بالنسبة إلى خمسة ملايين نسمة في سيراليون. وشكلت حرب الكونغو النزاع الأكثر إبادة منذ الحرب العالمية الثانية، وهي نتيجة للسلب الممنهج للبلد على يد موبوتو (Mobutu)، ولطابع البلد الاصطناعي (مئتان وخمسون إثنية، مئتان وعشر لغات)، ولتبعات النزاع العرقي الذي تولد عن الإبادة الجماعية في رواندا. وتغذي المنافسات الإقليمية هذا النزاع، ولا يوجد أي «قوة» تفكر في توظيف إمكانات على مستوى النزاع.

منذ أن دخلت أميركا اللاتينية في طور الانتقال الديمقراطي، أصبحت الحروب فيها محدودة أكثر. وسيكون لنجاح السياسات الإصلاحية الجارية أو فشلها، تأثير كبير على مستقبل القارة. ويسمح انسحاب الأميركيين الذين كانوا ولمدة طويلة الداعم غير المشروط لكثير من الانقلابات، بالتفكير في أن سيناريو الانقلاب العسكري هو أقل احتمالًا.

في بلدان أميركا «البرزخية» (الوسطى)، في كولومبيا وفنزويلا، يبقى مستوى العنف المدني عاليًا: مخدرات، الماراس (Maras) (عصابات تمارس العنف المتطرف)، أعضاء ميليشيات سابقون. والدول التي لا تزال تشهد حتى اليوم مستويات عالية جدًا من العنف هي تلك التي عاشت حروبًا أهلية طويلة ودموية. وقد سجلت السلفادور معدل جرائم القتل الأعلى في العالم عام 2009، أي بنسبة 72 جريمة قتل لكل 100.000 نسمة، وتأتي بعدها أفريقيا الجنوبية مع 61 جريمة قتل. وتشكل ظاهرة الماراس أحد مخلفات الحروب الأهلية والأزمات الاجتماعية التي لا تزال موجودة وعمليات الطرد التي مارستها واشنطن في التسعينيات. وأعيد عشرون ألف شاب ينتمون إلى عصابات المهاجرين من الجيل الثاني إلى بلدان أهلهم التي لم يكونوا يعرفونها من قبل.

ودخلت بعض البلدان مثل باكستان والعراق في أطوار مستمرة من العنف المزمن مع خطر كبير بأن تكتسح هذه الأوضاع المنطقة. ففي باكستان تضع الحرب الأهلية الخفية في المواجهة منذ الاستقلال، كلًا من المهاجرين والبنجابيين، والسنة والشيعة، وأحيانًا يتفقون ليغيروا على المسيحيين. ويرافقها الدمار الناتج عن عمليات القصف الأميركية التي يدعمها النظام الحالي. ويمكن

لكردستان العراق الذي يمارس نظامًا يشبه الاستقلال، أن يمثل مرجعية بالنسبة إلى الثلاثين مليون كردي ويزعزع استقرار المنطقة.

في وسع الدول المتعددة الثقافات أن تعيش في سلام، على غرار كندا الثنائية اللغة وسويسرا الفيدرالية. ففي كندا جاء اتفاق بحيرة ميش عام 1982 لإيجاد حل لتأكيد الهوية الفرانكوفونية في السبعينيات، والتي وضعت تسوية سلمية للمواجهة بين الجماعتين. ويمكن للفصل بين الدول المتعددة الإثنيات أن يكون سلميًّا مثل الفصل بين تشيكيا وسلوفاكيا في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1992، أو التفتت السلمي بامتياز للاتحاد السوفياتي. وتبرهن الأزمة البلجيكية على العكس أنه حتى في وسط أوروبا، من الممكن جعل الديمقراطية عرقية. كما يبرهن عنف منظمة بلاد الباسك والحرية الباسكية (ETA) أو الجبهة الوطنية لتحرير كورسيكا الكورسيكية (FLNC)، بتسمياتهما المختلفة الهزلية إلى حد ما (القناة التاريخية والقناة «العادية»)، أنه يتم الالتفاف على العجز عن الربح عبر صناديق الاقتراع، من خلال خطاب يشرّع العنف الأعمى عن كل واقع.

إن عنف الحروب الأهلية لا حدود له، لكنه ينتشر قليلًا في محيطه الجيوسياسي، والأصعب هو إثارة اهتمام المجتمع الدولي. ويشكل نمو الهويات المحلية والطائفية، الأساس الأول للحروب الأهلية، والمثال اللبناني حاضر للتذكير بأن الديمقراطية يمكنها أن تعاني من ذلك.

وصايا الباهوتوس (Bahutus) العشر

إنه بيان عنصري ضد التوتسي لفانسان نتيزيمانا (Vincent Netzimana)، وهو أستاذ في جامعة رواندي بدأت محاكمته منذ 17 نيسان/ إبريل 2009 في بروكسيل. ونشر هذا النص في كانون الأول/ ديسمبر 1990 في المجلة الرواندية المتطرفة كانغورا (*Kangura*). وكانت صفحة الغلاف تحمل صورة الرئيس ميتران (Mitterrand) ومعه تعليق يقول: «صديق حقيقي لرواندا».

«1. على كل هوتو (Hutu) أن يعلم أن الأوموتوتسيكازي (Umututsikazi) [المرأة التوتسية، ملاحظة المحرر]، أينما كانت تعمل لحساب عرقها التوتسي. وخائن هو كل هوتو يتزوج امرأة توتسية، أو يجعل من امرأة توتسية حليلته، أو سكرتيرته، أو يضعها في حمايته.

2. على كل هوتو أن يعلم أن بناتنا باهوتوكازي (Bahutukazi) [هوتو، ملاحظة المحرر] هن أكثر جدارة وتفانيًا في دورهن كنساء، وزوجات، وربات أسر. ألسن جميلات، وسكرتيرات جيدات وفاضلات أكثر من غيرهن؟

3. يا نساء هوتو، كن حذرات وعقّلن أزواجكن وإخوتكن وأبناءكن.

4. على كل هوتو أن يعلم أن كل توتسي هو غير نزيه في الأعمال، فهو لا يسعى إلا إلى هيمنة عرقه. خائن كل هوتو يتحالف مع التوتسيين في الأعمال، ويوظف ماله أو مال الدولة في مؤسسة يملكها توتسي، ويقرض المال لتوتسي، أو يقترض المال من توتسي، ويقدم الخدمات للتوتسيين في الأعمال.

5. يجب إعطاء الهوتو المناصب الاستراتيجية، والسياسية الإدارية، والاقتصادية، والعسكرية والأمنية.

6. يجب أن تكون الأغلبية للهوتو في قطاع التعليم (التلاميذ، الطلاب، المدرسون).

7. يجب أن تكون القوات المسلحة حصرًا على الهوتو، هذا هو الدرس الذي نتج عن تجربة حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1990. يجب على كل عسكري ألا يتزوج من امرأة توتسية.

8. يجب على الهوتو أن يكفوا عن الشعور بالشفقة تجاه التوتسيين.

9. يجب على الهوتو أن يكونوا متحدين، ومتعاضدين، ومهتمين بمصير إخوتهم أينما وجدوا. يجب على هوتو الداخل والخارج في رواندا أن يبحثوا باستمرار عن أصدقاء وحلفاء لقضية الهوتو، بدءًا مع إخوتهم البونتو (Bantous). عليهم أن يتصدوا باستمرار للترويج التوتسي. على الهوتو أن يكونوا صلبين وحذرين في مواجهة عدوهم المشترك التوتسي.

10. يجب أن تُدرَّس ثورة 1959 الاجتماعية، واستفتاء عام 1961 وأيديولوجيا الهوتو للجميع وعلى المستويات كلها. على كل هوتو أن ينشر بصورة واسعة هذه الأيديولوجيا. خائن هو كل هوتو يضطهد أخاه الهوتو لأنه قرأ أو نشر أو درس هذه الأيديولوجيا».

الخاضع للاحتلال كصورة للبربري

«يحدد المضطهِد وليس المضطَهَد دائمًا شكل النضال. إن كان المضطهِد يستعمل العنف، فالمضطهَد لا خيار له سوى الرد بالعنف».

نيلسون مانديلا (Nelson Mandella)
مذكرات *(Mémoires)*

لم نسمع حِكَمًا شبيهة بحكَم هذا الصيني من كسينيانغ (Xinjiang) الذي يحاوره صحافي من جريدة ليبيراسيون (*Libération*)، إذ يتحدث عن الأويغور (Ouighours) ويقول إنه «يعرفهم جيدًا»: «يعتبرون أن كسينيانغ ملكهم ويشتكون أنهم أفقر منا (...)، لكن المشكلة هي أنهم كسالى (...). فالأقليات العرقية (في كسينيانغ) هم أناس من دون ثقافة، ومن طبقة دونية، قذرون ويتغوطون في وسط الشارع، ولا يفكرون سوى بالقتال (...). والحل الوحيد لمنعهم من القتال من جديد هو إخضاعهم بأقسى طريقة ممكنة! واللغة الأوغورية لا تتكيف مع القرن الحادي والعشرين»[33]. هذا المخطط لتحليل شخصية السكان المحتلين لا تتميز به المجتمعات الدكتاتورية، على العكس تمامًا، فغالبًا يُستعمَل النظام الديمقراطي لدى المحتلين كستار للهيمنة والقمع والعنف، كما كان الأمر في الكونغو البلجيكية، وفي الجزائر الفرنسية في الأمس، وفي الأراضي التي كان يحتكرها الغرب في الصين، حيث كانت بعض الأماكن «محظورة على الكلاب والصينيين»، وفي إيرلندا الشمالية البريطانية، وفي الأراضي المحتلة(*) التي تحتلها إسرائيل اليوم[34]. أما المفارقة الإسرائيلية فهي أن العرب الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، وهم مواطنون في دولة ديمقراطية، لديهم حقوق أكثر مما قد يحصلون عليه في أي بلد من البلدان العربية في المنطقة، لكن ليس فلسطينيي الأراضي المحتلة. ويمكن أن نجد الخطاب نفسه والطرق نفسها في مختلف الأزمات الحالية: التيبيتيون، قبائل شان في آسيا الجنوبية، بابو إندونيسيا، هنود

---

(33) *Libération* (5 juillet 2010).

(*) تعبير الأراضي المحتلة (أي الضفة الغربية وقطاع غزة) من دون تسميتها باسمها الفلسطيني، التفاف ثقافي ثقافوي على الحقيقة [المراجع].

(34) انظر: Laetitia Bucaille, «Israël et la Palestine, imaginaires croisés,» dans: E. Feron et M. Hastings, *L'imaginaire des conflits communautaires*, Logiques politiques (Paris: L'Harmattan, 2002).

شيابا، السكان السود الخاضعون لنظام الفصل العنصري (أبارتهايد)، الأكراد، البلوش... إلخ

يرتكز بناء صورة الخاضع للاحتلال، في هذه الأوضاع الاستعمارية، على خاصيتين: يشعر القائم بالاحتلال أنه في حرب خفية ويظن أن عليه أن يبرهن على قوته باستمرار: وكل عنف من جانب الخاضع للاحتلال، العنف الرافض للنظام القائم، يتم تحقيره ثقافيًا كعمل إرهابي أو كعصيان، ويتم بالتالي «فرض السلام» مباشرة. وتسمح هذه المسلمات بتبرير استخدام القوة العسكرية برفض إعطاء وضعية «المقاتل العدو» للآخر. ولا يُفرضٍ أي إعلان حرب بكل ما يحمل من قيود قانونية أو دولية. فعنف الآخر هو إذًا قمع يفرض السلام.

الاحتلال هو قبل كل شيء ادعاء تاريخي وثقافي. وتشكل المدرسة الحاضنة التي يُنشر فيها التاريخ الرسمي. وتتشكل منذ الطفولة رؤية الآخر[35]. ويبرر القائم بالاحتلال وجوده كشرعية نابعة من الماضي أو من الثراء الذي سببه. وقد كانت المدارس الاستعمارية الفرنسية تعلم التلاميذ أن «أجدادنا هم الغاليون». والمفارقة أن الاستعمار الصيني للتيبت يجري تبريره بالماضي الإمبراطوري... الذي قلبه النظام الشيوعي تمامًا. والتاريخ رهان، حيث يستنكر مسؤولو حماس في الأراضي المحتلة احتواء الكتب المدرسية التي تستخدمها وكالة الأمم المتحدة لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين، على فصل مكرس للمحرقة (الهولوكوست) التي يعتبرونها «كذبة اخترعها الصهاينة»، لكي «يُقبَل احتلال فلسطين». ومن جهته يمنع جدعون سعار (Gideon Sa'ar)، وزير التربية الإسرائيلي، كل إشارة إلى النكبة في الكتب المدرسية الموجهة لأطفال العرب في إسرائيل. فالنكبة هي «الكارثة العظمى» في عام 1947(*)، أي عمليات الطرد الكثيفة التي سبقت إنشاء دولة إسرائيل[36].

الأرض، الأراضي

تستمر العلاقة مع الأرض بصورة دائمة، فيقول الجنوب أفريقي الأبيض المنتمي لنظام الفصل العنصري الذي احتل الأرض في مواجهة الجماعة التي

---

(35) انظر: Bucaille, Ibid., sur les sondages faits auprès d'enfants israéliens, p. 221.

(*) النكبة هي نهاية عمليات الطرد والاحتلال وإعلان دولة إسرائيل في 15 أيار 1948 [المراجع].

(36) *Le Monde* (17 septembre 2009).

تنتمي للعرق الأسود، كما كان يقول المستعمرون البريطانيون أو الفرنسيون: «إنها أرضي، ولد والداي هنا، أنا ولدت هنا». وفي الأراضي التي تحتلها إسرائيل، تستخدم الشرعية التوراتية التي لا تحدد «الحدود» بالمعنى الحديث للكلمة، لتبرير التوسع الذي يطالب به المتطرفون الدينيون. ويعلَن التفوق الحضاري للقائمين بالاحتلال جهارًا في الفتوحات الاستعمارية؛ حيث كتب على لافتة شهيرة معلقة في جادة ضفة شانغهاي(*): «ممنوع على الصينيين والكلاب!»، وذلك في زمن احتكار الأراضي. وفي المجتمعات الاستعبادية مثل جنوب أفريقيا، كان الفصل مؤسسيًا؛ إذ كان كل ما يقرب بين الجماعات ممنوعًا، كالزواج والعلاقات بين الإثنيات... وكان المستعمرون البلجيكيون يرفضون تشكيل كوادر محلية، وكانوا يقولون: «لا نُخَب، لا مشكلات». وفي إيرلندا الشمالية، فإن خطوط السلام التي تطوق بلفاست ولندنديري هي حدود فصل عنصري مأساوية، شبيهة بأبارتهايد البويرز (Boers) في أفريقيا الجنوبية، وبالجدار الذي شيّدته إسرائيل في الضفة الغربية، حيث نرى الرفاهية من جهة، والفقر من جهة أخرى. وتبقى العنصرية كامنة ولا يُعبّر عنها دائمًا رسميًا. فالكلمات الأولى التي يتعلمها الأطفال في لغة الآخر هي الشتائم.

يأتي قلق الاحتلال من نقص تعداده الديموغرافي، ومن الشعور بأن المجتمع الدولي لا يفهم «حقوقه التاريخية». وبما أنه يقدّر غالبًا أنه لا توجد لديه الوسائل لجعل السيطرة مقبولة، فإنه يرغم القوى الأمنية على القيام بأعمال عنف أكثر شدة، ويؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى الحرب. ولا تؤخذ بعين الاعتبار حتى المطالبة السلمية بالحقوق المبدئية للخاضع للاحتلال، وذلك عندما لا يعالجها المحتل ببساطة عبر القوة، فمثلًا سبب المظليون البريطانيون الأحد الدموي (Bloody Sunday)؛ أي التظاهرة الثالثة السلمية من أجل حقوق المواطنة في إيرلندا الشمالية في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1972 حين أطلقوا النار بدم بارد على الحشد، ما أسفر عن سقوط أربعة عشر قتيلًا. وقد لحق هذا الأحد الدموي بأحد دموي آخر حصل في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920، خلال مباراة كرة قدم «غائلية» (gaélique) في كوك بارك، عندما دخلت مصفحة

(*) التي يسميها السكان المحليون ضفة الأجانب [المترجم].

إنكليزية إلى الملعب وأطلقت النار على الجمهور، ما أسفر عن أربعة عشر قتيلًا وخمسة وسبعين جريحًا.

يحاول الإسكان القسري تغيير التوازنات الديموغرافية، ويرى المهاجرون الآتون غالبًا من البروليتاريا الدنيا (lumpenprolétariat) في ذلك فرصة للخروج من البؤس واكتساب قيمة، مقارنة مع الوضع الأدنى للسكان المحليين، كما الحال بالنسبة للصينيين في كسينيانغ أو في التيبت. ويهدف ارتكاب المجازر العشوائية في قرية ما إلى الحث على النزوح. هكذا كانت الحال في فوكوفار (Vukovar) في صربيا، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991، لإرغام الكرواتيين على الرحيل، أو في دير ياسين، في 9 نيسان/ إبريل 1948 (ضخّم المسؤولون الفلسطينيون الأمر للإشارة إلى فظاعة تصرّف القوات الإسرائيلية)، حيث قتلت عناصر الإرغون (Irgoun)، المنظمة الصهيونية المسلحة، عشرين فلسطينيًا تقريبًا بدم بارد. ولا يزال المستعمرون الإسرائيليون حتى اليوم يدمرون الممتلكات لإرغام الفلسطينيين على الرحيل. ولو كان هذا يحدث في مناطق أخرى من العالم، لجرى الحديث عن تطهير عرقي. ويذكر التقرير الرسمي لمكتب تنسيق الشؤون الإنسانية في الأمم المتحدة (OCHA) المؤرخ في 28 حزيران/ يونيو 2010 على سبيل المثال، حالة خمسة وثمانين هكتارًا من الأراضي تملكها عائلات فلسطينية خربها مستعمرون من يتزاهر (Yitzahr)، فاقتلعوا أشجار الزيتون واللوز، وأحرقوا المحاصيل.

يكبح ممثلو المستعمرين المنتخبون كل محاولة تغيير، وهم الوحيدون المخولون بالتكلم باسم الخاضعين للاحتلال. ولقد استطاع ممثلو الجزائر الفرنسية المنتخبون كبح المحاولات، حتى الأكثر اعتدالًا، مثل مشروع بلوم فيوليت (Blum-Violette) عام 1936 الذي كان يهدف إلى منح بعض الحقوق الانتخابية للنخب المحلية. وتُستبعد إرادة التفاوض التي يبديها الخاضع للاحتلال باسم حجج مدهشة أحيانًا، فمثلًا يقول المستعمر شمعون كارنييل (Shimon Karniel) المقيم منذ 1967 في الأراضي المحتلة: «يمكن للعرب أن يعيشوا بسلام في دولة يهودية. يوجد مكان للجميع!»، وفي المقابل رفض بنيامين نتانياهو (Benyamin Netanyahou) التخلي عن الاستيطان في الضفة الغربية،

وأكد في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2009 في واشنطن كتفسير لرفض الفلسطينيين سياسة «اليد الممدودة» التي قدمها: «لا يريد الفلسطينيون السلام!». لا شك في أن نواياهم سيئة (تهكم من المؤلف). وقد استخدمت الحجة ذاتها خلال الأبارتهايد، عندما أنشأت سلطات بريتوريا البانتوستانات (bantoustans)، وهي نوع من المحميات على نمط المجمعات الهندية التي كان على السكان المحليين أن يرضوا بها، وكان من المفروض أن يعملوا على تسوية المسألة بصورة نهائية.

يصبح العدو بذلك مِلاطًا اجتماعيًا عند جماعة الاحتلال، حيث يتكلم آلان ديكوف (Alain Dieckoff) على المجتمع الإسرائيلي قائلًا إن «خيار الأمة للسلاح قد حصل على الأفضلية؛ لأنه حين جعل من الدفاع عن الوطن مسألة للجميع، نمّى بذلك الشعور بمشاركة قدر مشترك في قلب جماعة إقليمية واحدة»[37]. ويتحدث معلقون آخرون مثل دانيال بن سيمون (Daniel Bensimon) من جريدة هاآريتز عن «حرب أهلية غير مسلحة» بين دينيين وعلمانيين في إسرائيل. والسؤال هنا: ما مصير إسرائيل بعد السلام؟ الذين يحاولون تفكيك العلاقة العدائية يعتبرهم باقي المجتمع «خونة»، كما كانت الحال بالنسبة إلى ألبير كامو (Albert Camus) في الجزائر، وللمحامي الليبرالي الفرنسي بيار بوبي (Pierre Popie)، رئيس نقابة (MRP) الحركة الجمهورية الشعبية في الجزائر العاصمة الذي اغتالته منظمة الجيش السري (OAS) في 25 كانون الثاني/ يناير 1961، أو لإسحق رابين (Itzhak Rabin) الذي اغتاله متطرف ديني يهودي، أو للسادات الذي اغتاله الإخوان المسلمون، وقُتل الاثنان لأنهما تفاوضا مع الفلسطينيين.

ويستمر القمع إما باردًا كما الحال في كوسوفو اليوم ضد الصربيين، أو عنيفًا مثل القمع الذي يمارسه المستوطنون الإسرائيليون في الأراضي المحتلة، أو الذي يمارسه شعب الهان (Hans) في التيبت وفي كسينيانغ. ويقتصر الهدف على تفادي النقاش الدولي الذي لا يحتدم إلا حين يتخذ الخاضع للاحتلال منحى العنف. ويمكن لنظرة العالم الخارجي أن تكون مستنكرة أو على العكس متواطئة. وقد كان هنالك إجماع على إدانة نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد)، لكن تم

---

(37) Alain Dieckhoff, «Les dilemmes territoriaux d'Israël,» *Cultures et conflits* (printemps 1996), p. 169.

التغاضي عن عدد من الحالات الأخرى، مثل حالة كاثوليك إيرلندا الشمالية، في أوروبا الغربية وفي وسط القرن العشرين. ولقد قبلت بها الديمقراطيات الأوروبية بالتوافق بوصفها مسألة داخلية بريطانية. وأسفرت الأزمة الإيرلندية عن أكثر من 3500 قتيل وعدد من الاعتقالات، وعن التوقيف الاعتباطي خلال أربعين سنة.

وجد المحتل نفسَه في حرب خفية: «إن كنا مرغمين على أن نرفع البلطة ضد قبيلة ما، يجب ألا نضعها قبل أن نبيد القبيلة أو ندحرها. (...) في الحرب سيقتلون بعض الأشخاص من بيننا. يجب أن ندمرهم جميعًا!». هذه الجمل التي قالها توماس جفرسون (Thomas Jefferson)، رئيس الولايات المتحدة، تصف جيدًا ديناميكية استعمار الغرب البعيد (الفار وست). ويبرر الخطر الذي يسببه السكان المحليون للمجموعات القائمة بالاحتلال، التأطير العسكري للأراضي. وتهدف البراهين المنتظمة للسيطرة إلى التذكير بتفوق القائم على الاحتلال: فرض الاحتفال بذكرى الغزو، الذل الممارس في مراكز المراقبة، جوازات السفر للاستخدام الداخلي، أو تصاريح المرور الإجبارية.

ترتكز الشيطنة على وصف ممثلي الخاضعين للاحتلال السياسيين بـ«المتطرفين»، وهي طريقة لإقصائهم عن مركزية متخيلة تحددها سلطة الاحتلال وحدها. وقد استُخدم هذا المصطلح ضد (مانديلا) عندما كان زعيمًا للمؤتمر الوطني الأفريقي (ANC)، وضد فرحات عباس وهو زعيم جزائري شاب، أو ضد جيش التحرير الإيرلندي (IRA) في إيرلندا الشمالية. وتتخذ الانفجارات المبشرة بالثورات شكل تظاهرات ضد وضعية دونية، حيث يهاجم المستعمرون وأملاكهم، مثل ما حدث في سطيف عام 1945، وفي لهاسا (Lhassa) مرات عدة في عامي 2008 و2009 أو في كسينيانغ مؤخرًا. ويلي ذلك قمع وحشي من أجل «أمان الممتلكات والأشخاص»، يقوم به المستعمرون ذاتهم وقوات حفظ النظام، ما يزيل الفرق بين العسكريين والمدنيين. وتوجد لمصطلح «التعنيف الجسدي العنصري» (ratonnades) على الأغلب ترجمات عدة. كما يجب على القوات المسلحة أن تلقن «المتهور» الخاضع للاحتلال «درسًا»، مثلما حدث في مدغشقر عام 1947 بالنسبة إلى فرنسا، وفي العراق ما قام به البريطانيون ضد ثورة 1920، أو في غزة مع عملية «الرصاص المصبوب». ويبرهن العدد الكبير

من الضحايا المدنيين أن الشر كائن في كل مكان. ويبرهن تقرير غولدستون (Goldstone) الذي سلم في 15 أيلول/ سبتمبر 2009 حول عملية «الرصاص المصبوب» على انتهاكات حقوق الإنسان من كلا الطرفين، لكن رفضته حكومة تل أبيب بشكل قطعي.

لا تجعل العملية المسماة بـ «إقرار السلام» من الخاضع للاحتلال عدوًا يغطيه قانون الحرب بل مجرمًا، متمردًا أو ثائرًا، ويتهم أحيانًا بأنه دمية بين أيدي دول أجنبية تتلاعب به، في حين لا يريد السكان المحليون سوى «العيش بسلام مع القائم بالاحتلال». إن ثورة الخاضع للاحتلال ضد جيش الاحتلال هي حرب الضعيف في وجه الغني، أي ما كان يسمى في الزمن الماضي، «الحرب الثورية» والتي تعود إلينا تحت اسم النزاع غير المتناظر. إنهم محاربون في عصابات ضد العسكريين والمدنيين المسلحين، ويرون في ذلك برهانًا على حيونة الخاضع للاحتلال ووحشيته وجبنه. وبهذا يضع الإرهاب في المواجهة عنفًا غير شرعي من دون بزة عسكرية مع عنف شرعي ببزة عسكرية. وقد كتب إيلي بارنافي (Elie Barnavi) في كتابه **الديانات القاتلة** (*Les Religions meurtrières*): «هناك الحضارة وهناك البربرية، وبين الاثنين لا يوجد حوار ممكن (...). لا نفهم هذا الإرهاب، لأنه غريب عنا جذريًا (...). ولا نعلم ما يريدون سوى قتل أكبر عدد ممكن من الناس، هذا كل شيء»[38]. ومع هذا النوع من الحجج، تُشرعن مذبحة سطيف في أيلول/ سبتمبر 1945، أو مذبحة مدغشقر عام 1947، والاعتقال الإداري لأحد عشر ألف فلسطيني[39]، والتعذيب كوسيلة لمكافحة الإرهاب، مثل حال أبو غريب. وفي المقابل، يعتبر عنف القوى المسلحة «شرعيًا» كعمليات القصف الأميركي في أفغانستان وفي شمال باكستان. وتميَّز اليابان المستعمِر بقسوة قمعه المفرطة، حيث اختفى 0.5 في المئة من السكان الكوريين، و1 في المئة من السكان التايوانيين على الأرجح، بعد عملية الضم عام 1905.

تستخلص الحجة الثقافوية للقمع من معرفة مزعومة بنفسية الخاضعين

---

(38) Elie Barnavi, *Les religions meurtrières* (Paris: Flammarion, 2006).

(39) Résolution du Parlement européen du 4 septembre 2008.

للاحتلال: ازدراء للحياة البشرية، فهم محدود لاستخدام القوة، بربرية، ميزات جسدية أو ثقافية، وبخاصة وجود علاقة بالموت مختلفة عن علاقة القائم بالاحتلال، سلوك معيب ووحشي... وموضوع الدروع البشرية الجديد جدًا هو الرواية الجديدة عن ذلك. هكذا يبرر بعض المثقفين العدد المرتفع للضحايا بين السكان المدنيين. ويشرح جويل مرغي (Joel Mergui) في مقالته «لماذا هنالك عدد أقل من القتلى الإسرائيليين؟»[40] حول موضوع عملية «الرصاص المصبوب» قائلًا: «يعرف الفلسطينيون جيدًا هذا الضعف عند الإسرائيليين الذي يكمن في تفضيل قيمة الحياة البشرية على الفعالية العسكرية»، أو أيضًا مقالة أندريه غلوكسمان (André Glucksman) «رد مفرط؟» في جريدة **لوموند** يشرح فيه أن حماس «تستخدم دروعًا بشرية من دون التقيد بالروادع الأخلاقية والمقتضيات الدبلوماسية لخصمها». وقد أسفرت عملية «الرصاص المصبوب» عن 1400 قتيل فلسطيني مقابل 14 قتيلًا إسرائيليًا. وهكذا نستطيع إعادة كتابة التاريخ، ونحمّل الجزائريين مسؤولية ضحايا قمع احتجاجات سطيف، ومتمردي غيتو (ghetto) وارسو مسؤولية الضحايا المدنيين للهجوم النازي في نيسان/ إبريل 1943. وسيكون الخاضعون الذين يثورون من الآن فصاعدًا مسؤولين عن قتلى القمع. إذن لقد تمت تسوية هذا النقاش التاريخي أخيرًا!

يجند المحتل بالقوة أو بالإقناع متعاونين عبر الابتزاز في ما يتعلق بالاستشفاء، وبإذن العمل، ومحظورات مختلفة يتم رفعها بشكل اعتباطي[41]. وكان الأمر يجري على هذا المنوال في الجزائر خلال الحرب أو في جنوب أفريقيا، في ظل نظام الفصل العنصري، وهذه هي الحال في إسرائيل اليوم. ويخلّف ذلك ندبات عميقة لدى السكان الخاضعين للاحتلال تعالج بممارسات عنيفة تتسم بوحشية مفرطة: دواليب تحترق توضع حول رقبة «خونة» الكفاح ضد نظام الفصل العنصري، وتجدع الأنوف، وتقطع الأعضاء التناسلية أو تصلم الآذان في الجزائر خلال عمليات «bleuites»[42] التي تمخضت عن التصفية

---

(40) *Le Monde* (7 et 16 janvier 2009).

(41) Amnesty International, rapport Donatella Rovera.

(42) كانت la bleuite عبارة عن عملية تضليل قامت بها القوات الفرنسية أدت إلى تصفيات مهمة في صفوف المقاومة في جبهة التحرير الوطنية.

الجسدية للحركيين وعائلاتهم بعد الاستقلال. وستسهم قسوة العقاب، على هذا النحو، في التنديد ببهيمية الخاضعين للاحتلال. ويعتبر عنف المحتلين إذًا وكأنه فعل حضاري مستمر لفرض السلام.

العدو الخفي أو نظرية المؤامرة

«يتعرض المسلمون لقمع وسيطرة قديمين يفرضهما عليهم أوروبيون ويهود (....). هل يجب أن نقبل بأن يفجر شبابنا أنفسهم وأن يرتكبوا اغتيالات، مسببين بذلك قتل ذوينا؟ يجب أن تكون هنالك طريقة أخرى. لا يمكن لبعض الملايين من اليهود أن يتغلبوا على مليار وثلاثمئة مليون مسلم (...) قتل الأوروبيون ستة ملايين من اثني عشر مليون يهودي. لكن اليوم يحكم اليهود العالم بالوكالة. ويجعلون الشعوب الأخرى تتقاتل وتموت من أجلهم (...)، فقوتهم ونجاحهم الظاهر يجعلانهم اليوم متغطرسين، لكن الغطرسة، على غرار الغضب، تدفع إلى ارتكاب الأخطاء، إذ يتوقف المرء عن التفكير. لقد بدأ اليهود بارتكاب الأخطاء وستزداد الأخطاء التي سيرتكبونها».

لم تستخلص هذه الأقوال من منشور إسلاموي عامي/ سوقي مثل المناشير التي نراها أمام أبواب بعض الجوامع، لكن من الخطاب الذي ألقاه مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا في افتتاح القمة العاشرة لمنظمة المؤتمر الإسلامي (OCI) في بوتراجايا (Putrajaya) من 16 لغاية 18 تشرين الأول/ أكتوبر 2003. وكما نلمس، فإن نظرية المؤامرة لا تزال حية، حتى عند القادة الأكثر حداثة.

عرفت نظرية المؤامرة ذروتها في هذيان معاداة السامية، لكنها أكثر من ذلك بكثير. فهي مفتاح حقيقي لتفسير العالم ولصناعة العدو، يتجدد باستمرار. فنحن نجدها في المملكة العربية السعودية للكلام على الشيعة، كما نجدها عند أوم شينري كيو (Aoum Shinri Kyo)، مؤسس طائفة الأوم (Aoum) اليابانية، المسؤول عن الاعتداء بغاز السارين في قطار الأنفاق في طوكيو عام 1995. ونجدها في الغرب اليوم للتكلم على الإسلامويين، وفي العالم العربي - الإسلامي للتكلم على اليهود، وفي رواندا قبل الإبادة الجماعية للتوتسي. وهي أساس الراديكاليات الدينية الحالية التي تعيد كتابة التاريخ كمؤامرة كُشِفت أخيرًا. ويعج الماضي

بالأمثلة عن ذلك: المؤامرة اليسوعية، الطابور الخامس، المؤامرة الماسونية، حكومات الأثرياء أي البلوتوقراطية (la ploutocratie) والمثتي عائلة، عين موسكو، والمؤامرة اليهودية لتفسير اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر...

عقدة اضطهاد ديناميكية وقابلة للتكييف

حلل راؤول جيرارديه (Raoul Girardet) الآلية الفكرية لنظرية المؤامرة بشكل رائع في كتابه **خرافات وأساطير سياسية** (*Mythes et mythologies politiques*). وتبدو النوابض الفكرية فيها آلية إلى حد ما: لا شيء هو بالسهولة التي يمكن أن يوحي لنا بها الحدث غير المعقول الذي عاشه المجتمع للتو. هنالك إذًا سبب خفي يجب الكشف عنه. وهكذا تطلق الشائعة وتتغذى من المبدأ القديم «لا دخان من دون نار»! (قول مأثور غبي منذ اختراع قنبلة الدخان). وتزعم نظرية المؤامرة أنها تفسّر، وبتقديمها برهانًا بسيطًا، تسمح بالكشف اعتباطيًّا، وعند الطلب عن العدو «الخفي». ولديها ميزة أساسية أنها تجيب عن كل التساؤلات في الأوضاع الخطرة أو الأوضاع التي تتسم بقوة الصدمة التي تسببها، وتظهر الحلقة المفقودة التي تفسر كل شيء فجأة وببساطة. عند الهزائم الأولى التي مني بها الجيش الفرنسي عام 1940، ظهر من جديد الطابور الخامس، ثم عند الهزيمة النهائية استخدمت قضية المؤامرة اليهودية - الماسونية لوضع الجبهة الشعبية موضع الاتهام، وكذلك زعيمها ليون بلوم (Léon Blum) الذي كانت لديه الميزة التي لا نزاع فيها، بأنه يهودي واشتراكي. ويمكن أن نلبس العدو الخفي كل الرذائل الأكثر تناقضًا، وهكذا يتهم اليهود بالتزامن أو بالتعاقب أنهم خططوا للثورة السوفياتية، أو أنهم رأسماليون وقحون.

وفي الخلفية، يعود موضوعان متكرران. فمن جهة هناك القلق المبهم تجاه تهديد غير ملموس، فمثلًا وصف الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر فورًا بحقبة الإرهاب المفرط (hyperterrorisme)، وأعلن خبراء بالإرهاب من الجيل الثابت تلقائيًا، وهم دومًا «دوليون»، عن المزيد من القلق والمزيد من السرية مع توقع اعتداءات كيماوية أو نووية أو بكتيرية، قدر ما تشاء! وظهر بشكل تلقائي سوق للقلق (النفسي وليس الدوائي). وبعد سنة فقط من الحادي عشر

من أيلول/ سبتمبر، صدر تسعة وستون عنوانًا يحتوي على كلمة «إرهاب»، واثنا عشر يتضمن اسم «بن لادن». ويبدو إحصاء عدد الكتب أكثر إثارة للاهتمام في الولايات المتحدة، حيث يحمل مئة وأربعون كتابًا عنوان الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ولا بد أن نذكر أيضًا حال المؤلفات بالفرنسية، فأغلبية العناوين كانت تدور حول السر والمؤامرة، وهذه ممارسة معممة ربما على حد سواء عند الإرهابيين والسلطات، على غرار «الحرب السرية»، «الأرشيف السري»، «الطيف»، السديم الإسلاموي، الأحياء - الأموات (zombies)، «العدو الخفي». وقد أعيد تدوير مفردات الحرب الباردة القديمة مع «الأممية الإسلاموية»، وهي تزيد من حجم المبيعات دومًا... ولا تتدبر السلطات السياسية أمورها بصورة أفضل من الإرهابيين أحيانًا. وبالفعل، تتيح نظرية المؤامرة استنهاض الكل. ولعل أفضل ضربة افتتاحية كانت لكتابَي **الخدعة الرهيبة** (*L'Effroyable Imposture*)، أو **فضيحة البنتاغون** (*Le Pentagate*) لتييري ميسان (Thierry Meyssan) اللذين يشرحان أن البنتاغون لم تُغِر عليه أي طائرة. وتعطي «الأسرار المتكشفة» الانطباع بالمعرفة أكثر من قوات الشرطة، أو أن هذه الأخيرة تخفي أشياء. وتشكل المزايدة إلى حد ما القاعدة انطلاقًا من معطيات سرية، تُكشَف بأسلوب البوح وتُجمَع، لكن لا نعرف دائمًا أين. وتحت تأثير الهاجس العام، اعتقد الناس أن مطلق النار المختل في واشنطن عام 2002، جون آلان محمد (John Allen Muhammad)، له علاقة بالقاعدة. ولقد دخلت وسائل الإعلام غالبًا في هذه اللعبة مع شيء من الرضا بالذات، خصوصًا إذا كان إيقاع الافتتاحيات اليومي يفرض إنتاجًا متواصلًا أو جمع مدعوين جذابين إلى منصة التلفزيون مع الضمانة بـ «إفشاء أسرار».

من جهة أخرى، يفسر العمل الذي تقوم به قوة أجنبية ما الشيء المستعصي على الفهم. ويزدهر الهذيان التآمري من جديد إبان الصدمات الكبرى الجماعية: الثورة البلشفية، أزمة 1929، أو اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر... وتشرعن نظرية المؤامرة من خلال نشر قلق خفي وبثه مسبقًا، مثل انفجارات غضب شعبي يمكن تحريكها في أي وقت، كالهجمات على المخازن الصينية في الجزائر خلال شهر رمضان 2009، والمذابح التي تعرض لها الأويغور في قرغيزستان عام 2010، أو ليلة الكريستال ضد يهود ألمانيا... والعدو الخفي

هو أسوأ من العدو الذي نراه، فهو يدير الأمور في الخفاء عبر حلفائه الفاسدين. ولا يكون العدو الخفي دائمًا قريبًا، بل يمكنه أن يكون أحيانًا على مسافة بعيدة جدًا، لكن يمكن أن يكون له تأثير من بعد. إنها «يد الخارج» التي تربط العدو الخفي مع الخيانة ضد الجماعة الوطنية. ويجب أن تُوَجَّه مجموعة الصور والكلمات إلى المتخيَّل، وهي هنا: الأخطبوط، الجرذان، العنكبوت، الأممية الخامسة (الإسلاموية)، الشيطانيون...

إن تأثير وسائل الإعلام والمال يُفسِّر وحده التلاعب الإعلامي. وهذه المواضيع خصوصًا، هي عزيزة على قلب المعادين للسامية.

يبرهن الإصرار على اتهام السلطات الأميركية لقناة الجزيرة بأنها المنبر الإعلامي للقاعدة، على أن هذا الموضوع يمكن استخدامه حتى في بلد حرية الإعلام؛ فالعدو الخفي، غير الموجود إطلاقًا في الصف الأول، يدير الأمور في الخفاء، وهذا ما يقويه. وقد استعانت الانقلابات العسكرية من كولونيلات اليونان إلى جنرالات أميركا الجنوبية، كثيرًا بـ «التهديد الشيوعي» للاستيلاء على الحكم وإبادة اليسار. وبحسب تقرير لجنة فاليش (Valech)، نتج عن الدكتاتورية التشيلية من 1973 إلى 1989، 29.000 ضحية تقريبًا من بينها 3000 قتيل ومفقود. وهذا أكثر بكثير من المنتمين إلى الحزب الشيوعي. وتتحمل الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية التي كانت، على غرار جميع دكتاتوريات أميركا الجنوبية، تستخدم كثيرًا موضوع المؤامرة الشيوعية، مسؤولية ثلاثين ألف مفقود وخمسة عشر ألف قتيل رميًا بالرصاص. ومن المفترض بقوائم المحظورات، على غرار كاتالوغ بريفير (Prévert)، التي أعلنتها الدكتاتوريات، أن تندد بالدرجة الني بلغتها عملية اختراق المجتمع المطلوب حمايته.

و«كشفت» وثيقة مؤسِّسة مثل **بروتوكول حكماء صهيون** دستور التلاعب. وتستعيد هذه الوثيقة المزيفة الشهيرة التي فُبرِكَت عام 1901 بطلب من الشرطة السرية الروسية، والتي تتضمن مخططًا مفترَضًا يقوم اليهود والماسونيون من خلاله بغزو العالم، مواضيع المؤامرة كلها. ولا تزال هذه الوثيقة متداولة إلى اليوم في مكتبات العالم العربي - الإسلامي، وتبرهن على أن الأسطرة تبقى حية بمعزل عن مخترعيها. وتقلب نظرية المؤامرة عبء الإثبات على المتهم، عندما

يكون له الحق بالدفاع عن نفسه، وأن يثبت براءته. وبعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، انتشرت كثيرًا فكرة تقول بأن كل يهود مركز التجارة العالمي قد أنذروا قبل الاعتداء، وبذلك استطاعوا النجاة. ويُزعم أنه تم إيجاد الإثبات المطلق بعدم وجود أي يهودي بين الضحايا، علمًا أنه لم يكن بين الضحايا أيضًا أي فرنسي. فماذا يجب أن نستنتج من ذلك؟

المؤامرة رواية

إن البعد الملحمي أساس في فهم النجاح المنتظم لنظرية المؤامرة، لأن ما يقدمه شخص غير اختصاصي هو المفترض أن يمزق الحجاب، إنه دور الصحافيين (ميسان)، والعصاميين (هتلر)، والمثقفين المتأزمين (غارودي) (Garaudy)، والأطباء النفسانيين (كارادزيتش) (Karadzic). ويثبت نجاح روايات دان براون (Dan Brown) المبنية على هذا الموضوع، النابض الروائي الذي تقدمه هذه النظرية.

تقوم نظرية المؤامرة أحيانًا بالإشعال الذاتي. ونلاحظ منذ بضع سنوات عند الرأي العام الإسرائيلي انقلابًا لنظرية المؤامرة، مع أنه كان غالبًا ضحية هذه النظرية. وتوضع بذلك ملاحظة معاداة للسامية ضد كل نقد موجه لسياسة تل أبيب. وعندما يأتي النقد من مفكرين يهود، تبتكر لهذا الغرض فكرة «كراهية الذات»، وهو مبدأ أرسطي قديم يضع المخاطب موضع تساؤل؛ لكي لا يكون تفحص النقد واجبًا. وكان يُعتمد المبدأ ذاته في محاكمات موسكو الكبرى، فـ «الناقد هو خائن باع نفسه للعدو»، وقد صرّح شلومو ساند (Schlomo Sand) الذي هاجمه نقاد فرنسيون بسبب كتابه **اختراع الشعب اليهودي**[43] (*Comment le peuple juif fut inventé*) مع أنهم لم يقرؤوه، وصرّح في جريدة **لوموند** في 5-6 نيسان/ إبريل 2009: «باريس ليست تل أبيب. ولإسكات المعارضين في فرنسا، يكفي التلميح بأنهم معادون للسامية، أو ربما أنهم لا يحبون اليهود بشكل كاف، لا شيء أسهل من ذلك». علمًا أن شلومو ساند هو أستاذ في جامعة تل أبيب.

---

(43) S. Sand, *Comment le peuple juif fut inventé: De la Bible au sionisme*, Champs (Paris: Flammarion, 2010).

وجدت نظرية المؤامرة حياة ثانية مع الرؤية السينمائية لأجهزة الاستخبارات الكلية المعرفة والكلية القوة خلال الحرب الباردة. ولقد دعم التلاعب، والعملاء المزدوجون أو الثلاثيون، والأقمار الصناعية، والتقاط الاتصالات، والانقلابات، فكرة وجود قوة خفية تتلاعب بالعالم، فقد كان بن لادن مساعدًا للاستخبارات الأميركية CIA، مثلما كان شامل باساييف (Shamil Bassaev)، رئيس الشيشان، عميلًا للـ KGB. وكما كان الأمن العسكري على الأرجح يتلاعب بجمال زيتوني، رئيس الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر (GIA)، بحسب الصحافة الفرنسية.

إذًا، وانطلاقًا من هنا، يصبح كل شيء ونقيضه معقولًا. ويمكن تفسير عمل شخص ما كضربة بيلياردو مع استراتيجية ارتداد أو حتى ارتدادين للكرة على أحد أطراف الطاولة. ويمكن أن يكون الأميركيون هم الذين أرادوا رفع أسعار البترول لكنهم أرادوا أيضًا الصدمة المضادة للبترول وتدهور أسعاره أيضًا. ويرى الشارع العربي في كل مكان اليد الخفية لإسرائيل، وتأثير اللوبي الصهيوني الأميركي، ومكاتب استخبارات واشنطن أو باريس (خصوصًا في المغرب العربي). وقد ابتكرت الرواية المتسلسلة، وأدب الجاسوسية والسينما المعاصرة التي تفتقد حضور الشيوعيين، منظمات سرية تريد السيطرة على العالم. ولحسن الحظ، منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، عادت الأممية الإسلامية لتزويد الآلة التآمرية بوقود جديد. وأتت الإنترنت وتقنيات المعلومات الجديدة لتشكل انفراجًا رائعًا لنظرية المؤامرة، وأصبح بإمكان رجل الشارع أن يعيد إنتاج الوظيفة الاجتماعية لمقهى «الكافيه دو كوميرس»[44](*) (café de commerce) على مقياس الكوكب بفضل بريده الإلكتروني أو الفيسبوك. ومن السهل وصف الفيروسات المعلوماتية التي تأتي من لا مكان بمناورات سرية، وهي نوع من العدوى الزاحفة والصامتة. والقيام بهذا الفعل أو جعل الآخرين يصدقون ذلك، سيّان. إنها النظرية التي ظهرت مع الدودة المعلوماتية ستاكسنيت (Stuxnet) التي يشك بأنها استهدفت البرنامج النووي الإيراني، فإذًا

---

(44) انظر الموقع الفرانكوفوني: www.hoaxbuster.com.

(*) مقهى حيث تدور نقاشات بين أشخاص لديهم آراء متعارضة [المترجم].

هي من ابتكار وكالة الاستخبارات الأميركية أو الموساد. وتواجهت نظريتان: الأشخاص الذين يقولون لا يمكن لدودة فعالة كهذه إلا أن تكون قد ابتكرتها فرق ضخمة، وبالتالي هي من ابتكار أجهزة الاستخبارات، وفي المقابل هناك الأشخاص الذين يقولون بالضبط، إن دودة فعالة كهذه لا يمكن أن تكون قد ابتكرتها فرق ضخمة ذات تنظيم تسلسلي وإداري كبير. إذًا وفق نظرية المؤامرة، عليكم أن تضعوا أولًا النتيجة التي تبتغون ثم توسعوا بعدها مجموعة الحجج.

اختصاص شيوعي

تقدر الأنظمة الاستبدادية، وخصوصًا الشيوعية، تقديرًا كبيرًا نظرية المؤامرة، لأن هذه النظرية تسمح بتحديد مسؤول عن المصاعب الآنية، ومشكلات الناس اليومية. وقد جعلت المجتمعات الشيوعية من هذه النظرية اختصاصها، بما أن العدو قد اندس حتى بين أعلى سلطات الحزب، كأعداء الاشتراكية، والتروتسكيين (trotskystes)، والبوخارينيين (boukhariniens)، والليوشاوشيستيين (liushaoshistes)، وكلهم عملاء لجهات أجنبية وجواسيس للاستخبارات الأميركية (CIA) (كانت الاستخبارات الأميركية تتمنى أن يكون ذلك صحيحًا!)، ومتآمرون على الاتحاد السوفياتي، «يرتدون الصداري البيضاء»، إنهم عملاء الإمبريالية... وكانت حملات التطهير التي جرّدها ماو بانتظام لاستعادة الحكم، تحمل دائمًا أسماء جميلة: المئة زهرة، الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، الحملة ضد التحريفية والانزلاق اليميني ثم الانزلاق اليساري... وكانت موجهة خصوصًا إلى المثقفين والقادة «الخائنين» للحزب، وهم الهدف المثالي لحملات «التنديد».

تتعرض لهذا الأمر أيضًا البلدان التي عرفت الاحتلال الأجنبي، والدكتاتوريات، وأنظمة تبعية نشيطة، ووسائل إعلام تخضع للرقابة، حيث الشائعة تتساوى مع الخبر بحيث تفسر الحاضر بالماضي، وأداء اللاعبين السياسيين بيد خفية تحركها بلدان أجنبية. وتبقى الآثار عميقة في العقليات الجماعية. ففي البلدان الشيوعية السابقة، حيث كان الحصول على الوشاية عملًا قهريًا، تبقى العواقب حية وتغذي الأحقاد حين لا يؤدي ذلك ببساطة إلى عودة اليمين المتطرف العنصري.

تلاحظ حنة أرندت (Hannah Arrendt) حين تحلل «النظام الشمولي»، أن «هروب الجماهير أمام الواقع هو إدانة للعالم الذي تضطر إلى العيش فيه من دون أن تستطيع الحفاظ على بقائها؛ إذ إن طوارئ الأحداث صارت هي القانون الأعلى، والكائنات البشرية تحتاج أن تغيّر باستمرار الأوضاع المشوشة والطارئة وفق مخطط متماسك نسبيًّا». و«لنظرية المؤامرة أيام جميلة جدًا أمامها بمقدار ما تُبعد عملية العولمة الجارية المواطنَ عن مراكز القرار، وتقدم له الوسائل للوصول إلى جمهور عالمي عبر الإنترنت. وتسمح بصناعة العدو من دون انقطاع». ومن آخر البراعم حاليًّا، ما تفعله مواقع أميركية من جماعة المؤامرة حين تتهم الرئيس أوباما بأنه مسلم في الخفاء، بمناسبة مشروع تشييد جامع بالقرب من موقع اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر (Ground zero) في نيويورك. ونجحت هذه الطريقة إلى حد أنه، وبحسب الاستطلاعات الأخيرة، هناك 16 في المئة من الأميركيين الذين خضعوا لاستطلاع الرأي، مقتنعون أنه مسلم. وستقدم وفاة بن لادن حتمًا مادة جديدة لنظرية المؤامرة.

نظرية المؤامرة هي أقل من حرب، لكنها تولّد تطهيرًا محكومًا بعقدة الاضطهاد، ويمكن أن نقرأ مثالًا حديثًا عنه في النص المؤطر أدناه.

حزب فرنسا، الرواية الجزائرية

في تشرين الأول/أكتوبر 1988، هزت الجزائر لمدة أيام عديدة تظاهرات شعبية ضد الجوع. وأطلق فيها الجيش النار ما تسبب بسقوط ثمانمئة قتيل تقريبًا. وإليكم التفسير الذي أعطاه حينذاك موقع جزائري عن ذلك: «في جذور المأساة الجزائرية: شهادات حول حزب فرنسا». بقلم عبد الحميد إبراهيمي، مركز الدراسات المغاربية، www.algeria-watch.

«اتهم مسؤولون كبار «حزب فرنسا» بشكل سافر. هنالك يد لفرنسا في الحوادث الأخيرة. الدليل على ذلك أن هذا التدخل جاء بعد القرار الحاسم لرئيس الجمهورية (الجزائرية) بوضع حد لحقبة المدارس التي كانت فرنسا تشرف عليها في الجزائر (...). رأت فرنسا أنه يجب تدمير الحكومة الجزائرية، والرئيس الشاذلي بن جديد (...) لأن الجزائر هي البلد الذي يضم

أكبر عدد من الأشخاص الذين يتكلمون الفرنسية (...). وخلال الحوادث، اندس في صفوف المتظاهرين بعض العناصر الخونة، الذين يحنون للحقبة الاستعمارية، لكي يجاهروا بشعار «تحيا فرنسا!» ويحرقوا العلم الجزائري..».

قالت جريدة الشعب، عدد 12 تشرين الأول/أكتوبر 1988: «قدمت حوادث تشرين الأول/أكتوبر المدمرة مناسبة ذهبية لوسائل الإعلام الفرنسي التي ضخمتها بطريقتها؛ إذ بثت وكالة الصحافة الفرنسية (AFP) أخبارًا عن حوادث قبل حدوثها بأكثر من ساعة (...). ويمكن أن نتساءل إن كان الصحافيون الفرنسيون الذين أتوا قد شاركوا في الأعمال التخريبية. بالتأكيد لا... نقول ببساطة إن الصحافة الفرنسية «المحايدة والموضوعية» تعمل بالتنسيق مع أجهزة الاستخبارات، وبالتأكيد نعلم كلنا من هو وراء ذلك. وهنالك من دون أدنى شك إرادة صلبة لـ «تدمير» إنجازات الشعب الجزائري (...) بفضل عملاء في الداخل يحاولون تجويع الشعب الجزائري والتسبب بخلق حالة من التوتر في البلاد». وكتب سليم قلالة في 24 تشرين الثاني/نوفمبر في جريدة الشعب: «من هو حزب فرنسا؟ هل هم جزائريون، أم هل هم الشيوعيون والليبراليون...؟ يدافع أبناء الجزائر عن دينهم، وعن لغتهم، وعن شخصيتهم، وعن انتمائهم الحضاري. ويدافع أبناء فرنسا في كل مكان عن اللغة الفرنسية، وعن النماذج السياسية الاقتصادية الغربية (...)؛ الأمر يتعلق إما بتطبيق التمييز بين الثورة والرجعية وفق المنهجية الغربية، أو التميز بين الأولاد الحقيقيين وأولاد الغير. ويمكن لمنظور بناء بلاد المغرب أن يقدم وسيلة للتحايل على المزلاج التشريعي الذي يحمي السوق الجزائرية: يمكن لشركة ذات رساميل فرنسية مقرها في المغرب أن تستثمر في الجزائر، ولكن أرباحها تذهب للشركة الأم الفرنسية، أو الأميركية... إلخ هناك مقتضيات أخرى أيضًا؛ إذ لا تتوافر لدى الجزائر الإمكانات المالية لتطلق هذه المشاريع الكبيرة... السوق الجزائرية إذًا هي سوق مفتوحة لكنها مفتوحة أمام الذي يمكنه أن يقدم أفضل الشروط. وللمفارقة، يتلاقى في الجزائر موضوعيًا في هذه الحالة تياران كل شيء يفرقهما في الظاهر: «القوميون» المناصرون بأي ثمن كان لموقف متوازن تجاه القوى الخارجية، وهناك الموالون لـ «حزب فرنسا». وكانت مصلحة فرنسا تقضي بأن تدافع عن كل ذلك. فهل يمكن انطلاقًا من هنا أن نقول إن الاضطرابات تم تحريكها من باريس مع تواطؤ داخلي؟».

«تمخضت هذه الحوادث عن أربعة انعكاسات مباشرة وفورية على الصعيد الدولي: تأجيل إجراءات الوحدة مع ليبيا، إبطاء التقارب بين دول المغرب العربي، وتجميد النزاع حول الصحراء الغربية، وعقد مجلس وطني فلسطيني في الجزائر العاصمة اعترف بالقرار 242 الصادر عن مجلس الأمن. وأعلن الرئيس الشاذلي بن جديد أنه يجب إطلاق «نقاشات شعبية» حول «عمل التوحيد بين الجزائر والجماهيرية العربية الليبية»، بدءًا من 20 أيلول/ سيتمبر، لإنجاز الوحدة الكاملة بين البلدين، وإنجاز المغرب العربي كـ «نواة للوحدة العربية الشاملة»، إنجاز الوحدة العربية، وبناء مجتمع ديمقراطي، شعبي، اشتراكي تنتزع منه كل أنواع الاستغلال، ويكون منفتحًا على الدول العربية كلها التي تقبل أحكام الدستور.

من له مصلحة بأن يعارض «هذه الوحدة»؟ في مناسبات كثيرة، عبّر مسؤولون أميركيون كبار عن قلقهم حيال «التقارب» الجزائري الليبي. في شباط/ فبراير 1988، وصلت الواشنطن بوست إلى درجة تغيير تصريحات الرئيس الشاذلي، فنسبت إليه القول بأن هدف دمج ليبيا بدول المغرب كان تفاديًا لوقوعها تحت سلطة الاتحاد السوفياتي... ويمكن بالفعل لكتلة مؤلفة من البلدين هدفها بناء المغرب العربي أن تشكل قاطرة على غرار ما كانت الجمهورية الفدرالية الألمانية وفرنسا بالنسبة إلى أوروبا، وإعطاء المجموعة المستقبلية المغربية منحى مضادًا للإمبريالية وواضحًا. هل كان ذلك يشكل خطرًا بالنسبة إلى هؤلاء الذين أرادوا من بلدان المغرب العربي أن تكون متعقلة ومؤيدة للغرب؟ ويمكن لوحدة جزائرية ليبية أن تشكل ورقة رابحة جديدة لمصلحة جبهة البوليساريو أيضًا التي كانت تستفيد أصلًا من دعم الجزائر، لكن تستفيد أيضًا بصورة أكبر من دعم ليبيا. وإن تبنينا نظرية التلاعب الخارجي، فمن لديه القدرة على تحقيق مخطط بهذا الحجم مع تضافر سلسلة من الوقائع لا يوجد بينها علاقة في الظاهر، لكنها تشكل شبكة عنكبوت حقيقية؟ وفي نهاية 1985 انخفض سعر البترول بسبب ما قامت به المملكة العربية السعودية التي أطلقت «حرب الأسعار». فتلقت الجزائر ضربة مباشرة... ساءت الحالة لتجد نفسها في نهاية 1988 في حالة إفلاس عمليًا، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه الضربة، حافظت الجزائر على مواقفها السياسية المستقلة، وأكثر من ذلك، نجحت في المساعدة في إعادة

توحيد منظمة التحرير الفلسطينية في نيسان/ أبريل 1987... وكانت نتيجة ذلك الانتفاضة في الأراضي المحتلة... واستطاعت الجزائر عقد قمة عربية استثنائية في حزيران/ يونيو 1988 كُرِّسَت حصرًا للقضية الفلسطينية، على الرغم من الضغوط الأميركية. وفي هذه الأثناء، جاءت حوادث (انتفاضة) 8 تشرين الأول/ أكتوبر. وبعد شهر، أعلن المجلس الوطني الفلسطيني الدولة الفلسطينية من العاصمة الجزائرية... والسؤال لو كان هنالك تدخل خارجي في حوادث تشرين الأول/ أكتوبر، فلمصلحة من ترجم هذا التدخل في الواقع؟ لقد اجتازت أرتال من الشاحنات المبردة الحدود المغربية من جهتها، لنقل منتجات غذائية، بحسب الوكالة الفرنسية للأنباء. فمن دفع الثمن؟

ملاحظة: كل ذلك لشرح تظاهرات الاحتجاج على الجوع في 8 و9 و10 تشرين الأول/ أكتوبر 1988 في شوارع العاصمة الجزائرية...

العدو المطلق
أو الحرب الكونية على الشر

«حينئذ ستنفلق السماوات وستثور العاصفة، وسينزل المسيح متسلحًا بقوة عظيمة، وسيسبقه وميض من النار مع حشد لا يحصى من الملائكة. ستتم إبادة هذه المجموعة من الكفار وسيتدفق الدم بغزارة (...) بعد عودة السلام وإزالة الآلام، سيخضع الله العادل والمنتصر الأحياء لمحاكمة مروعة وستستعبد كل الشعوب الوثنية التي ستوضع تحت حكم العادلين الذين بقوا في قيد الحياة، وسيمنح الأموات العادلين الحياة الأبدية وسيحكم هو بذاته معهم هذه الأرض وسيؤسس المدينة المقدسة. ستستمر مملكة العادلين هذه ألف سنة (...) حينئذ ستهطل الأمطار على الأرض المقدسة ليلًا ونهارًا كبَرَكة. وستنتج الأرض كل فاكهتها من دون تدخل الإنسان. وسينقط العسل من الصخور بوفرة، وستنفجر عيون من الحليب والنبيذ».

«سيكون هنالك ولمرةٍ يومُ غضب (Dies Irae) لن نرى مثيله إطلاقًا: ستفسد كل الصناعة الأوروبية، وستكسد كل الأسواق، وستتقهقر الطبقات المالكة، وستفلس البرجوازية تمامًا، وستنتشر الحرب والفساد في كل مكان».

لم يكتب هذه النصوص إمام مصمم على تجنيد إرهابي مرشح للانتحار واعدًا إياه باللبن والعسل. فالنص الأول كتبه لاكتانس (Lactance) في القرن الرابع ميلادي ليجيب بهذه الطريقة عن عمليات اضطهاد المسيحيين التي كان يقوم بها ديوكليسيانوس (Dioclétien). والثاني هو عبارة عن رسالة من فريديريك إنغلز لكارل ماركس بتاريخ 26 أيلول/ سبتمبر 1856. ومن الممكن إضافة تحليل شخص مختص بالجنّة الاشتراكية انتقل إلى الإسلام المتعصب، وهو كارلوس راميريز سانشيز (Carlos Ramirez Sanchez)، وسنفهم بصورة أفضل المقارنة التي عقدناها بين الحرب الدينية وحرب الأيديولوجيات الشمولية الكبرى:

«اليوم وفي مواجهة التهديد الذي يخيم على الحضارة ثمة جواب واحد: الإسلام الثوري! سيكون الرجال المسلحون بإيمان كلي في القيم المؤسسة للحقيقة، وللعدالة، وللأخوّة، قادرين على قيادة المعركة وتحرير البشرية من إمبراطورية الكذب، وليس أحدًا غيرهم»[45].

الديني والسياسي

اجتمعت عناصر الحروب الأيديولوجية كلها: المرشد ونُخَب سلطة الأيديولوجيا (idéocratie) - وهم نوع من أنواع الأحزاب الطليعية - والإيمان، والمناضل - المحارب - الشهيد، وشرعية الحرب الكونية النهائية، وإمبراطورية الشر التي تجب إبادتها... ويتشابه متعصبو يوم القيامة مع متعصبي الجنة على الأرض. ويجب أن يعتبر صراع «سلطة الأيديولوجيا»، أي الحرب على عدو يمثل الشر المطلق، ضمن رؤية شاملة كشكل دائم التجدد لطوباوية مجيء المسيح الثاني التي تعلن عن عودة الجنة إلى الأرض مع أو من دون المسيح. حينئذٍ تكون الحرب بمنزلة عملية طرد للأرواح الشريرة.

تولد هذه الحروب من الإيمان، ومن الخضوع لقائد هو المسيح، ومن تربية نضالية مختزلة تؤمن بمجموعة قوانين وبعدوٍّ يتماهى مع الشيطان. وقد أعلن أمين عام الحزب الشيوعي الصيني المسؤول عن التيبت مؤخرًا، أن

(45) Carlos, *L'Islam révolutionnaire* (Monaco: Ed. du Rocher, 2003), p. 1.

اللجنة المركزية للحزب هي «بوذا الحقيقي لدى سكان التيبت»، عائدًا بذلك إلى نقطة البداية. ويمكن للمقارنة أن تشكل صدمة لكنها مطلب، فقد كان سيد قطب، منظر الإخوان المسلمين، جدّ الأخوين رمضان يصرح: «القول بأن الله وحده هو رب العالم، يعني الثورة الشاملة على كل سلطة تمنح للكائن البشري». وهو بحصره للسلطات بين يدي مفسري الأيديولوجيا الإلهية، لا يقول شيئًا أكثر من الشيوعيين، حين كانوا يفسرون الدور الطليعي للطبقة العمالية في المسيرة نحو الجنة الاشتراكية. ولم تكن موسكو أو بيجين اللتان توصفان غالبًا بأنهما «مكة الشيوعية» غير عالمتين بأنهما ستتركان ذات يوم حمل الشعلة لهذه المدينة، إنما من أجل معركة أخرى.

ماتت الأيديولوجيات الشمولية العلمانية مع نهاية الشيوعية. وتأخذ الحرب الأيديولوجية اليوم شكل النزاع الديني. ويكتسي التجدد الديني الذي ولد من أزمة الحداثة أشكالًا تتسم بالأصولية المتصاعدة، مستندة إلى الجذور اللاهوتية الأسطورية لشرعنة العنف.

في العالم العربي - الإسلامي، أخذ زوال النفوذ في الأنظمة السلطوية معه قيم الحداثة (الديمقراطية، مكانة المرأة، النقاش حول المثلية الجنسية، العلمانية...). ولقد فقدت السلطات الدينية الرسمية صدقيتها عندما هرولت طوعًا أو كراهية لمساندة الأنظمة، وازدهر الإسلام المنشق خارج البنى الرسمية. ولئن كانت الإسلامية السياسية قد ظهرت علنًا مع الثورة الإيرانية، فالظاهرة لا يمكن أن تُحدَّد بهذه الرؤية الجزئية. ففي البلدان الشيوعية السابقة، خلال عقود العلمانية العنيفة والدكتاتورية، حمل الديني خطاب الانشقاق ليصبح ميزة تحدد الهوية في بولندا ورومانيا ويوغوسلافيا. وفي إسرائيل اليوم، نلاحظ أن استمرار الاستيطان هو من عمل الراديكاليين اليهود. وفي الولايات المتحدة، وصل التحرك الديني للهوية المسيحية، أي من المسيحيين الإنجيليين الجدد[46]، وبصورة أوسع من شريحة المحافظين الدينيين، إلى الحكم مع انتخاب جورج بوش الابن، وراح يتأصل في اليمين المحافظ. حتى الهند مع حزب الشعب

---

(46) Barbara Victor, *La dernière croisade: Les fous de Dieu version américaine* (Paris: Plon, 2004).

الهندي (BJP) والمنظمة الوطنية القومية (RSS)، والصين مع طائفة فان لون غونغ (Fan Lun Gong)، الروحية، وهما معنيتان بهذا الغليان الديني.

أصبح الدين في عدد كبير من الأمكنة في العالم مبدأ استبداليًا للسياسة. وفي العالم العربي كما في الولايات المتحدة، يعيد المولودون من جديد (Born again) - إن كانوا ولدوا من جديد مسيحيين أو مسلمين - والمريدون الجدد للطوائف، تفسير العالم بأسره في ضوء هدايتهم. وتتماثل غالبًا الاستراتيجيات السياسية للاستيلاء على الحكم، وتتناوب فيها الهداية «من الأسفل» (الممارسات اليومية، النقاشات الاجتماعية، الجمعيات من كل نوع، التبشير الموجه فرديًا للمهديين الجدد...)، و«من الأعلى» بتجنيد مؤمنين من بين المثقفين المحبطين، ورجال الشرطة، والعسكر، والقضاة، من خلال دسّ عناصر موالية في الأحزاب السياسية المتطرفة، أو الدينية.

نرى هذه التصرفات على حد سواء في حزب الشعب الهندي (BJP)، وفي إيران الخمينية وعند الإسلاميين الراديكاليين، والجهاديين، وعند المحافظين الجدد الأميركيين، وفي الطوائف، كما نجدها عند مريدي مدرسة مركز هاراف (Merkaz HaRav) أو غوش إمونيم(*) (Goush Emounim) في إسرائيل.

المسيح وكتابه

«أهو الايمان؟ هذا ما أراد أن يكونه الفكر الماركسي اللينيني، والماوية أو الستالينية، وهذا هو اليوم حال الإسلاموية، وبصورة أوسع التيارات الدينية المتشددة التي تجهر باليقين الأحادي من أن لديها الأجوبة كلها. ويُلوح بالكتاب المقدس كراية، أكان الكتاب الأحمر الصغير، أو القرآن، أو التوراة، كتاب مكتوب أو مفسّر على يد المعلم (le gourou) المنوّر بالنور على صور رديئة التلوين. ملصق بن لادن مصوّر كمار جرجس وهو يقتل التنين، في سوق بيشاور، هو مثل صورة ماو وهو ينقذ من الغرق أناسًا يحملون الكتاب الأحمر الصغير. «تتجه عيون العالم كله نحو كمبوديا الديمقراطية، لأن ثورة الخمير هي الأجمل والأطهر، ولا سابق لها في تاريخ العالم، حيث وجدت حلًّا لمسألة التناقض الأبدي بين المدينة والريف، وطوّرت لينين وذهبت أبعد من ماوتسي تونغ»، هذا ما

(*) غوش إمونيم (Goush Emounim) أو كتلة المؤمنين: جناح متطرف من اليمين الديني الإسرائيلي من أشد المتحمسين والعاملين على بناء المستوطنات في الضفة الغربية وغزة والجولان [المراجع].

صرح به بول بوت (Pol Pot) مستعيدًا الموضوع الكلاسيكي حول الأنبياء الذين تجاوزهم المسيح[47]. القائد هو رجل جبار أو نصف إله: حُنِّطت جثامين لينين وستالين وماو لتأليههم تقريبًا. وقال إيخمان (Eichmann) خلال محاكمته: «في الرايخ الثالث، كانت لكلمات الفوهرر قوة القانون». وكان من الممكن في الأزمنة العظيمة قراءة ما يلي في صحيفة «لينينغراد الحمراء»: «حبنا، إخلاصنا، قوتنا، قلبنا، بطولتنا، حياتنا؛ كل شيء لك، يا ستالين العظيم، كل شيء ملكك، يا زعيم الوطن! أعط الأوامر لأبنائك، يمكنهم التنقل في الجو وتحت الأرض، وفي الماء وفي أعالي الغلاف الجوي. سيقول البشر على مدى العصور إن اسمك هو الأمجد والأقوى، والأكثر حكمة والأجمل بين كل الأسماء (...). إن أنجبت زوجتي الحبيبة فأول كلمة سأعلمها لطفلي ستكون ستالين!». في عيون النازيين الحمراء من وله الإيمان، نجح هتلر الأسمر القصير ذو العينين الداكنتين أن يعرف بأنه قائد عرق الشقر ذوي القامة الطويلة والعيون الزرق. وفي الديانات التي لا تعرف التراتبية مثل السنّة أو البروتستانت الإنجيليين الجدد، يمكن أن يكون الزعيم إمام المنطقة، أو الواعظ التلفزيوني البروتستانتي، أو الحاخام الأصولي الذي يتباهى بأنه على صلة مباشرة مع الله من خلال التفسير الطاهر وغير الملوث للنص المقدس. تقاوم التراتبية السياسية أو الدينية التي يرفضها هؤلاء المتوالدون ذاتيًا، تأليه الزعيم: أراد المريدون الإيرانيون أن يجعلوا من الخميني، في أوج مجده، الإمام الثاني عشر، أي مسيح الشيعة الإثني عشرية. لكن عارض رفاقه ذلك بحزم.

الأيديولوجيا هي معتقد مغلق، ويجب على المناضل-المقاتل أن يقصر تأهيله على قراءة النص المقدس لا غير وتفادي التواصل مع الآخرين: لا تعلم مدارس باكستان أكثر من مدارس كوادر الأحزاب الشيوعية الصينية، والكورية الشمالية أو الروسية، أو المدارس التلمودية للأصوليين اليهود. وترتكز المعرفة على الحفظ «عن ظهر قلب»، وعليها أن تتيح تلاوة النصوص المقدسة بالاتجاهين، أي من البداية إلى النهاية، ومن النهاية إلى البداية، على غرار ما

---

(47) Francis Deron, *Le procès des Khmers rouges: Trente ans d'enquête sur le génocide cambodgien*, La suite des temps (Paris: Gallimard, 2009).

كان يفعله علماء اللاهوت المدرسي القروسطي الذين كان رابليه (Rabelais) يسخر منهم في القرن السادس عشر. هو كتاب واحد، لكنه الكتاب الصحيح. هكذا سويت أزمة المدرسة، فالمقدرة على إثبات الشيء ونقيضه من خلال الاستشهاد بالدستور الخاص، يكون هو اليقين الأساسي لدى رجل الإيمان.

في زمن ما في الحي اللاتيني، كان من الأناقة لدى المثقفين الماويين الاستشهاد بما قاله ماركس أو إنغلز في النص: «الواحد يقسم على اثنين!» و«الاثنان يجتمعان في واحد». وفي الإسلام يفرق حجاب المرأة بين الذين يعتقدون أن لا فائدة منه، والذين يعتقدون أنه يجب أن يغطى الشعر فحسب، والذين يعتقدون أن الأيدي أيضًا يجب أن تغطى، والذين يعتقدون أنه مسموح للعينين فحسب أن تظهرا، والذين يعتقدون بأن المرأة يجب أن تشبه الشبح. الجميع على حق. وعند المسيحيين، هنالك الذين يقرأون أن رسالة المسيح تحظر زواج الكهنة، وهؤلاء الذين يعتقدون أنه لا يوجد أي حظر من هذا القبيل، لكن على زوجاتهم أن يشبهن النساء الإسلاميات، ثم البروتستانت الذين لا يعلقون أهمية على هذه التفاصيل. ولا تتوانى الأيديولوجيا عن طلب دعم العلم. وهكذا بعد الاشتراكية العلمية، والعلم العنصري النازي، وعلم الوراثة الاشتراكي على طريقة ليسينكو (Lyssenko)، لدينا الآن الخَلْقية الجديدة (néocréationnisme)، وفي الجزائر هناك ابتكار حديث جدًا اسمه السلفية العلمية(*).

يتيح التضليل الإعلامي الذي تَزعمُ «الطائفة» أنها ضحية له، تطوير أنموذج لثقافة مضادة وعزل المريدين. وهكذا يستطيع المناضل أن يدافع بقناعة كبيرة للغاية عن حقائق مزيفة، فبالنسبة إلى شيوعيي العالم كله، كانت كاتين (Katyn) مذبحة ارتكبها النازيون، وبالنسبة إلى اليمين المتطرف أحرق الشيوعيون غيرنيكا (Guernica). وبالنسبة إلى الإسلاميين يحافظ الإرهابي الانتحاري الذي يفجر حزامًا ناسفًا، على جسد سليم للذهاب إلى الجنة وإرضاء الحوريات الموعود بها. إنه لمعتقد غريب عندما نعلم أنه يتم التعرّف إلى مرتكب الاعتداء من خلال جسده المقسوم نصفين من الوسط. إن الشعور بامتلاك الحقيقة الخفية للأشياء يعطي اليقين بالانتماء إلى مجموعة «مختارة»، ما يشرعن شكلًا جديدًا من العنصرية.

(*) السلفية العلمية ليست جزائرية بل هي صفة للتيار الأساس في السلفية العربية عمومًا [المراجع].

وهكذا كما روى لي مسؤول في جمعية كان يحاول أن يخلق علاقة بين الأديان في فرنسا، ضمن عمل تضامني في الجمعية: «عندما يرفض أحد المسؤولين الدينيين أن يجلس على مائدتي؛ لأن ممارسة شعائره الدينية تمنعه من أن يشارك الطعام مع كافر، يكون هذا احترامًا دينيًّا! وإن رفضت أنا الجلوس معه، يكون هذا تمييزًا عنصريًّا!».

يكرر المريدون إلى ما لا نهاية الفكرة الساذجة التي تحدد الشر، أي العدو. وتُنَظَّم حياة المناضل اليومية في كل تفاصيلها لتفادي التحريفية، إذ تزعم المواقع الإسلاموية على الإنترنت بسذاجة محيرة أن في القرآن توجد الأجوبة كلها، وخصوصًا حول القواعد التي يجب اتباعها حين نختلط بالكفار[48].

لاهوت العنف

تفرض جميع الأديان، بصفتها أيديولوجيات اجتماعية مُنَظِّمَة، سلوكًا غير عنيف من الانسجام والطمأنينة لكنها، ضمن بعض الشروط، يمكن أن تنادي بالعنف. وفي الشروط المحددة لاهوتيًّا (الجهاد، الحملات الصليبية...) فإنها تُصدر أحكامًا عنيفة وكأنها طبيعية وحتمية: من قبيل أنه من الضروري إنقاذ «الإيمان الحقيقي» من الاعتداءات، والدفاع عن القيم الأخلاقية التي عرف الدين كيف يحافظ عليها، والتي انتهكتها الدولة العلمانية الحديثة، سواء أكانت أميركية أم اشتراكية عربية أم عمالية إسرائيلية. حتى البوذية التي يُجمَع عادة بينها وبين مبدأ اللاعنف عمومًا، يمكنها أن تبرر تصرفات عنيفة[49]. وتطول لائحة الشروط المقبولة لاهوتيًّا. أما الخطاب الذي يزعم «الدفاع» عن «جماعة المؤمنين» لتبرير ضرب «الآخرين» فهو حاضر في المستوطنات اليهودية في قطاع غزة، وحاضر عند إيان بيزلي (Ian Paisley) الزعيم البروتستانتي الإيرلندي، كما كان حاضرًا عند بن لادن أو عند تيموتي ماكفي (Timothy McVeigh)، «التفوقي» الأميركي

---

(48) تجابه أئمة في نقاشات حادة خلال الطاولات المستديرة على قناة الجزيرة بعد قضية مونيكا لوينسكي (Monica Lewinski) لمعرفة ما إذا كانت ممارسة الجنس الفموي تستحق الإدانة أم لا، انظر: Pierre Conesa, *Le guide du paradis*, l'Aube (Paris: La Tour-d'Aigues, 2004).

(49) Mark Juergensmeyer et Michael Jerryson, *Buddhist Warfare* (Oxford: Oxford Up, 2009).

مرتكب اعتداء أوكلاهوما سيتي في 19 نيسان/ أبريل 1998(*). وكان «إنقاذ الثورة» من الاعتداءات الإمبريالية الأميركية مفتاح التفسير الشامل لدى الاتحاد السوفياتي لتبرير عمليات القمع الداخلي والتدخلات المسلحة (هنغاريا عام 1956، وبراغ عام 1968، وكابول عام 1979). وخلال عقدين، طال العنف الإرهابي جميع الأديان. والحال أنه لم تكن هنالك أي حركة ذات طابع ديني على لائحة المنظمات الإرهابية لوزارة الخارجية الأميركية عام 1980، وفي عام 1998 أصبح نصف المجموعات الثلاثين الأكثر خطورة ذا طبيعة دينية، وفي عام 2004 كان ثلثاها دينيًا، وفي عام 2008 كان هنالك 26 مجموعة من أصل 45 ذات طابع ديني. مع العلم أن هذه القائمة تستثني المجموعات الأميركية كليًا التابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) والتي قامت بأفعال عنيفة مرات عدة ضد مستوصفات تجرى فيها عمليات إجهاض، وباعتداءات عنصرية ومعادية للسامية، واعتداءات مثل اعتداء أوكلاهوما سيتي عام 1995 (168 قتيلًا من بينهم 19 طفلًا) أو الاعتداء خلال الألعاب الأولمبية في أطلنطا عام 1996.

يلاحظ عالم الاجتماع الأميركي مارك جورغينزماير[50] (Mark Juergensmeyer) أن «مفهوم العدو هو ثمرة تجميع اجتماعي (...). فإذا اعتبرنا أن دور سيناريو الحرب الكونية هو إعطاء الذين يؤمنون بها الشعور بالقوة والأمل، فمن البداهي أن تصبح صورة العدو حتمًا ضرورية». ويتموضع الترسيخ الأيديولوجي والتاريخي لتبرير العنف عبر الأزمنة الطويلة، كالتاريخ التوراتي، والقرآني أو ببساطة الميثولوجي (الخرافي) كما في صراع الطبقات وأساليب الإنتاج في الماركسية[51]. ويتعلق الأمر بشرح يقول إن العالم يعيش الطور الأخير للحرب الألفية، وإن هناك نهضة حاليًا، وإن هنالك تباشير تنبئ بعودة المسيح المخلص. ويجد بن لادن أن بداية اضطهاد المسلمين يعود إلى عام 1924 حين ألغى أتاتورك الخلافة. ويتحدث ريتشارد بتلر (Richard Butler) أحد أيديولوجيي

(*) 1995 وليس 1998: خطأ طباعي في الأصل [المراجع].

(50) M. Juergensmeyer, *Au nom de Dieu ils tuent: Chrétiens, juifs ou musulmans, ils revendiquent la violence*, Frontières (Paris: Autrement, 2003).

(51) P. Conesa, «La violence au nom de Dieu,» *Revue internationale et stratégique*, no. 57 (printemps 2005), pp. 73-142.

الهوية المسيحية عن «الحرب المحتدمة بين أبناء قايين وأبناء الله منذ ستة آلاف سنة». وتبرر اللجوء إلى العنف أيضًا الإرادة المصممة على تفادي عنف أكبر. وتنادي كنيسة أميركية، هي كنيسة الصهاينة المسيحيين، بتهجير الفلسطينيين للتحضير لعودة المسيح ومنع الاعتداءات.

ويفسح التاريخ المجال لقراءة ثانية دينية حصرًا، بحثًا عن إشارات يرسلها الله. فقد أدى انتصار حرب الأيام الستة في إسرائيل إلى ولادة «صهيونية مسيحانية» تحمل رؤية تنادي بـ «إسرائيل الكبرى» وتفرض استيطان مناضلي «كتلة الإيمان» الإجباري في القدس والأراضي المحتلة. وعلى نقيض ذلك، رأى المسلمون الراديكاليون، في هزيمة 1967 إشارة من عند الله تبرهن على أن الأنظمة العلمانية العربية عاجزة عن صد الهوية الصهيونية، وعلى أن العودة إلى الدين وحدها يمكنها أن تجلب النصر. وعند المسيحيين الإنجيليين الأميركيين، يبدو أن صدمة الهزيمة في فيتنام، والثورة الإيرانية، واحتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر (اليوم ذاته منذ ذلك الحين!) 1979، والتقدم الجيوسياسي للشيوعية في أمكنة مختلفة، شكل كل ذلك الصدمة التي ولدت منها «الوطنية التوراتية» (patriotisme biblique) التي أصبح جورج بوش الابن، وهو مسيحي مولود من جديد، بشيرها. ولا يترك بعض الميليشيات الأميركية مثل الجيش الأبيض المقاوم، وسيف الله وذراعه، وقلعة الجيش الأبيض، أي شك حول علاقاتها بالآخرين.

الحَيدان العنصري

«الآخرون» ليسوا معرّفين سياسيًّا، لكن عبر كلمات معولِمة: «الصليبيون»، «الخبثاء»، «اليهود»، «البابويون»، «أميركا»... ويقدّم الحيدان العنصري ميزة تبسيط الخطاب وتحديد أهداف يمكن بلوغها مع السماح بكل أنواع الملغمة[52].

---

(52) كان أوم شينري كيو (Aoum Shinri Kyo) معاديًا للسامية. وكان يستعيد من الخطاب الراديكالي المسيحي فكرة المؤامرة اليهودية. ويفسر بهذا أن اليهود الأميركيين قد دفعوا الولايات المتحدة إلى شن هجوم على اليابان عام 1941 لجر واشنطن إلى الحرب وإنقاذ إخوتهم في أوروبا من الإبادة.

قال الشيخ عبد الرحمن، ملهم الاعتداء الأول على مركز التجارة العالمي، في الحديث عن السياحة: «من المرفوض كليًّا أن تصبح أرض المسلمين مكان فسق لأشخاص من كل الأعراق وكل الألوان». وتصبح صورة العدو حيوانية: يصف الحاخام مئير كهانا (Meir Kahane) العرب كـ «كلاب» أو كـ «ذباب» يجب قتلهم، وكان يفكر باستخدام السلاح النووي لذلك. وكانت عظات الشيخ ياسين زعيم «حماس» عام 1987 تتكلم على اليهود كـ «أحفاد القردة»[53] (عائدًا بذلك إلى النظرية الداروينية عن الإنسان، مع أن كل التيارات الأصولية ترفضها على كل حال).

وتفصل جيوسياسة النزاع الأرضَ حيث انتصر الإيمان (دار الإسلام، إسرائيل الكبرى التوراتية، أو الاتحاد السوفياتي وطن العمال) عن العالم الذي يجب غزوه. فالإنجيليون الجدد في أرض الإسلام أو في أفريقيا، والمسلمون الذين عليهم أن يجعلوا الإيمان الحقيقي ينتصر في دار الحرب حيث يعيش الكفار، والصهاينة المسيحيون، واليهود المتطرفون من مدرسة مركز هاراف التلمودية، يحددون على هذا المنوال «جبهات» قتال. ويصبح التضامن بين المناضلين - المؤمنين غير جغرافي ولا محدد بأرض، بما أن الهدف النهائي هو كوكبي. ومن الصعب، على أي حال، أن تحدد الحدود، هنا أكثر من أي مكان آخر، حيث تكون بين مقاتل ومناضل وداعم، في حروب نخب سلطة الأيديولوجيا. وقد خطط ونفذ أكثر محاولات الاعتداءات الإسلاموية التي أُحصيت في الغرب، منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، شباب مندمجون في المجتمع وليس أفغانيون أو عراقيون. فهل كانت طريقة الألوية الدوليةَ التي جمعت وجندت المناضلين من كل البلدان لإنقاذ النظام الجمهوري الإسباني الذي كان الفرنكيون يهددونه خلال الحرب الأهلية، مختلفة عن طريقة شباب ضواحي الإسلام الذين يريدون الذهاب إلى أفغانستان أو العراق؟

الحرب ليست عبارة عن صراع، إنها عملية طرد للأرواح الشريرة وأهدافها كوكبية. فقد كانت إحدى أوائل الإبادات العرقية في التاريخ دينية: «اقتلوهم

Citations extraites de: Bruce Hoffmann, *La mécanique terroriste* (Paris: Calmann-Lévy, 1999). (53)

كلهم، الله سيعرف الذين ينتمون إليه». هذه الجملة الشهيرة قالها النائب البابوي رئيس دير سيتو (Cîteaux) لتبرير مذبحة الألبيجوا عام 1209، وهو رجل مسيحي جدًّا بالتأكيد لكنه مقتنع بمقاومة الشيطان. وترتكز إدانة العدو وهي شاملة وباتجاه واحد، على جيوسياسة ساذجة، فبالنسبة إلى الجهاديين، إنها «قمع المسلمين في العالم»، من خلال المقارنة بين إسرائيل، والشيشان، والفيليبين والقانون المفروض على الحجاب في فرنسا. ولم يكن هدف بن لادن بناء دولة إسلامية حصرًا لكن استعادة الخلافة وتوحيد الأمة. ولم تعد هنالك مرجعية سياسية لجيل الانتحاريين الذين يقومون اليوم بعمليات انتحارية في إندونيسيا، والمملكة العربية السعودية، وأفريقيا الشرقية. فالعدو شيطاني، وهو «الشيطان الأكبر» (الولايات المتحدة) و«الشيطان الصغير» (إسرائيل) بالنسبة إلى الثورة الإيرانية، والباباويون بالنسبة إلى البرتقاليين الإيرلنديين...وبالنسبة إلى الإسلامويين، أميركا هي العدو الكوني المنشود، وهي قوة مطلقة، والعدو الحامل لكل قيم الشر والحداثة. وبما أنه من المفترض أن تكون أميركا في كل مكان بفضل قوة إعلامها وأجهزة استخباراتها، فهي تتطابق تمامًا مع وصف قوى الشيطان في النصوص الدينية. ومن المستحيل التغلب عليها بوسائل دنيوية، لكن يتمكن فعل العنف (الاعتداء الانتحاري) من التغلب عليها على الأرض الأخلاقية بالبرهان على التضحية بالحياة التي يقبل المؤمن بها. وعلى عكس ذلك، أصبح الإسلام بالنسبة إلى المحافظين الجدد قوة أخطبوطية، ورمزًا للشر المطلق. ويشرح بات روبرتسون (Pat Robertson) الواعظ التلفزيوني الأميركي، أن «الإسلام ليس بدين». ويكتفي فرانكلين غراهام (Franklin Graham)، ابن بيلي (Billy)، بعدِّه «دينًا شيطانيًا».

أما الكذب فمشروع بما أن الإرادة الإلهية تبرره، كالتقية عند الشيعة، وأكاذيب فريق جورج بوش الابن بالنسبة إلى الحرب على العراق، والشرعية التوراتية عند المتطرفين اليهود لطرد الفلسطينيين... وتحرج كل هذه الأمثلة السلطات الدينية الرسمية وهي تفسّر موقفها الملتبس من إدانة أعمال العنف والاعتذارات الرسمية النادرة التي تقدمها.

يأتي المناضلون الأساسيون من البروليتاريا الدنيا التي تمنحها الأيديولوجيا إمكان الإطاحة بالسلطة القائمة وتعطيها تبريرًا للعنف. لكن يمكن أن يكون المناضلون أيضًا شبابًا حائزين على شهادات جذبتهم الراديكالية التجديدية في الخطاب. فمثلًا انقضّ الحرس الأحمر الصيني على السلطة التراتبية في الحزب خلال الثورة الثقافية، على غرار ما فعلته فرق الجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية (GIA) ضد الأئمة الرسميين، أو الانتحاريون السنّة العراقيون ضد أمكنة العبادة الشيعية حاليًا. ويمثل موت الشهيد الشهادة على إيمانه؛ على غرار فيديوهات الإسلاميين الشباب التي هي احتفال بحكم الإعدام لتبرير موتهم. كما ابتهج يغال عمير (Yigal Amir) الذي اغتال رئيس الوزراء الإسرائيلي لأنه وقع اتفاقات أوسلو، بالحكم الذي صدر عليه. وكان من المفترض على لي فنغ (Lei Feng) النابغة المنتمي إلى الحرس الأحمر (الذي نُسي اليوم)، وكان مثالًا للأطفال الصينيين، أن يموت بصورة بطولية. وتخلى تيموتي ماكفي مرتكب اعتداء أوكلاهوما سيتي، عن الاستئناف بالنسبة إلى الحكم عليه بالإعدام. وهكذا يُظهرون كلهم رغبتهم في التضحية بحياتهم.

يرى هؤلاء أنه يقع على عاتقهم إقصاء الانتقادات الموجهة إلى قضيتهم. وهكذا كان من حسن التصرف التنديد بـ «معاداة الشيوعية البدائية» (مع أننا لم نعرف البتة ما هي المعاداة للشيوعية الثانوية)، كما هي اليوم مألوفة التهمة بـ «معاداة الإسلام» أو الإسلاموفوبيا (رهاب الإسلام) أو «معاداة السامية» عندما يُطلق هذا الانتقاد أو ذاك.

نصر أكيد لكنه بعيد

تتشابه حركات التطرف الديني، ولأنها تقدم نفسها على أنها انتقامية تكون انعكاسًا مرآتيًا للحركات الأخرى. ويحرض الحاخام كاهانا الذي يلقبه بعض إخوته في الدين في إسرائيل بـ «آية الله اليهودي»، في وعظه على إبادة الفلسطينيين. وقد اغتاله في نيويورك في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1990 السيد نصير (El Sayed Nosair)، وهو مهاجر مصري. وطالبت المجموعة الإسلامية التي ينتمي إليها القاتل بإخلاء سبيل هذا الأخير، بمناسبة أول اعتداء على مركز

التجارة العالمي (1993). وقد استفاد باروخ غولدشتاين (Baruch Goldstein) من اغتيال كاهانا لتبرير الاعتداء على المؤمنين الذين كانوا يصلون أمام ضريح آباء التوراة(*) (1994)، فجاء جواب «حماس» من الطرف الآخر عبر أولى العمليات الانتحارية في السنة ذاتها. إن الانتصار النهائي ليس على قياس الإنسـان لكنه مؤكد وسـيأتي بافتداء جماعي يجعل التضحية الفردية ضرورية. أما التفاوض فلن يكون خطأ سياسيًا لكن خطيئة بالنسبة إلى اليهود الأصوليين، كما الحال بالنسبة إلى راديكاليي حماس. ويرفض الأصوليون اليهود كل أشكال التنازلات إزاء الفلسطينيين (رفض الليكود لخطة شارون، تظاهرات مستوطنين يحملون صورًا كاريكاتورية لرابين (Rabin) مرتديًا الزي النازي) ويطالبون الجنود بالعصيان. ويُبرر الإيمان بالمجيء الثاني للمسيح المنتصر كل الوسائل المستخدمة، ومن بينها الأعمال الإرهابية العمياء، بما أنه لا يوجد بريء عند الآخر. وتشكل الاعتداءات، مثل اعتداء الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2002 على فندق سياحي في بالي يقيم فيه أستراليون (202 قتلى، 250 جريحًا)، عقابًا جماعيًا للكفار، علمًا أنه لم يكن للانتحاريين ولا للسياح أي علاقة باضطهاد المسلمين على كوكبنا.

العدو = خائن، انحرافي، مرتد

العدو هو أيضًا الهرطوقي الذي «يتلاعب» به الشيطان أو الأجنبي. والهدف الأخير للنضال هو إعادة تشكيل اجتماعي كامل وكوكبي، ذلك أن الإنسان الجديد هو المستهدف. ولكي يتم بلوغ هذا الهدف، يجب على كل فريق تطهير معسكره. فقد كان بن لادن غالبًا ما يذكر «المنافقين» (المسلمين السيئين... وإلا لما بقي أحد على وجه الأرض)، وكما كان يقول لينين «يقوى الحزب عندما يتطهر...أسوأ عدو لنا موجود بين صفوفنا»، ويؤسس لينين هنا أمن الدولة (Guépéou). كما يُستهدف المثقفون الذين يحملون احتجاجات خاصة محتملة، ففي كمبوديا الديمقراطية كانوا «أولئك الذين يضعون نظارات»، وعند الإسلامويين هم الفنانون، حيث تعرّض نجيب محفوظ، المصري الحائز على جائزة نوبل للآداب، لمحاولة اغتيال قام بها شاب إسلاموي أمّي.

إن العدو في كل مكان بما أن الكل مذنب. ويمكن للتطهير إذًا أن يصبح إبادة

(*) هو الحرم الإبراهيمي عند المسلمين ويسمى أيضًا المغارة، ويضم مقام إبراهيم الخليل ومسجده وعند اليهود يسمى «كهف القبور المزدوجة» لأنه يضم رفات آدم وحواء، إبراهيم وسارة، إسحق ورفقة، يعقوب وليا [المراجع].

عرقية ذاتية. وعلى هذا النهج كان هذيان التضحية عند هتلر في آخر أيام الحرب، إذ إنه كان مستعدًّا لأن يضحي بكل الشعب الألماني. وحين لم تتَّبع تعليمات الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) بمقاطعة الانتخابات، قرروا تطهير الشعب الكافر من خلال بعض المذابح التي أبادت قرى بأكملها. لقد دفعت كمبوديا الخمير الحمر بهذا النهج بعيدًا عبر الاغتيالات قبل أن تطهر صفوفها الخاصة. ولقد دفع بول بوت «الأخ رقم 1» في نظام الخمير الحمر إلى إدانة سون سين (Son Sen) «الأخ رقم 2» للنظام الذي وقّع اتفاق السلام في باريس، والذي وقعت عليه مسؤولية سياسة القمع في ما بعد. أما دوش (Douch) المتهم أمام محكمة بنوم بنه، الذي كان على رأس مركز التعذيب 21S الذي صُفّي فيه 14,000 شخص تقريبًا، وكان مولعًا بالإحصاءات، فقد شرح خلال محاكمته أن 78 في المئة من ضحايا المركز هم من كوادر النظام الذين تم توقيفهم بتهمة الخيانة.

ابتكرت سلطات الأيديولوجيا هذه كلها آلية الإقصاء والقمع الخاصة بها، كالفتنة، والانحرافية، ومحاكم التفتيش، وألوية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمطوعين أو الشرطة الدينية عند الوهابيين. ويجمع Guépéou أمن الدولة والـ KGB، والغستابو (Gestapo) قالب مشترك، فالكل لديه ما يلوم نفسه عليه، وعليه أن يجد الطريقة الجيدة للمضي دائمًا في طريق الإيمان الحقيقي (النقد الذاتي، الاعتراف، طرد الأرواح الشريرة). لكن الارتداد هو الشر المطلق والحكم على مرتكبه بالإعدام هو فعل إيمان. وقد أصدر أبو حمزة، وهو واعظ ولاجئ سياسي لندني، فتوى عام 1995 يبرر فيها إعدام أفراد عائلة من المرتدين. وتشكل صناعة الهرطوقي ثم تصفيته عمليات تطهير دورية تتيح للمنظومة الخروج من المصاعب التي لا بد أن تواجهها في أثناء طموحها للسلطة. ويتماثل التيتوي والتروتسكي، عند الشيوعيين، مع الشيعة الذين يعتبرون كـ «أنصاف يهود» بالنسبة للجهاديين السنة. وكان خالد قلقال المتورط في اعتداءات 1995 في باريس، قد صرح في مقابلة أجراها معه قبل ذلك بزمن قليل عالم الاجتماع الألماني ديتمار لوش (Dietmar Loch)، أن «الشيعية قد ابتكرها اليهود لزرع التفرقة بين المسلمين». وفي العراق اليوم، تستهدف بعض الاعتداءات بالسيارات المفخخة التي تقوم بها المجموعات السنية الحجاج

الشيعة بالقرب تمامًا من أماكنهم المقدسة. ففي 2 آذار/ مارس 2004، ارتُكبت تسعة اعتداءات متزامنة في مدينة كربلاء الشيعية المقدسة خلال زيارات عاشوراء، وأسفرت عن 185 قتيلًا و556 جريحًا. ويتنافس في إسرائيل نحو 200.000 متطرف متشدد مع زملائهم بخصوص المحرمات، ففي تموز/ يوليو 2009 انطلق يوم الاحتجاج في حي المتطرفين المتشددين في القدس جراء توقيف الشرطة لأمٍّ يهودية أرثوذكسية - تعاني من اضطرابات عقلية على ما يبدو - واتُهمت بأنها جوّعت طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات عمدًا وبصورة خطرة. ورفض تقديم العناية لهذا الطفل لأسباب دينية يذكّر بشهود يهوه، وليس في الإمكان أن نكون أوضح من ذلك.

النضالية الاستفزازية

تتخذ الاستفزازات شكل تظاهرات إيمان جماعي، على غرار الصلوات الجماعية في الشارع في الجزائر قبيل بداية الحرب الأهلية، ترافقها تظاهرات منددة بالنظام، والاستفزاز الذي قام به أرئيل شارون (Ariel Sharon) في ساحة الحرم في القدس؛ ومسيرات التنظيم البرتقالي في لندنديري، وتظاهرات شيعية في مكة، في الحقبة التي طالب فيها الخميني بالإدارة الجماعية للأمكنة المقدسة... وأضحى العنف ضد الآخر فعلًا تطهيريًا كما في بعض عمليات القتل شبه الشعائرية التي تُرتكَب في إيرلندا الشمالية بحق أفراد لا هوية لهم (صلب، قتل عائلات مختلطة وفيها أطفال)، مذابح جماعية بحق قرويين، قتل أطفال صغار لأنهم ذهبوا إلى المدرسة على الرغم من فتوى الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) بمنعهم من ذلك. ويُبرِّر مناضلو الهوية المسيحية قتل أطباء قاموا بعمليات إجهاض في الولايات المتحدة بأنه «قتل قاتلي الأطفال».

إن هدف العنف الديني ليس حربيًا لكنه رمزي. وتشكل الأرضية الأخلاقية رهان الفعل الإرهابي من أجل أن يبرهن التفوق الروحي لمحاربيه وتفوقهم النفسي من خلال إرعاب الخصم. ويهدف الفعل الإرهابي إلى رفض وجود الآخر باحتقار تام لنوعية الضحايا، وبرهان تفوق المناضل - المحارب بجعل

الإرهابي بطلًا شهيدًا[54]، وأخيرًا بتأكيد حقيقة الإيمان من خلال الوعد بالجنة. ويشكل النمو المطرد لظاهرة الاعتداءات الانتحارية مثالًا على ذلك، فقد أُحصيت 275 حالة في نيسان/ إبريل 2000 منذ العام 1982، تاريخ ظهور الظاهرة. ومنذ العام 2000 حتى 2003 كان ثمة 267 حالة على الأرجح. ولقد فجرت حروب العراق وأفغانستان وتبعاتها في باكستان وفي أوروبا عدادات الحروب. ويمر العنف عبر سجل الشهداء المقاتلين الذين ضحوا بحياتهم، (وينحدر تأثيل كلمة (sacrifiés) [المضحى بهم] من اللاتينية (sacer facere) [جعل مقدسًا]). ولا مجال للتمييز بين مدني وعسكري، إذ إن المعنى هو أن نرفض للعدو أو للضحايا أي قيمة إنسانية. إن الاعتداء - الانتحاري ليس حقًا حصريًا على الإسلامويين، فلقد جعل منه النمور التاميل استراتيجيا حربية في وجه القوات السريلانكية!

إن الشهيد هو موضوع عبادة، ولقد انتهى الأمر بحكومة تل أبيب بحظر العبادة التي انتشرت فوق قبر باروخ غولدشتاين. ويقف الإرهاب الأخروي الجماهيري على نقيض الإرهاب السياسي الذي يجب أن يبقى وضوحه الميزة الأولى لاستقطاب جزء من الرأي العام. «تقلد الطبيعة الرمزية للأفعال الإرهابية بشكل ما الطقوسَ الدينية»[55]. وقد كان مبنى أوكلاهوما سيتي في 19 نيسان/ أبريل 1995 يحتوي على خدمات إدارية فيدرالية وبشكل خاص على خدمات اجتماعية، لكنه كان يحتوي أيضًا على حضانة أطفال ومكاتب.

مستقبل جميل

أصبح صعود التيارات الدينية المتطرفة في بعض الدول المتعددة الطوائف معطى أساسيًا للحياة الدولية: لبنان، يوغوسلافيا، الهند، نيجيريا، الكامرون، السودان، ساحل العاج، سريلانكا، إندونيسيا، الفيليبين، اضطهاد البهائيين في إيران، دول القوقاز... وتتعرض أيضًا للعنف الديني جماعات تنتمي إلى الديانة التوحيدية ذاتها: سنة وشيعة في باكستان والمملكة العربية السعودية والعراق،

(54) P. Conesa, «Aux origines des attentats-suicides,» *Le Monde diplomatique* (juin 2004).

(55) Juergensmeyer, *Au nom de Dieu ils tuent: Chrétiens, juifs ou musulmans, ils revendiquent la violence*, p. 123.

الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا الشمالية. ويجب أن نضيف إلى هذه الظاهرة النزاع الديني الداخلي العنيف في مجمل البلدان العربية - الإسلامية: سورية، المملكة العربية السعودية، الجزائر، تونس، المغرب، مصر، تركيا، أفغانستان... ويشكل النزاع الديني بأشكاله المذكورة سابقًا، أحد المخاطر الجدية على سطح الكوكب اليوم. ومن الممكن للإرهاب الديني أن يكون الأكثر استعدادًا لاستعمال أسلحة غير تقليدية. فقد نظمت طائفة أوم أول اعتداء بغاز السارين في مترو طوكيو لتسريع قدوم «يوم القيامة». وتبقى أزمة إيرلندا الشمالية الأزمة الأطول داخل الاتحاد الأوروبي التي لا تزال تخلق مواجهة بين الكاثوليك والبروتستانت منذ العام 1968، أي منذ أربعين سنة تقريبًا. وتخلق معاهدة السلام الجاري بصيص أمل. ويدعونا هذا التذكير إلى عدم النظر إلى الحروب الدينية لدى الآخرين فحسب.

تجابه البلدان الديمقراطية تناقضات سياسية كبيرة، إذ تقبل بمنح واعظين متطرفين ينشرون خطاب الكراهية، اللجوء السياسي، لأسباب تتعلق بالحرية الدينية. فقد حصل أبو قتادة أو أبو حمزة وهما شخصيتان مشهورتان في لندنستان، على حق اللجوء السياسي في بريطانيا العظمى. وبدوره، طلب الأردن تسليم الأول بسبب أعمال إرهابية ارتكبها. وكان الثاني ملاحقًا في اليمن بسبب مقتل أربعة سائحين. وكانا معرضين للحكم بالإعدام في حال طردهما، فلم يُسَلما. وكانت أهاجيهما العنيفة كل يوم أحد في هايد بارك موجهة ضد الديمقراطية، وكانت تعتبر كحق في حرية التعبير إلى أن حصلت اعتداءات لندن في 7 حزيران/يونيو 2007 التي نفذها شباب مسلمون من الجيل الثاني، والتي ذكّرت البريطانيين بأن الحرية الدينية ليست بمبدأ مُنزَل، فطُردا. وتصرفت العدالة البريطانية بشكل أفضل في ما يتعلق بقضية راشي رامدا (Rashi Ramda) الذي تشتبه العدالة الفرنسية بأنه منظم موجة الاعتداءات التي هزت فرنسا عام 1995. وعلى الرغم من ثلاث مطالبات فرنسية كان يجب الانتظار عشر سنوات لكي تنطق عدالة لندن بحكم التسليم، وكان مبرر الرفض الأخير «إمكان التعرض للتعذيب» في مكاتب الشرطة في باريس. ونُطق بالطرد أخيرًا في نهاية 2005. ويجب القول إنه في أثناء ذلك تعرضت لندن لعمليتي اعتداء خلّفتا 56 قتيلًا و700 جريح.

اعتبر مجمل العالم العربي - الإسلامي التدخل العسكري الغربي الذي قامت به الحكومة الأميركية في أفغانستان وخصوصًا في العراق، اعتداء دينيًا كبيرًا، في حين أن الحكومات الغربية ذاتها لم تتوصل إلى إيقاف الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة. في الحالة الأولى لدينا حملة عسكرية، وفي الأخرى خطاب. ولا يمكن أن نجد تبشيرًا للراديكالية الدينية لدى المسلمين الشبان، أفضل من «كتلة الإيمان» عند الراديكاليين اليهود، والإنجيلية الجديدة الأميركية.

دفع الرعب من صعود الإسلاموية بدبلوماسية البلدان الغربية إلى الدفاع عن الرؤساء المنصّبين مدى الحياة أو عن ملوك تقليديين، ودعمهم إلى حد لا يمكن قبوله. ولا نعلم عما سيتمخض عنه الربيع العربي في شتاء 2010 وتدخل حلف شمال الأطلسي (OTAN) في ليبيا: أتكون هناك ديمقراطية تعددية أم انتصار للإسلامويين؟ هل ستُحترم نتائج صناديق الاقتراع؟

المحرم الديني وسيلة لكشف العدو الداخلي

بما أن إبداعية التيارات الأصولية الدينية في ما يتعلق بالتنديد بالشر لا حدود لها، فمن الصعب أن ننسب الصفة لأي منها، ما دفعنا إلى تقديم مختارات منها.

بما أن طالبان هم المرشحون الأكثر صدقية لتحقيق المجتمع الإسلاموي المطلق، فيجب التذكير ببعض محرماتهم التي تسمح لهم بممارسة القمع.

قرار الإدارة العامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الشرطة الدينية، كانون الأول/ ديسمبر 1996، ذكره أحمد رشيد في كتابه **ظل طالبان**[56].

- يحظر على الرجل حلق لحيته (السجن إلى أن تنبت لحيته من جديد) وتربية الحمام وصنع الطائرات الورقية.

- يجب التخلص من الصور والبورتريهات في العربات والمخازن، والفنادق (لمكافحة الأصنام).

(56) Ahmed Rashid, *L'ombre des Talibans* (Paris: Autrement, 2001).

- تمنع تصفيفات الشعر الإنكليزية أو الأميركية، والطبل الغربي (درامز)، وبشكل عام الموسيقى (التي تلهي عن الصلاة).

- أخيرًا في الملاعب، لا يحق للجمهور تشجيع الفرق إلا من خلال الهتاف بـ «الله أكبر».

العدو الأول والعدو الثاني: يبقى التيار الأكثر إثارة للاهتمام عند الإنجيليين الجدد الأميركيين تيار المسيحيين الصهاينة المسمون بالإحيائيين (revivalistes) الذي جمع بأسوأ ما يمكن تصوّره بين المشروع الاستعماري وإرادة فرض القانون الديني على المجتمع. ويتكون مشروعه الرئيس من ضم الأراضي و«ترحيل» (transfert) الفلسطينيين. وبالنسبة إلى هذا التيار الأصولي الذي يريد أن يكون وارث المستعمرين الأميركيين الأوائل، فإن عبور الأطلسي يشبه عبور موسى للبحر الأحمر، وغزو البلد على حساب الأميركيين الهنود (Amérindiens) هي إعادة إنتاج غزوات يشوع بن نون (Josué). وهؤلاء الأصوليون هم معادون للسامية ويعتقدون أن العرب يجسدون الشر، أرمجدون (armageddon)، ويجب إذًا طردهم خارج إسرائيل. وبالنسبة إلى هذا التيار الألفي (millénariste) الذي يؤمن بنهاية الأزمنة، فإنه يجب على اليهود في نهاية المطاف أن يعتنقوا الإيمان الصحيح وإلا انقرضوا. وعليه، نلاحظ أن بعض ممولي المستوطنات الدينية الرئيسيين في الضفة الغربية هم معادون للسامية أقحاح.

يتنافس اليهود المتشددون مع زملائهم في ما يتعلق بالمحرمات في مستوطنات الضفة الغربية. ومن ابتكاراتهم الأخيرة، التظاهرة ضد قرار المحكمة العليا بمنع التمييز بين الأطفال الأشكناز والسفارديم في مدرسة دينية في المستوطنة اليهودية عمانوئيل في الضفة الغربية المحتلة. وقد رفض الأهالي الأشكناز (أصولهم من أوروبا الوسطى والشرقية) أن يدخل أولادهم إلى الصف مع فتيات سفارديم (من أصل شرقي)، وأخرجوا بناتهم من المدرسة.

العدو المتصور

لم يعرف العالم سوى مثال واحد عن الدبلوماسية الأحادية الجانب، متمثلة بالفترة الرئاسية لجورج بوش الابن من عام 2000 إلى عام 2008. والأحادية الأميركية هي العمل الدولي لقوة لا مثيل لها على المستوى العالمي، والتي تبرر تميزها بوصفها نوعًا من أنواع «الخصوصية التقديسية» أو «المسيحانية الديمقراطية الراديكالية»[57]. وقد ابتكرت الأحادية العدو المتصور[58]، الوحيد على مقاسها.

قومية تقديسية

يضفي الطابع السياسي الديني على القومية الأميركية شكل رسالة تبشيرية. فمنذ 1997، وضع **المشروع لقرن أميركي جديد** وهو توراة المحافظين الجدد الذين وصلوا الى الحكم مع جورج بوش الابن، مبدأً أساسيًا للقرن الحادي والعشرين، يتمثل بأن القيادة الأميركية مفيدة للعالم. كما أن تقليد الاستثناء الأميركي وضع الولايات المتحدة خارج نطاق التحليل، وأنها الوحيدة القادرة على توصيف الخير والشر، العادل وغير العادل. واقترح **ريتشارد هاس** (Richard Haass)، مدير الدراسات في مؤسسة بروكينغز (Brookings Institution) والمستشار الخاص السابق للرئيس جورج بوش الأب، في كتابه **الشريف (الشرطي) رغمًا عنه** (*The Reluctant Sheriff*)، أن تصبح الولايات المتحدة الشريف (الشرطي) الكوكبي، وحجته هي حرب الخليج، وأن تكون النموذج الذي يجب احتذاؤه. وبرأيه، ستشرع واشنطن بالعمل، فقط حين يكون من الضروري تنظيم غارة جوية ضد قوى متمردة أو «دول منبوذة»، بحسب تعبيره، أي بمعنى آخر، وجود مناطق أو مجموعات لا تقبل بالنظام المفروض، حيث يجمع الشريف حينئذ فيلقًا من «الدول المتطوعة»، أو كتيبة، كما نرى في أفلام رعاة البقر، لمساعدته

(57) بحسب تعبير غنيسوتو (Gnesotto) «أوروبا والولايات المتحدة - رؤى العالم، رؤى الآخر»، Nicole Gnesotto: «Europe et Etats-Unis Visions du monde, visions de l'autre,» Institut d'études de sécurité, Analyse, Mars 2004.

(58) أستخلص جوهر التحليلات المذكورة هنا من: Conesa, *Les mécaniques du chaos: Bushisme, terrorisme et prolifération*, éd. de l'Aubex, coll. «Monde en cours», (la Tour-d'Aigues: Ed. De l'Aube, 2007).

في إحلال النظام من جديد. وضمن هذا التصور الذي يحظى بتوافق واسع في الولايات المتحدة - إذ تُعدّ مؤسسة بروكينغز «وسطيّة التوجه» - تُختَزل السياسة الخارجية بحشد ميليشيات دولتية مسلحة.

وصف رونالد ريغان (Ronald Reagan)، السلف الكبير، الاتحاد السوفياتي بـ «إمبراطورية الشر» وذلك أمام جمعية القساوسة الإنجيليين في 16 آذار/ مارس 1983، وصرّح ببساطة أن «نمط الحياة الأميركية لا يُفاوَض عليه»[59]. كما أعلن الناطق باسم جورج بوش الابن أيضًا، معلقًا على رفض بروتوكول كيوتو (Kyoto): «يشكل الاستهلاك الكبير للطاقة جزءًا من نمط حياتنا، ونمط حياة الأميركيين مقدس!»، وهكذا تلجأ العقيدة السياسية إلى المفردات شبه الدينية. وحلل بعض الإنجيليين الجدد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كإشارات سماوية تنادي بالافتداء الخلاصي، إذ قال فرانكلين غراهام (Franklin Graham) الإنجيلي الشهير: «الأمر يتعلق هنا بإنذار، لأن المادية أصبحت إله الأميركيين. الله سمح بأن يحدث كل شيء كما سمح للبابليين أن يفعلوا... كما سمح للمحرقة بأن تحدث لكي تعود إسرائيل إلى الحياة من رمادها». وهكذا، فإن توماس فريدمان (Thomas Friedman)، وهو الحامل لهذا الشعور بالخصوصية في عقله الباطن، تساءل في أعمدة **الإنترناشونال هيرالد تريبيون** (*International Herald Tribune*): «بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، تساءل الأميركيون: «لماذا يكرهوننا؟»، والمقصود هنا العالم الإسلامي. وبعد حرب العراق أصبح السؤال: «لماذا يكرهنا العالم كله؟»[60] واضعين بذلك النقاش على أرضية العواطف وليس على أرضية السياسة. وأتت الإجابة بمصطلحات أخلاقية: «لأننا الخير وهم الشر». ترتكز الدبلوماسية الأميركية، إذًا، على إجماع يبنى فيه المبدأ الأول على عدم المساس بالقيم الغربية وعلى شموليتها، مع إقصاء كل نسبية ثقافية، والاقتناع بمهمة يجب إنجازها ولو باستعمال القوة[61]. كان هتلر

---

(59) تمامًا مثل الإسلاميين الراديكاليين الذين يستبعدون فكرة التسوية بحد ذاتها حول طريقة العيش «الإسلامية» أو تكييف الدين مع الحداثة.

(60) «Why the Rest of the World hates America?,» *International Herald Tribune* (2 juin 2003).

(61) Voir l'analyse de: B. Tertrais, *La guerre sans fin: L'Amérique dans l'engrenage*, La République des idées (Paris: Le Seuil, 2004).

يرى سيطرة الرايخ لمدة ألف سنة، فيما حدد وولفوفيتز سيطرتهم - وهو أكثر تواضعًا - بجيلين.

شكلت صدمة الإذلال والشعور بفقدان السلطة لدى الولايات المتحدة عوامل تعبئة لهذا الحراك السياسي الديني للمحافظين الجدد. فالهزيمة في فيتنام، والثورة الإسلامية في طهران، والاجتياح السوفياتي لأفغانستان، ومذلة أزمة الرهائن في إيران عام 1979، ووجود الجنود الكوبيين في أنغولا وفي موزمبيق، كل ذلك دل على التراجع الأميركي الذي كان يستوجب رد فعل. وقد بدأت الحركة عند المثقفين الذين حرروا **المشروع لقرن أميركي جديد** (PNAC).

فكر إمبراطوري - إمبريالي

كانت أفضل المبيعات الأميركية من الكتب في التسعينيات لصموئيل هنتنغتون، وفرنسيس فوكوياما (Francis Fukuyama)، وجوزيف س. ناي جونيور (Joseph. S. Nye Junior)، وبول كينيدي (Paul Kennedy)، وزبيغنيو بريجنسكي (Zbigniew Berzezinski)، وتوماس بارنيت (Thomas Barnett)، وروبرت كاغان (Robert Kagan)، وجميعها تقدم رؤية نزاعية للعالم. يرى هنتنغتون في **صدام الحضارات** النزاع المحتم بين الغرب والعالم الإسلامي. وفي شباط/ فبراير 1994، نشر روبرت د. كابلان (Robert D.Kaplan) في «*Atlantic Monthly*» دراسة أثارت جدلًا كبيرًا بعنوان «الفوضى المقبلة». يُضعف التكاثر السكاني والتمدين واستنفاد الموارد الطبيعية حكومات الجنوب ويهيئ مناخًا للفوضى، يتمثل بنوع من حالة حرب مستمرة في بعض المناطق ما يشكل تهديدًا للعالم. وفي رأيه، «أصبحت أفريقيا الغربية رمزًا للأزمة العالمية السكانية، والبيئية، والاجتماعية، وتبدو فيها الفوضى الإجرامية الخطر الاستراتيجي الحقيقي». وبدوره، نشر بول براكن (Paul Bracken) عام 1999 **الشرق يحترق** (*L'Orient en feu*) وفيه رسم خريطة تفسر، برأيه، «أزمة المكان» (crise d'espace) التي ستؤدي إلى نزاعات مستقبلية، متمثلة بأزمة انتشار جديد للخطر الأصفر. ويشرح توماس بارنيت أن المناطق الخطرة هي تلك المبعدة عن عملية العولمة، وأن على شبكة القواعد الأميركية أن تطوق هذه المناطق.

أما **رقعة الشطرنج الكبيرة** لزبيغنيو بريجنسكي[62] (*Le Grand Échiquier*) فهو الكتاب المفضل للرؤية الأحادية لفترة ما بعد الحرب الباردة، لدى القادة الأميركيين. وفيه أن العدو ليس هو المهم بل المحافظة على السيطرة: «بما أن القوة غير المسبوقة للولايات المتحدة آيلة إلى التراجع، فالأولوية إذًا هي إدارة بزوغ قوى عالمية جديدة (يمكنها أن) تضع السيطرة الأميركية في موضع خطر» و«أنّ أوروبا أكثر امتدادًا، يمكنها أن تنمي أهمية التأثير الأميركي (...) فأوروبا الغربية تبقى إلى حد كبير محمية أميركية، ودولها تذكّر بالتابعين ودافعي الجزية بالنسبة إلى الإمبراطوريات القديمة». وعليه، ليس هنالك قلق من «المناطق الرمادية» و«الدول الفاشلة» (failed states) التي لا تفلت من القانون إلا إذا كانت الأزمات التي تهزها ذات عواقب مباشرة على الأمن الأميركي.

وبما أن مبدأ الإمرة المسيطرة (Imperium) قد اعتُمد، فإن النقاشات تتناول الطريقة أكثر من الهدف. ويؤكد جوزيف ناي[63] ضرورة قدرات التأثير، أي القوة الناعمة، لوصف قدرة التأثير غير المباشر في تصرف لاعب ما عبر وسائل غير إكراهية. ويمكن فهم الطريقة إذا رأينا مدى سيطرة الولايات المتحدة بشكل شبه تام على وسائل القوة الناعمة (الإنتاج السينمائي والتلفزيوني، مراكز التفكير... إلخ)!

تعيد «الحرب الشاملة والتصورية» (ضد الإرهاب وانتشار السلاح النووي) تشكيل النموذج الكوكبي (le paradigme planétaire) الأوحد الضروري لتحديد العدو. ويمكن أن تعفي القوة العظمى نفسها من القواعد الدولية المطبقة على الآخرين، بشرط أن تفكك نظام الأمن الموروث من الحرب الباردة، من خلال رفضها الانضمام إلى المعاهدات الدولية كلها أو إليها كلها تقريبًا. «يجب ألا يخضع أمن البلد إلى أي قيد خارجي»، كما كانت تكرر كوندوليزا رايس مستشارة الرئيس بوش للأمن القومي، أغلب الأوقات، في خطاباتها الرسمية.

---

(62) Zbigniew Brzezinski, *Le Grand Echiquier: L'Amérique et le reste du monde*, Pluriel, Actuel (Paris: Hachette Littérature, 2004).

(63) Joseph S. Nye, *Soft Power: The Means to Success in World Politics* (Etats-Unis: Public Affairs, 2005).

فالقوة المسيطرة هي التي تحدد، وحدها، الأجندة، وتختار الأزمات المهمة، وتحدد العدو وفق دبلوماسية المعيار المزدوج. وقد سمح فريق بوش لنفسه بإعادة رسم خريطة العالم من خلال مشروع **الشرق الأوسط الكبير** وترك لنفسه مهمة تغيير طبيعة الأنظمة السياسية من خلال تصوره لتغيير النظام (regime change).

يمكن للقوة العظمى أن تحدد عشوائيًا الأزمات التي تضر بمصالحها التي تعتبرها «الأمن الدولي». وعلى هذا المنوال يمكن أن تكون باكستان بلدًا «جيدًا» لانتشار السلاح النووي، ودولة إرهابية «جيدة»، لأنها بلد حليف. والولايات المتحدة هي المالك الوحيد لوسائل عسكرية مهمة تخولها أن تعمل وحدها. ولا يستحق «الناس الذين لا منفعة منهم»[64] إلا انتباهًا انتقائيًا: فمثلًا لم يعد موت 17 جنديًا أميركيًا في الصومال يبرر التدخل، وبالتالي لم يكن هنالك إذًا من جنود أميركيين لمنع الإبادة العرقية في رواندا، بعد بضع سنوات من ذلك.

يكتسي عمل القوة العظمى الدولي طابعًا وقائيًا يهدف إلى علاج كوكبي[65] لأسلحة الإرهاب، وللمجموعات الإرهابية والأنظمة الدكتاتورية. لكنه علاج للأعراض المرضية. فلقد قال جنرال أميركي: «شن حرب على الإرهاب أو على انتشار السلاح النووي هو عمل غبي كما لو كنا قد قررنا ألا نشن الحرب سوى على الغواصات وحدها في أثناء الحرب العالمية الثانية». وتبين اللائحة الطويلة لوزارة الخارجية الأميركية المتضمنة 85 مجموعة إرهابية التي أعلن عنها منذ 2002، العملَ الاستشفائي الاستئصالي الذي تريد واشنطن القيام به.

اللجوء إلى القوة

بما أن الولايات المتحدة لم تشهد على أراضيها دمار الحرب، فلديها تصور لاستعمال الجيوش مختلف عن التصور الأوروبي في هذا الشأن. ويضع

---

(64) P. Conesa, «Une géographie du monde inutile,» *Le Monde diplomatique* (mars 2001).

(65) في زمن الهلع بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر حين كانت الولايات المتحدة تبحث عن خلايا إرهابية على سطح الكوكب قاطبة، أعلم محلل من الاستخبارات الأميركية CIA الصحافة سريًا أن ساحل العاج مصاب بالعدوى. في الحقيقة خلط بين «أبيدجان» (Abidjan) و«أذربيجان» (Azerbidjan). وهذه قصة حقيقية.

تقرير (Rebuilding America's Defenses) «إعادة بناء دفاعات أميركا» الذي حرره أعضاء (PNAC) **المشروع لقرن أميركي جديد**، قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، مبادئ شرعية الحرب الاستباقية (guerre préemptive) واستخدام السلاح النووي مع القنابل النووية الصغيرة (الميني قنابل). وفي رأيهم، يمكن للقوة المسيطرة أن «تشن بصورة شرعية «حربًا استباقية»، إن كانت بناها الخاصة بعملية صنع العدو قررت أن الخطر وشيك». ولم يكن بوسع أي بلد آخر أن يعلن عن فكرة مماثلة، من دون إثارة عاصفة من الاحتجاجات الدولية. وسيبرر هذا التصور اجتياح العراق الذي سيتبعه نصف دول الاتحاد الأوروبي.

يبقى الخطر الوشيك رهن تقدير القوة العظمى فحسب. وكان هذا موضوع خطاب كولن باول في شباط/ فبراير 2003 على منبر الأمم المتحدة، ملوحًا بقواريره الصغيرة وصوره، ليثبت أن صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل. فهل كانت تلك القوارير تحتوي على عصيات الأنتراكس التي انتشرت في الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، والتي علمنا في ما بعد أنها أتت من المخبر العسكري في البنتاغون (وزارة الحربية الأميركية)، أم كان ذلك طحينًا؟

تروج الدعايات قيمًا حربية وفضائل رجولية للنزاعات نجدها في السينما الهوليوودية والمسلسلات التلفزيونية التي ينتصر فيها العسكر، والجواسيس، والشرطة الأميركية، في حين أن قتلة كينيدي ولوثر كينغ (Luther King) لا يزالون طليقين، وأن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) قد أظهرت حدود قدراتها، وأن الجنود قد تورطوا في العراق وفي أفغانستان. ويشبه هذا إلى درجة كبيرة العالم الذي نحلم به! ولا يمكن تصور الأسطرة التقويمية لمشاة البحرية (المارينز) القدامى وحملات التدخلات الإمبراطورية إلا في الولايات المتحدة الأميركية. وهل بإمكاننا أن نتخيل مسلسلًا تلفزيونيًا على شاشاتنا مخصصًا للسبيتزناس (Spetsnaz) أي الفرق الخاصة السوفياتية في أفغانستان أو لمظليي حرب الجزائر؟

كانت ردة فعل الولايات المتحدة، كونها ضحية قدرتها المطلقة، خطرة تجاه حوادث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وذلك بشنها ثلاث حروب

خلال سنتين، اثنتين ضد دولتين (أفغانستان في 2001 والعراق في 2003) والثالثة ضد الإرهاب. وكان ذلك أحد الأهداف التي سعى إليها أسامة بن لادن في مقابلة مع الجزيرة في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 2001[66]. صحيح، أنه مثلما قال جون باراشيني (John Parachini) من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT): «من الأسهل إلى حد كبير الضرب بصاروخ بعيد المدى». وكان يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) قد حذر بعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بقليل في 2001 قائلًا: «لا يمكن وضع حدود للخطر. ويضع هذا الأمر الدولة المهدَّدة في موضع صعب، فهي لا تملك إلا القوة المنظمة في إطار الدولة للرد على هذه الأخطار غير المحددة، ويمكنها إذًا أن ترغم على الرد المفرط (...). ويمكن أن تكون الدول عرضة للسخرية إن أظهرت الطابع غير المتكيف لوسائلها، سواء أكان ذلك في الداخل، إن كانت تستعمل إجراءات الأمن - حتى لو عرضت دولة القانون للخطر - أم في الخارج، إن حشدت قوة ضاربة كبيرة جدًا ستظهر وكأنها في آن غير متناسبة وغير مجدية».

عدو، خصم، منافس

العدو غير مرئي، إنه الإرهابي الذي نرفض وصفه بالعدو. ويُحارَب بكل الوسائل في كل مكان على كوكبنا: أبو غريب وغوانتانامو، وخطف وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) لمشتبه بهم، وسجون سرية لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) في بعض البلدان الحليفة، والاستخدام المشروع للتعذيب. وفي وقت قصير لحقت الولايات المتحدة بركب باقي بلدان الكوكب والدول الديمقراطية التي تواجه الإرهاب. ولقد دمّرت الانتهاكات المختلفة لحقوق الإنسان التي كانت إدارة بوش مسؤولة عنها، بفظاظة، الضمانات القانونية التي كان بإمكان الأجانب الاستفادة منها. وفي المقابل، استفاد المواطنون الأميركيون «التائهون» مثل الشاب جون والكر ليند (John Walker Lindt)، الطالباني الأميركي الذي تم توقيفه في أفغانستان عام 2002، من حق المثول أمام المحكمة في الولايات المتحدة. وكان الهمّ القانوني الوحيد لدى إدارة الجمهوريين يقتصر

(66) الترجمة قامت بها CNN وهي متوفرة على موقع Youtube.

على تبرير المعاملة المختلفة بين المواطنين الأميركيين والأجانب، من الناحية القانونية.

وأبعد من العدو، تميل الاستراتيجيا العامة أيضًا إلى منع بروز أي منافس، ومن هنا جاء الخطاب الاتهامي الذي يوجهه المحافظون الجدد إلى الصين وروسيا. ومن الصعب أن نفهم أحيانًا كيفية التمييز بين العدو، والخصم، والمنافس. فالحلفاء العسكريون التقليديون، مثل فرنسا أو بريطانيا العظمى، هم أيضًا خصوم تجاريون يُبرّر استخدام الوسائل الاستخبارية لشبكة إيشلون تجاههم، بما أن الأمر يتعلق بـ «الحرب» الاقتصادية. ويقصى الحلفاء الذين تختلف آراؤهم، بازدراء، حتى عبر حملة تحقير. ويشرح كتاب دايفد فروم (David Frum) وريتشارد بيرل (Richard Perl)، نهاية للشر لماذا يجب النظر إلى فرنسا والسعودية كأنهما عدوان. ولقد استعرت كراهية الفرنسيين (french Bashing) في الولايات المتحدة عام 2003 عندما رفضت باريس في منظمة الأمم المتحدة، بالشراكة مع برلين، وموسكو، وبيجين، الموافقة على اجتياح العراق. وصرحت كوندي رايس: «سنعاقب فرنسا، نتجاهل ألمانيا، ونسامح روسيا لموقفها المتعنت». ونعت دونالد رامسفيلد (Donald Rumsfeld) باريس وبرلين بـ «أوروبا العجوز»، وبلدان أوروبا الشرقية العديدة التي دعمت الموقف الأميركي بـ «أوروبا الحديثة». أما بالنسبة إلى جون ماكين (John MacCain) المرشح المقبل للرئاسة، فقد اختار كلام الجنسانية Sexism (تعصب على أساس الجنس) في مقاله في صحيفة النيويورك تايمز في 14 شباط/ فبراير 2003: «تشبه فرنسا ممثلة قديمة من الأربعينيات تحاول دومًا أن تُدعى إلى العشاء لمظهرها، لكن لم يعد شكل وجهها يؤهلها لذلك!»، كل هذا كي لا نذكر سوى المواقف التي اتخذها مسؤولون أميركيون كبار. وهكذا يمكن لموجة من الهستيريا الجماعية أن تطغى حتى على ديمقراطية كبيرة. ولا يوجد مثيل تاريخي للقوة العظمى للنموذج الأميركي الحالي سوى الإمبراطورية الرومانية التي حكمت من خلال نموذجها الثقافي الدامج للاختلافات، كما حكمت من خلال جيوشها، وكانت تحيط نفسها بحدود محصنة (limes) ضد البرابرة على التخوم البعيدة للإمبراطورية.

يجب على الأوروبيين أن يفكروا بأنفسهم في أمنهم وفي أمن الديمقراطيات:

العلاقات مع روسيا، ومع الصين، وفي بناء أمن متعدد الأقطاب، وإمعان النظر في التصور الاستراتيجي لحلف شمال الأطلسي... بما أنهم خاضعون كليًّا للرقابة الأميركية، ولا يبحثون في الوقت الحاضر إلا عن وسائل لتمتين العلاقة مع الولايات المتحدة. يذكر رئيس الوزراء الفرنسي السابق إدوار بالادور (Édouard Balladur)، في كتابه الذي يحمل عنوان **من أجل تحالف أوروبي أطلسي** (*Pour une alliance euro-atlantique*)، «معسكر الديمقراطيات» من دون أن يذكر إطلاقًا اليابان، وأستراليا، وكوريا والهند، مبرهنًا هنا بالذات على الخضوع الأعمى لواشنطن الذي لا يزال يمارسه العديد من النخب من أعلى المستويات. وتتيح الدينامية السياسية الأميركية الحالية، عبر حركة حفلات الشاي (tea parties) التفكير بأن الأحادية لم تهمد نهائيًّا مع جورج بوش الابن. فماذا سيفعل الأوروبيون إذًا؟

دايفد فروم (David Frum):

مكافحة انتشار سلاح الدمار الشامل بالانتشار

دايفد فروم الموظف في الإدارة الأميركية من 2001 إلى 2002 هو أحد محرري خطاب جورج بوش الابن حول «محاور الشر». وهو مؤلف المقالة بعنوان «القطيعة المؤمّنة بشكل متبادل» التي نشرت في النيويورك تايمز في 10 تشرين الأول/ أكتوبر 2006، وها هنا مقطع منها. والهدف هو مكافحة انتشار سلاح الدمار الشامل.. بالانتشار.

«أبرزت التجربة النووية الكورية (...) الفشل المأساوي لاثني عشرة سنة من الدبلوماسية الأميركية. ومن الضروري اعتماد مقاربة جديدة، وعلى أميركا أن تضع أمامها ثلاثة أهداف.

الأول هو رفع مستوى الأمن لدى حلفائها المهددين مباشرة (...). والثاني هو القيام بحساب صحيح للثمن الذي ينبغي على كوريا الشمالية أن تدفعه من أجل برنامجها النووي، ويجب أن يكون الثمن غاليًا إلى حد ما لردع إيران وأنظمة مارقة أخرى يغريها إجراء مماثل لهذا (...). ويقتصر الهدف الأخير على معاقبة الصين التي من دون مساعدتها لما استطاعت بيونغ يانغ

(Pyongyang) أن تنجز برنامجها بسبب نقص الإمداد بالغذاء والطاقة. وعلى ما يبدو، تجد بيجين فائدة في عدم الاستقرار الذي تسببه كوريا الشمالية. وإذا كان بإمكان الصين أن تتصرف بهذا الشكل مجانًا فما الذي يمكن أن يردع موسكو عن مساعدة إيران وباكستان في المستقبل؟ ومساعدة العربية السعودية النووية أو مصر؟ (...) تملك الولايات المتحدة أربعة أجوبة سريعة لبلوغ أهدافها.

قبل كل شيء الاستمرار في برنامج الدفاع المضاد للصواريخ الذي لا يحتاج أن يكون فعالًا كليًا لجعل الحياة أكثر تعقيدًا بكثير بالنسبة إلى بلد عدواني، لكنه ضعيف مثل كوريا الشمالية. ويمكن لنشر المنظومة المضادة للصواريخ ذات الفعالية المتنامية أن يسمح ببلوغ هدف آخر، أي المعاقبة غير المباشرة للصين التي ستشهد تآكل فعالية صواريخها المستخدمة للضغط على تايوان.

2. وضع حد للمساعدة الإنسانية، وإقناع كوريا الجنوبية باتخاذ الإجراء ذاته (...)، ما قد يضع في الميزان الثمن الحقيقي الذي يجب أن تدفعه كوريا الشمالية وأيضًا الصين، حيث يشرح قادتها أن كارثة اقتصادية وإنسانية عند جارتهم ستتسبب بنزوح سيل من اللاجئين إلى بلادهم. ولكن هذا مجرد خداع فحسب! فإن كان الخطر يرعب بيجين لهذه الدرجة، فلماذا يجب على الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية أن تساعداها لمجابهته؟ لندع الصين تدفع الثمن الحقيقي مقابل الدعم الذي تقدمه لزبونها.

3. دعوة اليابان، وكوريا الجنوبية، وأستراليا، ونيوزلندا، وسنغافورة للانضمام إلى حلف شمال الأطلسي (OTAN)، بل حتى دعوة تايوان لإرسال مراقبين (...).

4. ربما يفكر الصينيون والكوريون الشماليون أن التجربة النووية الأخيرة قد غيرت التوازن الاستراتيجي في المحيط الهادئ لمصلحتهم (...). يبين تشجيع اليابان على التخلي عن اتفاقية عدم انتشار أسلحة الدمار الشامل وخلق ردعها النووي الخاص بها، أن الحرب العالمية الثانية انتهت فعلًا (...)

فاليابان النووية هي أكثر ما تخشاه الصين وكوريا الشمالية (...). حتى إيران يمكنها أن تستخلص الدروس من ذلك (...). ويمكن أن تكون السياسة الموازية بالتأكيد تقديم المساعدة لإسرائيل لتحسين برامجها النووية وقدراتها الاستهدافية.

تسعى بلدان مثل كوريا الشمالية وإيران إلى أن تتجهز بالسلاح النووي لأنها تعتقد أن ذلك سيضمن لها أمنها. والطريقة الوحيدة للسيطرة عليها هي إقناعها بأن ذلك ليس صحيحًا (...). وعندما تفشل المفاوضات كما كانت الحال مع كوريا الشمالية، وكما هي الحال الآن مع إيران، يجب على الأنظمة المارقة أن تحسب الثمن الصحيح لطموحاتها النووية الخطرة».

العدو الإعلامي

تستعيد مقالة نشرتها مجلة **لو بوان** (*Le Point*) في 24 آذار/ مارس 2011 الدبلوماسية الفرنسية في ليبيا:

«تكون الدبلوماسية أحيانًا بسيطة كمكالمة هاتفية نجريها من صالون طراز روكوكو في فندق رافائيل:

برنار هنري ليفي (Bernard-Henri Lévy): 'أكلمك لأنني ذاهب غدًا إلى ليبيا. إن توصلتُ هناك إلى اتصال مثير للاهتمام يمكن أن يكون مفيدًا أو أن يوضح لنا الوضع، هل يمكن أن أتصل بك من هناك؟'.

نيكولا ساركوزي (Nicolas Sarkozy): 'بالطبع، لا تتردد في ذلك'.

يوم الأحد 27 شباط/ فبراير، ينهي الفيلسوف المكالمة الهاتفية ويحزم حقائبه (...). كان اجتماع المجلس الوطني الانتقالي سيعقد في بيت من طراز الحقبة الاستعمارية، مكان إقامة بروتوكولية في الزمن الذي كان فيه القذافي مسيطرًا على المدينة. يتكلم برنار هنري ليفي أمام أعضاء اللجنة الثمانية: 'أنا على اتصال مع نيكولا ساركوزي. وإني لا أنتمي لمعسكر رئيسي السياسي، لكن يمكنني أن أحاول تدبير لقاء لكم معه'. وافق أعضاء المجلس الوطني

الانتقالي على الاقتراح بالإجماع (...). وبعد ساعتين استطاع برنار هنري ليفي أخيرًا أن يتواصل مع ساركوزي. يكلمه عن ليبيا، عن الفوضى، ولكن عن الأمل أيضًا وعن اجتماع المجلس الوطني الانتقالي! أجابه الرئيس: «اتصل بجان دافيد لوفيت (Jean-David Levitte). سأستقبل أصدقاءك بكل سرور».

'إنهم مسعود الليبيون[67]، صدقني إذا استقبلتهم، سيكون ذلك أهم فعل سياسي'»[68].

يبين هذا المقطع الدور الجديد الذي يؤديه **مثقفو الإعلام**[*] في الأزمات الحالية. ففي الواقع لم يعد هناك ثمة خطر لحرب عالمية، أو لأزمة استراتيجية تهدد وجود ديمقراطية كبيرة. ولا شيء اليوم يسمح بالتفكير في أن انتشار أسلحة الدمار الشامل أو الإرهاب يشكلان تهديدًا بأهمية التهديد الذي كان يشكله المجمع العسكري - الصناعي السوفياتي. إن الكوكب ليس أكثر أمانًا الآن لكنه أقل خطورة. ولكن كيف يجري الاختيار اليوم بين حالات التمرد التي أحصاها مؤلف **العوالم المتمردة**[69] (*Mondes Rebelles*) والنزاعات القائمة (Ongoing conflicts) لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (Center for Strategic and International Studies) (CSIS) الأميركي؟ ومن يشكل ثقلًا في الاضطرابات العامة؟ ومن يحدد الضحايا والجلادين؟ ولماذا وجدت البلدان الغربية نفسها متورطة عسكريًا في تيمور، أو في هايتي، أو في ليبيا؟ ولماذا هذه التعبئة بالنسبة إلى التيبت التي تحتلها الصين الشيوعية، في حين يمثل الدالاي لاما، «الله الحي على الأرض» أحد الأنظمة التيوقراطية الأكثر قدمًا؟ ولماذا جعلته باريس مواطن شرف وهي عاصمة العلمانية؟

دخلنا في حقبة العدو الإعلامي، وهي فئة خاصة بالحقبة الحالية.

---

(67) إشارة إلى أنهم إسلاميون ليبيون على طريقة أحمد شاه مسعود الزعيم الإسلامي القبلي الأفغاني الذي اغتالته القاعدة قبل عملية 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

(68) *Le Point* (12 décembre 2009).

(*) intellectuels médiatiques: مصطلح فرنسي يشير إلى مجموعة من المثقفين الكثيري الإطلال في وسائل الإعلام التي اهتمت بتسويقهم، أمثال جاك أتالي، لوك فيري، آلان فنكيلكراوت وبرنار هنري ليفي.

(69) A. de La Grange et J.-M. Balencie, *Mondes rebelles: Acteurs, conflits et violences politiques* (Paris: Michalon, 1996), et A. de La Grange et J.-M. Balencie, *Les nouveaux mondes rebelles: Conflits, terrorisme et contestations* (Paris: Michalon, 2005).

إن «تدويل» أزمة من دون رهان استراتيجي هو حنكة علينا أن نحاول فهمها. والمقصود بكلمة تدويل هنا ليس خطر انتشار النزاع، بل الأهمية التي سيبديها المجتمع الغربي تجاهه. وكان المثال الأكثر دلالة على ذلك يتمثل بالتعبئة الدولية بخصوص الأزمة الصومالية عام 1992؛ حيث كان قادة الحرب ينهبون المساعدة الإنسانية، فيما كان جنود القبعات الزرق الباكستانيون العاجزون وغير الراغبين فعلًا بالتصدي لهم يعطون الانطباع بتحدٍّ موجه الى المجتمع الدولي. وقد حرك الانفعال الإعلامي العملية المتعددة الجنسيات تحت اسم إعادة الأمل (Restore hope) التي أُعِدت نهاية 1992 بقيادة أميركية، من أجل احترام وقف إطلاق النار في مقديشو العاصمة، وحماية موظفي منظمة الأمم المتحدة، والحفاظ على التجهيزات والمعدات لديها. وكان من مهامها أيضًا مواكبة المساعدة الإنسانية إلى مراكز التوزيع. وأُنزلت مجموعة من الجنود (GI's) طلوا وجوههم باللون الأسود، وزحفوا ليلًا على الشواطئ الصومالية تحت أضواء كاميرات التلفزيونات الأميركية التي كانت تبث مباشرة. واتخذ برنار كوشنير (Bernard Kouchner)، وزير الدولة الفرنسي للعمل الإنساني في تلك الحقبة، وضعية أمام المصورين مع كيس أرز على ظهره، في حين بدأ مقدم النشرة الإخبارية التلفزيونية على القناة الأولى الفرنسية نشرته من مقديشو. وفي المقابل كان قادة الحرب الصوماليون قد اتخذوا قرارًا آخر يتمثل بقتل ثمانية عشر جنديًّا أميركيًّا في كمين، ورفعت الجثث تذكارًا للنصر، وجُرت مربوطة في مؤخرة العربات، وكان هذا المشهد نهاية القوة الدولية. واليوم، نجد الصومال في وضع مماثل تقريبًا، وما زال الصوماليون يعانون. ومع ذلك فهم لا يثيرون تعبئة الرأي العام، فالبعد الإنساني للأزمة لم يعد كافيًا، بعد أن صارت الغلبة للقرصنة. فهل هنالك إذًا أزمات جيدة وأخرى سيئة؟ نعم إذ يسارع بعض صناع الرأي إلى تصنيفها.

ما العمل؟

لأول مرة في التاريخ، تابع الناس حرب الخليج عام 1991 مباشرة بفضل قناة CNN. ففي الفراغ الأيديولوجي والاستراتيجي لما بعد الحرب الباردة، بدأ التأثير الإعلامي يخلق منذئذ الحادث. قال روميو دالير (Romeo Dallaire)، الجنرال الكندي قائد قوات الأمم المتحدة، الشاهد العاجز أمام مذبحة التوتسي

في رواندا، قال ذات يوم: «يساوي المراسل الصحافي كتيبة على الأرض». وبالفعل تتفوق الصورة والانفعال على التحليل، وتصبح العوامل الداخلية لتأثر الرأي العام المحددات القوية للسياسة الخارجية، وتتفوق على الرهان الاستراتيجي الحقيقي لكل أزمة. لكن الفضاء الفكري للنشرة الإخبارية المتلفزة، وهي الميزان الانفعالي الحقيقي، يبقى محدودًا. فمن غير الممكن تقنيًّا ذكر أزمتين خطرتين في النشرة الإخبارية ذاتها. وعليه فإن «العدو الإعلامي» هو إذًا من تختار وسائل الإعلام تقديمه في نشرة أخبار المساء ومن ثم في المجلات الأسبوعية، والصحف اليومية. وقد سبق لنوعام تشومسكي (Noam Chomsky) أن درس الظاهرة بخصوص حرب فيتنام في كتاب متعمق جدًا[70].

على العكس، يشاهد جزء كبير من الرأي العام العربي قناة الجزيرة التي قدمت العديد من المقابلات مع تييري ميسان (Thierry Meyssan) وهي تؤمن بنظرية مفادها أن اعتداء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دبره اليهود والأميركيون.

يجب على أي أزمة من الآن فصاعدًا أن تخضع للمعايير الإعلامية لكي تُدَوَّل. فما هي هذه المعايير؟

إنها صور، ودماء، وضحايا. ففي ميانمار (Myanmar ex Birmanie) (بورما سابقًا) نسمع أن هنالك قمعًا لكن ليس لدينا صور كثيرة، وعليه من الصعب إذًا أن نتحمس للموضوع طويلًا. وفي جنوب السودان، يمكن رؤية الضحايا، لكن الأزمة شديدة التعقيد، فالمعتدون يشبهون الضحايا. في الواقع لا يمكن لأي أزمة أن تبقى مع غياب مستمر للصور. ففي سورية حاليًا تتيح الهواتف المحمولة إرسال الصور، لكن من الصعب الاستفادة منها بسبب نوعيتها الرديئة. فإذا لم تنجح الصور الملتقطة يمكن استبدالها، إن أُثبتت وقائع القمع. وهكذا استخدمت صحف الفضائح الألمانية لتقديم شواهد عن القمع الصيني في لهاسا، وكانت هناك صور تظاهرات لرهبان بوذيين قمعتها الشرطة النيبالية.

(70) Noam Chomsky et Edward S. Hermann, *La fabrication du consentement: De la propagande médiatique en démocratie*, Contre-Feux (Marseille: Argone Editeur, 2008).

وهكذا؛ فالمسألة برمتها هي مسألة تأطير للصُوَر! ولقد أخطأ التلفزيون الفرنسي أيضًا عندما استخدم صورًا التقطت في هندوراس[71] لعرض التظاهرات ضد انتخاب الرئيس أحمدي نجاد التي قمعتها الشرطة في إيران. لكن لا أحد يناقش القمع في طهران أو لهاسا! إذًا...

تبقى الضحايا التي يمكن تصويرها مهمة حتى إذا نسينا التحليل، حيث لا تنتج المناطق القبائلية في شمال باكستان المغلقة في وجه الصحافيين، صور ضحايا عمليات القصف الأميركي، لكن في المقابل تزخر القنوات التلفزيونية بصور ضحايا الاعتداءات في بيشاور أو كراتشي. إذًا، يبدو أن العنف الإرهابي الظاهر أكثر للعيان يستحق الإدانة أكثر من العنف العسكري في عمليات قصف يقوم بها الحلفاء. وعلى العكس، بما أن القانون الأميركي يمنع عرض صور لضحايا أميركيين يمكن التعرف إليهم، فلم تصور الأجساد المقطعة أو المحروقة في اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. وفي المقابل، تستطيع وسائل الإعلام الأميركية أن تعرض صورًا لضحايا الاعتداءات غير الأميركيين. وبالنسبة إلى الشارع العربي، لم يكن هنالك ضحايا من الأميركيين. وهذا إثبات للمؤامرة رفيع الشأن.

أرونا انفعالًا، وإذا كان ذلك ممكنًا مع الأرقام! فقد نُهبت المساعدة في الصومال بنسبة «80 في المئة». وكان يكفي لهذا الرقم المجهول المصدر أن يصيبنا بالغثيان. وكان الجيش العراقي يحتل «المرتبة الرابعة عالميًا» (ولا نعلم حتى الآن من هو الجيش الذي يحتل المرتبة الثالثة). وأروع مثال على انفعال سببه التلاعب الإعلامي (manipulation médiatique) تمثّل في نهب فرق من جيش صدام حسين للحاضنات في مستشفيات الولادة الكويتية خلال اجتياح البلاد عام 1991. وروت هذه الحادثة فتاة تذرف الدموع مباشرة خلال جلسة في مجلس الشيوخ. وقد أسهمت هذه الحادثة بشكل كبير في إقناع المشاهدين الأميركيين بدناءة صدام حسين، وبالتالي بصحة قضيتهم. ونكتشف في ما بعد أن هذه القصة قد أعدتها الحكومة الكويتية في المنفى بمساعدة شركة اتصالات

---

(71) Daniel Schneiderman, *Libération* (4 janvier 2010).

أميركية، وهي عارية من الصحة تمامًا، والفتاة الشابة هي ابنة السفير الكويتي في الولايات المتحدة الأميركية. إذًا؛ لم تشهد هذه الشابة إطلاقًا المشاهد، ومع ذلك، روتها بكثير من الانفعال. وبالتوازي، نرى أن القتل البطيء الذي سببه الحظر على العراق الذي دام أكثر من عشر سنوات، والذي خلف مئات آلاف الضحايا العراقيين، وخصوصًا بين الأطفال، لم يحشد إلا القليل من الرأي العام لنقص في الصور.

على القائد الثائر أن يكون نجمًا إعلاميًّا: عزت بيغوفيتش مع قبعته، مسعود بسحنته الحسنة كقائد حرب وقبعته الطاجيكية في جبال البانشير، وأونغ سون سوو كيي (Aung Son Suu Kyi) بوجهها الجميل لامرأة حازمة، كلهم نجوم إعلاميون أكثر من إبراهيم روغوفا (Ibrahim Rogova)، زعيم كوسوفو المسالم بكنزته القديمة التي حاكتها له والدته، وشاله المتدلي كشالٍ لطالب أبدي يلف به عنقه. وصرحت ربيعة قادر، وهي وجه من وجوه نضال الأويغور (Ouighour) عام 2010: «نحن بحاجة إلى دالاي لاما». وعلى العكس، فإن الزعيم الذي لا يريد الظهور يعوق إعلامية الأزمة، مهما كانت شرعية. ولم يكن برابارا خان (Prabarakhan)، زعيم النمور التاميل، يسمح بأن تلتقط له صور إطلاقًا، ولم يكن يشارك في أي مقابلة صحفية. خلاصة القول، يمكن أن تسير الأمور لفترة ما بالنسبة إلى زعيم مقنع، فمساعد القائد ماركوس (Marcos) مع قلنسوته وغليونه قد أسهم بنشر واسع لقضية هنود الشياباس.

على الغرائبية (exotisme) أن تفتح السبيل إلى شيء من الرومانسية، على غرار المجاهدين الأفغان الفخورين «المقاتلون في سبيل الحرية»، والمحاربين الشيشان الشرسين ضد الهمجية الروسية، والرهبان التيبتيين بأثوابهم الحريرية الصفراء حين كانت تلاحقهم عناصر الشرطة الصينية... وفي المقابل يجب على الأويغور أن يجدوا لأنفسهم فاعلية أخرى، فتظاهرات الشوارع لم تعد كافية. ويبقى لصفة المتوحش الطيب الذي تلقفته الحداثة صدقية دائمة؛ إذ تنجح التيبت المتمثلة بالدالاي لاما (وأصل معنى الكلمة «محيط من الحكمة»، الحامل الرابع عشر للاسم، الله الحي على الأرض) إعلاميًّا أكثر من برلمان التيبيتيين في المنفى، مع أن هذا الأخير أقرب إلى معاييرنا السياسية. ويجب

على البرنامج أن يحيل على مواضيع لائقة سياسيًا. هكذا تلح خطب الدالاي لاما أمام المجلس الأوروبي على احترام البيئة، وعلى اللاعنف أو حتى السلمية، وليس على وضع النظام الثيوقراطي الذي يمكن أن يُشَكَّل من جديد، في حال انسحاب الصين. وهكذا استطاع الدالاي لاما أن يصبح مواطن شرف لمدينة باريس، عاصمة بلد العلمانية التي تبنت قوانين مختلفة لحظر الحجاب وحظر حمل الرموز الدينية في الفضاء العام!

يفرض التعميم الإعلامي أيضًا الانتباه الشديد لقيود الجدول الزمني، مثل عدم الإعلان عن إبادة جماعية أو السعي إلى إشاعة قضية خلال حدث رياضي عالمي مثل الألعاب الأولمبية أو كأس العالم لكرة القدم؛ إذ إن وسائل الإعلام لا تستطيع معالجة أزمتين خطرتين في الوقت ذاته، بل يجب الجدولة زمنيًا.

يتيح سيناريو بسيط أو حتى مبسط، تحديد دور كل واحد، الطيب، والشرير، ويمكن من سرد القصة أن نكتشف أنها «رواية القصة» الضرورية في مجال التواصل[72]. وتثير الأزمات المعقدة جدًّا مثل أزمة الكونغو، وهو النزاع الأكثر إبادة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، الاهتمام لكن بصعوبة، حيث نرى مقاتلين غير نظاميين، وزعماء فاسدين، وقادة حرب، وعنفًا أعمى، وعمليات اغتصاب جماعية، وجنودًا من الأطفال... ويجب أن نتمكن من عرض قضية ثنائية القطب يكون فيها الضحايا طاهرين والأشرار نجسين. فقد كتب غلوكسمان في ملخص رائع: «لمدة عشر سنوات، حطم الجيش الأحمر أفغانستان، وتمركز في الخرائب رجال العصابات ثم طالبان، وأتى بن لادن. وفي المحصلة البرجان التوأمان[73] (Twins Towers)!». لكن هذا بداهي! لماذا لم نفكر بذلك من قبل؟

الأشرار الكاملون هم الصينيون، الإيرانيون، والروس... ولكن من الأكثر صعوبة التنديد بالحكومة المكسيكية بالنسبة إلى أزمة الشياباس أو بحكومة الرئيس مبارك الموالية للغرب الذي كان يريد تعيين ابنه مباشرة ليخلفه في الحكم.

---

(72) Christian Salmon, *Storytelling, la machine à fabriquer des histoires à formater des esprits*, La Découverte poche (Paris: La Découverte, 2008).

(73) *Le Monde* (4 octobre 2003).

البراءة! تضع تصرفات الضحايا السيئة وسائل الإعلام والداعمين في موضع صعب. ولا يتأثر الرأي الغربي بمصير المسلمين المضطهدين لأن قضيتهم يمكن أن تنتقص ضمنًا بتهمة عمل «إرهابي». وقد أثار الزلزال الذي ضرب أرمينيا عام 1988 موجة تضامن لم تثرها الهزة الأرضية في إيران قبل ذلك ببضعة أشهر. ولقد تلطخت بشكل قاس صورة «المقاتلين الشيشان الفخورين» جراء عملية احتجاز الرهائن في المدرسة الابتدائية في بيسلان (Beslan) والتي أسفرت عن 365 قتيلًا من بينهم 189 طفلًا و700 جريح تقريبًا.

يمكن أن يكون احتجاز رهينة غربية سلاحًا ذا حدين. فقد أصبح الخطف اليوم صناعة (14.000 عملية خطف في العالم عام 2008)، وأصبح من الصعوبة بمكان بالنسبة إلى وسائل الإعلام أن تميز بين الخطف القذر، مثلما يُمارس في كولومبيا، كاحتجاز الرهائن لهدف سياسي من أجل تبادل السجناء (1000 سجين فلسطيني مقابل الجندي شاليط)، وعمليات الاختطاف التي تمارسها وكالة الاستخبارات الأميركية CIA.

فَهِمَ المتحاربون في النزاعات المعاصرة أهمية التواصل، ففي الحرب الأهلية اليوغوسلافية، تبنّى كل معسكر من المعسكرات الثلاثة استراتيجية خاصة، حيث مارس الصربيون الصحافة الخاضعة للرقابة على الطريقة اليوغوسلافية، التي عليها أن تقول ما يملى عليها، فخسروا معركة التواصل. وتبنّى الكرواتيون بسرعة، وهم في وضعية أدنى عسكريًا، الصحافة «المنفتحة»، من خلال تنظيم زيارات موجهة هدفها إظهار الظلم الفادح والتطهير العرقي العنيف الذي يمارسه الصربيون. وشكلت منطقة كراجينا التي يحتلها الانفصاليون الصرب مكانًا لزيارات منظمة عديدة موجهة لسياسيين وصحافيين غربيين. لكن أُغلق الطريق إليها بعنف عندما استعاد الجيش الكرواتي المنطقة عنوة، ومارس بدوره التطهير العرقي تجاه السكان الصربيين. أما بالنسبة إلى البوسنيين، فلقد فهموا سريعًا ميزة استراتيجية وضع الضحية التي تقتصر على تقديم مشهد مبالغ فيه عمدًا لخطورة الوضع الإنساني أو العسكري في سراييفو. وبحسب مراسل ميداني من وكالة فرانس برس، فإنه عند كل عملية قصف كانت أعداد الضحايا تتضخم بصورة كبيرة، ولم تكن تتناسب إطلاقًا مع عدد القبور المحفورة حديثًا في مقبرة المدينة المحاصرة. وفي الحرب الأهلية الجزائرية،

كانت وحدة تعداد الضحايا تعد بالتأكيد أمواتًا بالآلاف، وهي ظاهرة من الصعب فهمها في نزاع «منخفض الوتيرة».

عندما تتوافر الشروط الإعلامية، يطرح سؤال ثان: من يحمل القضية؟ ومن سيصل الفضاء الإعلامي ليؤدي دور الناطق المدافع؟ وهكذا ظهر في الحقل الإعلامي وسطاء جدد يسهمون في ترتيب أولويات الأزمة وتحديد العدو؛ صار هناك «محددو أعداء» جدد: مثقفون إعلاميون، مهاجرو الشتات، وفي بعض الحالات المنظمات الإنسانية. لكن العدو الإعلامي، خلافًا للفئات السابقة، لا يبرر دائمًا عملًا مسلحًا، بل يمكنه أن يكون موضع تنديد توافقي فحسب.

أتهم... (أنا أيضًا)

أصبح عنوان بيان زولا (Zola) الشهير عام 1898 ضد إدانة النقيب دريفوس (Dreyfus) تمرينًا مفروضًا على المثقفين الباحثين عن قضايا دولية، منذ زوال الوحش الشيوعي[74].

يشكل مثقفو الإعلام الفرنسي فئة معاصرة من الرجال العالمين بكل شيء والحاصلين على شهرتهم من وضع الدفاع عن القيم (نقول عنهم إنهم حاملو مفاهيم (porte-concepts)) ومن خلال شخصنة أزمة ما تفوق خبرتهم عن الموضوع، يقدمون أنفسهم كـ «محطمي المحرمات» و«مفتّي الأفكار المسبقة»[75]. وقد حددت السبعينيات قطيعة بين الأجيال، حيث انتقلنا من وضعية موقّعي العرائض إلى وضعية رجال الإعلام[76]. إنهم «عقول نيّرة» -

---

(74) بريدراغ ماتفيجيفيتش (Predrag Matvejevitch) هو كاتب كرواتي شهير دافع عنه العديد من الأسماء الشهيرة في عريضة وقعوها (من بين الأسماء برنار هنري ليفي) في صحيفة **لوموند** في 24 تموز/ يوليو 2010 صار مهددًا بالسجن بتهمة التشهير. في أول آب/ أغسطس 2010، ينكر إيفو جوزيبوفيتش (Yvo Josipovic) رئيس جمهورية كرواتيا في الصحيفة ذاتها حقيقة سجن ماتفيجيفيتش. ما رأيكم في هذا؟

(75) Mona Chollet [et al.], *Les editocrates ou comment parler de (presque) tout en racontant (vraiment) n'importe quoi*, Cahiers libres (Paris: La Découverte, 2009).

(76) Jean François Sirinelli, *Deux intellectuels dans le siècle: Sartre et Aron*, Pluriel (Paris: Hachette Littératures,1999).

وهذه فئة فرنسية بامتياز - يدلون بآرائهم حول كل شيء. وتمكّنهم ألاعيبهم من «توصيل» بعض القضايا الى وسائل الاعلام. ولقد كان يصعب على بول غارد (Paul Garde)، الجامعي والخبير الفعلي بيوغوسلافيا المعاصرة، أن ينشر مقالات عن الأزمة الناشئة بين العامين 1989 و1990، إلى أن استُنفر برنار هنري ليفي ومثقفون آخرون.

ما هي خصوصية هذا الجيل؟ إنهم يحبون التدخل، على خلاف أسلافهم الذين كانوا من أنصار السلم. هذا الجيل نفسه شكّل قائمة للانتخابات الأوروبية في أيار/ مايو 1994 «أوروبا تبدأ في سراييفو!» مؤلفة من برنار هنري ليفي وباسكال بروكنر (Pascal Bruckner) وأندريه غلوكسمان (André Glucksmann) بهدف تحذير الرأي العام، وهي أفصحت عن كونها «تدخلية»، شأنها شأن قائمة المثقفين الأميركيين الذين دعموا الحرب على العراق في ما بعد. وأعلن بيان الستين (مثقفًا أميركيًا) الذي يحمل عنوان «لماذا نقاتل؟» والذي صدر في شباط/ فبراير 2002، دعمه الحرب التي أقرها البيت الأبيض، وأدخل مكافحة الإرهاب ضمن الثوابت التقليدية للحرب العادلة. وطالب البيان بحق الولايات المتحدة في الرد على اعتداء الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، وهو حق لا يشكك فيه أحد بالفعل، لكن البيان لم يُجب عن الأسئلة التي يطرحها الرد الأميركي: من هو العدو؟ وما هو الحد المسموح للعمليات الحربية التي تبغي الولايات المتحدة شنها ما بعد أفغانستان؟

إن مثقفي الاعلام هؤلاء الذين يطوفون حول مآسي العالم، يعتبرون أنفسهم أنهم يقومون بـ «أعمال مقاومة» (résistentialisme) وفق مصطلح باسكال بروكنر. وهم لا يحجمون عن التنديد بذوي النوايا السيئة. وهكذا، في مقالة نشرها مؤخرًا تحت عنوان «اتهم النظام الصيني!»، ينتقد غي سورمان (Guy Sorman) بقسوة[77] «محبي الصين الساعين للحصول على تأشيرة دخول (...) ورجال الأعمال المتهافتين للحصول على عقود، ورجال السياسة لدينا الباحثين عن الإطراءات (...) من دون خجل».

---

(77) *Le Monde* (6 et 7 juin 2010).

إنهم يريدون أن يكونوا رجالًا عمليين على الأرض، ويسكنهم شغف أكيد بأمكنة الحرب. وقد لاحظ برنار كوشنير عام 1996 أن «لكل شخص حرب إسبانيا خاصة به»[78]. وكان برنار هنري ليفي قد ادّعى أنه كان في الإمكان تحرير سراييفو بمساعدة بضع طائرات حربية[79]. وشرح في تحقيق حمل عنوانًا متحفظًا «أشياء شوهدت في الجزائر» في صحيفة **لوموند** في 8-9 كانون الثاني/ يناير 1998 أن الحياة كانت طبيعية في وسط مدينة الجزائر العاصمة في السنوات السوداء. ولم يكن من الضروري أن يذهب إلى هنالك ليقول ذلك. ومن الممكن أن نجد العديد من الأمثلة كالنصوص التي كتبها مؤخرًا بمناسبة زيارة قام بها إلى ميدان التحرير إبان الثورة المصرية، أو في صحيفة *le Journal du Dimanche* في 7 آذار/ مارس 2011 بعد عودته من ليبيا. ونجد لاحقًا ضمن إطار، تحقيقه عن قصف غزة تحت عنوان «الحرب منظورًا إليها من إسرائيل»، وفيه يستخدم طريقة البرهان ذاتها المتمثلة بالذهاب إلى المكان المعني لشرح مأساة الجندي وراء مدفع الدبابة، المرغم على إطلاق النار على بيت مدني. وبعضهم الآخر، وهم الأقل ترحالًا، يقدمون الحجة عن بعد بفضل خدع فكرية، كما يكتب ألكسندر آدلر (Alexandre Adler) عن أي أزمة مهما كانت[80] من خلال جمع القطع الخيالية لأحجية معقدة ببراعة. وهكذا، بمناسبة برنامج تلفزيوني عنوانه «C dans l'air»، بثّ يوم الثلاثاء 3 أيار/ مايو، كان آدلر الوحيد الذي شرح العلاقات المعقدة بين وكالة الاستخبارات الأميركية CIA وأجهزة الاستخبارات الباكستانية، متأكدًا من أن الطرفين لن يكذّباه إطلاقًا، لأنهما ليسا متعودين على تقديم تصريحات علنية.

تتكرر غالبًا الحجج الموجهة لتعبئة الرأي العام، على غرار «وجود عقلية ميونخ» لدى المسؤولين السياسيين الغربيين، و«الهمجية أمام أبوابنا»، و«الشهادة التي عاشها» المثقف... بعضهم متعدد الاهتمامات الجغرافية، كما فعل برنار هنري ليفي في أفغانستان والبوسنة وليبيا ومصر وباكستان وإسرائيل والجزائر،

---

(78) *Libération* (15 septembre 1996).

(79) Leblond, «Bosnie, le J'accuse d'un général humilié,» *L'Express* (3 février 1994).

(80) Pour les meilleures perles de ces différents penseurs se reporter à: Chollet [et al.], *Les editocrates ou comment parler de (presque) tout en racontant (vraiment) n'importe quoi.*

حيث أتى منها جميعًا بـ «دفاتر يوميات حرب»... والبعض الآخر مختص (مثل اختصاص غلوكسمان بروسيا وملحقاتها). إن الخبرة أو جودة التحليل أقل أهمية من نجاح المبيعات في المكتبات. يكتب برنار هنري ليفي بغنائية عن أميركا قائلًا: أميركا هي أرض التناقضات: «رائعة ومجنونة»، «شرهة ومتواضعة» «منتشية بالمادية وبالتدين»، «مترمتة ومهينة»، «تنظر إلى المستقبل ولديها هوس بالماضي»[81].

أصبحت العريضة، وسيلة تقليدية بالية. (لكنها تبقى شكلًا من أشكال الدعم المتحفظ لقضايا لا نعرفها جيدًا، فقد حظيت منظمة مجاهدي خلق، وهي طائفة سياسية - دينية إيرانية مسؤولة عن عشرات الاعتداءات في إيران، على دعم السيدة ميتران (Madame Mitterrand)، ومونسينيور غايو (Monseigneur Gaillot)، وجوزي بوفي (José Bové) عبر توقيعهم على عريضة لمصلحتها). وحلت محل العريضة اليوم مجموعة أخبار تنقلها وسيلة إعلام كبرى، أو برنامج تلفزيوني. وهكذا وجد برنار هنري ليفي تسوية للأزمة الأفغانية مرتين في زاوية الأخبار التي يكتبها في مجلة **لوبوان**، المرة الأولى في 24 أيلول/ سبتمبر 2009، والمرة الثانية في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر، شارحًا كيف ولماذا يمكن أن تهزَم حركة طالبان. وهو ليس الوحيد الذي يستطيع إيجاد حل للأزمة الأفغانية؛ إذ يقترح غي سورمان في صحيفة **لو فيغارو** (*Le Figaro*) في 21 آب/ أغسطس 2009 خطة مارشال لأفغانستان: «الاستثمار بكثافة (...) في انتاج الطاقة، وفي الصناعات الزراعية، والميكانيكية، والنسيجية». ولدى فرنسا «سوبر مثقفون» كما لدى أميركا «سوبر أبطال». وكان يمكننا أن نتخيل ثنائيًا مكونًا من برنار هنري ليفي وسيلفستر ستالون لتسوية المسألة الأفغانية.

هنالك بعض المنتجات المشتقة، حيث يبتكر برنار هنري ليفي فئة جديدة من التحقيقات، «الرواية التحقيق» المكرسة لاغتيال دانيال بيرل (Daniel Pearl) والتي أتاحت له أن يجزم من دون أي دليل، أو تقص. ولقد ناقضته بحدة السيدة بيرل، وأحمد رشيد الصحافي الباكستاني وهو بالتأكيد أفضل اختصاصي بطالبان.

---

(81) Citation relevée par Garrison Keillor dans son show radiophonique hebdomadaire *Prairie Home Companion* (Minnesota) et son article dans le *New York Times* du 29 janvier 2006.

لا شك في أنه من الصعب تصور برنار هنري ليفي يحقق في شوارع بيشاور، لكن نجاحه مضمون بفضل نفاذه إلى وسائل الإعلام. ويؤمّن تيري أرديسون (Thierry Ardisson) من خلال برامجه المؤثرة غالبًا، ترويجًا جيدًا، فلقد تضمنت أيضًا برامجه التي تدمج بين الخبر والترفيه جزءًا من نجاح تييري ميسان، قبل أن يتلقى أرديسون تنبيهًا من المجلس الأعلى للإعلام المرئي والمسموع CSA. ويريد مثقفو وسائل الإعلام أن يكونوا مستشاري الأمير وأحيانًا مع قدرة أكيدة على التأثير، فلقد طلب رئيس الجمهورية، ووزير الخارجية من برنار هنري ليفي في شباط/ فبراير 2002 تقريرًا عن أفغانستان يشرح فيه كيف يمكن ربح الحرب. والحقيقة أننا نندم لكونه لم يُعيّن في منصب قائد عام (الذي كان للأسف سيبعده من باريس).

عند الرأي العام الغربي، لم يعد رهان الأزمة استراتيجيًا، بل سياسي إعلامي. فقد لاحظ طوني جُدت (Tony Judt)، وهو مؤرخ أميركي اختصاصي في الحركة الفكرية في فرنسا، ما يلي[82]: «أن يكون هناك مؤلفات عن البوسنة، حيث أغلبية المؤلفين ليس لديهم أي جديد يقولونه، إنما يريدون أن يكونوا هم من يقول ذلك، فإن الأمر يشكل عنصرًا مسرحيًا». ويمكن تعميم التحليل الذي قدم لحرب البوسنة على العديد من الأزمات الحالية.

لا تلمس الإبادة الجماعية التي تخصني!

تشكل جاليات الشتات ظاهرة تتزايد باستمرار، سواء من ناحية التنوع أو التنظيم. ويخصص إيف لاكوست (Yves Lacoste) هذا المصطلح لجماعة تتميز بنزوح كثيف ناجم عن إكراه عنيف، وليس عن توق فردي لظروف معيشية أفضل. وتسهم الذكرى المؤلمة بالحفاظ على هوية المبعدين عن الوطن، وعلى إرادة عدالة حتى ولو أتت متأخرة. والسؤال لماذا لا نحفظ سوى هذا التعريف عن شعوب الشتات؟ لأن الطريقة التي يعتمدها عدد من شعوب الشتات تسهم، في رأينا، بتحديد جديد لمن هم الأعداء، والرهان هذه المرة ليس على الحرب بل على الظهور السياسي.

---

(82) Tony Judt, *Un passé imparfait: Les intellectuels en France 1944-1956, pour une histoire du XXème siècle* (Paris: Fayard, 1992), et *Libération*, 14 et 15 septembre 1996.

تستغل شعوب الشتات هويتها المزدوجة لكي يتم الاعتراف لها بوضع ما، من جهة، ومن جهة أخرى للتأثير على دبلوماسية البلد الذي يستضيفها. ففي الولايات المتحدة، هم اليهود[83]، والكوبيون، والأرمن، والإيرلنديون، وبشكل عام الأميركيون مع خط وصل بين الكلمات مثل: الطليان - الأميركيون، الأفريقيون - الأميركيون، الإسبان - الأميركيون... وفي بريطانيا العظمى: الباكستانيون، وأهل جزر الأنتيل، وفي ألمانيا: الكرواتيون، وأحفاد ألمان السوديت (Sudètes) الذين طردوا عام 1945، وفي فرنسا: اليهود، والأرمن، وأهل جزر الأنتيل، والجزائريون، وفي أستراليا: الأبوريجين، والكرواتيون، وفي كندا: أحفاد الهنود؛ والأوكرانيون الذين يسعون إلى الحصول على الاعتراف بأن المجاعة الكبرى التي نظمتها السلطة الستالينية، من 1932 إلى 1933، أي الهولدومور (الإبادة بالتجويع)، هي إبادة جماعية.

ولشعوب الشتات تأثير ولاسيما أنها فاعلة في إطار بلدان ديمقراطية لها تألق دولي.

وتعطي السلطة القضائية الأخلاقية للعذاب أهمية ومسؤولية جديدتين. وكما يشير تزفيتان تودوروف[84] (Tzvetan Todorov)، فقد تغيرت رؤية الحرب منذ المحرقة، وحروب إزالة الاستعمار. وفي رأيه أن تحولًا حصل في الذاكرة الجمعية. فاليوم تحظى الضحايا القديمة، لا الأبطال القدماء، بأقصى درجات الرعاية والانتباه. وبحسب تودوروف أنه غداة الحرب العالمية الثانية، كان يجري الحديث عن المبعدين السياسيين، والمقاومين السابقين، بكل احترام، فهم أدوا دورًا، ولذلك يستحقون عرفان الوطن. غالبًا ما كان هناك تكتم على وجود المبعدين «بسبب انتمائهم العرقي» أي اليهود. ولأنهم لم يفعلوا شيئًا، فليس هنالك من سبب للتكلم عليهم. وبعد ثلاثين سنة، انقلب الوضع، «لأن الانتباه اتجه نحو ضحايا الاضطهاد المعادي للسامية، باعتبارهم موضوع الجريمة القصوى، الجريمة ضد الإنسانية. هؤلاء الضحايا لم يقوموا بأي فعل،

---

(83) André Kaspi, *Les juifs américains*, Points Histoire (Paris: Le Seuil, 2009).

(84) Tzvetan Todorov, *La peur des barbares* (Paris: Robert Laffont, 2008), p. 94.

ولهذا فإن الأذى الذي أصابهم كان بالأحرى أكبر. ويوضع هذا التكريس في قمة تراتبية رمزية لرواية الضحية، بدلًا من الرواية البطولية، وهو بذلك يشهد، بصورة غير مباشرة، على تعزيز فكرة العدالة: أي من يظن أن في مقدوره احتلال مقعد الضحية لو لم يكن لديه الأمل بأن يتم الاعتراف بمعاناته وبأنه سيحصل على تعويض».

يجب أن ترافق هذه الملاحظة واحدة أخرى، أكثر إعلامية، تتعلق بالثروة السياسية التي يمنحها التنديد بالإبادة الجماعية التي يطالب بها اليوم كثير من شعوب الشتات، كالأرمن، والسود من جزر الأنتيل، والأوكرانيين، وألمان السوديت... ويمكن عدُّ تسعين مكانًا لذكرى المحرقة[85] في العالم، منها خمسة وعشرون في الولايات المتحدة، وأربعة في كندا، ومكان واحد في آسيا (اليابان)، وثلاثة في أميركا اللاتينية. وعلى الرغم من تفرد الأوروبيين بمذبحة اليهود، غير أن الإبادة الجماعية لا تحظى بقيمة عالمية، وهذا ما لا يفهمه الغربيون. فلدى واشنطن العاصمة متحف مخصص لثقافة الهنود الحمر، لكن ليس لديها حتى الآن متحف للرق؛ ولديها متحف للمحرقة، وهي إبادة جماعية تنسب للأوروبيين، لكن لا يوجد أي نصب تذكاري للمذبحة التي تعرض لها الهنود الحمر، وهي إبادة جماعية أميركية بصورة خاصة. وتتيح الإبادات الجماعية لدى الآخرين إعطاء دروس، لكن في ما يتعلق بإباداتنا الجماعية يكون الأمر أكثر تعقيدًا! وبما أن الظاهرة لا تتكرر كثيرًا، لحسن الحظ، فلقد حُوِّلَت إلى اشتقاقات، على غرار «قتل اليهود» (judéocide) بالنسبة إلى أي مجزرة ضد اليهود، و«قتل البيئة» (écocide) بالنسبة إلى تدمير النظام البيئي، «وقتل الإناث» (féminicide) للتنديد بقمع النساء، و«قتل الكتب» (libricide) بالنسبة إلى تدمير المكتبات، و«قتل الثقافة» (culturicide)، و«قتل الأعراق» (ethnocide)... وهذه القائمة ليست كاملة، وللحصول على معلومات أوسع، انظر كتاب جاك سيملان (Jacques Sémelin) **التطهير والتدمير**[86] (*Purifier et détruire*).

---

(85) Peter Novick, *L'holocauste dans la vie américaine*, Bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 2001).

(86) Jacques Sémelin, *Purifier et détruire: Usages politiques des massacres et génocides*, la couleur des idées (Paris: Le Seuil, 2005), pp. 379-380.

تشكل وضعية الضحية عنصرًا مهمًّا لتماسك شعوب الشتات، وتنقسم إلى ثلاث مراحل هي: التوصيف القانوني للمذبحة الأصلية بصفتها جريمة ضد الإنسانية أو إبادة جماعية، إدخالها في برامج تعليم التاريخ، وإقامة دعوى قضائية للدفاع، إن كان ذلك ممكنًا.

يوجد قانون يسمح بفرض عقوبة على النقاش والبحث التاريخي. وصار المفعول الرجعي، وهو غير ممكن عادة في القانون الجزائي، يسمح في قضايا الجرائم ضد الإنسانية التي لا تسقط مع مرور الزمن، أن تقام دعوى جزائية ضد جريمة ارتكبت منذ ستة قرون تقريبًا، إذا خطر على بال مؤرخ رفض بعض المعطيات المتعلقة بالرق على سبيل المثال. إضافة إلى القوانين الستة الموجودة (ومن بينها قانون غايسو (Gayssot) الصادر في 13 تموز/يوليو 1990، وقانون توبيرا (Taubira) المتعلق بالرق والصادر في 11 أيار/مايو 2001، وقانون 29 كانون الثاني/ديسمبر 2001 الخاص بالإبادة الجماعية الأرمنية، وقانون 23 شباط/فبراير2005 للوجود الفرنسي خارج الحدود)، وهناك على الأغلب حوالى عشرين مشروع قانون لذاكرة الحوادث التاريخية على مكاتب المراقبين الماليين لمجلس النواب، حسب بيار نورا[87] (Pierre Nora). كما لاحظ رينيه ريمون (René Rémond) أن: «قائمة القوانين لذاكرة الحوادث التاريخية تبيّن جيدًا ما هي الاعتبارات التي كانت في أصل تبنيها، ومنها اعتبارات انتخابية أساسًا، ليست حقيرة بل هي تكشف عن انفعال أكثر مما تدل على عقلانية». وهكذا تنطلق الآلية بحماسة إن كان ممكنًا بلوغ منظمة دولية نتيجتها الإعلامية مضمونة أكثر. وتشكل النقطة 150 من الوثيقة النهائية لمؤتمر دوربان آخر جدول في «علم الضحية». لننعم النظر في الآتي: «يدعو المؤتمر الدول لمعارضة كل شكل من أشكال العنصرية، والاعتراف بضرورة التصدي لمعاداة السامية، والتصدي لمعاداة العرب ولكراهية الإسلام في كل أنحاء العالم». وبما أن الآلية قد أطلقت، فإننا سنجد «إبادة» في كل مكان، وهكذا تذكر وثيقة تأسيس (BJP)، الحزب القومي والعنصري الهندوسي، المحرقة التي قام بها المسلمون بحق الهنود»[88].

---

(87) Pierre Nora et Françoise Chandernagor, *Liberté pour l'histoire* (Paris: CNRS Editions, 2008).

(88) Bharatiya Janata Party, The Party With a Difference, www.bjp.org.

ويشكل تخصيص مكان في البرنامج المدرسي، أي إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر الضحايا «التماثيل»، خطوة مهمة. وتقرب موازاة غريبة قانونين من قوانيننا. فالمادة الثانية من قانون توبيرا تنص على: «تعطي البرامج المدرسية وبرامج الأبحاث في العلوم الإنسانية للنخاسة والرق المكان المنطقي الذي يستحقانه. سيقدم التشجيع والمساعدة للتعاون الذي سيتيح ربط الأرشيف المكتوب المتوافر في أوروبا مع المصادر الشفهية والمعارف المجموعة في علم الآثار، في أفريقيا، في الأميركتين، وفي جزر الكاريبي وفي كل الأراضي الأخرى التي عرفت العبودية». وتعلن الفقرة الثانية من المادة الرابعة من قانون الوجود الفرنسي خارج الحدود، من جهتها: «تعترف البرامج المدرسية خصوصًا بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي خارج الحدود، وبالتحديد في أفريقيا الشمالية، وتعطي للتاريخ ولتضحيات مقاتلي الجيش الفرنسي المنحدرين من تلك الأراضي المكانة المرموقة التي يستحقونها». وهكذا يُبتكر نوع من التاريخ بحسب الطلب يتعلق بالقانون وليس بالبحث التاريخي.

أخيرًا يفتح العبء المؤسساتي للشتات في النقاش العام ممرًّا معترفًا به للفضاء السياسي المهم الذي يقترب من لغة اللوبي. وها هي الشركة الأميركية الإسرائيلية التعاونية تعلن على موقعها تأثيرها المباشر على 14 سيناتورًا من أصل 100، و31 نائبًا من أصل 435 (بالنسبة إلى سكان يهود يمثلون 2 في المئة من مجمل سكان أميركا).

يمكن لزعماء الشتات أن يسعوا إلى منع بعض النقاشات. فخلال محاكمة كرافتشينكو (Kravtchenko)، وصف شيوعيون فرنسيون مارغريت بوبر نويمان (Margaret Buber-Neumann)، الناجية من الغولاغ، ومن رافنسبروك (Ravensbrück)، زوجة قائد الحزب الشيوعي الألماني الذي سجن، وهي تقدم شهادتها حول الغولاغ، بأنها زوجة «مرتد». ويوضح الحكم الذي أصدرته محكمة الاستئناف في فرساي في 27 أيار/ مايو 2005 بحق إدغار موران (Edgar Morin)، وهو عالم اجتماع ذو شهرة عالمية، وسامي نايير (Sami Naïr)، النائب الأوروبي السابق ودانيال سالناف (Danièlle Sallenave) وهي جامعية وكاتبة، أن انتقاد إسرائيل يُعدّ تشهيرًا عنصريًّا.

وأخيرًا تسمح الدعوى القضائية، سواء أكانت فردية أم جماعية، باجتذاب وسائل الإعلام. وقد كلفت جمعية collectifdom (فريق من الباحثين الفرنسيين من سكان الجزر)[89] أوليفييه بيتر غرونويو (Olivier Petre-Grenouilleau) بالمثول أمام القضاء، وهو مؤلف كتاب **تجارة الرقيق**[90] (*Traites négrières*)، باستخدام حجة تثير الاهتمام، قوامها: «بالقول إن تجارة الرقيق قد دامت ثلاثة عشر قرنًا وامتدت على خمس قارات، كشف السيد بيتر غرونويو عن إرادته تجنب الطابع الخاص لتجارة الرق ما وراء الأطلسي باللجوء إلى تغطية زمنية وجغرافية أوسع من التغطية القانونية». وتندد جماعات السود في فرنسا بعمل هذا المؤرخ؛ لأنه يبين أن أشكال العبودية الثلاثة التي ضربت أفريقيا (التجارة المثلثة، تجارة الرقيق باتجاه العالم العربي في أفريقيا الشرقية، وتجارة الرقيق بين البلدان الأفريقية)، كانت لها التأثيرات الديموغرافية ذاتها ما تَفَّهَ تجارة الرقيق التي قام بها الغربيون. ويجب الاعتراف بأن النخاسة الأوروبية تخلق رصيدًا سياسيًّا في الديمقراطيات، على خلاف الشكلين الآخرين. وعليه، تهدف الدعوى القضائية، أيضًا إلى خلق مسؤولية كونية وأبدية قابلة لأن تجد الحجج دائمًا. وعلى هذا النحو هاجم العمل الجماعي (class action) الأميركي الشركة الوطنية الفرنسية للسكك الحديد (SNCF) لتعاونها مع المحتلين الألمان في ترحيل يهود فرنسيين. ويمكن أن نجرب حظنا فرديًّا مثلما فعل آلان ليبيتز (Alain Lipietz)، النائب في حزب الخضر، وهو أيضًا ضد الشركة الوطنية للسكك الحديد، باسم أهله الذين جرى نفيهم.

والسؤال المطروح هنا: أين تقع العلاقة بصناعة العدو بما أنه لا توجد لدى البلد المستضيف سوى علاقة بعيدة مع المذبحة المؤسِّسة؟ عندنا، إذًا، ثلاثة مستويات عمل ممكنة: منع السلام، ومساعدة الثورة، ومنع المصالحة.

---

(89) يناضل فريق هذا التجمع من سكان جزر الأنتيي، وغويانا، والريونيون، والماهوري من أجل المساواة في الحقوق وضد التمييز الذي يمس الفرنسيين المنحدرين من أصول مستعمرات فرنسا ما وراء البحار.

(90) Olivier Petre-Grenouillau, *Les traites négrières: Essai d'histoire globale,* Bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 2004).

أصبحت وضعية الضحية من الناحية الاجتماعية أهم من وضعية البطل المحارب. فإن كان للمحرقة اليهودية طابع خاص يتمثل بالإرادة الصريحة للإبادة الكاملة لشعب، فإنه توجد مذابح أخرى أو تصرفات إبادية تستحق الانتباه. لكن من الصعب مناقشة ذلك وترك المؤرخين يقومون بالعمل التحليلي. وقد عارضت الجماعة الأرمنية في فرنسا تشكيل لجنة مؤرخين، مع أن القرار جاء من الحكومتين التركية والأرمنية(91). كما حاول ألمان السوديت أن يضغطوا على حكومة الجمهورية الفدرالية لمنع ترشيح براغ للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، شرط دفع تعويضات لأهلهم الذين طردوا عام 1945. ونعرف الدور الأساس الذي أدته الجماعة اليهودية الأميركية التي تجمع العديد من الأوراق الرابحة، لكونها مستقرة في أقوى بلد في العالم، ومنظمة في جمعيات قادرة على أن تضع ثقلها للتأثير في الانتخابات المحلية، فضلًا عن أن علاقتها بمصير إسرائيل هي بمقدار تفكيرها في أنها تخاذلت في أثناء المحرقة. لكن الانحراف المتطرف للحكومة الإسرائيلية، خلق في السنوات الأخيرة تصدعات تبدو عميقة مع الإخوان الأميركيين في الدين.

يشكل التهرب من مسألة البُعد عن الوطن، أيضًا، نابضًا للعمل، ذلك أن إعادة إحياء البلد (تأسيس دولة إسرائيل، استقلال أرمينيا) تضع أمام مسؤولياتها شعوب الشتات الممزقة جراء انتمائها المزدوج. فأين هو واجبها؟ تعيد الجماعة اليهودية الأميركية تعبئتها الذاتية، منذ ولادة إسرائيل وخصوصًا منذ حرب الأيام الستة، متأثرة بتعذيب الضمير بسبب المحرقة. وفي فرنسا، فإن الجماعةُ اليهودية من أصل شرقي، السفرديم، الآتية من المغرب العربي والتي لم تشهد الإبادة، لم تكتشف إسرائيل إلا بعد استقلال الجزائر، وهي بالغت في أداء وظيفتها كداعم. واختار الجندي شاليط، وهو شاب فرنسي، أن يؤدي الخدمة العسكرية في تساهال(*) في إسرائيل. غير أن «حماس» خطفته وطلبت مقايضته بمئات من المعتقلين الفلسطينيين، في حين لا أحد يدعم صلاح حموري غيدو (Salah Hamouri-Guidoux)، وهو مواطن فرنسي شاب مسلم أوقف في 13 آذار/ مارس

(91) www.watch.org, *Le Monde* (2 octobre 2009).

(*) الجيش الإسرائيلي [المترجم].

2005 لمحاولة اعتداء مفترضة، وأُجّلت محاكمته خمسًا وعشرين مرة. لكن على الرغم من ذلك، يمكن موازاة هاتين القضيتين. عبّرت الجماعة الأرمنية، أمام مشهد إعادة ولادة أرمينيا المستقلة بعد عام 1991، عن تضامنها في أثناء النزاع مع أذربيجان، وخصوصًا خلال الهزة الأرضية، وحثّت عن بعد على تبني قانون يدين الإبادة، من دون أي رهان سياسي بالنسبة إلى فرنسا، يمكنه أن يؤدي إلى انحرافات قانونية، فهل يمكن لمؤرخ فرنسي أن يعمل بطمأنينة تامة على موضوع مذابح 1915؟ وأخيرًا، سببت العودة المُسيّرة من بعد لأفراد من الشتات في بعض من بلدان الاتحاد السوفياتي السابق، وفي بعض الحالات، أزمات دولية. فمثلًا أخذ الرئيس شاكاشفيلي (Shaakashvili) المبادرة بالهجوم على أبخازيا (Abkhazie) عام 2008 والمجازفة بتلقي رد روسي، معتقدًا أن واشنطن لن تسمح بذلك.

المنافسة باللجوء إلى وضعيات الضحية: أدت سابقة الجماعات اليهودية وفظاعة المحرقة إلى ظهور تنافس على صعيد الضحايا. فالمحرقة في مواجهة النكبة، والمحرقة في مواجهة النخاسة، والتجارة المثلثة في مواجهة النخاسة بين الدول الأفريقية أو الإسلامية، والكارثة التركية في مواجهة الإبادة الجماعية (الأرمنية) والكارثة الكبرى (اليونانية). وقد صنع ديودونيه (Dieudonné) لنفسه اختصاصًا غير جذاب عبر تنديده بـ «الحرب» التي أعلنها اليهود والسلطات الصهيونية على عالم العرق الأسود. وكرر في محاضرة ألقاها في الجزائر العاصمة في 16 شباط/ فبراير 2005 الكلام ذاته الذي قاله دومًا على مسؤولية اليهود في قضية العبودية، وأيضًا من دون أي معرفة تاريخية جدية. ويحظر القانون الأسود (le code noir)، وهو مرسوم ملكي صدر عام 1685 لتنظيم حياة العبيد السود في الجزر الفرنسية، في مادته الأولى، تجارة العبيد على اليهود، وينصح حتى بطرد اليهود من الجزر حيث كانوا مستقرين[92]. إنها حقيقة تاريخية من دون أهمية حتمًا بالنسبة إلى ديودونيه.

أما المبدأ الآخر المهم فهو مبدأ الدفاع الجماعي، وهو أحد الشروط

---

(92) Cité par: Pascal Bruckner, *La tyrannie de la pénitence: Essai sur le masochisme en Occident*, Essai littéraire (Paris: Grasset, 2006), p. 181.

للحشد وللتأثير في النقاش الديمقراطي. ذلك أن اتخاذ وضع الضحية، أو حتى احتكاره هو أساس للتوجه بالكلام إلى «مسؤول» حي أو فرد من ذريته. ويلاحظ أنه بمقدار ما تكبر أهمية المذبحة أو الإبادة الجماعية، يتسع حقل المسؤولية. ومنذ تلك اللحظة، ينشأ نقاش مقارِن يحدد الوزن السياسي والإعلامي للشتات، على غرار: هل للمحرقة ميزة «فريدة»؟ هل النخاسة المثلثة التي تنظمها أوروبا أكثر أو أقل خطورة من النخاسة بين الدول الأفريقية، أو النخاسة الإسلامية التي مورست في أفريقيا جنوب الصحراء أو أفريقيا الشرقية؟ الواقع أن مطالب بعضٍ جمعيات السود تبدو شبيهة بهذا النوع من التنافس المرتكز على التقليد. وبدلًا من أن ينفك المسلمون الفرنسيون عن المتطرفين الذين يطالبون باستثناءات للقانون الجمهوري، مستندين إلى أسباب دينية، فإنهم يستغلون الالتباس باستمرار، لا بل ابتكروا تصور «رهاب الإسلام» (l'islamophobie) الذي أصبح حضوره في النقاش العام يوازي حضور تهمة معاداة السامية.

يهدف التذكير بالمذابح الماضية إلى خلق دَينٍ ذي بعد كوني وأبدي. لكن، يشق على الشعوب الأسيوية الصينية والهندية أن تشعر بنفسها مسؤولة عن التجارة بالعبيد، وعن التجارة المثلثة، أو عن المحرقة، كما أنه يصعب على الغربيين الشعور بالمسؤولية عن المذابح التي تعرضت لها الجماعة الصينية في إندونيسيا. وتشكل القوانين التي تخص ذكرى الحوادث التاريخية التي فرضت شيئًا فشيئًا بضغط من شعوب الشتات، مسائل أصعب فأصعب، خصوصًا عندما يطالب بلد مستَعمَر في ما بعد البلد المستَعمِر الاعتراف بإبادة جماعية أو بإبادات جماعية بشرية أو ثقافية عدة، كما تفعل بانتظام الجزائر بالنسبة إلى فرنسا.

ضحايا، لكن ليسوا أعداء

«بالنسبة إلى العاملين في المنظمات الإنسانية، لا يمكن التكهن بخطورة أزمة ما إلا قياسًا إلى مداها لا إلى بُعدها. وتُمارَس المسؤولية الإنسانية مبدئيًا، بشكل عالمي. وتفرض مبادؤها أن تستدعي كل معاناة أينما حصلت، ردًّا، ولا

نرى لأي سبب يجب أن يربط هذا الرد بعمل أو بعدم عمل كبار هذا العالم. وسيشكل كل تدريج جغرافي نوعًا من التمييز غير المقبول، على عكس المسؤولية السياسية التي تندرج في مجال خاص». هذا ما كتبه روني براومان (Rony Brauman) عام 1999[93].

يلاحظ برونو جوشوم (Bruno Jochum)، المسؤول عن برنامج الصومال لمنظمة «أطباء بلا حدود» فرع سويسرا عام 2009، ما يلي: «تخلى المجتمع الدولي عن كل طموح بمساعدة الشعوب ونظر إلى مكان آخر، منذ فشله في مقاربته للصومال قبل عشر سنوات». فالصومال هو المكان حيث بدأ تصور «النظام العالمي الجديد» الذي كان شهيرًا في سالف الأيام وانتهى. ولا أحد يتحدث عن الشعب الصومالي والوضع الذي يعيش فيه هذا الشعب، ليس لأن الحال تحسنت، بل لأنه لم يعد هنالك أحد اليوم ليكون شاهدًا على معاناة الشعب، ما عدا حفنة من المتطوعين يستمرون في مساعدة المرضى المحتاجين. ولا توجد في أي مكان آخر فجوة أكبر بين واقع الاحتياجات والمساعدة الإنسانية المقدمة بالفعل».

تبين مقارنة هذين القولين إلى أي درجة تحول المسعى الإنساني وكيف نضب الانفعال الإعلامي خلال أربعين سنة، وخصوصًا بعد 1991. ونلاحظ أن العاملين في المجال الإنساني هم اليوم الفاعلون الأقرب من واقع الأزمات، ومن معاناة الناس وثقافتهم. وبما أنهم لا يهتمون سوى بالضحايا، فإنهم لا يمررون النزاعات عبر مصفاة الحجج الاستراتيجية أو علاقات القوة. إنهم أول من يصل إلى مكان الأزمة، هؤلاء الذين «يرون»، ويطلق عليهم الأنكلوسكسون *bystanders* لأنهم شهود وليسوا فاعلين. ولتحصل على دعم، أقلّه من المانحين الفرديين، يجب على المنظمات غير الحكومية أن تخلق انفعالًا عبر الدفاع عن الضحايا، مع العلم أن قابلية تبخر الرأي يمكن أن تكون كبيرة، مثلما يبين ذلك المثال الصومالي. وقد أثارت أزمة بيافرا انفعال الجمهور الغربي، وهي أزمة

(93) Rony Brauman, «Les dilemmes de l'action humanitaire dans les camps des réfugiés et les transferts de populations,» dans: J. Moore, *Des Choix difficiles: Essai sur les dilemmes moraux de l'action humanitaire*, NRF Essais (Paris: Gallimard, 1999), pp. 250-251.

مؤسِّسة، برهنت عن لؤم دبلوماسية القوى العظمى. فقد قدم الأطباء الفرنسيون (french doctors) المساعدة والعون إلى ضحايا الإغبو (igbos) في مواجهة دبلوماسية باريس اللئيمة التي كانت تظهر حيادية رسمية تجاه الأطراف. ونتج عن النزاع مليون إلى مليوني ضحية بسبب الحصار. وتتمتع الـ «بلا - حدودية» برصيد أخلاقي لم يعد متوافرًا لدى الدول. وللوصول إلى مسرح النزاع، تستفيد المنظمات غير الحكومية من حياديتها وتعالج جميع الضحايا بلا تمييز. وهكذا كان مدى تأثير الدفاع عن السكان الجائعين في بيافرا على الآراء الغربية، أكبر؛ إذ إن العاملين في المجال الإنساني لم يطلقوا كلمة «همجية» على السلطات النيجيرية المسؤولة عن الحصار القاتل. ويحدد عمل العاملين في المجال الإنساني، إذًا، الشر ضمنيًا. ولأن شهادتهم تركت بعض «اللغط»، فإنها تستطيع - حقًا أو باطلًا - التأثير في رأي ما، وحث الديمقراطيات على إبداء ردة فعل. وكانت الكلمات القوية لبرنار كوشنير وفيليب دوست بلازي (Philippe Douste-Blazy)، وكلاهما طبيبان عملا في المجال الإنساني في تلك الحقبة، هي التي أثارت استنكار الرأي العام في ما يتعلق بالمجاعة في بيافرا، ولمساعدة زوارق الشعب الفيتنامي (Boat people). وكان الأمر ذاته في بداية المذابح في رواندا، فيما كانت وزارة الخارجية تغض النظر، قلقة من أن تثير غضب رئاسة الجمهورية[94].

حقق تصور الـ «بلا - حدودية» (sans frontiérisme) نجاحًا حقيقيًا مع أكثر من ستين منظمة غير حكومية تحمل هذا العنوان حتى اليوم، انطلاقًا من أن المهم لديها هو الهدف الإنساني، أما العدو فهو من يمنع المساعدة الإنسانية من بلوغ هدفها، أو يحرفها عنه، لغايات تحرض على الحرب. ويجب على العدو الذي لا يضمر له الرأي العام الغربي علاقة عدائية مباشرة، أن يثير الاشمئزاز. وقد أصبحت المنظمات غير الحكومية تدريجيًا طرفًا في الأزمة، ومن ثم رهانًا للمتحاربين، كما بيّن جان كريستوف روفين (Jean-Christophe Rufin) في كتاباته[95]. وسبق في إثيوبيا أن كانت المساعدة التي تم حشدها، بدعم كبير من الحفلات الموسيقية الضخمة، قد حرفها نظام الكولونيل منغيستو (Mengistu)

---

(94) وصف سفير فرنسا في كيغالي (*Kigali*) المجازر بالشائعات.

(95) Jean Christophe Rufin et François Jean, *Economie des guerres civiles*, Pluriel (Paris: Hachette, 1996).

الشيوعي عن مسارها لتهجير مجموعات كاملة من السكان. ثم في أثناء الاحتلال الفيتنامي لكمبوديا، استخدم الخمير الحمر المساعدة للسيطرة على اللاجئين في المعسكرات التي أقيمت في تايلاندا. ولكن يمكن للتنديد بفاعل ما أن يقتل المساعدة للضحايا. كما أصبح من الصعب في بعض الحالات عدم التنديد بالعدو. ففي حالة رواندا كانت الإبادة الجماعية تجري نصب أعينهم[96].

على العكس من ذلك، يبدأ الشك عندما تقدم منظمات غير حكومية المساعدة لسكان لا يطابقون، لدوافع نبيلة أو شريرة، ما يعتبرهم الرأي العام ضحايا، إن كانت لديهم ممارسات مافياوية (الشيشان، حروب الكونغو، كوسوفو) أو إن كانوا منخرطين في أعمال إرهابية. هذه هي مشكلة المنظمات غير الحكومية الإسلامية التي تريد مساعدة السكان المسلمين. وقد بيّن الاستطلاع الذي أجرته صحيفة **لاكروا** (*La Croix*) في 30 أيار/ مايو 2010 أن أضخم عشر منظمات غير حكومية فرنسية في ترتيب الأزمات الأكثر إثارة للقلق لا تذكر إلا مرة واحدة فلسطين، في حين أن الكونغو احتلت مركز الصدارة مرات عدة. وكلما أعلنت منظمة غير حكومية أنها تهتم بالفلسطينيين خصوصًا إذا كانت إسلامية، تتهم بأنها تغذي الإرهاب، على غرار ما كانت عليه الحال بالنسبة للمنظمتين غير الحكوميتين التركيتين CBSP وIHH اللتين شاركتا بحملة «سفينة من أجل غزة» واعترضتهما البحرية الإسرائيلية.

ظهر مفهوم «التدخل الإنساني» عندما منع المقاتلون العاملين في المجال الإنساني من الدخول إلى بعض أماكن النزاعات. هذا التصور اقترحه ماريو بيتاتي (Mario Bettati) وبرنار كوشنير بمناسبة الأزمة الصومالية، ما فتح الباب لعسكرة المساعدة التي غرقت فيها الدول الديمقراطية. وقد دفعت هيبة العمل الإنساني بالدول إلى خلط الأنواع بل حتى إلى استخدام العمل الإنساني أداة نفوذ. وهذا ما كان فعله كينيدي مع جسم السلام (peace corp). ودافع أندرو س. ناتسيوس (Andrew S. Natsios)، مدير USAID عام 2003، على سبيل المثال، عن المساعدة للعالم الثالث[97]، من خلال تسويغها بأنها مفيدة للدبلوماسية الأميركية.

---

(96) R. Brauman, *Devant le mal: Rwanda, un génocide en direct* (Paris: Arléa, 1994).

(97) Voir htpp://pdf.usaid.gov/pdf_docs.

وكان طوني بلير رئيس الوزراء البريطاني يردد بفظاظة: «قنبلة وخبز»، مختصرًا بذلك المزيج بين العمل العسكري والإنساني في أفغانستان. وأصبحت بعض المنظمات غير الحكومية غطاء لأعمال دبلوماسية دولية (المنظمات غير الحكومية الأميركية للانتخابات ذات الألوان، في محيط الاتحاد السوفياتي السابق). ويلحق ربط المساعدة الإنسانية بقوى عسكرية بالغ الضرر بالحيادية ويصنع أهدافًا محددة (خطف، اعتداءات، غارات على المعسكرات) يحددها أحد الطرفين المتحاربين. ولقد تضاعف ثلاث مرات عدد العاملين الإنسانيين الذين فقدوا حياتهم على الأرض من 30 إلى 102 شخص بين العامين 1999 و2009، وقفز عدد المخطوفين من 20 إلى 92. وفي تموز/يوليو 2010 تعرض الأسطول الصغير السياسي - الإنساني الذي كان يحاول إنزال مساعدة إنسانية في غزة، إلى هجوم من القوات الإسرائيلية، وأسفر ذلك عن تسع ضحايا. وبعد شهر من ذلك، قتل عشرة عاملين في منظمة غير حكومية أميركية بدم بارد في أفغانستان. وفي الحالتين، كان الشك بخصوص دوافعهم الحقيقية، هو التفسير الذي أعطاه الجلادون لتبرير عنف العمل. ويُزعم أن الأسطول الصغير التركي كان مفوضًا من منظمات غير حكومية إسلامية، لكن، ولمرة أخرى، هل من الممكن مساعدة شعب يائس إن كان مسلمًا من دون إثارة الشكوك بمساعدة الإرهابيين؟ وعلى العكس من ذلك، هل يمكن أن تكون هنالك منظمة غير حكومية مسيحية في بلد مسلم مهما كان؟ وإن كان، ووُجد هنالك تبشير، فهل هذه جريمة؟

عليه، أصبحت المنظمات غير الحكومية مع مضي الزمن، من صناع الرأي، ويمكنها من خلال الدفاع عن الضحايا، أن تسهم بتحديد العدو في بعض الأزمات التي ليس لها رهان استراتيجي. وجغرافيتها للعدو هي جغرافية أعمال العنف التي يقبلها الرأي العام كما هي، والتي تحمل بعض الميزات الإنسانية والإعلامية، كالصور، والضحايا المرئيين، والعدو الجائر والفظ، والنزاع المفهوم.

ثاني جيش في العالم لا عدو له

ابتكر المجتمع الدولي، اليوم، العمليات العسكرية من دون عدو. وقد أصبحت أعمال الأمم المتحدة التي تديرها القبعات الزرق في ما يخص الحفاظ على السلام، واستعادته، بل حتى فرضه، كثيرة. وكانت الأمم المتحدة في أثناء الحرب الباردة مشلولة، لكن منذ ذلك الحين أصبح جائزًا القول: «يا للنشاط!».

خلال عشر سنوات، قفز عدد جنود وعناصر شرطة الأمم المتحدة (عسكريون ومدنيون وقوات شرطة) المنخرطين في خمسين عملية تقريبًا، من 20.000 إلى 116.000. ومنذ ذلك الحين، يحتل جيش الأمم المتحدة المرتبة الثانية بين الجيوش المنتشرة في العالم، بعد جيش الولايات المتحدة الأميركية.

وخلال عقد من الزمان، ارتفعت الميزانية العامة للعمليات الخمس عشرة التي تقوم بها الأمم المتحدة حاليًا من 840 مليونًا إلى ما يقارب الثمانية مليارات دولار. وليس من السهل دومًا أن تعيش هذه الاستراتيجية العسكرية بلا عدو؛ إذ إن جنود القبعات الزرق كانوا عرضة للقتل بانتظام على يد المعسكرَين في سراييفو (84 جنديًا فرنسيًا)، وفي مقديشو (17 جنديًا أميركيًا)؛ كما قتل بدم بارد في كيغالي في أثناء الإبادة الجماعية في رواندا 10 مظليين بلجيكيين.

إن العدو الإعلامي موجود أكثر من خلال الشيطنة لا من خلال التهديد الاستراتيجي الذي يمثله. ويُحشد الرأي العام بالنسبة إلى الأزمة على أساس مبادئ أخلاقية يعلن عنها المثقفون أو ممثلون عن الشتات. لكن، تَقسم ثورة شعب مُحتَل يقاوم القوى المحتلة أحيانًا بين المثقفين والشتات. ويمكن للتنديد أن يحدد الأعمال الإرهابية والمذابح ضد المدنيين التي يقوم بها أي من المعسكرين. ففي حال الفلسطينيين ينذَّد بالإرهاب بانتظام. أما بالنسبة إلى الشيشان الذين يخضعون للسيطرة السوفياتية، فمن الأسهل بالنسبة إلى المحللين ذاتهم أن ينددوا بوحشية الاحتلال من أن ينددوا بالعمل الإرهابي. فالحقيقة أمر نسبي...

برنار هنري ليفي: «حرّروا الفلسطينيين من حماس»

مقتطف من خبر نشر في مجلة لوبوان (*Le Point*) في 8 كانون الثاني/ يناير 2010.

«بما أنني لست بخبير عسكري سأمتنع من الحكم على أن عمليات القصف الإسرائيلية على غزة كان من الممكن توجيهها بشكل أدق وأن تكون أقل حدة (...). وأنا طبعًا متأثر جدًا بصور الأطفال الفلسطينيين القتلى. إذًا، واستنادًا إلى عاصفة الجنون التي يبدو أنها استحوذت على بعض وسائل الإعلام، هذه المرة أيضًا مثل كل مرة يكون فيها الموضوع متعلقًا بإسرائيل، علي أن أذكّر ببعض الوقائع.

1. لا توجد حكومة في العالم ولا أي بلد غير إسرائيل، التي تم تحقيرها وشتمها وشيطنتها، تستطيع أن تتحمل رؤية آلاف القذائف تنهمر على مدنها لسنين طويلة. والشيء الأكثر إثارة للانتباه في هذه المسألة، وهو الموضوع المدهش الحقيقي، ليس «وحشية» إسرائيل بل، حرفيًا، ضبط نفسها لهذه المدة الطويلة.

2. لا يبرهن العدد الضئيل من القتلى الذي سببته كتائب القسام التابعة لحماس و(...) صواريخها الغراد، على أن هذه الصواريخ من صنع يدوي وغير خطرة... إلخ، ولكن يبرهن على أن الإسرائيليين يحمون أنفسهم وأنهم يعيشون مختبئين في أقبية بناياتهم وفي الملاجئ: حياة كوابيس، حياة معلقة على وقع صفارات الإنذار والتفجيرات؛ أنا ذهبت إلى اسديروت (*Sdérot*)، وأعرف عن ماذا أتكلّم.

3. وأن تخلّف القذائف الإسرائيلية عددًا كبيرًا من الضحايا لا يعني كما كان يصيح المتظاهرون (...) بأن إسرائيل تقوم بـ «مذبحة» بشكل متعمد، ولكن بأن قادة غزة قد اختاروا التصرف المناقض، لذا فهم يعرضون سكانهم إلى التكتيك القديم لـ «الدرع البشرية»، ما يجعل حماس (...) تضع مراكز قيادتها ومخزونها من الأسلحة وغرفها المحصنة في أقبية البنايات والمستشفيات والمدارس والجوامع، وهذا فعّال لكنه مثير للاشمئزاز.

4. هناك بين تصرف هذا الطرف أو ذاك، مهما كان، اختلاف أساس (...) الفلسطينيون يطلقون النار على المدن، أي على المدنيين (وهذا ما

يسمى في القانون الدولي «جريمة حرب»، بينما يستهدف الإسرائيليون أهدافًا عسكرية ويخلفون أضرارًا مدنية فظيعة، من دون أن يريدوا ذلك (وهذا ما يسمى في لغة الحرب «الأضرار الجانبية»، ويحيل على عدم تماثل استراتيجي وأخلاقي حقيقي).

5. اتصلت وحدات تساحال هاتفيًا بانتظام (تذكر الصحافة الأنكلوسكسونية 100.000 اتصال) بالغزاويين الذين يقطنون قرب أي هدف عسكري، يدعوتهم إلى إخلاء المكان (...).

6. وأما بالنسبة إلى الحصار التام التهيير المفروض على شعب تم تجويعه وينقصه كل شيء ودفع به إلى أزمة إنسانية لا سابقة لها (هكذا)، فهذا غير صحيح عمليًا، إذ لم تتوقف القوافل الإنسانية عن العبور حتى بداية الهجوم البري، على نقطة العبور كرم شالوم؛ وخلال يوم 2 كانون الثاني/ يناير فحسب استطاعت 90 شاحنة محملة بالمؤن والأدوية أن تدخل إلى الأراضي بحسب صحيفة النيويورك تايمز، ولا أقول ذلك إلا للتذكير (...) بأن المستشفيات الإسرائيلية ما زالت تستقبل الجرحى الفلسطينيين كل يوم وتقدم العلاج لهم.

لنأمل أن تتوقف المعارك بسرعة. وبسرعة نأمل أن يعود المعلقون إلى رشدهم. وسيكتشفون حينئذ أن إسرائيل اقترفت كثيرًا من الأخطاء على مر السنين (الفرص الضائعة، الرفض الطويل للمطلب الوطني الفلسطيني، أحادية القرار)، لكن أسوأ أعداء الفلسطينيين هم هؤلاء القادة المتطرفون الذين لم يرغبوا قط في السلام (...)».

للتذكير: أسفرت عملية الرصاص المصبوب عن 14 قتيلًا إسرائيليًا و1400 فلسطيني. (المؤلف بيار كونيسا)

في ختام دراسة التصنيف هذه، يجب التساؤل: ما هو المستقبل المقدر لكل عدو حددت هويته.

يبدو أن حروب الحدود التي تصلح بين الأعداء القريبين تبقى افتراضًا ممكنًا دائمًا في أحد أصقاع العالم النائية. لكن اللجوء إلى محكمة العدل الدولية أصبح أمرًا عاديًا حتى بالنسبة إلى الأراجوز الدبلوماسي المتمثل بالعقيد القذافي.

إن الحروب بالوكالة التي تميز الخصوم على الكوكب الذين يجعلون الآخرين يشاركون في النزاع الذي لا يستطيعون القيام به أو لا يريدون ذلك مباشرة، هي النتيجة لجيوسياسة لم تعد تناسب ذوق الحقبة الحالية. لكن يمكن أن تعود حين تصل بيجين وواشنطن إلى مرحلة الخصومة المؤكدة. حينئذٍ يمكن للأوروبيين أن يبدأوا بالتفكير في مصلحتهم الاستراتيجية الحقيقية.

تمثل الحروب الأهلية التي تجعل من المذبحة سلاح حرب، السيناريو الأرجح للسنين المقبلة. وتشكل القارة الأفريقية، وبلدان الشرق الأوسط العربي، وبلدان آسيا الوسطى السوفياتية سابقًا، ومناطق الحدود الجيوسياسية، حيث تؤمن كل جماعة أمنها الخاص من خلال ميليشياتها الخاصة، تشكل خزانات لا تنضب لهذا النوع من النزاعات.

تستمر حروب القمع تجاه الشعوب الخاضعة للاحتلال على خلفية الشاشة، في حال لم تؤدِّ إلى مذابح جماعية يمكنها إثارة الرأي العام لدى الديمقراطيات الكبرى. ولقد بينت عملية الرصاص المصبوب حدود المبادرات التضامنية المعتادة حين تتجاوز الوحشية بعض الحدود.

كانت «الحرب الشاملة ضد الإرهاب وضد انتشار سلاح الدمار الشامل» ابتكارًا استراتيجيًّا بمقياس القوة العظمى الأميركية. ويحثنا نجاح حفلات الشاي (Tea parties) وانعدام الثقافة العالمية لدى سارة بالين (Sarah Palin) على التفكير في أن عودة أحادية القرار يمكن ألا تكون مستبعدة كليًّا في واشنطن. غير أن خيبات أمل الجنود الغربيين في بغداد وكابول تجعل العمل الحربي الأحادي الجانب أقل توقعًا. وقد ظهر نوع من الحرب من خلال الحث على التضامن (مع الحلفاء)، وزجت حرب العراق بنصف أوروبا في تحالف من 43 دولة، لا يعرف سكانها أحيانًا أين تقع بغداد. لكن الجمهور العام الذي خدعته الحماسة الحربية لدى جورج بوش الابن كان لها رد فعل حيوي منذ ذلك الحين.

تتخذ الحروب الأيديولوجية اليوم شكل الحروب الدينية، بما أن الأنظمة الشمولية العلمانية قد بقيت. وسيكون لهذه الرواية الجديدة التي تعلن عن نصر نهائي في حرب من دون نهاية، مستقبل جميل. وستحركها الراديكاليات التي

اعترت كل الأديان لتخلق شبكات من التضامن لم يعد لها أي علاقة مع تقسيم كوكبنا إلى دول. وتشكل المعالجة العسكرية للحركات المتطرفة في حروبٍ تتواجه فيها شبكات تضامن تتجاوز الحدود مع قوات مسلحة لدول ما، خطًا استراتيجيًا أساسيًا لهذه الدول.

إن نظرية المؤامرة هي مؤسسة تجارية تعطيها الإنترنت منبرًا ذا بعد عالمي. إنها وباء مستوطن كبير شبيه بأوبئة عالم الحيوان، يولد في زاوية من الكوكب وينتشر بسرعة الإنترنت حول فيروس متحول.

تغذي الأخبار وشهية اللاعبين الأساسيين الذين ذكرناهم آنفًا العدو الإعلامي باستمرار.

يقدم هذان النموذجان الأخيران لصناعة الأعداء سيناريوهات أقل إثارة للقلق، لأنهما يولّدان أزمات جدية لكن محدودة جغرافيًا.

ولأن العدو يقدّم العديد من الخدمات للحياة الدولية، فمن الأرجح أن الآليات المختلفة التي حلّلناها أعلاه ستستمر في إنتاج العدو. فهل هذا شيء محتوم؟ أيمكننا تفكيك العدو؟

الكتاب الثالث

تفكيك العدو

بعد الحرب العالمية الأولى - التي سميت لفترة ما - «الحرب الكبرى»، قبل أن نكتشف أنه كان بوسعنا أن نفعل على صعيد الحروب أفضل من ذلك بكثير - أراد المنتصرون أن يجعلوا «ألمانيا تدفع الثمن»، من دون أن يهتموا برؤية مسؤوليتهم الخاصة عن إشعال فتيل النزاع، وهذا هو النهج الكلاسيكي للمنتصر. وفي الوقت ذاته، جرى وضع الحرب موضع اتهام مع شعار «لن يتكرر ذلك أبدًا!». وبذلت محاولة للاستعانة باتفاقية برايند - كيلوغ (Briand-Kellog) لمنعها نهائيًا، علمًا بأن النوابض لنزاع جديد لا تزال موجودة.

بعد الحرب العالمية الثانية من 1939 إلى 1945 كان المسعى ليس جعل البلدان المعنية تدفع الثمن، بل أن يدفعه المسؤولون النازيون ومسؤولو العسكرة اليابانية خلال محاكمات نورمبرغ وطوكيو. ولأول مرة، جرى الفصل بين العدو وبلده.

ومع الأمم المتحدة التي يمنع ميثاقها حرب الاعتداء ويقر بحق الدفاع الشرعي عن النفس، اعتقدنا بأننا خلقنا آلية جماعية يمكنها كبح الحرب وإدانة المعتدي. ولكن، بإعطاء حق الفيتو في مجلس الأمن للمنتصرين في الحرب العالمية الثانية، عُقِّمت الآلية. وأدار الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن لوحدهم فحسب، أكثر من خمس وخمسين حربًا وتدخلًا مسلحًا بلا تفويض من الأمم المتحدة (من دون ذكر الانقلابات). وعليه فقد كان الأمر يتعلق إذًا بحظر الحروب من خلال الفيتو، لكن حظرها على الآخرين.

ثم أتت الحرب الباردة لتجمد المعسكرين، وخيّم ضباب أيديولوجي طويل على الكوكب. لم تكن هنالك تساؤلات حول آليات صنع العدو، إذ كان اللاعبان الأكبران يحتلان فضاء التفكير الاستراتيجي. وحدها حروب إزالة الاستعمار عكّرت التنظيم الجميل لمراكز التفكير: كان الشيوعيون هم من

يديرون نضال الفيتناميين ولكن ليس نضال الجزائريين. وتنازع تيتو مع موسكو، وتنازعت باريس مع واشنطن، فيا لها من فوضى! ولم يبذل أي جهد جدي لتحديد المعتدين ومعاقبتهم وتفكيك العدو. ولقد كبحت الحماية الكاذبة التي وفّرتها المنافسة بين الشرق والغرب كل آلية للعدالة الدولية. وحررت حرب الخليج التي شُنَّت على صدام حسين آليات منظمة الأمم المتحدة، وأعادت مذابح الحرب الأهلية في يوغوسلافيا طرح مسألة العدالة الدولية ومعاقبة المذنبين في الجرائم الجماعية.

تطورت محاولات تفكيك العدو، على نحو عشوائي، مع أن هذه العملية تعد من العمليات المعاصرة الأكثر تحديًا، سواء على الصعيد الوطني، أو الإقليمي أو الدولي. لنحاول، إذًا، وضع الحصيلة النهائية.

قبل كل شيء، هل من الممكن أن نعيش من دون عدو؟ إذا كان الجواب بنعم، فكيف نستطيع تفكيك العدو على الصعيدين الوطني والدولي؟ وما نماذج النزاعات المحددة هنا التي يمكن تفكيك نوابضها؟

العيش من دون عدو للدولة: هذا صعب لكنه ممكن

الاعتراف بالمسؤولية والتكفير عن الذنب

ركع ويلي براندت (Willy Brandt)، مستشار ألمانيا الفيدرالية أمام آثار غيتو وارسو في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1970. والواقع أنه منذ 1945 لم يكن التكفير عن فظائع النزاع حقيقيًا إلا في ألمانيا، ولم تمارسه أي أمة أخرى. بيد أن طلبات الاعتذار، وهو شكل مخفف من أشكال التكفير، لاقت نجاحًا أكبر.

برهنت معاهدة الإليزيه في 22 كانون الثاني/ يناير 1963 أن المصالحة ممكنة بين أعداء وراثيين، بعد ثلاث حروب مدمرة. ويمكن لعملية مصالحة مماثلة تقريبًا أن تنطلق في حال اعترفت روسيا بوتين بالمسؤولية في مذبحة كاتين حيث هلك 14,000 ضابط وكادر بولندي، ما سيتيح علاقات جديدة مع بولندا. ولئن كان في الإمكان الحديث عن شعب شهيد فهو هذا الشعب، إذ إن التاريخ الحديث

للبلد مطبوع باجتياحات وخيانات مختلفة أقدمت عليها موسكو من خلال الاتفاقية الألمانية - السوفياتية عام 1939، واجتياح البلد وتقاسمه عام 1940، ومذبحة كاتين، وتمرد وارسو عام 1944 في وجه الجيش الأحمر على الضفة الثانية من نهر فيستول (Vistule)، والانقلاب الشيوعي عام 1945، والكذب المستمر لأحزاب شيوعية متداخلة، وانقلاب الماريشال جاروزلسكي (Jaruselski) المدعوم من موسكو. ولا يزال جزء من بولندا يشكك في الجهود التي بذلتها موسكو لفتح الأرشيف ولإظهار الحقيقة في روسيا، من خلال عرض فيلم المخرج واجدا (Wajda) بعنوان كاتين على قناة التلفزيون الروسي الرسمية. لكن، كما قال مارسان فوجيشوفسكي (Marcin Wojciechowski)، وهو صحافي ومثقف بولندي حاز جائزة المصالحة البولندية - الأوكرانية «يقدم التاريخ فرصة كهذه مرة كل عقد، بل حتى مرة كل قرن. وتستحق هذه الحقيقة أن تكرَّر حتى الملل في بولندا وفي روسيا»[1]. جرت المصالحة مع ألمانيا بعد سقوط النظام الشيوعي، وهو أحد غزاة بولندا عبر التاريخ، وكان الثمن أن تعترف ألمانيا الفدرالية بخط أودر - نيسي (Oder-Neisse). إذًا ماذا ينتظرون؟...

الخطاب الأحادي الجانب لتفكيك العدو

إنه حل يمكن ممارسته في أي وقت، لكن هل يُقنع الأعداء المحددين السابقين؟ تميز الرئيس أوباما كليًّا بمواقفه مقارنة بمواقف الرئيس الذي سبقه عبر بعض التصريحات والوثائق الاستراتيجية. فقد صرّح في القاهرة في 4 حزيران/ يونيو 2009، أنه «يريد أن يجعل من الإسلام شريكًا ضد التطرف» الذي يقتل مسلمين أكثر من الغربيين. وفي وثيقة استراتيجية للأمن القومي نشرت في 27 أيار/ مايو 2010، أكد أن إدارة العالم لا يمكن إلا أن تكون مشتركة ومتعددة الأقطاب. وقبل ذلك بقليل في نيسان/ أبريل 2010، في مجلة *Nuclear Posture Review* طالب بعالم من دون سلاح نووي. إنه إذًا «تقرير المؤتمر العشرين» نوعًا ما على الطريقة الأميركية، كما فعل خروتشوف حين

---

(1) Georges Mink, «Le crash de Smolensk a réveillé les démons russo-polonais,» *Libération* (28 juillet 2010).

ندد بالأعمال السيئة التي قام بها سلفه (ستالين). والحال أن هذه الدبلوماسية الجديدة ليست مرادفة لإرادة تقارب وتفاهم غير منطقية لدى الرئيس أوباما، بل بالأحرى إنها علاقة مع العالم لا تستثني الحرب كحل نهائي، لكنها ترفضها بوصفها وسيلة للحفاظ على النظام. وقد أصبحت فكرة الشرطي المستقيم التقليدي غير الراغب في عمله (reluctant sherif) العزيزة على قلب ريتشارد هاس في الحقيقة أقل فأقل استقامة وتقليدية وترددًا في العمل، وأكثر فأكثر تناسبًا مع صورة الشرطي المتصلة بجورج بوش الابن. لكن هل تحدد حرب أفغانستان وحرب العراق حقًّا نهاية تصور غربي يمنح ذاته مهمة إرساء السلام على الكوكب بوسائل عسكرية، وعبر مهمات من دون رهان استراتيجي حقيقي للأمن؟ الواقع أنه يوجد قلق اليوم في مراكز التفكير الغربية، وكذلك الأوروبية من «رفض الدخول»، ما يعني استحالة التدخل بالنسبة للقوى المسلحة الغربية في بعض نقاط من الكرة الأرضية(2). فهل هي رسالة أوروبا أن تكون لديها القدرة على إرسال قوى مسلحة إلى كل مكان؟ يمكن القول إنه لا يوجد حاليًا فكر استراتيجي أوروبي بالمعنى الكلي للكلمة(3).

إن تغيير الخطاب هو طريقة مثيرة للاهتمام لتفكيك عدوانية ما. غير أن العلاقات التي جرت تهدئتها، تُنسج مع مرور الزمن عبر علاقات سياسية أكثر من التصريحات، وعلى المرء أن يكون لديه دعم قوي من شعبه. وتُظهر حركة حفلات الشاي، وهي عبارة عن انبثاق شعبي يميني في الولايات المتحدة، حدود هذه الدبلوماسية الأميركية الجديدة.

المصالحة أصعب لكنها أكثر فعالية

حان وقت الاعتذارات، فزيارة البابا عام 2003 إلى كرواتيا والتي تلتها بعد أسابيع عدة زيارة تاريخية إلى بنيالوكا في الكيان الصربي في البوسنة والهرسك أعطته الفرصة للمطالبة بالصفح عن الجرائم التي اقترفها

---

(2) Crontin Brustlein, «Vers la fin de la projection de forces?,» *Parades opérationnelles et perspectives politiques, Focus stratégique*, no. 20 (21 avril 2010).

(3) P. Conesa, «Quelle réflexion stratégique européenne,» *Le Monde diplomatique* (novembre 2009).

الكاثوليكيون خلال الحروب اليوغوسلافية. ويدل هذا التغيير في الموقف على تطبيع أساس لوضع الكنيسة التي لم تكن معتادة كثيرًا على الاعتراف بأخطائها. وهنا أيضًا بقي المسعى فريدًا، إذ إن الأديان الأخرى المسيطرة بقيت تصر على خطاب الشهادة والشهداء. ولكن التغيير للأفضل لا يمنع الالتباس. وقد طوّب البابا يوحنا بولس الثاني (Jean-Paul II) هو بذاته خلال زيارته الثانية لكرواتيا، في خريف 1998، الكاردينال ألويزيوس ستيبيناك (Alojzije Stepinac) الذي توفي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل في مكان إقامته الجبرية. هل هو «شهيد جراء الشيوعية» أم «هو متعاون» مع نظام الأوستاشيين المؤيد للنازية؟

قامت بريطانيا العظمى بالخطوة الأولى بعد ثمان وثلاثين سنة، من خلال تقرير التحقيق عن الأحد الدامي[4] الذي شهد مقتل 14 متظاهرًا كاثوليكيًا أرداهم الجيش البريطاني بدم بارد في 30 كانون الثاني/ يناير 1972 في لندنديري. وقدم دايفد كامرون (David Cameron) اعتذارًا أمام مجلس العموم في حزيران/ يونيو 2010. أما الأتراك فلم يلحقوا الركب، إذ قرروا أولًا تشكيل لجنة مختلطة من المؤرخين مع أرمينيا تعنى بموضوع الإبادة الجماعية سنة 1915.

في المقابل، لم يقبل اليابان بتاتًا أن يمارس إعادة الفحص، وأن يقر بالمسؤولية تجاه جيرانه الآسيويين، وكذلك لم تُقدِم فرنسا على ذلك تجاه الجزائر[5] التي تطالب بذلك. وتكلم السفير الفرنسي لدى الجزائر بمناسبة الذكرى الستين لمذبحة سطيف عن «مأساة لا يغفر لها». ولا الولايات المتحدة تجاه فيتنام... وفي غياب المبادرات العامة في هذا المنحى، تستمر آليات المحافظة على العداوة، كما يبين ذلك الجدل حول فيلم **خارج على القانون** (*Hors la loi*) في فرنسا، أو **رامبو 2** (*Rambo 2*) في الولايات المتحدة.

ما العمل للخروج من حرب الذكريات؟ ليس من السهل تجاوزها خصوصًا

---

(4) Bloody Sunday Report www.guardian.co.uk.

(5) L. Bucaille, «Exiger des excuses de la France,» *Raison publique* (mai 2009).

حين تكون الروايات متناقضة. ويبين تغيير مكان نصب الجندي السوفياتي في إستونيا عام 2008 إلى أي درجة كانت الأمور صعبة. وقد كتب ماريك تام[6] (Marek Tamm) المؤرخ والصحافي الإستوني: «بالنسبة للإستونيين الأصليين، النازية هي أربع سنوات، أما الشيوعية فكانت خمسين سنة». وعلى النقيض، فبالنسبة إلى الروس الذين بقوا مكانهم بعد نهاية الإمبراطورية، والذين ما زالوا يمثلون 20 إلى 30 في المئة من السكان المحليين، يمثل هذا النصب رمز المعاناة التي يتعذر وصفها والتي تكبدوها لدحر النازية. أما بالنسبة إلى الإستونيين، فيعتبرون عودة الجيش الأحمر عام 1944 احتلالًا جديدًا، وأما للروس فهي تعني التحرير. فكيف يمكن التوفيق بين هاتين الذاكرتين؟

من هنا، فإن وسائل الإعلام تعيد إخراج البراهين التقليدية المتعلقة بصنع العدو: تذكر الصحافة الناطقة بالروسية أن الإستونيين استقبلوا الغزاة الألمان وأمدوهم بفرق من منظمة فافن SS (Waffen-SS). والخلاصة: «إن الفاشية تعود». وإضافة إلى ذلك تذكر الصحيفة الناطقة بالروسية بأنه لن يكون هنالك خاصية إستونية بما أن القمع الستاليني قد ضرب إستونيا كما ضرب الأقليات الاخرى كلها في الإمبراطورية، وأن أكثر من ضربهم هم الروس. وتقدم الحجة ذاتها للأوكرانيين الذين يريدون أن يُعتَرَف بالهولودومور كإبادة جماعية. غير أن الصحافة الروسية تذكّرهم بأن الروس قد ذاقوا المعاناة ذاتها. أخيرًا هل النصب موجود هنا للاحتفاء بالنصر أم بالأموات؟ الواقع أنه من المعقّد تحرير كتب التاريخ المدرسية لمنهاج تلاميذ إستونيا.

الخروج من الخلافات الحدودية

جرت تسويات سلمية لنزاعات حدودية في خمس وخمسين قضية خلال العقدين الأخيرين، ما يبرهن على أن توظيف الحرب وسيلةً لرسم الحدود تراجع. ورجحت الحدود الإدارية السابقة في ثلثي القضايا المتعلقة بالنزاعات تقريبًا وفي ثلاثة أرباع حالات الاقتسام السلمي، ما يدل على أن الحرب عندما اندلعت كانت بلا طائل.

(6) *Le Monde* (18 et 19 octobre 2009).

عرف العالم بعد زوال الاتحاد السوفياتي إحدى أوسع الحركات لإنشاء دول جديدة ولترسيم حدود جديدة منذ معاهدة فرساي (تشيكوسلوفاكيا، وسبع عشرة دولة ولدت من تفتت الاتحاد السوفياتي). جرى كل شيء بطريقة سلمية وتفاوضية في معظم الحالات، ما عدا بعض الحالات النزاعية (يوغوسلافيا والقوقاز). وعلى مستوى الكوكب، تبدو النزاعات الحدودية وكأنها سيناريو أقل حربية اليوم. وبين 22 أيار/ مايو 1947 و10 آب/ أغسطس 2010، سجلت مئة وتسع وأربعون قضية في جدول دعاوى محكمة العدل الدولية في لاهاي، ومن بين القضايا الست عشرة المعلقة عام 2010، يوجد فقط ست منها تخص مسائل حدودية.

الاتحاد الأوروبي: كيان من دون عدو

عمل الثنائي الفرنسي الألماني بعد المصالحة وكأنه محرِّك لبناء الاتحاد الأوروبي، وكان بمنزلة نوع من الأجسام الطائرة السياسية غير المحددة شيد على التوافق وانتقال حقوق مَلَكية أو وراثية، وهو أيضًا، وعلى وجه الخصوص، كيان من دون عدو. وغيّر فتح الحدود على فضاء شينغين (Schengen) المعطيات، فالحدود الأساسية الفرنسية هي الآن مطار رواسي شارل ديغول، ومن الصعب تصور نزاع حدودي في هذه الحالة. إن الانضمام السريع للبلدان الشيوعية سابقًا إلى فضاء السلام والنمو الاقتصادي للاتحاد الأوروبي هو ذو دلالة، خصوصًا وأن هذه الدول تريد، بموازاة ذلك، أن تضمن دخولها إلى حلف الأطلسي (OTAN). كما بُرهنت قيمة الاتحاد الأوروبي في إحلال السلام في مناسبات عدة. وهناك بضعة أمثلة على ذلك، كاعتراف ألمانيا بخط أودير - نيسي، ومعاهدة تيميشوارا (Timisoara) بخصوص حق الأقليات الهنغارية في رومانيا، والاعتراف بمختلف الحدود الدولية التي رسمت عام 1945.

تسعى أوروبا اليوم إلى تحديد تصورها للدفاع بصفتها كيانًا من دون عدو. وهذه الممارسة هي من أصعب الممارسات. لكن الاتحاد الأوروبي يعاني من العديد من الإعاقات الخلقية، منها أن دول الاتحاد الأوروبي، الأعضاء في سوق مشتركة، هي مزيج غير متجانس من سياسات الدفاع والأمن. كما

تحدد بعض البلدان سياستها بالنسبة إلى واشنطن في إطار الحلف الأطلسي، ويبقى بعض أعضاء الاتحاد الأوروبي محايدين؛ وأخيرًا، يعتبر آخرون أن مهمة الحلف الأطلسي يجب أن تكون محدودة نظاميًا وجغرافيًا. هنالك إذًا خلط بين أوروبا الدفاع، والدفاع عن أوروبا التي يعدّها بعض البلدان مستحيلة من دون رابط بنيوي مع الولايات المتحدة، وهم بذلك يرثون أعداءً كانت قد حددتهم واشنطن. وقد عكَس تفجر أوروبا في مواجهة حرب العراق التي شارك فيها العديد من البلدان الأوروبية باسم التضامن عبر الأطلسي، التناقض الأساس الذي تصطدم به أوروبا الدفاع. كما أظهر التدخل العسكري لدعم المتمردين الليبيين انقسامات أخرى لدى أوروبا الدفاع.

يعدّ الاتحاد الأوروبي شيئًا سياسيًا غير محدد OPNI (على وزن الأجسام الطائرة غير المحددة OVNI)، فهل يمكن بناء دفاع مشترك من دون عدو؟ من الصعب ذلك، وتبقى هذه الحالة منفردة. وقد كثرت محاولات الاتحاد السلمي في العالم العربي، وفي أفريقيا السوداء، وفي أميركا اللاتينية، وفي آسيا، لكن من دون بلوغ النجاح السياسي الذي عرفه الاتحاد الأوروبي.

هنالك طرائق أخرى لتفكيك العدو، وكانت الأكثر إبداعية بينها تتمثل بالعمليات الوطنية للخروج من الحروب الأهلية، وذلك عائد إلى حد ما إلى أن المجتمع الدولي استطاع فرض قواعد عدالة تخفف من آليات الانتقام.

الخروج من الحروب الأهلية: النسيان، الصفح، العدالة

«لا يسمح لأحد أن يؤاخذ غيره على ماضيه، أكان ذلك بحق الطغاة الثلاثين أو العشرة أو الأحد عشر أو بحق حكام برايوس القدماء. ولا يجوز ذلك حتى بحق هؤلاء إذا كانوا قد أدوا حساب خدمتهم». لقد أُعلِنت أحكام العفو العام هذا، والتي تحظر على أي شخص أن يُذَكِّر بالماضي تحت طائلة عقوبة الإعدام، أُعلِنت في مرسوم تراسيبول الذي أنهى حرب البيلوبونيز ووضع حدًا للطغاة الثلاثين عام 403 (أرسطو، **دستور الأثينيين**، XXXIX، 6). وعليه، فإن، موضوع الصفح والنسيان ليس جديدًا تمامًا.

التخلي من طرف واحد عن العنف والنسيان

إنها الطريقة الأسهل للتفكيك خلال الحروب الأهلية، لكنها أعطت نتائج ضئيلة. وقد استخدمها جيش تحرير إيرلندا (IRA)، بحسب جيري أدامس (Jerry Adams)، كما استخدمتها حركة الـ M19 في الأوروغواي أيضًا، ولكن لم يقبل بذلك التوباماروس، وهي حركة أخرى من حركات حرب العصابات في الأوروغواي. وتمارس حركة ETA لتحرير الباسك ذلك بقدر ما تغتال. وفضل بعض البلدان النسيان من دون اعتماد أي قانون، مثل المغرب، لدفن سنوات الملك الحسن الثاني القاتمة، أو روسيا لتكفين الحقبة الشيوعية. لكن يبقى هذا استثناء. وفي البلدان الشيوعية السابقة، حيث لم تكن تجري أي محاكمة ولا أي تكفير عن الذنب، كان فتح الأرشيف من دون محاكمة أقل ما يمكن فعله، وسيكون التئام الجروح طويلًا[7].

بعد الحروب الأهلية، قانون العفو يعني الدفن من دون العدالة

أقر ثلاثون بلدًا قوانين عفو بعد فترة حروب أهلية (إسبانيا، اليونان)، أو بعد دكتاتوريات قمعية لفترة طويلة تعادل الحروب الأهلية (الأرجنتين، تشيلي، البيرو، البرازيل، دول أفريقيا السوداء). والتدابير المعتمدة تكون محددّة عن قصد في الزمان وفي الموضوع؛ إذ إنها لا تهدف سوى إلى العفو عن الجرائم «السياسية» خلال فترة محدودة بالنسبة إلى عمر الدكتاتورية أو الحرب.

وتشل قوانين العفو العام جهدَ البحث عن الحقيقة وتؤدي إلى تناقض، إذ لا تُنسى أعمال العنف لكن لا يُتخَذ أي إجراء قضائي، ما يضعف عملية الانتقال الديمقراطي مع خطر استمرار الضغينة. وبعد سبع وثلاثين سنة من الفرانكية، اختارت إسبانيا، تزامنًا مع سياسة التعايش السلمي (conviviencia pacifica)، الصفح، والنسيان، والعفو، لكن ليس «اتفاق الصمت». وكان أكبر عدد من لاعبي الحرب الأهلية قد توفوا، لكن الهدف كان المعرفة أكثر من الإدانة.

---

(7) Voir le film de F. H. Von Donnersmarck, la Vie des autres, Océan Films, Allemagne, 2006, 137 minutes.

وقد أتاح فتح الأرشيف للمؤرخين أن يعملوا، ويبدو الأمر أصعب بالنسبة إلى القضاة. وإن الكشف مؤخرًا عن عمليات خطف أطفال ضحايا الفرانكية يجعل الألم يمتد إلى الجيل الثاني.

في 16 أيلول/ سبتمبر 1999، عمل الرئيس الجزائري بوتفليقة عبر عملية استفتاء، ليتم إقرار «القانون حول الوئام المدني». وتوجه إلى صناديق الاقتراع، على الأرجح، 6000 مقاتل تقريبًا من جيش الإنقاذ الإسلامي (AIS) – وفق الرقم الرسمي – وفي كانون الثاني/ يناير 2000، أقر الرئيس عفوًا لمصلحتهم. وفي 29 أيلول/ سبتمبر 2005، أُقِرَّ «ميثاق السلام والمصالحة الوطنية» الذي خضع للاستفتاء مع إسقاط الملاحقات القضائية بحق الإسلاميين المسلحين، الذين سلموا أنفسهم منذ كانون الثاني/ يناير 2000. لكن القانون يشمل أيضًا العسكريين. يشكل إذًا تعايش المقاتلين المجردين من السلاح والضحايا، من دون عمل للذاكرة و/ أو للعدالة، قيدًا لسياسة عامة معيشة بصورة سيئة. وقد أدى اغتيال بعض المقاتلين الذين ألقوا السلاح في ظروف غامضة، كما حصل في الجزائر أو في كولومبيا والأوروغواي أيضًا، إلى العودة إلى الأدغال والحرب من جديد. إضافةً إلى ذلك، يحاول المحاربون القدماء، حين يقدمون على أفعال غير إنسانية، أن ينشروا صورة محقرة لضحاياهم أو أن يحافظوا عليها هكذا كي يجدوا لأنفسهم أعذارًا. وبما أن النقاش ليس علنيًا ومنظمًا فالندوب تبقى، والانتقامات الشخصية أيضًا. وتهدف كل هذه الإجراءات القضائية والسياسية التي تشمل الإرهابيين كما التائبين، وعائلات الإرهابيين وعائلات الضحايا في آن، إلى وضع حد لهذه «الحرب القذرة». لكن، لا يزال الإرهاب يضرب في الجزائر منذ عام 2007 بواسطة المجموعات المسلحة للقاعدة في المغرب الإسلامي. ويبقى أن نفهم هذه الاستمرارية. وقد ذكّر تحقيق على قناة فرنسا الثانية بمصاعب الخروج من العنف، من خلال إعطاء مثال عن حالة إسلامي منتفض، قرر الانتقام لأخيه الشرطي الذي ذُبح وهو عائد إلى منزله: الانتقام له ممن؟ أمِنَ الإسلاميين الذي كان يقاتل إلى جانبهم، أم من قوى الشرطة؟

كانت استراتيجيات الانتقال مبنية، تقليديًا، على «ميثاق نسيان»[8]، وعلى عفو نسيان، كما الحال في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. وتحدد لجان «الحقيقة والعدالة» أو «الحقيقة والمصالحة» (CVR) المبنية على مبدأ العدالة الانتقالية، مقاربة جديدة من خلال الربط بين الحقيقة والمصالحة الوطنية والانتقال الديمقراطي والسلمي. وكما قال ديسموند توتو (Desmond Tutu)، الذي كان يترأس لجنة أفريقيا الجنوبية، مذكّرًا بفلسفة أفريقية: «إن ذلك هو أيضًا أسلوب في فن القول: إنسانيتي مرتبطة بإنسانيتكم بصورة لا يمكن فكهما بعضهما عن بعض». ويناقض هذا التصور جذريًّا تصور إيلي بارنافي الذي ذكرناه سابقًا. ولقد تبنت ثلاثون دولة أيضًا هذا الإجراء.

تملك هذه اللجان (CVR) أربع ميزات. إنها تتحدد بفترة معينة من الماضي بصورة عامة أطول بكثير من الفترة التي تعتبرها المحاكم الدولية مناسبة: أربع وثلاثون سنة من الأبارتهيد (نظام الفصل العنصري) في أفريقيا الجنوبية، خمس وثلاثون سنة من الدكتاتورية في غواتيمالا، سبع عشرة سنة في تشيلي، وسبع سنين من الحرب الداخلية في الأرجنتين، ست عشرة سنة في نيجيريا، وعشر سنين في سيراليون... ثانيًا، لا تركز هذه اللجان على حدث معين بل تحاول تقديم صورة عامة للتجاوزات والجرائم. ثالثًا، تكون اللجان مؤقتة وتحدد مدة حياتها أغلب الأوقات مع الانتهاء من تقديم تقريرها. وأخيرًا، يجب ألا تكون للجنة، تبعًا لتركيبتها، علاقة مع السلطة، إطلاقًا. فهي تتألف من ممثلين عن المجتمع المدني: رجال دين، منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، حقوقيين، جامعيين وشخصيات يعرفها الرأي العام لنزاهتها، ويجب أن تتمتع بسلطة أخلاقية تتيح لها نفاذًا أكبر نحو المعلومات، وأمنًا أكبر أو حماية للخوض في مواضيع حساسة، وبالتالي يكون لها أثر أكبر في التقارير التي تنتجها[9]. وبفضلها، تتعلم الديمقراطيات الناشئة مواجهة السنوات السوداء في تاريخها.

---

(8) Pierre Hazan, «Les dilemmes de la justice transitionnelle,» *Mouvements*, no. 5 (janvier 2008), pp. 41-47.

(9) Priscilla B. Hayner, «Fifteen Truth Commissions-1974 to 1994: A Comparative Study,» *Human Rights Quarterly*, The Johns Hopkins University Press, vol. 16, no. 4 (novembre 1994), pp. 597-655.

كانت أول لجنة شُكلت لوضع أساس ذاكراتي مشترك هي «اللجنة الوطنية لتقصي حالات المفقودين» في بوليفيا عام 1982، حيث حققت في وضع 155 شخصًا فقدوا بين العامين 1967 و1982، لكن نقصتها الإمكانات، وكان تكليفها يستثني التحقيق حول بعضٍ أوجه قمع الدولة مثل التعذيب، أو عمليات التوقيف غير الشرعية والطويلة. وأُقر قانون للعفو عام 1982 وحُوكِم الدكتاتور السابق غارسيا ميزا (Garcia Meza) ووزير خارجيته لويس أركي غوميز (Luis Arce Gomez) بالسجن فقط لثلاثين سنة، عام 1992.

في الأرجنتين كان تفويض «اللجنة الوطنية حول اختفاء الأشخاص «التي شكلت عام 1983 محدودًا، ولكن تدعمه إرادة سياسية حقيقية، وقد كشفت النقاب عن اختفاء أكثر من 9000 شخص. وصدر الحكم بالسجن المؤبد على زعماء الدكتاتورية العسكرية الرئيسيين في العام 1985، ومن بينهم الجنرال فيديلا (Videla) والأميرال ماسيرا (Massera). وفي عام 1986، أُقر القانون المسمى «النقطة النهائية»، وفي السنة التي تلتها حاول القانون المسمى «واجب الطاعة» أن يضع حدًّا لاتهام ضباط من زمن الدكتاتورية. وفي أيار/ مايو 2003، أعلن الرئيس نستور كيرشنر (Nestor Kirchner)، بعيد انتخابه، أنه سيضع حدًا للإفلات من القصاص. واعتبرت المحكمة العليا القوانين غير دستورية في حزيران/ يونيو 2005. وبعد ثلاثة أشهر، تم توقيف 45 عسكريًّا سابقًا، كانت إسبانيا طالبت بتسليمهم، وألغي المرسوم الذي يحظر تسليم مجرمي الدكتاتورية.

أتت الدكتاتورية العسكرية البرازيلية من 1964 إلى 1985 قبل دكتاتورية الضباط الأرجنتينيين والتشيليين. وكان الضحايا أقل من ضحايا البلدين الآخرين، إذ بلغ 500 قتيل ومفقود و50.000 سجين سياسي. وفي آب/ أغسطس 1979، أتاح «قانون العفو عن الجرائم السياسية وملحقاتها» عودة المنفيين السياسيين إلى البرازيل، لكنه كان يحمي أيضًا الجلادين. وكان هذا النوع من العفو الذاتي يمنحه العسكريون لأنفسهم، وشكل مرحلة ضرورية نحو استعادة النظام المدني وعودة المعارضين المنفيين. لكن عائلات الضحايا طلبت إعادة النظر في القانون كي يستطيعوا محاكمة الجلادين السابقين، وهذا

ما منحهم إياه الرئيس لولا (Lula) عام 2010. ونلاحظ أن البرازيل هي البلد الوحيد حاليًا في أميركا اللاتينية الذي لم يطالب بأي محاسبة لعسكرييه إبان فترة الدكتاتورية.

اختتمت الدكتاتورية التشيلية (من 1973 إلى 1989) بقانون عفو أصدره الجنرال بينوشه (Pinochet) نفسه. وقد جمع قرار ريتيغ (Rettig) للجنة الوطنية «الحقيقة والمصالحة» الذي وُضِع في أثناء عودة الديمقراطية في 25 نيسان/ أبريل 1990، بين مضطَهدين سابقين وموالين للدكتاتورية. وأحصت اللجنة 2279 قتيلًا ومفقودًا. وتحاشت الوثيقة بعناية ذكر كلمة «دكتاتور»، ولم يُتهم أحد إسميًا. ولكن حوكم بعض القادة وأدينوا، ومنهم رئيس الاستخبارات، جراء عملية اغتيال الوزير السابق أورلاندو لوتولييه (Orlando Letelier) في واشنطن. وفي ما بعد، تحت رئاسة الرئيس لاغوس (Lagos) في 2004، أحصى تقرير اللجنة التي كان يرأسها سيرجيو فاليش (Sergio Valech) والمسمى «تقرير اللجنة الوطنية حول الاعتقال والتعذيب» (كلمات أكثر فجاجة)، 29.000 ضحية من بينها 3000 قتيل ومفقود. وأوقفت العدالة في أول أيلول/ سبتمبر 2005 أكثر من مئة عسكري وشرطي لارتكابهم أعمال تعذيب. وكان الجنرال بينوشيه على وشك أن يحاكم، لكن في إسبانيا، لقتل رعايا إسبانيين خلال الدكتاتورية، مع أنه كان محميًا بمنصبه كسيناتور مدى الحياة. ولم يُحاكَم في تشيلي، قبل وفاته عام 2006، لكنه كان حينذاك ملاحقًا بتهمة السرقة والتهرب من الضريبة (مال مسروق من الضحايا ومودع في حسابات مصرفية خارج البلد). واليوم؛ تظهر مسؤولية بعض عساكر الدكتاتورية في عمليات اختطاف، منها اختطاف أطفال لعائلات معارضين تم قتلهم. وتبين الحالة التشيلية كيف تحاول العدالة أن تستفيد من حدود قوانين العفو، إما على الصعيد الوطني وإما على الصعيد الدولي.

وفي الأوروغواي، اختتمت دكتاتورية المرحلة من 1973 إلى 1985 بقانون 1986 المسمى بـ «بطلان المطالبة بعقاب الدولة». ولم تكن مهمة اللجنة الوطنية للتحقيق عن حالات الاختفاء التقصي عن الاعتقالات غير القانونية، وهي متكررة مثل حالات الخطف، وكانت نتائجها محدودة. ففي

نيسان/ أبريل 1989، عدل الأوروغوانيون عن إلغاء هذا القانون من خلال استفتاء، خوفًا من عودة العسكر. وكان يجب انتظار العام 2006 لمشاهدة أولى المحاكمات، أي بعد مرور خمس وعشرين سنة على نهاية الدكتاتورية. وفي أب/ أغسطس 2006، التمست النيابة العامة السجن لمدة خمس وأربعين سنة بحق الدكتاتور السابق، الجنرال بوردابيري (Bordaberry). وفي تشرين الأول/ أكتوبر صرحت المحكمة العليا بعدم دستورية قانون العفو، وأدين غريغوريو ألفاريز (Gregorio Alvarez) الرئيس من 1981 حتى 1985 لقتله 37 شخصًا، وحكم عليه بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة. وفي عام 2009، قدمت عريضة جمعت عددًا كافيًا من التوقيعات للمطالبة باستفتاء جديد، لكن إلغاء القانون كان رفض خلال الاستفتاء.

وفي البيرو التي واجهت لمدة طويلة حرب العصابات البالغة العنف لتنظيم «الدرب المشع» (Sentier lumineux)، كما واجهت قمعًا كان على الدرجة ذاتها من العنف (26,000 قتيل)، اعتُمِدَ قانون، كان موضع جدل، تحت حكم نظام ألبيرتو فوجيموري (Alberto Fujimori) عام 1995، وبموجبه حصلت على العفو عناصر قوى الأمن المتهمة أو المحكومة لانتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة باسم مكافحة حرب العصابات. وفي عام 2003، ارتكز تقرير اللجنة حول أعمال العنف التي ارتكبت بين انطلاق مسلحي «الدرب المشع» وسقوط نظام ألبيرتو فوجيموري، على جلسات الاستماع لأكثر من 1700 شخص. وفي عام 2006 صدر حكم بالمؤبد بحق أبيمائيل غوزمان (Abimaël Guzman)، قائد «الدرب المشع»، وفي نيسان/ أبريل 2009، صدر حكم بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة بحق الرئيس السابق فوجيموري لارتكابه جرائم ضد الإنسانية، وهي العقوبة القصوى المطبقة في هذه القضية. ويؤكد الحكم وجود مخطط إجرامي، نفذه جهاز منظم في السلطة كان الرئيس السابق يديره. ويمثل هذا القرار الذي حدد الرئيس السابق شريكًا أساسيًا في الجرائم المرتكبة، إسهامًا كبيرًا في مكافحة الإفلات السياسي من العقاب.

أما في أمكنة أخرى، فتكون القاعدة هي الإفلات من العقوبة. وهذه هي حال غواتيمالا، حيث أسفرت الحرب الأهلية من 1960 إلى 1996

عن 150,000 قتيل و45,000 مفقود. واستمر الحكم الدكتاتوري للجنرال الباراغواني ستروسنر (Stroessner) من 1954 إلى 1989، ثم حُكِمَ غيابيًا عام 1992 لجرائم ضد الإنسانية وللمساس بحقوق الإنسان، وتوفي عام 2006 في المنفى في برازيليا. وفي السلفادور، سقط في الحرب الأهلية من 1979 إلى 1992 أكثر من 70,000 قتيل على الأرجح. وأقر ألفريدو كريستيانو (Alfredo Cristiano) (المنتمي إلى تنظيم أرينا (Arena)، وهي تشكيلة يمينية متورطة مباشرة في بعض المذابح)، قانون العفو عام 1993. وأعاد انتصار اليسار في ربيع 2009 إحياء النقاش حول إلغاء محتمل للعفو.

كيف الحكم؟

اعتمدت الحكومات الانتقالية الديمقراطية قوانين عفو باسم المصالحة الوطنية، لكن المجتمعات المدنية تحتار بين مواقف عدة: الرغبة بطي الصفحة ومحو الآثار المادية؛ أو ذاكرة القمع وإقامة مصالحة ضرورية، مخلصة، أو يفرضها الخوف. لكن جهود أقارب المفقودين، مثل جمعية أمهات المفقودين تحت الدكتاتورية الأرجنتينية، و«مجنونات ساحة أيار/ مايو» التي صاحبتها حاجة «الجيلِ البريء» للمعرفة، الجيل الجديد الذي يريد أن يفهم وأن يتذكر، تمارس ضغطًا على العدالة. وأدت سلسلة من الإجراءات القانونية والذاكراتية على مساحات لا يغطيها القانون (ملاحقة الجنرالات التشيليين والأرجنتينيين لقيامهم بعمليات خطف أطفال، وعمليات احتيال بخصوص حسابات الضحايا المصرفية، والبحث ضد الجنرال ستروسنر عن أموال مختلسة)، أدت إلى إعادة النظر في قوانين العفو، وإلى عمليات بحث قانوني للمسؤولية، وأحيانًا إلى نبش مقابر جماعية. وأخيرًا، يناضل الحقوقيون من أجل الإقرار بأن القوانين الوطنية لا يمكنها العفو عن جرائم ضد الإنسانية ولأن هذه بطبيعتها لا تسقط مع مرور الزمن، مثلها مثل الاتفاقات الدولية.

ولكن كيف التوفيق بين التسويات الضرورية عند عقد اتفاقات السلام والمصالحة الاجتماعية، مع احترام القانون الدولي؟ الواقع أن الأمم المتحدة منعت وسطاءها من أن يكفلوا عمليات عفو عامة إذا كانت تخص

مرتكبي جرائم ضد الإنسانية[10]. في سيراليون، أقِر العفو العام بعد التصويت في أثناء اتفاقات لومي (Lomé) وشكل شرطًا ضروريًا للخروج من النزاع. غير أن هذا لا يمنع المحكمة الجزائية الدولية اليوم من ملاحقة تشارلز تايلر أو ميلوسوفيتش اللذين كانا يظنان أنهما حصلا على العفو بمجرد توقيع اتفاقات سلام.

أدت عولمة الإجراءات القضائية إلى تناقضات مذهلة، وهكذا لم يستطع القاضي الإسباني غارزون (Garzon) أن يحدد جريمة مسؤولين فرانكيين (نسبة إلى الجنرال فرانكو) إسبان بسبب قانون العفو الذي اعتُمِد عام 1977، لكن القانون الإسباني أتاح له أن يلاحق بينوشيه لاختفاء بعض من مواطنيه إبان الدكتاتورية العسكرية في تشيلي، مع أنه، بحسب قانون العفو التشيلي، يُعدّ الجنرال معفوًّا عنه ومحصنًا بفضل منصبه. ولم تطبق لندن مذكرة التوقيف الدولية التي صدرت بحقه فيما كان موجودًا في بريطانيا العظمى، لأسباب سياسية. ولا يسمح العفو من دون العدالة بتفكيك عدائية الحروب الأهلية. وكما لاحظنا سابقًا، فإن ذاكرة ندوب الحروب الأهلية وثاراتها تستمر في فضاء العائلات المغلق.

يوجد من الآن فصاعدًا نوعان من العدالة في مرحلة الخروج من الحروب الأهلية يمكنهما أن يعملا بالتوازي، هما العدالة الترميمية والعدالة التعويضية.

تركز العدالة الترميمية، وهي اقتصاصية، على المتهمين، والمواجهة بين الدفاع والاتهام. ويعدُّ الإنصاف والمساواة في إجراءات المحكمة، أمورًا أساسية. وتعالج هذه العدالة مسألة «العدو» المذنب، استنادًا إلى الضحايا والعلاقات في ما بينهم وبين مرتكبي الجرائم بحقهم، والجماعة في مجملها. وهدفها إقامة العدل، ولكن أيضًا المصالحة. ويوجد توتر قوي بين العدالة والمصالحة، كما في رواندا حين تورطت شرائح كبيرة من الفئات الاجتماعية في المذابح، خصوصًا لدى الهوتو. وفي هذه الحالة تسمح العدالة الترميمية بعقاب بعض المذنبين (ليس كلهم)، لكن ليس بالمصالحة ضمن جماعة أو أمة. ونشعر بعواقب ذلك في استمرارية الحروب الإثنية في الكونغو اليوم.

---

(10) Hazan, Ibid., pp. 41-47.

أما العدالة الانتقالية أو التعويضية، فإنها من جهتها غير اقتصاصية، بل تقتصر مهمتها على إدارة الانتقال من الحرب إلى السلم أو من نظام استبدادي إلى الديمقراطية. وبإمكانها، بل يجب عليها أن تعالج الإرث الذاكري للإساءات الجماعية. وترتكز على القناعة بأن ضرورة إقامة العدل ليست شيئًا مطلقًا، ويجب أن توازنها الحاجة إلى السلم والديمقراطية والتطور الاقتصادي وتثبيت دولة القانون. كما يرتكز هدفها على مواجهة جماعية لإرث الانتهاكات بشكل كامل يشمل العدالة الجزائية، والعدالة الترميمية، والعدالة الاجتماعية، والعدالة الاقتصادية. وكونها سياسة مسؤولة، عليها أن تحاول اتخاذ إجراءات تسعى في آن إلى إثبات المسؤولية بالنسبة إلى الجرائم التي ارتكبت في الماضي، وأن تمنع حدوث جرائم جديدة، مع أخذ الصفة الجماعية لبعضها بالاعتبار. وتفترض أن الضحية والجلاد يتشاركان في الإنسانية ذاتها: «حتى أسوأ العنصريين يمكنه أن يتطور!»، هذا ما قاله ديسموند توتو الذي كان يرأس اللجنة التي شكلتها جنوب أفريقيا.

أسست لجنة الحقيقة والمصالحة (CVR) في جنوب أفريقيا، وهي أفضل مثال على العدالة الانتقالية، في عام 2001 بعد مؤتمر جمع اختصاصيين من جنوب أفريقيا واختصاصيين دوليين. وبعد المفاوضات بين المؤتمر الوطني الأفريقي (ANC) ونخب البيض القديمة، أسس قانون «تعميم الوحدة الوطنية والمصالحة» لجنة للحقيقة والمصالحة (CVR) تتألف من ثلاث هيئات، الأولى تعنى بانتهاكات حقوق الإنسان التي كلفت بإجراء التحقيقات وتقديم تقرير؛ والثانية تعنى بتعويض الضحايا وإعادة تأهيلهم، وقدمت توصيات حول التعويضات، والأخيرة هي الهيئة التي كان بإمكانها منح العفو لقاء الاعترافات الكاملة للمرتكبين بخصوص أفعالهم الجرمية، إذا أثبتوا أن أفعالهم هذه تتفق مع منطق سياسي. واستمعت لجنة الحقيقة والمصالحة (CVR) إلى جلادين وضحايا من المعسكرين، مع إفساح المجال للضحايا للتعبير علنًا عن ألمهم، وأن يحصلوا على تقدير جماعي، وأن يعرفوا ما جرى لأقربائهم. وكان بعض جلسات الاستماع، خصوصًا تلك التي جمعت بين جلادي وأقرباء الضحايا، لا تُحتمل. وكان العفو الذي منحته لجنة الحقيقة والمصالحة (CVR) مشروطًا بالتعاون الحقيقي للمجرمين في إثبات الحقيقة، وهذه وسيلة لإيجاد اتفاق سياسي بين الضحايا والجلادين على أساس

الحل الوسط. ومع 19.000 شهادة قدمها الضحايا، ومن بين 7100 طلب عفو، استوفت 913 حالة المعايير المطلوبة. وأحرزت لجنة جنوب أفريقيا للحقيقة والمصالحة (CVR) نجاحًا ملموسًا، وكانت مثالًا للمجتمع الدولي. وهي حتى اليوم الوحيدة التي كان لها سلطة عفو.

في رواندا، شُكِّلت عام 1999 الغاشاشا (gachachas)، وهي نوع من المحاكم التقليدية التي تعمل وفق مقاربة جماعتية في تسوية النزاعات، لتكون رديفة للسلطات القضائية الأخرى. وكان الهدف من ذلك مزدوجًا: تسريع الدعاوى وإخلاء السجون من جهة، وإشراك جماعات الهوتو والتوتسي في إثبات الحقيقة بصفتهم شهودًا، ومن خلال انتخاب القضاة. وقد كان حجم الإبادة الجماعية - 800,000 شخص - يصعّب التحقيقات الفردية العميقة، لكن الإدانة، استنادًا إلى وقائع غير مؤكدة، لم تكن كافية لإعطاء جواب مقنع حول هذه الصعوبة. وتتميز الغاشاشا التي انتُقِدت بسبب التقصير في احترام حقوق المتهمين، عن لجان الحقيقة والمصالحة (CVR)، بغياب منهج يهدف إلى إثبات «الحقيقة»، وهي مرحلة مهمة في عملية المصالحة الوطنية. ويبدو أن تعيين أعضاء الغاشاشا عبر الانتخاب لم يَحترم كما يجب الاختلاطَ الإثني الضروري. وكان يمكن لتشكيل لجنة رسمية مكلفة بوضع تاريخ توافقي لسير النزاع أن يمثل حتمًا خطوة إلى الأمام باتجاه المصالحة. وسيكون من المستحيل أن يعاد دمج المجرمين في الجماعة بعفو عام فحسب، أو بإدانة يقوم بها نظام عدالة قصاصية.

تعدّ قواعد العدالة الانتقالية ومبادؤها متعددة القوميات ومتكيفة، أو على الأقل قابلة للتكييف مع المجتمعات الانتقالية كلها. وقد أضحت لجان الحقيقة والمصالحة مكونًا متكررًا لسياسات الخروج من النزاعات والانتقال الديمقراطي، كما أعطت «طوباوية المصالحة» هذه نتائج أكيدة، بحسب كلمات بيار هازان (Pierre Hazan).

وكان بعض لجان الحقيقة والمصالحة عبارة عن أوهام. ففي أوغندا استسلم عيدي أمين دادا (Idi Amin Dada) أمام الضغط الدولي وشكل لجنة تقصٍّ عن

الاختفاءات التي سببها سلفه ميلتون أوبوتي (Milton Obоté) عام 1974. وهي أقدم البنى التي أرادت في هذه الحالة بالتحديد أن تكون «انتقالية»، غير أن تقريرها النهائي لم يُنشر قط. لكننا نستطيع أن نتخيّل حدود «الانتقال» كما كان يتصورها أمين دادا الذي كان قد وصل للحكم لتوّه. وبعد اثنتي عشرة سنة، سيكرر يوويري موسيفيني (Yoweri Museveni) الممارسة ذاتها من دون أن يثير اهتمامًا كبيرًا.

احتفظت «اللجنة الوطنية للحقيقة والعدالة» الهايتية التي كانت تتحرى عن انتهاكات حقوق الإنسان بين أيلول/ سبتمبر 1991 وتشرين الأول/ أكتوبر 1994 بـ 5450 شهادة من عددها الإجمالي البالغ 20,000. ولم يقدم جان برتران أرستيد (Jean Bertrand Aristide) بصورة علنية، النتائج التي توصل إليها، ولم يشرع بملاحقات تطاول المجرمين.

في السلفادور، بعد خمسة أيام من تقديم تقرير اللجنة، أصدرت الحكومة قانونًا للعفو عن «الجرائم السياسية» برمتها. وفي غواتيمالا أعلن الطغاة أنهم سيجعلون السلام يحل على البلاد «حتى إذا وجب تحويلها إلى مقبرة. ومن بين المئتي ألف ضحية، وأغلبهم من السكان المحليين، لم تحصِ «لجنة التوضيح التاريخي» سوى 626 مذبحة ارتكبها الجيش». وبعد سنتين من التحقيقات لم يحاكم أي مسؤول، واغتيل مطران قام بتحقيقات موازية بعد يومين من نشر تقريره.

ليست جلسات اللجان التي يصعب تحمّلها على الصعيد العاطفي بجلسات علاج نفسي فردية أو جماعية. وتهدف المواجهة بين الضحايا والجلادين إلى محاربة «إنكار» العنف، ومكافحة النسيان، ووضع المجتمع أمام تاريخه. وقد شكلت لجان الحقيقة والمصالحة وسيلة فعالة تتمة لأشكال عدالة أخرى، لكنها ليست بحل معجز يمكنه تأمين الوقاية من استمرار المشاعر الحربية وانبعاثها. وهدفها ليس معالجة الأسباب الاقتصادية والسياسية العميقة للنزاعات، بل العمل على تجفيف منابع العداوة داخل المجتمعات الممزقة.

ويطرح الحل المتمثل بلجان الحقيقة والمصالحة سؤالين قوامهما: ماذا عن رؤساء الدول والميليشيات؟ وما دور المجتمع الدولي؟

تبقى مسؤولية رؤساء الدول في لجان الحقيقة والمصالحة كاملة. فلقد عكف بعض لجان الحقيقة والمصالحة بشكل مواز على محاكمات الدكتاتوريين، غير أن بعضهم الآخر لم يقم بذلك. وفي جنوب أفريقيا عبّر بعض الوزراء السابقين عن ندمهم جراء أفعال ارتُكِبت باسم الدفاع عن نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد). ورفض آخرون مثل الرئيس السابق دو كليرك (De Klerk) أن يغيروا ما بأنفسهم، زاعمين أن الحكومات المتتالية لم تشجع التعذيب أو تغطِّه. ولم تُتخّذ عقوبة بحق هذا الرئيس.

ستبقى محاكمة الميليشيات لزمن طويل مسألة سياسة داخلية

تشكلت الميليشيات غالبًا لمكافحة حروب العصابات في لحظات ضعف استراتيجي لدى الدولة، وأحيانًا بدعم من كبار المالكين، خصوصًا في أميركا اللاتينية. وعرف الـ «Sobel»، وهي كلمة استعملها رولان مارشال (Roland Marchal) لتعريف أولئك الرجال المسلحين، والذين يمكن تصنيفهم كفئة تقع بين الجنود والمتمردين، أشكالًا متعددة. ويبدو أن تجريدهم من السلاح في الجزائر لم يشكل أي مشكلة. لكن في الحروب الأهلية في أميركا اللاتينية، حيث كثرت التجاوزات، يكون من الصعب إعادة دمجهم في المجتمع من دون محاكمة. ولا يحصل ضحايا أعمال العنف منهم لا على اعتراف ولا على تعويض حقيقي. وغالبًا لا تتخلى الميليشيات التي شاركت في الاقتصاد غير الشرعي (تهريب المخدرات وابتزاز المال) عن السلاح، وتبيع إمكاناتها العسكرية إلى محتكري المخدرات عندما لا تسيطر هي بذاتها عليهم بشكل مباشر. ومن هنا يصعب محاكمتها لأفعال المساس بحقوق الإنسان خلال الحروب الأهلية، فحسب، باستثناء تهريب المخدرات.

أحصت كولومبيا نحو 32,000 شبه عسكري اعترفوا بـ 165,000 جريمة اغتيال و32,000 حالة اختفاء قسري. ولم تستطع تسوية الأمر. وسُجن 1000 شبه عسكري فقط. وعاد 4000 مُسرَّح إلى حمل السلاح على الأرجح. وحصلت الحكومة على مهلة سبع سنين قبل الموافقة على نص لجنة التحقيق البرلمانية (CPI) لتسوية مسألة الميليشيات. كما تعرضت ساحل العاج المقسمة

بين الجنوب والشمال لإساءات الميليشيات التي ولدت من الحرب الأهلية؛ إذ كان زعماؤهم العشرة من قادة المناطق يسيطرون على 60 في المئة من البلاد و30 في المئة من السكان.

ولم تنته الحرب الأهلية منذ ذلك الحين بالكامل؛ إذ تواصل العنف الاجتماعي أو الإجرامي بشكل آخر.

العدالة الوطنية والدولية: كيف يمكن للمجتمع الدولي أن يتصرف؟

كانت «لجنة الحقيقة والمصالحة» التي أُسست عام 2000 في سيراليون، بعد اتفاقية سلام لومي عام 1999، مفوضة بوضع تقرير تاريخي حيادي حول انتهاكات حقوق الإنسان خلال الحرب الأهلية من 1991 إلى 1999. وكانت الاتفاقية تسمح لها بالتحري عن الأسباب، وطبيعة الانتهاكات الكثيفة ومداها، وبأن تحدد إلى أي درجة كانت هذه الانتهاكات نتيجة لمخطط معين، أو لسياسة انتهجتها الحكومة أو وافقت عليها، أو من فعل مجموعات أو أفراد[11]. وكان يجب انتظار عام 2002 لرؤية تطبيقها الفعلي أخيرًا، على الرغم من تأسيسها بقرار صوّتَ عليه في شباط/ فبراير 2000 (قرار لجنة الحقيقة والمصالحة). وقدمت الصيغة النهائية من التقرير إلى الأمم المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر 2004، وركزت على مساعدة الضحايا أكثر من تركيزها على تفكيك أسباب النزاع. ويوصي التقرير بأن تقدم الحكومة تعويضات لمبتوري الأعضاء، ولضحايا العنف الجنسي، وللأرامل والأولاد المهجرين. وتؤكد اللجنة أن المصالحة هي إجراء طويل.

كانت اتفاقية سلام لومي في سيراليون التي وقعها الرئيس كباح (Kabbah) وفوداي سنكوح (Foday Sankoh) تنص على حصانة عامة من الملاحقات. وكان على بعثتي الأمم المتحدة في سيراليون MONUSIL ثم MINUSIL أن تشرفا على تطبيقها، وخصوصًا نزع السلاح. وفي 5 أيار/ مايو 2000، احتجزت الجبهة الثورية الموحدة (RUF) 500 قبعة زرقاء كرهائن وأطلقت سراحهم بعد عشرين يومًا. وبعد هذا الهجوم، حصلت حكومة سيراليون من الأمم المتحدة

---

(11) www.trial-ch.org/fr.

على الإذن بتأسيس محكمة خاصة TSSL. فأُسِّسَت في كانون الثاني/ ديسمبر 2002، وكان عليها محاكمة المسؤولين عن الجرائم المرتكبة بعد 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1996 (تاريخ اتفاقات أبيدجان). ويذكر قرار تأسيس المحكمة الخاصة أنه: «من المهم احترام القانون الإنساني الدولي و(...) أن من يرتكب أو يبيح ارتكاب انتهاكات خطرة بحق القانون الدولي الإنساني، هو مسؤول عن هذه الانتهاكات بشكل فردي، ولن يتوانى المجتمع الدولي عن بذل كل جهد لمحاكمته وفق المعايير الدولية للعدالة، والإنصاف واحترام الشرعية». إذًا، فإن المحكمة الخاصة ليست محكمة جزائية دولية (Tribunal pénal) مثل محاكم رواندا أو يوغوسلافيا السابقة TPIR وTPIY، وليست محكمة جزائية دولية Cour) (pénale (CPI)، بل هي صلاحية قضائية دولية، وهي نوع من التوافق بين العدالة الدولية التقليدية والعدالة الداخلية. وتُشكَّل المحكمة وفق اتفاق «ثنائي» بين الأمم المتحدة والدولة المعنية، لكنها تبقى مدمجة بالنظام القانوني الداخلي للبلد. كما تُشكل وفق قانون وطني وتوافق على الاتفاق بين البلد والأمم المتحدة. وتكمل المحكمة نظام العدالة المحلي، لكنها تبقى مستقلة عنه. وقد اضطرت المحكمة الخاصة أن تنقل مقرها إلى لاهاي، بعد التهديدات باستئناف الحرب الأهلية. وتحكم في آن على الإساءات التي ارتكبت في سيراليون خلال الحرب الأهلية والتي أقر بها القانون الدولي، وأيضًا على الجرائم الخاصة بالقانون السيراليوني. ومن خلال هذا المزج تسعى المحكمة الخاصة إلى تفادي عقبات العدالة الدولية (البطء، نقص في الفعالية، احترام السرية، الإبعاد عن بلد المنشأ) مع إتاحة إطار مؤسساتي أكثر هدوءًا. وقد سُجن تسعة أشخاص من أحد عشر شخصًا، اتهموا بجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية، وانتهاكات أخرى للقانون الدولي الإنساني، وحُكِم شخصان من بينهم حيث أنزلت بهما عقوبة السجن لمدة خمسين سنة. واستطاع فوداي سنكوح، زعيم الجبهة الثورية الموحدة، أن يفلت من المحاكمة لأسباب صحية. ولكن تلاحق المحكمة الخاصة اليوم تشارلز تايلر الحاكم الأسبق لليبيريا، بتهم القتل، والاغتصاب، وتشويه مدنيين، والعبودية الجنسية المفروضة على نساء وفتيات صغيرات، وتجنيد أطفال لجعلهم جنودًا، والسرقة. وقد وجهت المحكمة الاتهام إليه في 7 آذار/ مارس 2003، وهو أول رئيس دولة أفريقي يُحاكَم.

يثير العمل الموازي للجنة الحقيقة والمصالحة وللمحكمة الخاصة، أحيانًا، بعض المشكلات. فالمحكمة الخاصة لم تسمح لبعض المعتقلين بالإدلاء بشهادتهم أمام لجنة الحقيقة والمصالحة. الحقيقة، الاعتراف، العدالة... يوجد نظام المحكمة الخاصة ذاته في كمبوديا لمحاكمة الخمير الحمر. هذه المحاكم تنعقد إذًا في الموطن الأصلي، لكن قسمًا من القضاة والمدعين هم دوليون ويمكنهم البت وفق قواعد القانون الدولي.

وعليه، تحتل أفريقيا مركزًا طليعيًا جدًا في عمليات المصالحة الجديدة وفي الإقرار بالآليات الدولية للعدالة، وملاحقة رؤساء الدول. وفي المقابل، تبقى قارات أخرى وبعض الديمقراطيات متأخرة جدًا عن الركب، بدءًا من الأقوى بينها.

العدالة الدولية: عدالة الأقوياء

برزت فكرة إنشاء محكمة للبت في انتهاكات القانون الدولي الإنساني غداة حرب 1870، لكنها بقيت حبرًا على ورق. ولقد نصت معاهدة فرساي عام 1919 أيضًا على محاكمة القيصر الألماني بتهمة «ارتكاب جناية عظمى ضد الأخلاقيات الدولية وسلطة المعاهدات المقدسة» من خلال إنشاء محكمة دولية. وكان غيوم الثاني (Guillaume II) منفيًا إلى البلاد المنخفضة التي رفضت تسليمه، وعليه فلم يكن للفكرة أي تتمة. وقد منعت الأمم الحرب شرعًا منذ تأسيس عصبة الأمم (SDN) مع الإخفاق الذي نعرفه؛ وكانت العقوبات المفروضة على اليابان، وإيطاليا في الحروب العدوانية، محاولات للتطبيق، ولم يكن هنالك متسع من الوقت لملاحظة النتائج. وكان لتأسيس الأمم المتحدة رسالة تتمثل بجعل الكوكب آمنًا بعد النزاع العالمي الثاني، لكن أعضاء مجلس الأمن الدائمين منحوا أنفسهم السلطة لمنع المنظمة الدولية من العمل، من خلال حق النقض (الفيتو)، ولم يكن لديهم أي سبب لإقامة عدالة دولية غير عدالتهم.

تُعدّ الجرائم التي ارتكبها النازيون واليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية أول الجرائم التي جرت محاكمتها كجرائم دولية. ولن نتطرق هنا لمحاكم

نورنمبرغ نظرًا لشهرتها. لكن محاكمة طوكيو أقل شهرة[12]. وقد تخلصت اليابان من كل التزام بطلب الصفح بفضل اصطناعين ماكرين: استخدام السلاح النووي ضد مدينتي ناغازاكي وهيروشيما حوّل دورها من مسؤول عن الحرب إلى ضحية. ومن جهة أخرى، ساعدتها صيَغ وإجراءات محاكمة طوكيو على أن تعفو عن نفسها. وكانت هذه المحاكمة فرصة ضائعة لعدالة ملتبسة.

قرر ماك أرثر (MacArthur) إنقاذ الإمبراطور هيرو هيتو (Hiro Hito)، مع أنه مسؤول بشكل كبير عن سياسة طوكيو ذات المنحى الحربي، وذلك لأسباب جيوسياسية. وارتكز القرار الاتهامي، إذًا، على فكرة مفادها أن جوقة عسكرية مجرمة قد تآمرت وسيطرت على السياسة اليابانية، مع استبعاد الإمبراطور. وطبعت نظرية المؤامرة في الذهن فكرة تقول بأن سكان اليابان قد تم التلاعب بهم أيضًا، ولا يمكن أن يعتبروا مسؤولين عن الحرب، وكذا اعتُبر سكان ألمانيا.

اعتمد القرار الاتهامي أيضًا على فكرة الجريمة ضد السلام؛ إذ إن الحرب الهجومية شنت من طرف واحد. وثُبتت تهمة جرائم الحرب بشكل كبير. وكانت نسبة الوفيات في المعسكرات اليابانية للمعتقلين العسكريين أكثر بسبعة أضعاف من نظيرتها في المعسكرات النازية لسجناء الحرب (27 في المئة مقابل 4 في المئة). وقتلت مسيرة الباتان (Bataan) التي فرضت على 85,000 جندي أميركي وفيليبيني، السير مسافة 120 كلم من دون طعام ولا ماء، 8000 شخص مباشرة، و27,000 خلال الأشهر التالية. وكانت نسبة الوفيات لدى السجناء الصينيين أكبر بكثير، نظرًا إلى توجيه من الإمبراطور في 5 آب/أغسطس 1937. وأُخلي سبيل 37,000 سجين من بريطانيا العظمى، و28,500 من البلاد المنخفضة (هولندا) و14,500 من الولايات المتحدة بعد استسلام اليابان، ولم يبق سوى 56 صينيًا. وكانت مذابح السكان المدنيين فظيعة؛ إذ أدت إلى سقوط 200,000 قتيل في أثناء نهب وسلب نانكين و20,000 امرأة مغتصبة أو مقتولة، و130,000 جريمة قتل في الفيليبين، منها 60,000 في أثناء نهب وسلب مانيلا.... وكانت الأمثلة على انتهاكات اتفاقات جنيف كثيرة جدًا (قطع

(12) Étienne Jaudel, *Le Procès de Tokyo, un Nuremberg oublié* (Paris: Odile Jacob, 2010).

رؤوس طياري قاذفات القنابل الأميركية، فرض الأشغال الشاقة على سجناء الحرب، اختطاف نساء كوريات وإرسالهن إلى مواخير الجنود...). لكن بقيت هذه الوقائع مجهولة طوعًا أو كراهية، على نطاق واسع في اليابان وفي البلدان الغربية خلافًا لألمانيا. في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1948 شُنق سبعة محكومين بالإعدام، وهم ستة جنرالات ووزير خارجية سابق. وتم نثر رماد أجسادهم فوق سطح البحر، وكانت هذه النقطة النهائية لمحاكمة «المحرقة المنسية» (الهولوكوست). وفي الاجمال يقدر أن 5700 ياباني قُدموا للمحاكمة وأُعدِم 920 منهم. ومن بين متهمي محاكمات طوكيو، علاوة على أحكام الإعدام السبعة، كانت هنالك سبعة أحكام بالسجن المؤبد، وعقوبة بالسجن عشرين سنة، وعقوبة أخرى بالسجن سبع سنوات. وعاد أكثر المحكومين الذين أخلي سبيلهم بعد بضع سنوات، إلى الحياة السياسية. وتمول المؤسسة الفرنسية - اليابانية ساساكاوا، ويمتلكها أحد مجرمي الحرب السابقين المتورطين في مذبحة نانكين، وهو ناشر لكتب تحريفية[13]، تمول مؤسسة طوكيو، وهي أحد مراكز التفكير اليابانية الرئيسية حاليًا.

وفي محاكمة طوكيو، أكمل عدد القضاة التسعة الذين يمثلون بلاد الحلفاء، قاض فيليبيني وآخر هندي كانت بلادهما ضحية جرائم الجيش الياباني أيضًا. وقد ناقشوا بعض مواضيع الاتهام بحماسة، وتخلوا عن اتهام السلطات اليابانية بتهريب الأفيون. وكانت فرنسا وبريطانيا العظمى هما بذاتهما، قد شنتا على الصين حروب الأفيون لفتح السوق على منتجات مستعمراتهما (الهند وفيتنام). لكن هذا لم يمنعهما من اتهام اليابان.

عبّر القاضي الهندي رادابينود بال (Radhabinod Pal) عن آراء معارضة، وجعل نفسه ممثلًا عن آسيا المُستَعمَرة من طرف الحلفاء. ولفت الانتباه بخصوص الحرب العدوانية إلى أن الحصار الذي قررته القوى ضد اليابان المعتدي على الصين، يعادل مشاركة مباشرة للبلاد الغربية في الحرب. ومن جهة أخرى ادعى أنه من الصعب إثبات جريمة الاعتداء الياباني على فيتنام الفرنسية، إذ إنه كان

---

(13) Shudo Higashinakano, *The Nanking Massacre Facts Versus Fiction*, cité par *le Monde* (23 juin 2010).

هنالك تعاون بين حكومة فيشي ودول المحور. ولفت القاضي الانتباه في مذكرة نشرها عند عودته إلى الهند، إلى أن الحلفاء كانوا هم بذاتهم قوى احتلال واستعمار في آسيا. وأعلن أنه يعارض عقوبة الإعدام التي تطبق على المتهمين. وأصبحت مذكرته العقد المؤسس، نوعًا ما، لتيار المراجعة التاريخية الياباني. وحصل القاضي على شاهدة قبر في معبد يازوكوني (Yazukuni). لم يكن في اليابان، إذًا، عمل على الحقيقة والتكفير عن الذنب، وعلى خلاف ألمانيا، لم يقم البلد أي محاكمة غير محاكمة طوكيو.

يمنع هذا العمى الإرادي المصالحات الإقليمية في آسيا، وهذا ما كانت معاهدة الإليزيه قد سمحت به. لا شيء عن هيرو هيتو، ولا شيء عن الوحدة 731، التي كانت تمارس تجارب على سجناء أحياء لتطوير أسلحة كيماوية، لا شيء عن التعويضات لنساء الترفيه الكوريات. وعليه، فقد ضُحي بالحقيقة على مذبح المصالح الجيوسياسية، ولا تزال النزعة اليابانية التحريفية، مستمرة اليوم، ليس فقط لدى مجموعات اليمين المتطرف كما في أوروبا. ومن بين المتهمين فورًا بعد الحرب، لا يوجد أي رب عمل لـ «zaibatsu»، ونعني بها هذه الشركات الكبيرة التي دفعت باتجاه التوسع. ولقد أُعلن عن جنون منظّر التوسعية شومي أوكاوا (Shumei Okawa)، فأفلت من المحاكمة وأُطلق سراحه من مستشفى الأمراض النفسية بعد بضع سنوات. وأفلت أيضًا من كل ملاحقة ياسوجي أوكامورا (Yasuji Okamura)، مدير مواخير النساء الكوريات المخطوفات، مبتكر السياسة المسماة «الكل الثلاثة: اقتل الكل، أحرق كل شيء، وانهب كل شيء!» أو أيضًا ماسانوبو تسوجي (Masanobu Tsuji)، المسؤول عن مذبحة سنغافورة ومسيرة الموت في باتان.

نلاحظ في الحالات المذكورة هنا، أننا أمام عدالة المنتصر وليس أمام عدالة عالمية. ويختار المعسكر المنتصر عناصر الاتهام ويلاحق المتهمين - وأحيانًا يعفو عنهم - ويستكمل الإثباتات. ومن الصعب نقل هذا الأنموذج، خصوصًا إذا كان المهزوم ديمقراطية كبيرة مسؤولة عن حرب (الولايات المتحدة في فيتنام، أو في العراق، بريطانيا العظمى في العراق، فرنسا في الجزائر...).

المحاكم الدولية المؤقتة: جولة «تسخين» للعدالة الدولية؟

بإمكان العدالة الجزائية اعتبار مهمتها كاملة عندما تصمت الأسلحة، هكذا كانت الحال بالنسبة إلى الأزمة اليوغوسلافية بفضل اتفاقات دايتون، إذ لم يعد العفو يشكل القاعدة الطبيعية لنهاية نزاع ما. ويدّعي سلوبودان ميلوسوفيتش الذي أدانته المحكمة الجزائية الدولية (CPI) أنه حصل على ضمان بالعفو من المفاوض الأميركي ريتشارد هولبروك (Richard Holbrooke)، ومع هذا توفي في السجن في لاهاي. وقد أنشأت الأمم المتحدة في التسعينيات محاكم جزائية دائمة مختلفة (TPI)، ذات صلاحيات محدودة، ووضعت بذلك قضاءً جديدًا يغير شروط النزاعات المستقبلية. وكانت نتائج المحكمة الجزائية الدائمة التي أنشئت عام 1993 في يوغوسلافيا السابقة (TPIY) متواضعة: 48 متهمًا معتقلًا، 31 مذكرة توقيف، 23 أجريت محاكمتهم عام 2009. ولها الفضل بأنها أول محكمة دولية حاولت معاقبة الجرائم الجنسية، كالاغتصاب، والاستعباد الجنسي، والبغاء القسري، والحمل القسري، والعقم القسري، والعنف الجنسي، والاضطهاد المرتكز على الجنس. ولم يوضع قانون رسمي للاغتصاب إلى أن أُقرت اتفاقية جنيف عام 1949 المتعلقة بحماية الأفراد المدنيين خلال فترة الحروب. ولم تأخذ محكمة طوكيو بالاعتبار التهمة المتعلقة بالمواخير التي أنشأها الجيش الياباني مع نساء كوريات مخطوفات. ولغاية اليوم، يغض المجتمع المدني الياباني النظر، ويرفض تعويض «نساء الترفيه» الكوريات.

عرفت المحكمة الجزائية الدائمة لرواندا (TPIR)، التي أُسست عام 1994 في أروشا (Arusha) بدايات غير مشجعة إلى حد ما: 50 متهمًا و9 إدانات فقط. وكانت تعمل بالتوازي مع لجان الغاشاشا، وكانت إعاقتها مزدوجة؛ أولًا لأن النظام الذي أرساه بول كاغامي (Paul Kagamé) قد تخلى بسرعة عن كل طموح ديمقراطي. علاوة على ذلك، أفضى التحقيق القضائي الجاري في فرنسا حول الاعتداء الذي أسقط طائرة الرئيس هابياريمانا والذي ذهب ضحيته طيارون فرنسيون، إلى مذكرة توقيف دولية بحق بول كاغامي. ولقد عدلت فرنسا المخلصة لتقليدها كبلد يعطي الدروس، عن إجراء تحقيقات حول التورط المحتمل لمسؤوليها السياسيين أو العسكريين في دعم نظام الإبادات الجماعية، لكنها استمرت في ملاحقة رئيس دولة رواندا.

يجب على المحكمة الجزائية الدائمة TPI لسيراليون والمحكمة الخاصة TSSL التي أنشئت في كانون الثاني/ يناير 2002 أن تحاكم الجرائم المرتكبة خلال الحرب الأهلية. أنشئت المحكمة الخاصة بلبنان بعد اغتيال رفيق الحريري في 14 شباط/ فبراير 2005. غير أن سورية سحبت جيشها من لبنان، ومن الصعب محاكمة المسؤولين، والتهديدات التي يلوح بها حزب الله بخصوص اتهام بعض أعضائه، يمكن أن تؤدي إلى إشعال فتيل الحرب الأهلية من جديد.

فتح إنشاء هذه المحاكم الدائمة الطريق أمام المحكمة الجزائية الدولية. ولأول مرة في التاريخ، تستطيع محكمة أن تغير قواعد الخروج من النزاعات، وبالتالي تغير العلاقات الدولية.

المحكمة الجزائية الدولية (CPI): تقدم أكيد... لكن من يحاكم من؟

نشأت فكرة المحكمة الجزائية الدولية (CPI) عام 1948 مع الإخفاق الذي نعرفه. وفي المقابل، عكست السنوات التي تلت زوال الاتحاد السوفياتي إرادة بعض المتحاربين والمجتمع الدولي لتصور آليات مصالحة ومحاكمات قادرة على تشريح النوابض التي سببت النزاع.

بعد يوغوسلافيا ورواندا، عام 1993، عرضت لجنة القانون الدولي على الجمعية العامة مشروع محكمة جزائية دولية دائمة. وتبنته 120 دولة في 17 تموز/يوليو 1998 في روما، وهو يحدد سلطات المحكمة المستقلة عن مجلس الأمن والتزاماتها. وجمع الحد الأدنى المفروض من الأصوات أي 60 دولة لدخوله حيز التنفيذ في نيسان/ أبريل 2002. ومنذ عام 2009 أصبحت المحكمة الجزائية الدولية (CPI) تشمل 110 دول أعضاء. وتغطي صلاحياتها نزاعات داخلية ودولية، والجرائم ضد الإنسانية في فترات السلام. وهي ليست محدودة زمانيًا ومكانيًا بخصوص أزمة خاصة. وتستطيع أن تحاكم أفرادًا، وصلاحياتها ليست ذات مفعول رجعي؛ إذ على الجرائم أن تكون قد ارتكبت بعد دخول القانون الذي يخصها حيز التفيذ (أول تموز/ يوليو 2002). وعلى عكس المحكمة الجزائية الدائمة (TPI) تطبق مبدأ التكامل، ولا تتخذ إجراءات الملاحقة إلا إذا كانت الدولة المعنية ليس لديها القدرة ولا الإرادة للقيام بذلك.

كما يجب أن يُستوفى واحد من الشروط الثلاثة التالية: على المتهم أن يكون من رعايا دولة وافقت على النظام الأساسي لاتفاقية روما أو تقبل بالسلطة القضائية للمحكمة الجزائية الدولية (CPI). يجب أن تكون الجريمة قد اقتُرفت على أراضي دولة تقبل بالسلطة القضائية للمحكمة الجزائية الدولية (CPI). أخيرًا لا يمكن أن ترفع دعوى إليها إلا الدول التي وقعت نظام روما، أو المدعي العام أو مجلس الأمن في الأمم المتحدة. ويمكن للمحكمة أن تصدر حكمًا بعقوبة السجن لكن ليس عقوبة الإعدام، على خلاف المحاكم الدولية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

أثارت جريمة العدوان الجدل. وفي غياب التوافق، أُجِّل تعريفها إلى تاريخ لاحق، ما جعلها تتسم بعدم الصلاحية في موضوع الهجوم على العراق. كما أبعِدت عن حقل نشاطها جرائم الإرهاب.

تمثل المحكمة الجزائية الدولية (CPI) تقدمًا ملحوظًا. ولا يأتي ضعفها من النقد الموجه إليها بشكل منتظم، بل من غياب بعض الديمقراطيات الكبيرة عن حقل نشاطها. ويمكن تفهم النقد الاعتيادي الموجه إليها: محاكمات بعيدة جدًا عن الضحايا، وأحيانًا على بعد مئات الكيلومترات من أمكنة الجريمة (أروشا في تنزانيا بالنسبة إلى رواندا، ولاهاي في البلاد المنخفضة بالنسبة ليوغوسلافيا سابقًا)، أو التعاون الدولي الصعب لتوقيف المشبوهين أو حماية الشهود، وهو تعاون غالبًا ما يكون ضعيفًا لأسباب سياسية... ففي جمهورية صربيا، تلاحق المحكمة الجزائية الدولية (CPI) أكثر من مئتي شخص لا تسعى الحكومة المحلية إلى توقيفهم، ولم تعد العدالة المحلية تلاحقهم بعد انتهاء ولاية المحكمة الجزائية الدولية (CPI) أواخر عام 2009.

من بين الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن، وقعت فرنسا وبريطانيا العظمى وحدهما الاتفاقية حول المحكمة الجزائية الدولية (CPI) وأقرتاها. ووقعت روسيا التي توجه إليها انتقادات كثيرة بسبب سلوكها في ما يخص حقوق الإنسان في الشيشان، على اتفاقية التفاهم من دون أن تقرها مع ذلك لاحقًا. أما الصين، فلم توقعها. وتمثل أوروبا أقل بقليل من نصف الدول المشاركة في معاهدة روما، وآسيا هي القارة الأقل تمثيلًا. إضافة إلى الصين،

هنالك قوتان نوويتان لا تدعمان الاتفاقية وهما الهند وباكستان، وكذلك اليابان. وقد أقرت الاتفاقية دولة عربية واحدة فقط هي الأردن. أما إسرائيل التي وقعت الاتفاقية فهي رفضت إقرارها بسبب فقرة تعتبر ترحيل السكان المدنيين في أراض محتلة جريمة حرب. ونلاحظ أن بلدان أميركا الجنوبية وأفريقيا ممثلة بصورة أفضل. وقد رفضت ليبيا أيضًا أن تحاكم محاكم أجنبية مواطنيها بسبب اعتداء لوكربي (270 قتيلًا عام 1988) وطائرة DC10 لشركة الطيران UTA (170 ضحية عام 1989).

كل هذه الانتقادات صحيحة، لكن لا سبيل لمقارنتها مع تبعات موقف مجلس الشيوخ الأميركي الذي رفض الاعتراف بالمحكمة الجزائية الدولية CPI، مع أن الرئيس كلينتون أرادها. فلقد وقع نظام روما الأساسي في 31 كانون الأول/ ديسمبر 2000، في اليوم الأخير قبل انتهاء المهلة. ومنذ استلام حكومة بوش مقاليد الحكم، ألغى هذا الأخير التوقيع. وأطلقت الولايات المتحدة حملة تؤكد فيها أن لدى المحكمة الجزائية الدولية (CPI) الامتياز بتوجيه الاتهام إلى مواطنين أميركيين لـ «أسباب سياسية». ومع قرار حماية الموظفين الأميركيين (Act American Servicemen's Protection)، بالغت الولايات المتحدة بموقفها ضد المحكمة الجزائية الدولية (CPI)، حين أجبرت بعض الدول الحليفة أن توقع اتفاقات حصانة ثنائية، وهي نوع من اتفاقات عدم تسليم المواطنين الأميركيين (لدولة أخرى) حتى ولو طالبت المحكمة بذلك. ويتضمن هذا القانون الذي اعتُمد في آب/ أغسطس 2002 أحكامًا تسمح للرئيس باستخدام «كل الوسائل الضرورية والمناسبة» للعمل على إطلاق سبيل المواطنين الأميركيين الذين اعتقلتهم المحكمة الجزائية الدولية (CPI) (ومن هنا تأتي تسمية قانون لاهاي للغزو (Hague Invasion Act)). وفي 15 تموز/ يوليو 2004، أضاف مجلس النواب الأميركي تعديلًا على مشروع قانون مخصصات العمليات الخارجية، المعروف باسم تعديل نيزيركوت (Nethercutt). وتستطيع الحكومة الأميركية أن تسحب مساعدة صندوق الدعم لمساعدة النمو من كل الدول التي وافقت على المعاهدة من دون توقيع مع الولايات المتحدة أي اتفاقية حصانة ثنائية. وقد وقعت اتفاقات الحصانة مع 44 دولة (إسرائيل، البوسنة، ألبانيا، كولومبيا،

توغو..إلخ)، وتعرضت الدول الثلاثون التي قاومت ضغوط واشنطن إلى تهديدات بتخفيض المساعدة العسكرية أو إلغائها.

ولا يطبق بند عدم المساعدة على الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي (OTAN) (ومن بينها أستراليا، مصر، إسرائيل، اليابان، الأردن، الأرجنتين، جمهورية كوريا، نيوزيلندا) وتايوان أيضًا. واستهدفت العقوبات تسع دول أوروبية مرشحة لحلف شمال الأطلسي (OTAN)، وعشر دول أفريقية، وبلدين من المحيط الهادئ، و14 دولة في أميركا الجنوبية[14].

امتد امتياز التشريع ليشمل أعضاء الشركات العسكرية الخاصة الأميركية SMP التي تعمل في العراق وفي أفغانستان. وتُوظف حاليًا 180,000 رجل وامرأة، أي أكثر من الجيش النظامي الذي يعد 160,000 جندي، وهي متعاقدة مع وزارة الدفاع الأميركية في العراق. ويقدر عدد المدنيين العاملين في أفغانستان بـ 104,100 لوزارة الدفاع فقط، حسب تقرير أصدره قسم الدراسات في مجلس الشيوخ الأميركي[15] في تموز/يوليو 2010. وكان عدد القوات العسكرية في الحقبة ذاتها 63,950 جنديًا. وتوجد بعض الشركات على الأرض لحماية المصالح الأميركية الخاصة أو العامة. وفي بعض الحالات، تقوم بأعمال قتالية لمساعدة القوات النظامية من خلال غارات جوية هجومية تنظمها الاستخبارات الأميركية CIA أو القوات الخاصة.

وفي هذا السياق، أسفر تبادل إطلاق النار الذي سببه موظفو بلاك واتر (Blackwater) في أيلول/يوليو 2007 عن مقتل 17 عراقيًا وإصابة 20 شخصًا آخرين على الأقل بجروح. ويعدّ هذا أفدح خطأ من بين قائمة طويلة منسوبة للشركة العسكرية الخاصة SMP. وقد تخلى القاضي الفدرالي ريكاردو أوربينا (Ricardo Urbina) عن الملاحقات بحق عناصر ميليشيا بلاك واتر في كانون الأول/

---

(14) بلغاريا، كرواتيا، إستونيا، ليتوانيا، ليتونيا، مالطة، صربيا - مونتينيغرو، سلوفاكيا، سلوفينيا، وعشرة بلدان أفريقية - بنين، جمهورية أفريقيا الوسطى، ليسوتو، مالاوي، مالي، ناميبيا، نيجيريا، جنوب أفريقيا، تنزانيا، زامبيا - أنتيغوا، بربادوس، بيليز، البرازيل، كولومبيا، كوستا ريكا، الدومينيك، الإكوادور، باراغواي، البيرو، سان فنسان وغرونادين، ترينيداد وتوباغو، الأوروغواي، فنزويلا، فيدجي، ساموا.

(15) CRS DoD contractors in Irak and Afghanistan, http://www.fas.org.

ديسمبر 2009 الذي اعتبر أن الإدارة الأميركية التي كانت تلاحق الموظفين لم تحترم حقوقهم الدستورية: «انتهك الأشخاص حقوق الدفاع باستخدامهم الشهادات التي أدلى بها المتهمون مع الوعد بأن شهاداتهم لن تُحفَظ ضدهم!» وكانت الناطقة باسم بلاك واتر آن تيريل (Anne Tyrrell) قد صرحت أن «الموظفين قد تصرفوا وفق القانون بردهم على الهجوم»، وأن «المدنيين الذين أُطلقت النار عليهم، بحسب الرواية، كانوا في الحقيقة أعداء مسلحين، وقام موظفونا بواجبهم للدفاع عن الأرواح». وكانت المذكرة 17 للسلطة المؤقتة التي أصدرها القنصل الإقليمي بول بريمير تكفل للموظفين الحصانة أمام العدالة العراقية. وهكذا؛ استأنفت الشركة نشاطها، على الرغم من أن عناصر عدة متطابقة برهنت أن إطلاق النار لم يكن له أي تبرير عسكري.

ويحصي تقرير لمجلس الشيوخ[16] صدر في تشرين الأول/ أكتوبر 2007، 195 حالة تبادل إطلاق نار خلال الفترة الممتدة من 2005 لغاية أيلول/ سبتمبر 2007، وكانت الشركة متورطة فيها. وفي 163 حالة، كان موظفو بلاك واتر هم الذين بدأوا بإطلاق النار. ويذكر التقرير أيضًا مقتل أحد الحراس الشخصيين لنائب الرئيس العراقي على يد موظف ثمل. وبعد أقل من ست وثلاثين ساعة، منحت الإدارة الأميركية الإذن للقاتل بمغادرة الأراضي من دون أي قلق. ويعتقد أن عائلة الضحية حصلت على مبلغ من المال يراوح بين 15 و20 ألف دولار. ويشير محررو التقرير إلى أنه ليس لديهم أي دليل على أن وزارة الخارجية حاولت السيطرة على «بلاك واتر» أو أنها تساءلت عن عدد حالات تبادل إطلاق النار التي تورطت فيها هذه الشركة. واستمرت الشركة بالعمل حتى أواخر 2008. وفي آذار/ مارس 2009، فقدت عقد عملها في العراق لمصلحة شركة مستنسخة هي Triple Canopy. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2009، أدخل بند إلى قانون تمويل ميزانية الدفاع، يخضع المقاولين من الباطن في القطاع الخاص إلى قانون القضاء العسكري والمحاكمة في المحكمة العرفية. وعلى الرغم من أنه تقدم مهم لكنه يبقى عرضة لتأويلات عديدة بحسب المختصين، ولم يطبق

(16) جلسة محكمة لإيريك برانس (*Erik Prince*) أمام لجنة مراقبة إصلاح الحكومة: http://web.archive.org.

حتى اليوم. «تغيرت صناعة الأمن الخاص كليًا مع العراق، ولن نعود أبدًا إلى الوراء»، كما أكد ليون ي. شارون (Léon I. Sharon)، وهو ضابط قديم في القوات الخاصة الأميركية، والذي يقود خمسمئة خفير كردي خاصين في قاعدة بالقرب من بغداد. وهذا شيء مقلق فعلًا.

منذ عام 2004، لم تفتح المحكمة الجزائية الدولية (CPI) سوى أربعة تحقيقات حول جرائم ارتكبت في جمهورية الكونغو الديمقراطية، وفي أوغندا، والسودان وأفريقيا الوسطى. ومنذ وقت قريب، أضيفت سيراليون إلى القائمة. وقد أجريت ثلاثة تحقيقات بطلب من الحكومات المعنية، وأحال مجلس الأمن التحقيق الرابع (السودان) إلى السلطات القضائية، وفي 4 آذار/مارس 2009 أصدرت المحكمة أول مذكرة توقيف لها بحق رئيس دولة، هو الرئيس السوداني عمر البشير، نظير جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في دارفور. وتعتبر بعض البلدان الأفريقية، بحق، «أن العدالة الدولية، كما يبدو، لا تطبق قواعد مكافحة الحصانة، إلا في أفريقيا، كأن لا شيء يحصل في مكان آخر، في العراق، وفي غزة، وفي كولومبيا، وفي القوقاز...». ويمكن لهذه الدول أن تقرر مغادرة المحكمة.

في مقابلة في المجلة الشهرية *le Courrier de l'Atlas* في حزيران/يونيو 2009 يعلن المدعي لدى المحكمة الجزائية الدولية (CPI) لويس مورينو أوكامبو (Louis Moreno Ocampo) لأول مرة، دراسة إمكانات الملاحقة لمذابح المدنيين التي ارتكبت في غزة في كانون الثاني/يناير 2009، لكن كيف يمكن استثناء فلسطين من السلطة القضائية للمحكمة الجزائية الدولية (CPI)، «ببساطة لأنها 'ليست دولة بالضبط'، في حين أن لا أحد غير هذه السلطة يمكنه التدخل لمصلحتها؟». يخشى إذًا أن السلطات القضائية الوطنية لا تتبع دومًا طلبات المحكمة الجزائية الدولية (CPI) حين لا تقرر السلطات العامة، هي بذاتها بلا قيد ولا شرط، أن تستغني عنها.

من المحتمل أن تبقى العدالة الدولية، ولزمن طويل، عدالة لا تختص سوى بالضعفاء، وبقادة الحرب أو برؤساء دول العالم الثالث، وأساسًا الأفريقيين.

نوابض الحرب دائمًا مشدودة

ليس هنالك حل غير العنف بالنسبة إلى مطلب التحرر الذي يعبر عنه الخاضعون للاحتلال

يبقى الحق بالانفصال شيئًا غريبًا تمنحه فقط البلدان الاسكندينافية من دون خلق أزمة مهمة، كما تفعل الدنمارك تدرجًا بالنسبة إلى غروينلاند. وتشكل عمليات الاستقلال الصعبة لتيمور، وكوسوفو، وأريتريا، البراهين العسكرية الأحدث. وستستمر القضية الفلسطينية، والكردية، والتيبتية... إلخ بتوليد كثير من الآلام. ويشكل وضع المقاتل غير النظامي (الموالي أو الإرهابي)، أي المدني من دون بزة رسمية الذي يستخدم السلاح، مسألة دولية مهمة؛ إذ لا تعترف به اتفاقات جنيف ولا قانون الحرب إن لم ينتم إلى دولة مكونة أو إلى جيش نظامي. وبما أنه لا يملك وضع العدو فهو إذًا متمرد، قاطع طرق، مجرم، معرض للإعدام بلا محاكمة أو للمثول أمام المحكمة الجنائية، إلا إذا انتصر. وفي هذه الحال يتطهر من كل جريمة ويصبح رئيس دولة أو حكومة. ويعود سبب استمرار العنف على الأرجح إلى غياب وضع «المتمرد»، وهو مصطلح يتطابق بشكل أفضل اليوم مع مرونة المغاوير المحليين.

الأحادية والمنافسات العالمية

هذه التصورات العقائدية موجودة بين أيدي أفراد تسيطر عليهم فكرة «القوة والسلطان». إن أصل هذا الأنموذج هو غربي لكنه منتشر للأسف في كل مكان. ولا يتوانى الاستراتيجيون الغربيون، على كل حال، بأن يلوموا القوى الصاعدة لاستخدامها هذا الأنموذج، مثلما كان عليه حال الدكتور فرانكنشتاين الذي خانه مخلوقه. وتشكل الأفكار الجديدة حول ندرة الموارد، وحرب المياه، والنزاعات المناخية، الرواية الحديثة لتاريخ معلن عن النزاعات. لا علاقة للقوة مع مستوى المعيشة، ولا مع حقوق الإنسان، وإلا لما كانت البلدان الاسكندينافية، اليابان، سويسرا، وألمانيا تُعّد بين أغنى بلدان العالم. لكن، من الأسهل شن الحرب!

حروب سلطات الأيديولوجيات

تشكل حروب سلطات نُخَب الأيديولوجيات، بالنسبة إلى اليوم وإلى الغد، الأسباب الرئيسة للعنف. ولسنا هنا بصدد إعادة كتابة رواية مقتبسة عن «حرب الحضارات»، وهي عبارة تعبّر عن راحة الضمير الأبدية لدى المجتمعات الغربية التي تظن أن للثقافات الأخرى مطالب عنيفة. يجب على الدراسة النقدية للراديكاليات الدينية كلها أن تتخطى مبدأ الحرية الدينية. وقد بدأت هذه العملية النقدية في فرنسا وأوروبا، ونراها قليلًا جدًا أو لا نراها بتاتًا في أمكنة أخرى (الولايات المتحدة، والعالم العربي - الإسلامي، وإسرائيل).

خاتمة

لكل الأسباب التي ذكرت في هذا الكتاب، سيكون صنع العدو خلال العقود المقبلة قطاع إنتاج ضخم. مع أن الحرب، كما لاحظ سانت إيكزوبيري (Saint-Exupéry)، ليست أمرًا حتميًا، بل هي نابض للسلوك البشري لا نتخلص منها سوى ببذل جهد عظيم من الذكاء. والحرب ليست مغامرة، إنها مرض مثل «حمى التيفوس». ويقدم هذا التشخيص الطبي ميزة الخروج من التحليل الحتمي. ويمكن معالجة أسباب النزاع، لكن المرض يمكن أن يظهر من جديد وفق نوابض غير متوقعة.

إذًا كان يبدو أن هذا النص يوجه انتقادات تجاه الديمقراطيات أكثر من التي يوجهها تجاه الدكتاتوريات، يجب تذكر أن موضوع هذا التأمل هو برهان الآليات التي تؤمّن راحة الضمير لمجتمعاتنا قبل شنّ الحروب والذهاب إلى ساحة الوغى. ومن جهة أخرى، هنالك عادة عند الغربيين لا تصدأ تتمثل بإعطاء الدروس للكون - فالغربيون الذين تسببوا باندلاع نزاعين عالميين، وإبادة عرقية لا مثيل لها، واستعمروا الكوكب، وقادوا حروبًا ذرية وكيماوية - ينبغي أن نذكّرهم ببعض الحقائق. وأخيرًا، لدى المؤلف أمل أكبر في مقدرة المجتمعات الديمقراطية على إصلاح نفسها، مثل إسرائيل(*)، أكثر مما يعول على الحكومات الدكتاتورية. وقد تسببت عملية «الدمقرطة» بالعنف من خلال إعطاء رعايا الإمبراطوريات السابقين الذين كانوا محرومين من التعبير عن «حقوقهم» على الأرض أو على السلطة، وأيقظت توترات كانت الدكتاتورية تسكتها بالقوة، خصوصًا في الجمهوريات السوفياتية السابقة.

(*) استنتاج غريب من كاتب ذكي وكأن إسرائيل ديمقراطية حقًا. إنها دكتاتورية من طراز آخر [المراجع].

يعيش بعض الدول حربًا أهلية مُقَنَّعَة أو حالة سلام عنيف، لأن أمن كل شخص تضمنه أسلحة مجموعته لا الدولة. ويفضي عمل المجتمع الدولي الذي يهدف إلى إعادة تشكيل الدولة من خلال إعطائها احتكار القوة، إلى إعادة إشعال الحرب الأهلية، كما هي الحال في الصومال، وفي أفغانستان، وفي باكستان، وفي بعض الدول الأفريقية. ويجب على الأدوات الفكرية لصانعي السلام في الأمم المتحدة أن تهتم بمعاينة الأزمات أكثر من اهتمامها كما تفعل عادة بعلبة أدواتها للحلول الجاهزة.

لا يشكل السلام النتيجة المضمونة لنزع السلاح أيضًا، فقد حصلت الإبادة الجماعية الأسرع في التاريخ، أي الإبادة الجماعية في رواندا بواسطة الساطور (800,000 قتيل خلال أربعة أسابيع). وتعيش الأزمات الأفريقية على مخزون الحرب الباردة، وللأسف تعمد أكبر ديمقراطية في العالم إلى تجميد الاتفاق حول الأسلحة الصغيرة، وهو شأن ملح.

تجري المذابح اليومية التي تدمي المكسيك بالأسلحة التي تُشترى من العشرة آلاف مخزن كبير لبيع الأسلحة الأميركية على الجانب الآخر من الحدود.

وأخيرًا نرى أن القدرة المذهلة لدى الضحايا السابقين على التحول إلى جلادين، تتيح التفاؤل بمستقبل الجنس البشري، فقد اندلعت الحروب الأهلية في سيراليون وفي ليبيريا لأن ذرية العبيد الذين أعادهم الأميركيون أو البريطانيون إلى وطنهم رفضوا أن يتخلوا عن جزء من السلطة إلى «أبناء البلد». إن المجازر التي ارتكبت في الكونغو من 1996 إلى 2003 هي من نتائج الحملات العسكرية للتوتسي في رواندا المعذبة. والمثل الآخر هو الصعوبة لدى المجتمع الإسرائيلي باحترام حقوق الفلسطينيين. ويقتصر خط الدفاع إذًا على رفض المقارنة، إذ ترفض السلطة التوتسية كلمة «إبادة جماعية» حين يدور الحديث حول الكونغو. ولا يتعلم كل مجتمع إلا من مبالغاته، وليس من المبالغات التي ارتكبت بحقه، والتي يحولها بالأحرى إلى دعوة إلى الانتقام!

وتبدو النتيجة العامة رديئة بالنسبة إلى الديمقراطيات التي ما زالت متشربة بأفكار «القوة». ولن نتكلم على أفعال الحرب (استخدام الأسلحة الكيماوية، الاعتقال والترحيل) التي تبقى خارج السلطات القضائية الدولية، إلا إذا لم تكن من فعل القوى العظمى. فضحايا العامل البرتقالي (الديوكسين) من الفيتناميين،

وهم اليوم أهل لأطفال يعانون من إعاقات شديدة جراء تشوهات ولادية، وهم ضحايا تضخم الأعضاء، وداء الكساح، أو سرطانات الرئة والأمراض الجلدية، وأمراض الدماغ والجهاز العصبي، لم يستطيعوا تلقي التعويض من العدالة الأميركية، في حين حصل عليه الجنود الأميركيون من ضحايا هذا الغاز السام ذاته. ولا مجال اليوم ليمثل الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الابن أو رئيس الوزراء طوني بلير أمام المحكمة الجزائية الدولية (CPI) بتهمة ارتكاب جريمة ضد السلام جراء الهجوم على العراق عام 2003. وقد قامت الديمقراطية البريطانية على الأقل، بإجراء جلسات استماع برلمانية في إطار لجنة شيلكو لكي يوضح رئيس الوزراء موقفه. وأصر مجلس الشيوخ الأميركي على أن يقوم الرئيس كلينتون بالإفصاح عن ندمه علنًا؛ لأنه كذب بخصوص ممارسته للجنس الفموي مع متدربة شابة، لكن لم يطالب بوش بأي شيء لجره البلد إلى حرب مبنية على الكذب. وما زال هذا الأخير يلقي محاضرات عن السلام في أنحاء العالم كله. وكان عقابه البسيط رمية حذاء باتجاهه قام بها رامٍ عراقي كان ينقصه التدريب الكافي.

إن بناء العدو هو عملية اجتماعية وسياسية. وبهذا المعنى تكون مسؤولية النخب السياسية والثقافية أكثر دلالة من طبيعة الأنظمة. ولا توجد عند بعض الدكتاتوريات نوايا حربية، لكن بعض الديمقراطيات التي تنسب لنفسها هوية تبشيرية أو أمنية لديها مثل هذه النوايا. ومن غير المجدي العودة إلى الاعتقاد المعلن دائمًا بأن الأنظمة الديمقراطية هي بطبيعتها سلمية. فهي ليست سلمية إلا وفق الميثاق الاجتماعي الذي نسجته برأيها عبر البناء التاريخي لهويتها. حاولوا إذًا الاعتراض أمام الأميركيين على فكرة «القدر الواضح»(*)! وتنسب الولايات المتحدة لنفسها مهمة أمن عالمي تغطي بشكل غريب مصالحها. وبمقياس أصغر، لا تتألق السياسة الفرنسية في أفريقيا بمساعدتها في عملية «الدمقرطة». والتدخل الأخير في ساحل العاج (نيسان/ أبريل 2011) هو الوحيد الناتج عن ولاية للأمم المتحدة تميل إلى احترام نتائج صناديق الاقتراع. لكن وزن الماضي ثقيل لدرجة أن الشك تجاه أهداف عملية ليكورن (Licorne) لا يزال سائدًا.

(*) التي تبرر الاستعمار والتوسع الأميركي [المترجم].

وفي المقابل، يؤدي الزعماء السياسيون دورًا أساسيًا في آليات التفكيك. فديغول وأديناور (Adenauer)، وويلي براندت (Willy Brandt) يركعون أمام آثار غيتو وارسو، وغورباتشوف ثم بوتين يفتحون الأرشيف السوفياتي بعد الاعتراف بمذبحة كاتين، ونيلسون مانديلا يتخلى عن الانتقام من زعماء نظام الفصل العنصري الأبارتهيد، والبابا يوحنا بولس الثاني يطلب الصفح في 2003 من بنيالوكا، كل هذا يبرهن أنه يمكن لبعض النوابض التقليدية أن تتلاشى عبر الاعتراف بالمسؤولية.

يفترض تخفيض أسباب النزاعات وجود زعماء سياسيين متميزين يقبلون بالتخلي عن رأس المال السياسي، الذي يمكن أن يقدمه خطاب ذو نزعة حربية. ويجب أيضًا أن يكون هنالك تعاون بين النخب المدنية والعسكرية التي يمكنها تغيير العقليات، بصفتها منتجة للأساطير.

يجب على هذا التأمل حول آليات بناء العدو أن لا يؤدي إلى التفكير بأن كل تهديد هو بناء. وسيبقى على سطح كوكبنا دائمًا العديد من كيم جونغ الثاني ومن صدام حسين أو من جورج بوش وطوني بلير. ولا تزال أنظمة عدة في العالم تتسم بانتمائها للتيار «الشميتي» [نسبة إلى كارل شميت]، بل حتى الأنظمة الديمقراطية التي تحتاج أعداء لتوطيد الوحدة الوطنية، ولحشد الرأي العام، ولصرف الانتباه عن المشاكل الداخلية، ولتجنب العودة إلى الضمير، أو ببساطة لتأكيد قوتها...

في المقابل، فإن الذي غاب عن انتباه كارل شميت هو القدرة السياسية على تفكيك العدو. وأوروبا السياسية، وهي كيان يجعل من سلطات ملكية بلدانًا تضامنية تشاركية، ليس لديها أعداء، فهي تبني ذاتها على التوافق وليس على النزاع. «لا نستطيع خداع العنف إلا في حال عدم حرمانه من أي متنفس، وإعطائه شيئًا يضعه تحت أسنانه»، بحسب ما كتبه رينيه جيرار. لكن أوروبا لا ينطبق عليها هذا التعريف. ففي الواقع، من الصعوبة بمكان إقناعها بالتزود بدفاع مشترك.

هذا الكتاب ليس كتابًا يدعو إلى السلام، فقد كتب هوبز (Hobbes): «من دون السيف، فإن المعاهدات ليست سوى كلمات». والنقطة التي أردت لفت الانتباه

إليها هي الوزن المفرط الذي تمثله نظريات القوة التي تلهم الآليات العامة للتأملات الاستراتيجية في الديمقراطيات، والتي تولد نزعة لاواعية إلى الحرب. ومع هذا يمكن التفكير بأن دراسة آليات الكشف عن صنع العدو تساعد ربما في استباق أسباب النزاعات وتقليصها. وأثبت ذلك أحيانًا انضمام بعض البلدان (التي كانت في السابق متنافسة، لا بل وحتى متعادية)، إلى الاتحاد الأوروبي.

الثبت التعريفي

الأبوريجيين (Aborigines): هم السكان الأصليون لأستراليا والجزر المحيطة بها، وتشمل هذه التسمية أيضًا سكان جزر مضيق توريس. يشكل الأبوريجيون حاليًا ما نسبته 2.4 في المئة من مجموع سكان أستراليا. وتستعمل كلمة الأبوريجيين كذلك للإشارة إلى السكان الذين يعيشون في البر الرئيس من أستراليا وتسمانيا وبعض الجزر الأخرى المجاورة.

اتفاقات سايكس بيكو (accords Sykes-Picot): هي اتفاقات سرية وقعت في 16 أيار/ مايو 1916 بين فرنسا وبريطانيا العظمى (بموافقة الروس والإيطاليين) لتقسيم الشرق الأوسط في نهاية الحرب (الرقعة الجغرافية بين البحر الأسود والبحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر قزوين) إلى مناطق نفوذ بين هاتين القوتين على الرغم من الوعود بالاستقلال التي أعطيت للعرب.. بعد تبادل رسائل لأشهر عديدة بين بول كامبون (Paul Cambon)، سفير فرنسا في لندن وسير إدوارد غراي (Edward Grey) وزير الخارجية، وقعت اتفاقية سايكس بيكو بين سير مارك سايكس (Mark Sykes) عن المملكة المتحدة وفرانسوا جورج بيكو (François Georges-Picot) عن فرنسا في داونينغ ستريت.

إيشلون (Echelon): رمز استخدمته لمدة سنوات وكالة الاستخبارات الأميركية للإشارة إلى نظام عالمي لمراقبة الاتصالات الخاصة والعامة طورته الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وبريطانيا في إطار اتفاقية UKUSA، وهي شبكة شاملة تدعمها أقمار صناعية وقواعد تنصت واسعة في هذه البلدان، تتيح التعرض لعمليات النسخ والاتصالات الهاتفية والرسائل الإلكترونية. وهي أقوى شبكة رقابة في العالم حتى اليوم في المجالين العسكري والسياسي.

البلوش (Balush): هو شعب من أصل عربي، يعيش بين باكستان وإيران وجزء من أفغانستان، وكلمة بلوش تعني الرحّل. يبلغ عدد البلوش 5.6 مليون نسمة تقريبًا ويعيشون في بلوشستان، وهي مقاطعة في جنوب شرق باكستان. توجد جماعات من البلوش مهمة في أفغانستان (حوالى 100000 نسمة) وفي إيران (حوالى مليون نسمة) وفي تركمانستان (حوالى 28000 نسمة). ويتكلم البلوش اللغة البلوشية وهي متأثرة باللغتين العربية والفارسية أيضًا.

تظاهرات ومجازر 8 أيار/ مايو 1945: انتفاضات شملت معظم أرجاء الجزائر، ومن أهم المناطق سطيف (عين الفوارة) والمسيلة (المعاضيد وأولاد دراج). تأكد الجزائريون حينئذ أن المستعمر الفرنسي لا يفهم لغة الحوار، وأن كل وعوده وشعاراته بالمساواة والديمقراطية هي شعارات كاذبة، وما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، فكانت الشرارة التي مهدت للثورة الجزائرية. وكانت أكثر المدن تضررًا سطيف، قالمة، وخراطة. قمع الفرنسيون التظاهرات التي نظمها الجزائريون بعنف عبر ارتكاب مجازر في حق السكان الأصليين، واستعملوا فيها القوات البرية والجوية والبحرية، ودُمرت قرى ومداشر ودواوير بأكملها. أسفرت هذه المجازر عن مقتل أكثر من 45000 جزائري أولهم الشاب بوزيد شعال 22 سنة، ودُمرت قراهم وأملاكهم عن بكرة أبيها. وصلت الإحصاءات الأجنبية إلى تقديرات أفظع بين 50000 و70000 قتيل من المدنيين العزل.

حرب جزر المالوين (La guerre des Malouines) **أو حرب جزر الفوكلاند** (Falklands War): جرت في جزر المالوين وجورجيا الجنوبية وجزر ساندويتش الجنوبية، بين الأرجنتين والمملكة المتحدة عام 1982. وانتهى النزاع بانتصار بريطاني أتاح للمملكة المتحدة أن تؤكد سيادتها على هذه الأراضي. ونتيجة لهذه الحرب استطاعت الدكتاتورية الأرجنتينية أن تحصل عسكريًّا على حل يحفظ لها مصالحها، جراء هذا الخلاف مع المملكة المتحدة حول سيادة هذه الجزر التي وضعتها الأمم المتحدة على لائحة الأراضي المتنازع عليها.

حي تل الهوى: يقع في جنوب غرب مدينة غزة. تعرض خلال مجزرة غزة في كانون الثاني/ ديسمبر 2008 إلى دمار هائل بعد القصف المكثف الذي قام به جيش الاحتلال، واعتقل عدد كبير من المواطنين الفلسطينيين. ولغاية تاريخ 16كانون الثاني/ يناير 2009 انتشلت 23 جثة من تحت أنقاض البيوت.

خطة مارشال (Marshall Plan): هي خطة أميركية للمساعدة في إعادة تعمير أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. فضلت إدارة ترومان (Truman) هذه الخطة على خطة مورغنتاو (Morgenthau) التي كانت تسعى إلى تحميل ألمانيا تسديد النفقات. ذكر العديد من الخبراء النتائج الكارثية لسياسة كهذه بعد الحرب العالمية الأولى، إذ إن مسألة التعويضات الألمانية سببت تضخمًا وكبحت الاقتصاد ومهدت الطريق للنازيين ليستولوا على السلطة.

الغولاغ (Le Goulag): مؤسسة مركزية كانت تدير معتقلات الأشغال الشاقة في الاتحاد السوفياتي، وكان يحتجز فيها منشقون ومعارضون حقيقيون أو افتراضيون من جميع الفئات.

لندنستان (Londonistan): كتاب واسع الانتشار صدر بالإنكليزية في العام 2005 للصحافية البريطانية ميلاني فيليبس (Melanie Phillips) وطبع مرات عدة. تتحدث فيه الكاتبة بصورة تفصيلية وموثقة عن مخاوف المواطن الإنكليزي وريبته في شأن انتشار «الإرهابيين» من اليمين الديني الإسلامي المتطرف داخل بريطانيا وتمركزهم في العاصمة لندن وفي مانشستر. والكتاب، بمجمله، اتهام ضمني للحكومات البريطانية برعاية الجماعات الإرهابية من خلال ما تقدمه لهؤلاء «اللاجئين» من معونات وحماية وخدمات اجتماعية ومالية.

المحكمة الدائمة للتحكيم (PCA): هي منظمة دولية مقرها في لاهاي في هولندا، تقدم للمجتمع الدولي خدمات متنوعة في مجال حلّ النزاعات. أسست عام 1899 عقب مؤتمر لاهاي للسلام، لتعمل بموجب المادتين 20 و29 من اتفاقية لاهاي لتسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية، فهي إذًا أقدم مؤسسة للتسويات

الدولية. وعلى خلاف محكمة العدل الدولية، فإن المحكمة الدائمة للتحكيم ليست مفتوحة للدول فحسب، بل وللأطراف الأخرى أيضًا، حيث إنها تقدم خدمات لتسوية النزاعات المتعلقة بأمور مختلفة تخص الدول والكيانات الحكومية والمنظمات الحكومية الدولية وأطرافًا من القطاع الخاص.

مسادا أو مسعدة بالعبرية: مِصَادَة أو مِتْسَادَاه هو اسم جبل يطل على الساحل الغربي للبحر الميت، شرقي منطقة النقب الصحراوية. ويبلغ علو قمة الجبل 450 مترًا فوق سطح البحر. يوجد على قمة جبل مسادا موقع أثري يحمل الاسم ذاته مكون من بقايا قلعة قديمة وقصر محصن بنيا في نهاية القرن الأول قبل الميلاد بأمر هيرودس الكبير الذي كان آنذاك على رأس مملكة يهوذا. كانت آخر المواقع التي استولت الجيوش الرومانية عليها في حملتها لقمع التمرد اليهودي. وفي عام 73 للميلاد فرض عليها الجيش الروماني حصارًا استمر ثلاثة أشهر تقريبًا. رفض الموجودون في القلعة الاستسلام وفضلوا قتل أنفسهم بعد أن نجحت القوات الرومانية في اقتحام تحصينات القلعة.

معاهدة برست ليتوفسك (Brest-Litovsk): وقعت في عام 1918 بين حكومات الإمبراطوريات الوسطى بقيادة الإمبراطورية الألمانية وروسيا البولشفية الفتية التي تمخضت عنها ثورة تشرين الأول/ أكتوبر في روسيا ووضعت حدًّا للمعارك على الجبهة الشرقية. منذ بداية عام 1917 كانت الأغلبية العظمى من سكان روسيا تريد إنهاء الحرب العالمية الأولى. وشكلت الرغبة بالسلام هذه أحد الأسباب المباشرة للثورتين الروسيتين.

معاهدة فرساي (Le traité de Versailles): وهي معاهدة سلام وقعت بين ألمانيا والحلفاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1919 أعلن خلال التوقيع تأسيس عصبة الأمم وحُددت العقوبات بحق ألمانيا وحلفائها. لم تكن ألمانيا ممثلة خلال هذا المؤتمر، حيث حرمت من مستعمراتها ومن جزء من حقوقها العسكرية كما بترت منها بعض الأراضي وفرضت عليها تعويضات اقتصادية ضخمة.

الملتحون (Barbudos): هو الاسم الذي أعطي لرفاق فيديل كاسترو (Fidel Castro) وتشي غيفارا (Che Guevara) خلال الثورة الكوبية عام 1959، لأنه لم يكن لديهم الوقت لحلق لحاهم.

مؤتمر يالطا (1945): اجتماع عقد على شاطئ البحر الأسود بسرية تامة بين رؤساء حكومات الاتحاد السوفياتي جوزيف ستالين والمملكة المتحدة وينستون تشرشل والولايات المتحدة فرانكلين د. روزفلت بهدف اعتماد استراتيجية تنهي الحرب بسرعة وتضع تسوية لمصير أوروبا بعد هزيمة الرايخ الثالث، وتضمن استقرار نظام العالم الجديد بعد النصر.

المولودون من جديد (Born again): حركات مختلفة في الولايات المتحدة. وتشير إلى شخص يعتبر أنه عاش حالة إعادة إحياء روحية بعد أن تصالح مع الله، وبعد إعادة إحياء الروح هذه أصبح اسمه طفل الله. وتستخدم هذه الكلمة خاصة للدلالة على الهداية للدين في البروتستانتية الإنجيلية إشارة إلى أعضاء الطائفة الجدد.

هرمجدون أو أرمجدون (Armageddon): هو جبل صغير في الجليل (جبل مجدو)، وهي كلمة توراتية مذكورة في العهد الجديد للدلالة على مكان رمزي للصراع بين الخير والشر. تستخدم هذه الكلمة غالبًا للدلالة على المعارك الكارثية التي من المحتمل أن تمتد على مستوى الكوكب وتأخذ معنى المعركة الأخيرة.

ثبت الأعلام

ألبيريكو جنتيلي (Alberico Gentili) (1552-1608): كان حقوقيًا إيطاليًا. اتهم بالهرطقة لأنه بروتستانتي فاختار أن يهاجر واستقر في لندن عام 1580، حيث كان له دور مهم بوصفه منظرًا للقانون ومستشارًا ملكيًا. عين أستاذًا للقانون المدني في جامعة أوكسفورد. من أهم مؤلفاته التي أسهمت بشكل كبير في نشأة القانون العام الدولي الحديث **حكم قانون الحرب** (*De jure bellis*). أدرج عناصر من القانون الروماني في التقاليد الحقوقية الإنكليزية.

أندريه ساخاروف (Andreï Sakharov) (1921-1989): اشتهر بأنه عالم فيزياء نووية سوفياتي ناضل من أجل حقوق الإنسان والحريات المدنية والإصلاح في الاتحاد السوفياتي. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1975.

أنطونيو دو أوليفيرا سالازار (António de Oliveira Salazar) (1889-1970): سياسي برتغالي وأستاذ اقتصاد في جامعة كويمبرا. اشتهر رئيسًا لمجلس الوزراء في البرتغال من 1932 إلى 1968. وهو ملهم للنظام الاستبدادي والمحافظ والكاثوليكي والقومي الذي عرف باسم «الدولة الجديدة». وعلى خلاف الدكتاتوريين المعاصرين، لم يركز سالازار على عبادة الشخص وعاش حياة بسيطة ومتقشفة. واعتمد شعار النظام الرسمي: «الله، الوطن، والعائلة».

إيليش راميريز سانشيز (Ilich Ramírez Sánchez) (1949-): معروف باسم كارلوس (Carlos) أو ابن آوى، وهو إرهابي حكمت عليه العدالة الفرنسية بالسجن المؤبد. ويشتهر كارلوس بالاعتداءات التي قام بها في أوروبا، وفي مهارته بالعيش متخفيًا. هو ابن محام شيوعي فنزويلي ثري.

بازيل هنري ليدل هارت (Sir Basil Henry Liddell Hart) (1895–1970): مؤرخ عسكري إنكليزي، استعاد نظريات الجنرال الفرنسي جان باتيست إتيان (Jean-Baptiste Estienne) لإنتاج أعمال موسعة حول نظرية استخدام المدرعات في القرن العشرين. كان ضابطًا خلال الحرب العالمية الأولى. استقال من الجيش عام 1927 وعمل خبيرًا في الشؤون العسكرية في صحيفتي **الديلي تلغراف والتايمز**. توسع في نظرية الاقتراب غير المباشر التي تفضل عرقلة خطوط الإمداد والالتفاف على الهجوم المباشر لمواقع العدو.

برنار هنري ليفي (Bernard-Henri Lévy) (1948–): كاتب فرنسي وشخصية إعلامية، عرف بمناصرته إسرائيل واهتمامه بالمسائل السياسية خصوصًا في البوسنة وأفغانستان.

بيار لوتي (Pierre Loti) (1850–1923): اسمه الحقيقي لويس ماري جوليان فيو، كاتب فرنسي، مارس بالتوازي مع مهنته كاتبًا، مهنة ضابط في البحرية. وعند وفاته حصل على مراسم دفن رسمية كما أصبح منزله في روشفور متحفًا. استلهم لوتي معظم مؤلفاته من رحلاته كبحار، وغالبية رواياته مستلهمة من سيرته الذاتية.

تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) (1939–): باحث وفيلسوف ومؤرخ فرنسي من أصول بلغارية، ومنظّر في الأدب، كرس أعماله منذ الثمانينيات لتاريخ الأفكار، ومشكلات الذاكرة والعلاقة مع الآخر في الأطر التاريخية المختلفة، مثل غزو المكسيك، أو في الأنظمة الشمولية. له العديد من المؤلفات مثل **الأدب والمعنى** (*Littérature et signification*).

توماس ودرو ويلسون (Thomas Woodrow Wilson) (1856–1924): الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة، انتخب لولايتين من 1913 إلى 1921. وهو من أطلق فكرة سلطة التعاون الدولي، أي عصبة الأمم التي لم تنضم إليها الولايات المتحدة. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1919، ودافع عن

فكرة «حق الشعوب في تقرير المصير» في أوروبا، لكن هذه الفكرة لا يمكنها أن تطبق بالمساواة على كل البشر. وهكذا كان التمييز خلال ولايتيه، يشكل القاعدة العامة في الجيش وفي الوظائف الحكومية في الولايات المتحدة.

جاك أنطوان هيبوليت، كونت دو غيبير (Jacques-Antoine-Hippolyte, comte de Guibert) (1743-1790): جنرال عسكري فرنسي ومؤلف في مجال منهته. تأثر نابوليون كثيراً بأعماله في ما يتعلق بتصوراته العسكرية. ومن مؤلفاته كتاب **دراسة عامة في التكتيك** (*Essai général de tactique*) الذي أصدره في لندن.

جاك بريفير (Jacques Prévert) (1900-1977): شاعر وكاتب فرنسي شهير، في **أومونفيل لابوتيت** (*Omonville-la-Petite*). اشتهر في فرنسا والعالم الفرانكوفوني بأسلوبه البسيط في كتاباته وقصائده التي استوحاها من الحياة اليومية، كما اشتهر بكتابته للقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام، ترجمت أعماله إلى لغات عدة.

جان بودريار (Jean Baudrillard) (1929-2007): فيلسوف فرنسي ينتمي إلى تيار ما بعد الحداثة وتوجهاته ماركسية. تأثر بماركس، ونيتشه، وفرويد، وماوس، وليفي شتراوس، وميشال فوكو، وكاستورياديس. من أهم مؤلفاته **نظام الأغراض والمجتمع الاستهلاكي**. اشتهر جان بودريار، المنظر للمجتمع المعاصر، بتحليلاته لوسائل الإعلام والاتصال في زمن ما بعد الحداثة. وترتبط أعماله بالاهتمامات المعاصرة مثل المجتمع الاستهلاكي، العلاقات بين الأزواج، والفهم الاجتماعي للتاريخ من خلال تفسيرات حول الإيدز، والاستنساخ، وقضية سلمان رشدي، وحرب الخليج الأولى، واعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر على مركز التجارة العالمي.

جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (1905-1980): كاتب فرنسي غزير وفيلسوف ملتزم سياسيًا ومسرحي وروائي وكاتب قصة قصيرة وكاتب دراسات، اشتهر بنظرية الوجودية وأيضًا بالتزامه السياسي في اليسار المتطرف. كانت رفيقة عمره

الكاتبة والمفكرة سيمون دو بوفوار (*Simone de Beauvoir*). ومن مؤلفاته الفلسفية **الكينونة والعدم** (1943) (*L'Être et le Néant*)، ومن رواياته **الغثيان** (1938) (*la Nausée*) ومن نصوصه المسرحية **الذباب** (1943)(*Les Mouches*) ، **الشيطان والله** (1951) (*Le Diable et le Bon Dieu*). ونشر في فترة متأخرة عام 1964 سيرة ذاتية عن طفولته بعنوان **الكلمات** (*Les Mots*).

جان جوريس (Jean Jaurès) (1859-1914): سياسي فرنسي كان خطيبًا ونائبًا اشتراكيًّا اشتهر خصوصًا بحبه للسلام ومعارضته للحرب العالمية الأولى. تمزج اشتراكية جان جوريس بين الماركسية والتقاليد الثورية، وقيم الجمهورية الفرنسية وغالبًا ما توصف بالاشتراكية «الإنسانية» بسبب إحالاته المستمرة على إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وعلى الثورة الفرنسية التي كان مؤرخًا لها.

جورج قرم (Georges Corm) (1940-): خبير اقتصادي مختص في شؤون الشرق الأوسط ودول حوض البحر المتوسط، مستشار لدى مؤسسات دولية وشركات ومؤسسات مالية ومصرفية خاصة وعامة. وعضو المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. من أهم مؤلفاته: **المسألة الدينية في القرن الحادي والعشرين**، صدر باللغة الفرنسية عام 2006 ونال عنه جائزة «فينيكس» (Prix Phoenix)، **تاريخ الشرق الأوسط: من الأزمنة القديمة إلى اليوم**، باللغة الفرنسية عام 2007. **أوروبا وأسطرة الغرب**، 2009 باللغة الفرنسية.

جوزيف ريمون ماكارثي (Joseph Raymond McCarthy) (1908-1957): سياسي أميركي شغل منصب سيناتور واشتهر وفريقه بنقدهم اللاذع تجاه الحكومة الفدرالية للولايات المتحدة وحملتهم ضد كل الذين يشتبهون بأنهم شيوعيون أو مناصرون للشيوعية. سميت حملة التحقيقات تجاه هؤلاء المشتبه بهم بـ «صيد الساحرات». واشتهرت هذه الحقبة بتسمية «الخوف الأحمر» (Red Scare)، واتخذت اسم الماكارثية (maccarthysme). وكان ضحيةَ «صيد الساحرات» إعلاميون، وسينمائيون كما اتهم موظفون حكوميون وعسكريون أنهم جواسيس لمصلحة الاتحاد السوفياتي.

جوزيف فيساريونوفيتش ديوغاشفيلي (Joseph (Iossif) Vissarionovitch Djougachvili) المعروف باسم **جوزيف ستالين** (Joseph Staline) (1879-1953): ثوري شيوعي ورجل دولة سوفياتي من أصل جورجي. أرسى في الاتحاد السوفياتي نظامًا دكتاتوريًا فرديًا، وهي فترة ينسب المؤرخون إليه فيها وبدرجات مختلفة، المسؤولية عن وفاة ثلاثة ملايين إلى أكثر من عشرين مليون شخص... أمّم الأراضي وفرض الصناعة بالقوة على الاتحاد السوفياتي من خلال خطط خمسية. وتميز حكمه بالإرهاب والوشاية والإعدامات، وإرسال ملايين الأشخاص إلى معتقلات الأعمال الشاقة في الغولاغ، وخصوصًا خلال التطهيرات الستالينية الكبرى عام 1937.. لكن تبقى ذكراه مرتبطة بانتصار الاتحاد السوفياتي العسكري على ألمانيا النازية. استنكر نيكيتا خروتشوف، في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي سنة 1956، ممارسات ستالين بعد وفاة هذا الأخير.

حنة أرندت (Hannah Arendt) (1906 في هانوفر (ألمانيا) -1975 في نيويورك): فيلسوفة ألمانية حصلت على الجنسية الأميركية واشتهرت بأعمالها حول النشاط السياسي، والشمولية، والحداثة. كانت تصنف نفسها وفق مهنتها، أستاذة النظرية السياسية (political theorist) وليس فيلسوفة. وتذكر رفضها للفلسفة خصوصًا في كتابها **وضع الإنسان الحديث**، حيث تعتبر أن «الجزء الأكبر من الفلسفة السياسية منذ أفلاطون يمكن تفسيره ببساطة كسلسلة محاولات من أجل اكتشاف الأسس النظرية والوسائل العملية لهروب نهائي من السياسة». يحتل فكرها السياسي والفلسفي مكانًا مهمًا في مجال الفكر الحديث، ومن أهم مؤلفاتها: **أصول الشمولية** (1951)، **وأزمة الثقافة** (1961). أثار كتابها **أيخمان في القدس** كثيرًا من الجدل بعد محاكمة **أيخمان** عام 1961.

دايفد إميل دوركهايم (David Émile Durkheim) (1858-1917): هو من مؤسسي علم الاجتماع الحديث. وإذا كان هذا العلم يدين بتسميته لإمانويل جوزيف سييس (Emmanuel-Joseph Sieyès) وانتشر شعبيًا من خلال أوغست كونت (Auguste Comte) منذ 1848، فالفضل يعود إلى دوركهايم

والمدرسة التي أسسها حول مجلة **سنة علم الاجتماع** (*L'Année sociologique*) عام 1898 في الدفع الكبير الذي عرفه علم الاجتماع في نهاية القرن التاسع عشر. نهل معرفته من المدرسة الوضعية (positivisme). وكتب عن ظواهر اجتماعية عديدة من أهمها الانتحار والدين، وأسست كتاباته لعلم الاجتماع الحديث. ومن بين المصطلحات التي ابتكرها «الوعي الجمعي» (conscience collective).

روجيه غارودي (Roger Garaudy) (1914-2012): سياسي وفيلسوف وكاتب فرنسي. كان شخصية مهمة في الحزب الشيوعي الفرنسي لغاية إقصائه عنه عام 1970. بعد ذلك اعتنق الكاثوليكية ثم الإسلام. منذ عام 1996 اشتهر بمواقفه التي تنكر إبادة اليهود (négationnistes)، فصدر حكم بحقه لنكرانه جرائم ضد الإنسانية، والتشهير العنصري، والتحريض على العنصرية. من بين مؤلفاته العديدة، له كتاب بعنوان **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** (*Les Mythes fondateurs de la politique israélienne*)، 1995 /1996.

روديارد كيلينغ (Rudyard Kipling) (1865-1936): عرفت مؤلفاته نجاحًا كبيرًا مثل كتاب **الأدغال** (1894) وكتاب **الأدغال الثاني** (1895). كتب أيضًا الشعر والقصة القصيرة مثل **الرجل الذي أراد أن يصبح ملكًا** (1888). اعتُبِرَ «مبدعًا في فن القصة القصيرة» وطليعيًا في مجال الخيال العلمي، وأحد كبار المؤلفين في مجال أدب الشباب. وهو أول كاتب باللغة الإنكليزية يُمنَح جائزة نوبل في الآداب وأصغر الحائزين على هذه الجائزة سنًّا، إذ كان في سن الثانية والأربعين، لكنه اعتبِر غالبًا «نبي الإمبريالية البريطانية» كما وصفه جورج أورويل.

ريمون كلود فردينان آرون (Raymond Claude Ferdinand Aron) (1905-1983): هو فيلسوف وعالم اجتماع ومؤرخ وصحافي فرنسي. أصبح مع صعود الأنظمة الشمولية مروجًا متحمسًا لليبرالية على عكس تيار الوسط الثقافي الداعي للسلام واليساري المهيمن. ندد آرون في كتابه الأكثر شهرة **أفيون المثقفين** (*L'Opium des intellectuels*) بعمى المثقفين وتساهلهم تجاه الأنظمة الشيوعية،

لكنه حافظ طوال حياته على مواقف معتدلة، ويعتمد المثقفون تعليقاته وشرحه لكارل ماركس وكارل فون كلاوسفيتز وسارتر.

سلوبودان ميلوسوفيتش (Slobodan Milochevitch): ولد عام 1941 في بوزاريفاك (Pozarevac) في يوغوسلافيا (صربيا حاليًّا)، وتوفي في السجن عام 2006 في هولندا. شغل منصب رئيس جمهورية صربيا من 1989 إلى 2000، وخلال هذه الفترة اندلعت حروب يوغوسلافيا التي قضت على جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية الاشتراكية. اتهمته المحكمة الجزائية الدولية بجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية وبالإبادة العرقية. توفي في السنة الخامسة من محاكمته ودفن في بوزاريفاك في صربيا.

سيرغي ميخايلوفيتش أيزنشتاين (Serguei Mikhaïlovitch Eisenstein) (1898-1948): مخرج روسي من الحقبة السوفياتية ويُعدّ غالبًا «أب المونتاج».. كانت بداياته السينمائية عام 1923 مع **يوميات غلوموف** (*Le Journal de Gloumov*) وهو فيلم ساخر قصير. وفي العام ذاته أصدر كتاباته النظرية الأولى عن **المونتاج الجذاب**؛ مخلصًا لمثاليات الشيوعية التي ينادي بها ستالين. ومن أفلامه الشهيرة **المدمرة بوتمكين** و**إيفان الرهيب** في ثلاثة أجزاء بقي الجزء الثالث منه غير منجز. وحصد جائزة ستالين عن الجزء الأول منه.

صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington) (1927-): كان طالبًا لامعًا تخرج في جامعة يال في سن الثامنة عشرة. وبدأ مهنته أستاذًا في جامعة هارفرد، حيث عمل لمدة 58 سنة إلى أن توقف عن التدريس عام 2007. ينتمي إلى التيار المحافظ وكان عضوًا في مجلس الأمن القومي في إدارة كارتر. له سبعة عشر كتابًا وتسعون مقالة علمية بوصفه كاتبًا أو ناشرًا، وتعالج كتاباته مواضيع سياسية مختلفة: السياسة الأميركية، الديمقراطية، السياسة العسكرية، والتنمية. من أشهر كتبه **صدام الحضارات** (*Clash of Civilizations*) الذي ترجم إلى لغات عدة.

صن تزو (Sun Tzu) **أو سون زي** (Sun Zi) **أو سوين تسو** (Souen Tseu) واسمه الحقيقي **سو وو** (Sun Wu) (وكلمة وو تعني العسكري): جنرال صيني من القرن السادس قبل الميلاد (544-496). اشتهر خصوصًا مؤلفًا لكتاب **فن الحرب** (*L'Art de la guerre*) وهو أقدم كتاب معروف في الاستراتيجيا العسكرية. يقتصر هدف الحرب، وهذه هي الفكرة الأساسية للكتاب، على إجبار العدو على أن يتخلى عن المقاومة، حتى من دون قتال، بفضل الحنكة، والتجسس والحركة المستمرة. يتعلق الأمر إذًا بالتأقلم مع استراتيجية الخصم لضمان النصر بأقل خسارة. كَيّفَ العديد من الكتاب أفكار **فن الحرب** لاستخدامها في الاستراتيجيا، وخصوصًا في استراتيجيات الشركات.

فرنسيس فوكوياما (Francis Fukuyama): فيلسوف واقتصادي وباحث في العلوم السياسية. أميركي، يشتهر هذا المفكر الذي له تأثير كبير في أميركا بنظرياته حول نهاية التاريخ، وهو حاليًا أستاذ الاقتصاد السياسي الدولي في جامعة جون هوبكنز في واشنطن العاصمة.. ومن أشهر مؤلفاته التي تتضمن خلاصة فكره والتي أثارت الكثير من الجدل **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** الذي صدر عام 1992 (*La Fin de l'Histoire et le dernier homme*)، ويقول فيه إن تطور التاريخ البشري كصراع بين الأيديولوجيات أشرف على نهايته مع التوافقية حول الديمقراطية الليبرالية التي بدأت بالتشكل بعد نهاية الحرب الباردة.

فريدريش فيلهلم نيتشه (Friedrich Wilhelm Nietzsche) (1844-1900): فيلسوف وشاعر ألماني.. انتقد في أعماله الثقافة الغربية الحديثة ومجمل القيم الأخلاقية والسياسية والفلسفية والدينية السائدة في الغرب، وتصور مجيء رجل خارق ينقذ البشرية ويضع أسس قيم جديدة. من مؤلفاته: **هكذا تكلم زرادشت**.

فريدريك إنغلز (Friedrich Engels) (1820-1895): فيلسوف ومنظر اشتراكي ألماني صديق حميم لكارل ماركس. قام بإنجاز التحرير النهائي للجزءين الثاني والثالث من كتاب **رأس المال** انطلاقًا من المسودات التي تركها ماركس بعد وفاته. في عام 1842 استقر إنغلز في إنكلترا في مانشستر وعمل في شركة

صناعية كان لوالده مصالح فيها، وكتب عام 1845 **وضع الطبقة العاملة في إنكلترا** (*La situation de la classe laborieuse en Angleterre*) أعلن إنغلز مع ماركس البيان الشيوعي سنة 1848.

فريدريك فيلهلم فيكتور ألبريشت (Friedrich Wilhelm Viktor Albrecht) (1859-1941): هو ثالث وآخر إمبراطور ألماني، وتاسع وآخر ملك لبروسيا منذ 1888 إلى حين تنازله عن العرش عام 1918. اتسمت فترة حكمه بتغير تام لسياسة بروسيا التقليدية، إذ تخلى عن السياسة الواقعية لبسمارك من أجل سياسة عالمية توسعية واستعمارية.

فلاديمير إيليتش أوليانوف المعروف باسم **لينين** (1870-1924): ثوري وسياسي روسي. ناضل في حزب العمال الاجتماعي الديمقراطي في روسيا، الفرع الروسي من الأممية الثانية. وفي ما بعد أسس الحزب البولشفي وترأسه، وكان من بين قادة ثورة أكتوبر. وهو مؤسس الاتحاد السوفياتي، أول نظام شيوعي في التاريخ، ومن أهم شخصيات التاريخ المعاصر. له مؤلفات مهمة مستلهمة من الماركسية. ويجد بعض المحللين أن اللينينية هي من أول مظاهر الشمولية؛ لأنها جعلت من النظام الجديد الذي وضعه لينين دكتاتورية من خلال حكم الحزب الواحد.

كارل ريموند بوبر (Karl Raimund Popper) (1902-1994): فيلسوف نمساوي الأصل مختص بعلوم القرن العشرين. انتقد نظرية التحقق من المعنى وابتكر التفنيد معيارًا للتمييز بين العلوم والعلوم الخاطئة (pseudo-science). اختلط بأعضاء حلقة فيينا (المدرسة الوضعية الجديدة) التي أسهمت بشهرته، لكنه لم ينتسب إليها فعليًا. استقر في لندن وعمل أستاذًا في مدرسة لندن للاقتصاد (London School of Economics) وأسس فيها في السنة ذاتها قسم المنطق ومنهجية العلوم. كان عضو الأكاديمية البريطانية.

كارل شميت (Carl Schmitt) (1888-1985): حقوقي اختصاصي في القانون الدستوري، ومنظر، وأستاذ في الحقوق، وفيلسوف، ومفكر كاثوليكي ألماني.

انتسب إلى الحزب النازي منذ عام 1933 وأراد أن يكون الحقوقي الرسمي للرايخ الثالث. أصبح شميت في ما بعد المستشار الحقوقي لجمهورية فايمار من 1920 إلى 1932. يصنف قوميًا وعدوًا للتعددية والليبرالية، وهو معجب بالفاشية الإيطالية. له مؤلفات عدة من أهمها **اللاهوت السياسي**.

كارل فون كلاوزفيتز (Karl von Clausewitz) (1780-1831): هو ضابط ومنظر عسكري بروسي له كتاب مهم في الاستراتيجية العسكرية بعنوان: **عن الحرب**. شكلت كتاباته قاعدة أساسية للنظرية الإستراتيجية الحديثة، وما زالت أفكاره تثير كثيراً من الجدل وتفسيرات متناقضة أحيانًا. اكتُشفت نسخة من كتابه **عن الحرب**، تتضمن بعض الملاحظات المكتوبة بخط اليد، في مخبأ للقاعدة في طورا بورا. يقدم كلاوزفيتز تعريفاً مهماً للحرب قائلاً: «الحرب فعل عنيف يهدف إلى إرغام العدو على تنفيذ إرادتنا»، كما يقول أيضًا: «الحرب ليست إلا استمرارًا للسياسة عبر وسائل أخرى».

كورت فالدهايم (Kurt Waldheim) (1918-2007): دبلوماسي وسياسي نمساوي، شغل منصب أمين عام الأمم المتحدة من 1972 إلى 1981 ثم انتخب رئيسًا فدراليًا لجمهورية النمسا من 1986 إلى 1992.

كولن لوثر باول (Colin Luther Powell) (1937-): جنرال في الجيش وسياسي أميركي، شغل منصب رئيس أركان الجيش ووزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية. قاد الجيش الأميركي وجيوش الحلفاء في حرب الخليج الأولى ضد صدام حسين.

ماو تسي تونغ (Mao Tsé-Toung): رجل دولة وقائد عسكري صيني ومؤسس جمهورية الصين وزعيمها. ولد في شاوشان (Shaoshan) في إقليم هونان (Hu-nan) عام 1893 وتوفي في بيجين في 9 أيلول/ سبتمبر عام 1976. عرف كالزعيم الأكبر خصوصًا خلال حدث المسيرة الكبيرة 1934- 1935. بعد سنوات من المقاومة في وجه قومي كيومينتانغ (Kuomintang) بقيادة تشانغ كاي

تشيك (Tchang Kaï-Chek) وأيضًا في وجه المحتل الياباني خلال الحرب الصينية اليابانية (1937-1945)، استطاع ماو أن ينتصر في المرحلة الأخيرة من الحرب الأهلية الصينية مع انتصار جيش التحرير الشعبي (1949). وأعلن جمهورية الصين الشعبية عام 1949 في بيجين، التي سيصبح رئيسها وزعيمها المطلق من العام 1954 حتى وفاته في العام 1976.

ميخائيل سيرغييفيتش غورباتشوف (Mikhaïl Sergueïevitch Gorbatchev) (1931-): هو رجل دولة سوفياتي ترأس روسيا بين عامي 1985 و1991. كان إصلاحيًا، فتح روسيا على العالم وأسهم بإنهاء الحرب الباردة، مطلقًا في الداخل حركة التحرر الاقتصادي، والثقافي، والسياسي التي اشتهرت باسم البيريسترويكا، والشفافية التي عرفت بالغلاسنوست. وأدى ذلك إلى انهيار أنظمة الديمقراطيات الشعبية في أوروبا الشرقية.

ميشال فييفيوركا (Michel Wieviorka) (1946-): حائز شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية ويُدرّس في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، حيث يدير مركز التحليل والتدخل السوسيولوجي. له مؤلفات عدة في قضايا العنصرية والعنف واختلال الأمن، نذكر منها **فرنسا العنصرية** عام 1999 **والعنف في فرنسا** عام 1992.

نيكيتا سيرغييفيتش خروتشوف (Nikita Sergueïevitch Khrouchtchev): زعيم شيوعي ورجل دولة سوفياتي، حكم الاتحاد السوفياتي بين عامي 1953 و1964، وتميز حكمه بالمعاداة الشديدة للستالينية، وبإرساء الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي، 1971 . أما معركته في مواجهة الولايات المتحدة في ما يعرف بأزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، فإنها اتخذت طابعًا يهدد بنشوب حرب عالمية؛ لأنها أوصلت البلدين إلى حافة الحرب، إلا أن خروتشوف تراجع وسحب الصواريخ السوفياتية من كوبا مقابل تعهد الولايات المتحدة بعدم غزو الجزيرة. في تشرين الأول/ أكتوبر 1964 جُرد خروتشوف من جميع مناصبه، بسبب انفراده بالسلطة خلافًا لمبدأ القيادة الجماعية وفشل سياسته الزراعية.

هنري ميشو (Henri Michaux) (1899-1984): كاتب وشاعر ورسام بلجيكي ناطق بالفرنسية، حصل على الجنسية الفرنسية عام 1955. بدأ بدراسة الطب، لكنه تخلى عن دراسته هذه ليتطوع بحارًا من عام 1920 إلى عام 1921. في العشرينيات، التقى في باريس، حيث أقام حتى وفاته، بكتاب وفنانين عديدين، منهم الشاعر جول سوبيرفييل. من أقواله المأثورة: «يومًا ما سأنتزع المرساة التي تربط قاربي بعيدًا عن البحار».

ويلي براندت واسمه الأصلي هربرت أرنست كارل فرام (Willy Brandt, Herbert Ernst Karl Frahm): رجل سياسة ألماني غربي شغل منصب المستشار الفدرالي من 1969 إلى 1974 على رأس ائتلاف اشتراكي - ليبرالي. كان أول اشتراكي ديمقراطي يصبح رئيس حكومة منذ عام 1930. وشكلت سياسته المنفتحة على الشرق مرحلة جديدة في العلاقات مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وأتاحت له الحصول على جائزة نوبل للسلام عام 1971.

ثبت المصطلحات

إبادة إثنية	Ethnocide
إبادة الثقافة أو قتلها	Culturicide
إبادة جماعية	Génocide
أبارتهايد (نظام الفصل العنصري)	Apartheid
أثننة	Ethnicisation
إثنولوجيا (علم النياسة)	Ethnologie
احتواء (إنكليزية)	Containment (English)
إحيائيون	Revivalistes
إدارة	Administration
إرادة جماعية	Volonté collective
إرهاب مفرط	Hyperterrorisme
أرواحي، إحيائي	Animiste
ازدواجية معايير	Double standard
الأسرة الدولية	Communauté internationale

Armes de destruction massive	أسلحة دمار شامل
Réforme	إصلاح
Dommages collatéraux	أضرار جانبية
Régionalisation	أقلمة
Prolifération	انتشار
Décolonisation	إنهاء استعمار
Lumpenproletariat	بروليتاريا دنيا
Chômage technique	بطالة تقنية
Balkanisation	بلقنة
Structurel	بنيوي
Satellite	تابع
Homogénéisation sociale	تجانس اجتماعي
Législation spécifique	تشريع نوعي
Conception	تصور
Désinformation	تضليل إعلامي
Catharsis	تطهير
Communautarisme	تطيف
Extrapolation linéaire	تعميم خطي
Ratonnade	تعنيف جسدي عنصري

Déconstruction	تفكيك
Suprémaciste	تفوقي
Expiation	تكفير
Manipulation médiatique	تلاعب إعلامي
Fétichisme	تمائمية
Psychodrame	تمثيل نفساني
Expansionnisme préventif	توسع احترازي
Culturalisme	ثقافوية
Bipolarité	ثنائية القطب
Communauté	جماعة
Communauté du renseignement	جماعة المعلومات
Assemblée générale	الجمعية العامة
Fellation	جنس فموي
Etat de nature	حالة فطرية
Cyberguerre	حرب أثيرية
Guerre préemptive	حرب استباقية
Guerre par induction	حرب استقرائية
Guerre civile / Fratricide	حرب أهلية

Guerre froide	حرب باردة
Guerre insurrectionnelle	حرب تمردية
Guerre des tranchées	حرب الخنادق
Droit des peuples à disposer d'eux mêmes	حق الشعوب في تقرير مصيرها
Gouvernance	حوكمة
Péril jaune	الخطر الأصفر
Néo-créationnisme	خلقية جديدة
Le Bien et le Mal	الخير والشر
Sphère d'influence	دائرة النفوذ
Dictature du prolétariat	دكتاتورية البروليتاريا
Démocratisation	دمقرطة
Pays non alignés	دول عدم الانحياز
Etats en déliquescence, Etats destructurés, Etats en échec, Failed states (English)	دول فاشلة
Etat tampon	دولة حاجزة
Etat de droit	دولة القانون
Etat voyou, Rogue State (English)	دولة مارقة
Belli casus (latin)	سبب الحرب (لاتينية)
Paix de satisfaction	سلام الرضى

Autorité	السلطة
Idéocratie	سلطة أيديولوجيا
Paix d'équilibre	سِلم التوازن
Paix d'impuissance	سِلم العجز
Paix d'empire	سِلم الهيمنة
Diaspora	شتات
Totalitarisme	شمولية
Le Malin	شيطان
Missile de croisière	صاروخ بعيد المدى
Endiguement, roll back (English)	صد
Conflit	صراع
Sionisme messianique	صهيونية مسيحية
Rites initiatiques	طقوس التلقين
Cordon sanitaire	طوق صحي
Blogosphère	عالم التدوين
Culte du moi	عبادة الذات
Ennemi héréditaire	عدو وراثي
Contingent	عرضي

Age d'or	عصر ذهبي
Amnistie	العفو
Polémologie	علم الحرب
Futurologie	علم المستقبل
Scientisme	علموية
Processus	عمليّة
Opération Plomb durci	عملية الرصاص المصبوب
Elément	عنصر
Hurbis (latin)	غطرسة (لاتينية)
Ecocide	قتل البيئة
Libricide	قتل الكتاب
Judéocide	قتل اليهود
Bombes à billes	قنابل عنقودية
Bouc-émissaire	كبش الفداء
Entité	كيان
Deux poids deux mesures	كيل بمكيالين
Uti possidetis (latin)	لا مساسية الحدود (لاتينية)
Imaginaire collectif	متخيل جمعي

Pluridisciplinaire	متعدد المجالات
Syndrome de Frankenstein	متلازمة فرانكنشتاين
Intellectuel médiatique	مثقف إعلامي
ANC	المجلس الوطني الأفريقي
Marqueur d'ennemis	محدد الأعداء
Cour Pénale internationale	المحكمة الجزائية الدولية
Axe du Mal	محور الشر
Révisionnisme	مراجعة تاريخية/ مراجعة تحريفية
Think tanks (English)	مراكز التفكير (إنكليزية)
Le Panthéon	مدفن عظماء
Postulats idéologiques	مسلّمات أيديولوجية
Postulat	مسلّمة
Réconciliation historique	مصالحة تاريخية
Islamophobie	معاداة الإسلام، رهاب الإسلام
Antisémitisme	معاداة السامية
Critères	معايير
Régalien	مَلكي
Rival	منافس، خصم

Glacis	منطقة محصنة، منطقة الدفاع الأمامية
Objet	موضوع
Born Again (English)	مولودون من جديد (إنكليزية)
Charte des Nations-Unies	ميثاق الأمم المتحدة
Nouvel ordre mondial	النظام العالمي الجديد
Théorie des jeux	نظرية الألعاب
Hubs	نقاط عقدية جغرافية
Apocalypse	نهاية العالم يوم القيامة، رؤيا أخروية
Intention hostile	نية عدائية
Hérétique	هرطقي
Nécessité	وجوب/ضرورة
Positivisme	وضعية
Dies irae (latin)	يوم غضب (لاتينية)

فهرس عام

-ب-

- ح -

-خ-

-غ-

-ف-

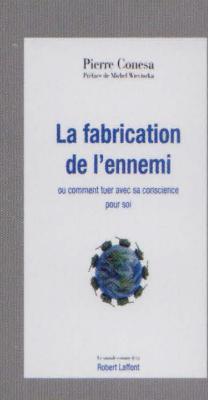
-ق-

-ك-

-ل-

-م-

هذا الكتاب



في العام 1989 قال أرباتوف المستشار الدبلوماسي للرئيس السوفياتي غورباتشوف، مخاطبًا الغرب: «سنسدي إليكم أسوأ أنواع الخدمات، سنحرمكم من وجود عدو».

امتلك «العدو السوفياتي» كل مواصفات العدو «الجيد»: فهو صلب، وثابت، ومتماسك. وقد أدى اختفاؤه إلى فتح ثغرة في تماسك دول الغرب وإلى توهين قوتها.

هل وجود العدو ضرورة؟ إنه على كل حال مفيد جدًا لصهر أمة، ولتأكيد قوتها، ولإشغال قطاعها الصناعي العسكري.

لهذا السبب تقوم الدول، وأجهزة المخابرات، ومراكز التفكير والتخطيط الاستراتيجية، وكل صنّاع الرأي، بالاشتغال الواعي على «صنع» العدو، أكان هذا العدو منافسًا عالميًا (الصين) أم عدوًا قريبًا (الهند - باكستان) أم عدوًا داخليًا حميمًا (رواندا).

المؤلف

بيار كونيسا (Pierre Conesa) باحث وأكاديمي ودبلوماسي فرنسي. شغل منصب مساعد مدير لجنة الشؤون الاستراتيجية في وزارة الدفاع الفرنسية. وهو حاليًا أستاذ في معهد العلوم السياسية. من مؤلفاته **دليل الجنة** (*Guide du paradis*) الصادر عن دار نشر *L'aube* عام 2004 و**آليات الفوضى** (*Les Mécaniques du chaos*) عام 2007.

المترجم

نبيل العجان باحث ومترجم من سورية. حصل على الدكتوراه في الأدب الفرنسي الحديث من باريس. درّس في جامعة دمشق وجامعة ليون الثانية في باريس. من ترجماته: حوارات لمكسيم رودنسون وجيرار خوري بعنوان **بين الإسلام والغرب**.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنتروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 12 دولارًا

ISBN 978-614-445-017-8



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies